نشوء
النخبة الأوروبية
1400 - 1920

وليد نويهض





نشوء
النخبة الأوروبية
1920 – 1400

نشوء
النخبة الأوروبية
1920 – 1400

وليد نويهض



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الطبعة الأولى: تشرين الأول/أكتوبر 2018 م - 1440 هـ

ردمك 9786140235847



كابتال تاور، مركز أبو ظبي للمعارض ADNEC

ص. ب: 27977، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة

هاتف: 6766700 (2-971+) فاكس: 6766972 (2-971+)

بيروت هاتف: 786233 (1-961+) فاكس: 786230 (1-961+)

بريد إلكتروني: smartd_1@eim.ae

تصميم الغلاف: علي القهوجي

المحتويات

المقدّمة

كيف حققت أوروبا نهضتها؟ الإجابة تحتاج عودة تاريخية إلى فترة البدء حتى يتمكن القارئ من التقاط تلك اللحظة الزمنية التي ساهمت في كسر معادلة التوازن بين العالمين العربـي والأوروبـي.

يؤشر الكتاب إلى أن تلك اللحظة بدأت في القرن الخامس عشر، وأخذت بالنمو والصعود الطردي بعد تغيير خطوط التجارة القديمة (طريق الحرير) وعبور السفينة المحيطات، وصولاً إلى الدوران حول رأس الرجاء الصالح واكتشاف أميركا في نهاية ذلك القرن.

بعدها أخذت أوروبا بالنهوض من خلال ما أسماه الكتاب "تعانق العمران مع المعرفة"، ما أدى إلى تشقق الكنيسة في القرن السادس عشر وظهور حالات من التمرد على القديم.

لم يأتِ انهيار القديم من فراغ وإنما جاء استجابة للتحولات العمرانية والاكتشافات والاختراعات العلمية والطبية والفيزيائية والكيميائية والفلكية والهندسية والرياضية وغيرها من إنجازات.

خلال هذه الفترة برز دور "النخبة الأوروبية" فأخذت تكتشف موقعها ووظيفتها، وبدأت تتدخل لصوغ منظومات معرفية تتخطى الفلسفات والمناهج الكلاسيكية المتوارثة والمترجمة عن العرب واليونان. وجاءت قوة "النخبة" من وراء اعتمادها على حاجة العمران وضغوطه ومتطلباته للاستكشاف بحثًا عن الحقيقة (العلة الأولى)، ما أعطى فرصة للتقدم المعرفي الذي أخذ يفرض حضوره في عالم يتغير على مختلف المستويات والقطاعات.

هكذا بدأت أوروبا بالنهوض حقبة بعد أخرى وخطوة خطوة، حتى نجحت أخيرًا في إنجاز مهمتها التاريخية حين اندفعت نحو تغيير القوانين وصوغ الدساتير وإعادة تشكيل الدول، لتدخل بعدها في سياقات معرفية متخالفة، الأمر الذي أدى إلى نشوء حال من الطفرة ما استدعى تكوين مراكز قوى تضغط باتجاه تصدير فائض القوة إلى الخارج حتى لا ينقلب التفوق ويرتد إلى الداخل.

لعبت "النخبة" في هذه المراحل التي امتدت من السابع عشر إلى القرن التاسع عشر سلسلة أدوار متفاوتة، أسهمت في تشكيل المعرفة (الوعي) حتى تكون متجانسة مع تطور العمران وانفلاشه إلى زوايا حادة في تعارضها.

لم تكن "النخبة" موحدة، لكنها كانت مدركة لمسار التطور ونهاياته المتخالفة، ما أسهم في تكوين مدارس فلسفية لا تتفق على تحديد لحظة النهوض، ولا تتوافق على احتواء ذاك الفائض من النمو.

انتهت المسألة إلى إيجابيات وسلبيات. فمن جانب كانت القارة تتقدم عمرانيًّا ومعرفيًّا، ومن جانب كانت تتصدع سياسياً، الأمر الذي شجع على اندفاع "النخبة" والبدء في قراءة معاصرة للزمن وتحولاته (فلاسفة التنوير).

القراءات أيضًا لم تكن موحدة، إلا أنها اتفقت على الجديد وتخوفت من تسارع تداعياته. حصلت انتفاضات وثورات. كذلك حصلت فوضى، ما أعطى ذريعة للارتداد السياسي عن معطيات أخذت تفرض شروطها على الواقع وتحولاته الزمنية في السياقين العمراني والمعرفي.

كانت بريطانيا هي الأولى في إدراك المتغيرات (ثورة كرومويل) بسبب تقدمها العمراني على غيرها من مجتمعات أوروبية. بعدها كانت المفاجأة حين اندلعت ثورة الاستقلال في الولايات المتحدة، ما أعطى قوة دفع سياسية لاندلاع الثورة الفرنسية.

شكلت فرنسا في تلك اللحظة الزمنية نقطة افتراق، إذ انقلبت على النظام الملكي (شبه دستوري) لتدخل فوضى عارمة أعطت ذريعة للجنرال نابليون بونابرت لقيادة الدولة وتطويعها في إطار جمهوري إمبراطوري، ما أعطاه فرصة لخوض حروب ضد أوروبا.

أسهمت الحروب البونابرتية في إعادة ترسيم خريطة القارة السياسية، وشجعت الدول الخائفة على التحالف ضد فرنسا وهزيمتها وإجبارها على توقيع معاهدة فيينا في العام 1815.

بعد تلك المعاهدة ساد الهدوء أوروبا في فضاءات أيديولوجية أخذت ترتد على مفاهيم العدالة والحرية والمساواة التي أنتجتها "النخبة" في فترة انتعاش ذهنية التغيير الشامل.

استقر الوضع وتقلّب إلى العام 1848، ثم أخذ بالتشقق مجددًا (انتفاضات العام 1870) جارفًا معه خلال تلك الحقبة الكثير من القراءات السابقة، معطوفة على قراءات بديلة ظهرت بوادرها ومناراتها الفلسفية من ألمانيا (كانط، فيخته، شيلر، شلنغ، هيغل، ماركس) في محطات متعاقبة منذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر إلى الربع الأخير من القرن التاسع عشر.

تشكّلت في الربع الأخير سياقات متوازنة أحيانًا ومتخالفة أحيانًا أخرى ما أسهم في تصدع القارة من جديد، ودخولها في منازعات استخدمت العلوم المعاصرة لإعادة إنتاج قوى مدججة بالأسلحة أخذت تتدافع لفرض شروطها على الآخر... وانتهت المنافسات إلى مأساة تتوّجت بالحرب العالمية الأولى.

يتوقف الكتاب عند هذه اللحظة الزمنية التي ترتّبت في ضوء تداعياتها نتائج كثيرة تمظهرت في توقيع معاهدة فرساي في العام 1919، وتراجع موقع القارة المركزي وظهور الولايات المتحدة كدولة كبرى على المسرح العالمي.

بين معاهدة فيينا 1815 (هزيمة فرنسا) ومعاهدة فرساي 1919 (هزيمة ألمانيا) اختلطت الأوراق، وأعيد تشكيل خريطة أوروبا مرارًا، ما أعطى المجال الحيوي للنخبة بالتحرك في ميدان المعرفة حتى تستجيب للتحولات المتسارعة في مساحة العمران.

المسألة إذن لم تكن سهلة وبسيطة وساذجة - كما تتوهم بعض شرائح النخبة العربية - في اعتبار أن التحوّل المعرفي دخل في محطات ومتعرجات وارتدادات ترافق مع التقدم العمراني الذي تحقق نتيجة الاكتشافات والاختراعات العلمية وانعكاساتها على حقول التفكر في القارة.

أملت الحاجة هذه صوغ قراءة للرد على تلك الأسئلة: كيف نجحت أوروبا في تحقيق نهضتها؟ ولماذا حققت ذلك التقدم؟ وما هو دور "النخبة" في توسط مسار النهوض والتغلب على الثغرات والعقبات؟

يتوقف الكتاب عند العام 1920، وقد بدأ العمل على تدبير مواده في العام 2006، وتوقف مرارًا حتى أخذت الفكرة بالتبلور إلى أن توضح سياقها العام في 2009، ثم تأخر مجددًا بعد انفجار الهبات العربية في نهاية 2010، الأمر الذي فرض إضافات على نهاية الموضوع حتى يتمتع بحضور مقبول في منطقة لا تزال فيها "النخبة العربية" ضائعة في اكتشاف هويتها، وتائهة في اختياراتها السياسية بين الاستبداد و"الديمقراطية".

كانون الثاني/يناير

2018

1
الطاعون، السفينة والكنيسة

البدايات

النخبة Elite هي شريحة تتشكّل من روافد متخالفة في تكوينها الثقافي وأصولها الاجتماعيّة. فهي عادة أقلّية تُنتقى من مجموعات أهليّة (طوائف، مذاهب، طبقات، أعراق، أديان) نازحة جغرافيًّا من مناطق متباعدة، تلتقي مصادفة في لحظة زمنيّة على مسألة التغيير وتجاوز الواقع الراهن. فالنخب في مختلف المراحل تلعب دورًا في تنوير الحاضر واستكشاف المستقبل من زوايا مختلفة لكونها ليست حزبًا ولا تجمّعًا ولا قوّة سياسيّة موحّدة. فالنخبة دائمًا صاحبة موهبة وتتمتّع بطموحات ليست متّفقة على أرضيّة أيديولوجيّة موحّدة ولكنّها متوافقة على ضرورة التغيير. ويعود اختلاف أنشطة النخبة أساسًا إلى أصولها المتخالفة اجتماعيًّا وثقافيًّا ومناطقيًّا. وأيضًا، إلى تنوّع اهتماماتها وأنماط معاشها ووسائل عيشها. فالأصول الأولى (انتماءاتها) تلعب دورها في تكوينها وتشكيل وعيها، فهناك شرائح من النخب متديّنة، أو مدينيّة، أو ريفيّة، أو أرستقراطيّة (نبلاء)، وغيرها من عائلات متوسّطة الدخل أو معدمة.

فالنخبة ليست طبقة ولا كتلة حزبيّة وإنّما هيئة عليا غير منسجمة في الوعي والتفكير تقوم بدور الموجّه أو المؤثّر على الرأي العام. لذلك تتوزّع أنشطتها واهتماماتها بين السّياسة والتعليم والثقافة والاقتصاد والفكر والإدارة والعلاقات العامّة. كذلك هناك نخبة تتعاطى الفلسفة والموسيقى أو تنشغل بالرحلات والاكتشافات أو الاختراعات في مجالات متنوّعة، من الحقول الطبّية والعلميّة والفلكيّة والاجتماعيّة بقصد بلورة نظريّات أو مدارس أو مشروعات تطمح إلى تعديل التوازنات والهيكليّات ودفعها خطوات إلى الأمام. النخب أيضًا ليست موحّدة في أهدافها وانحيازاتها، إذ منها تأتي المعارضة والموالاة (قادة الأحزاب والحكومات)، ومنها ينهض اليمين واليسار، ومنها تتفرّع قوى الفوضى أو

التيّارات التي ترفد الدولة بالموظّفين (التكنوقراط، البيروقراط)، كذلك تتشكّل منها رموز سياسيّة وأكاديميّة وعسكريّة تشغل مناصب قياديّة عليا في أجهزة الدولة. وهناك نخب تتوظّف في المؤسّسات والشركات والجامعات الخاصّة وتشرف على برامج التخطيط بقصد هندسة وسائل التقدّم والتطوّر في المستقبل.

الشرائح النخبويّة عادة هي تلك المتفوّقة في مجال عملها، ولا تحتاج إلى جماهير للدعم وإنّما إلى مركز قرار يسمح بتحويل أفكارها إلى برامج تطبّق ميدانيًا. فالنخبة تعتبر نفسها أنّها مالكة لمواصفات ذاتيّة لا يتمتّع بها غيرها. قوّتها تأتي من دوافعها وأهدافها الخاصّة لذلك تبحث دائمًا عن ميدان للتحكّم، أو النشر، أو الشهرة، أو تسجيل اختراع، أو تسويق إنتاج بقصد التأثير في أصحاب القرار في السلطة أو الرأي العام.

إلا أن قوّة النخبة وتأثيرها لا يمكن عزلهما عن فضاء العمران. فهي دائمًا تحتاج إلى بيئة حاضنة وجاهزة للاستقبال وتتطلّب درجة معيّنة من الانفتاح والانتباه حتى تستطيع أن تضع تصوّراتها في سياق الاختبار. وحين يتأمّن هذا الرّبط بين الفكرة والواقع تستطيع النّخبة أن تأخذ موقعها الخاص في الفضاء العام إذ تبدأ تكتشف أن ما تخترعه وتفلسفه يجد وظيفته ودوره. هذه العلاقة الجدليّة بين وظيفة النخبة واستعداد العمران لاستقبال الجديد (الحاجة)، تطرح السؤال عن مصدر المعرفة وآليّاتها.

من أين تأتي المعرفة، سؤال بديهي يجب التوقف عنده، كيف تأتي، وما هي مصادرها، وعلى ماذا تعتمد، وأين تتصل بالتاريخ والفضاءات العمرانية (الاجتماعية) ومتى تنفصل عن الزمن وتستقل عن قوانينه؟

لا يأتي الفكر والفن والفلسفة والعلوم من الكتاب فقط، أو من عقل فيلسوف أو عمل فنان، بل إنها نتاج مصادر مركبة من الكلاسيكيات (الموروث التراثي) ومشتقة من حركة الواقع وآلياته العمرانية، وأخيرًا من مخيلة تضع تصورات إصلاحية ومستقبلية. وهذا النوع من التطور الفكري لا يقفز قفزًا بل يتراكم معرفيًّا وتاريخيًّا ويتأثر سلبًا وإيجابًا بالفضاءات الثقافية والسياسية والكونية التي يمر بها المفكر والفنان والفيلسوف. فالنخبة هي نتاج تراكمات وحلقات موصولة زمنيًّا، وحين تتوصل في فترة زمنيّة محدّدة إلى درجة من الاستقلال النسبـي عن الواقع تبدأ في التأثير فيه. وكل فلاسفة أوروبا الكبار مروا بهذه التحولات وانتقلوا أو ارتقوا الدرجات خطوة خطوة. فكل فيلسوف هو نتاج عصره وخلاصة ذهنية متقدمة عن عصر غيره أو من سبقه. ولهذا تنوعت الفلسفة الأوروبية واختلفت وتطورت وتفرعت،

وهي في المجموع العام تدين لتلك الحضارات السابقة من يونانية ورومانية وجرمانية ومسيحية وأندلسية (عربية/إسلامية).

أوروبا المعاصرة ليست بعيدة عن أوروبا القرون الوسطى، كذلك ليست منفصلة زمنيًّا عن أوروبا في عهد الحضارات المتوسطية. كذلك علوم أوروبا وفنونها ومدارسها الفكرية والفلسفية لم تكن بعيدة عن تلك الموروثات التي تجمعت في لحظة زمنية وأعيد إنتاجها في ضوء متطلبات العصر وحاجات القارة في فترة نهوضها التاريخي.

إسقاط دور الزمان وموقع المكان من لحظات إنتاج المعرفة أسهم في تأسيس وعي لا تاريخي تمثل في توهمات أيديولوجية (مقتبسات) تفتقر إلى عمران بشري يحتضنها ويدافع عنها ويعمل على تحقيقها.

فالفكرة لا تأتي من خواء عمراني، والتصورات النظرية وآليات البحث والمناهج لا تخرج مصادفة في هذا الوقت وذاك المكان، فهي تنتج لتلبية حاجات الواقع ومتطلباته. المصادفة أحيانًا تلعب دورها في توفير الفرص للاختراع والاكتشاف إلا أنها ليست كافية لتفسير التطورات والشروط الموضوعية التي تحدد كثيرًا قوانين المعرفة وتشجع على النشاط من أجل إنتاجها.

مسألة المعرفة - إذًا - تتصل بالتاريخ وموقع الأمة في الفضاء الكوني ودورها في التأسيس والقيادة. وكل هذه العناصر مجتمعة تسهم في إنتاج نخبة تندفع نحو الإبداع والابتكار والاكتشاف والاختراع لتلبية حاجات واقع يتغير ويضغط في اتجاه التشجيع على العمل (لا الاتكال) حتى تنسجم المتطلبات مع التطور. في أوروبا، مثلاً، لم تكن القارة دائمًا على سوية واحدة. الاختلافات كانت موجودة ولا تزال. والثقل الحضاري (المركز) كان يتغير زمنيًّا وينتقل مكانيًّا مرة من جنوب شرقي القارة (الحضارة اليونانية) إلى جنوب وسطها (الحضارة الرومانية) إلى جنوب غربها في فترة الحضارة الأندلسية (العربية/الإسلامية). في العصر الوسيط مثلاً غابت القارة عن المشهد الدولي وتراجع دورها التاريخي لمصلحة الحضارة العربية الإسلامية التي قادت التطور لمدة ثمانية قرون متتالية... ثم أخذت في الهبوط لمصلحة عودة أوروبا إلى مسرح التاريخ لتقوده مجددًا.

هذا الحضور والغياب يمكن ملاحظتهما من خلال العمران البشري ودور النخب في القيادة وصناعة التحولات. كذلك لم يتركز المشهد الجديد لأوروبا في مكان واحد بل بدأ من البرتغال وانتقل

إلى إسبانيا وإيطاليا ثم بريطانيا وفرنسا وألمانيا صعودًا إلى دول الشمال، وبعدها انزاح ثقل الحضارة الأوروبية (بشريًّا وعمرانيًّا) إلى العالم الجديد، لتقود الولايات المتحدة (الأوروبية الأصل) المشهد العالمي.

كل هذه التحولات يمكن رصدها من زاويتين: التاريخ (الاجتماع والعمران البشري) والمعرفة (مختلف حقول العلم والفكر والفن والفلسفة). حين يكون العمران في حالات تقدم تتقدم المعرفة، وحين يتراجع أو يتطور أقل من المعدل المطلوب تتراجع المعرفة وتتخلف النخب، ويبدأ الاتكال على إنتاج الآخر واستعارة "الحداثة" من حقول مختلفة. هذا القانون (الارتباط الشرطي بين المعرفة والعمران) لا ينطبق على العرب والشعوب الإسلامية فقط، وإنما يلاحظ وجوده في كل الحالات والحضارات. أوروبا ليست فوق هذا القانون أيضًا. فهي شهدت حالات مشابهة في صعودها وهبوطها ثم صعودها. حتى حين أخذت أوروبا تستعيد زمام المبادرة وتتحول القيادة إليها لم تقفز دفعة واحدة وإنما تطورت خطوة بعد أخرى. المعرفة تتراكم كالعمران، وتتطور وتتكيف وتنمو وتتأقلم وفق ضغوط الحاجة، وما يتطلبه الواقع المتغير من اختراعات واكتشافات ونظريات وتصورات لتلبية الوظائف الجديدة للتقدم.

أنتج العمران الحديث حداثة في التفكير المعرفي. ومن العمران الأوروبـي بدأت شجرة التطور تتقدم وتتسع معتمدة على تربة مزدهرة وغنية بالمواد البشرية والطاقات الخلاقة، ما أسهم في تحسين شروط المعرفة وتفرع نطاق علومها أفقيًّا وعموديًا. فالنخبة الأوروبية لم تسقط في المتخيل الأيديولوجي لأنها كانت نتاج تطور متلازم المسارات، وجاءت تصوراتها المتضاربة تلبـي وظائف متخالفة أخذت القارة تحتاجها.

المعرفة لم تنتج العمران وإنما العكس. تطور العمران الحديث شكل تلك القاعدة التاريخية/ الاجتماعية لنمو حداثة أوروبية في مختلف مدارس الفنون والموسيقى والفلسفة والقوانين ونظريات الاقتصاد وآليات التنظيم وأساليب السيطرة على السوق. وجرى كل هذا التقدم المدني في سياق التحولات التي أطلقت المنافسة بين الطاقات البشرية، فأخذت تتدافع لوضع تصورات عن المستقبل. والنظر إلى المستقبل يعني وفق تاريخ النماذج الأوروبية عدم القطع مع الحاضر وما أنتجه الماضي الإنساني (الإسلامي في طليعته) من ابتكارات ومناهج ودساتير (فقه) ومؤسسات (جامعات وجوامع) وغيرها من تراكمات ثقافية شكلت تلك المنظومة الحضارية الكونية.

استفاد الغالب الأوروبـي آنذاك من المسلم المغلوب في الأندلس، وبنى تقدمه المدني الحديث على مجموعة قواعد متوارثة في بداية انطلاقته المعاصرة. بعدها أخذ الغالب ينفك عن تقاليد المغلوب ليعيد تأسيس منظومته المستقلة بعد عقود متواصلة من التطور التراكمي الخاص[1].

هذا التطور لم يحصل دفعة واحدة. كذلك لم يتحقق في مدة وجيزة. فهو احتاج إلى مسافة زمنية ومساحة جغرافية ليأخذ مداه الحيوي ليتصل ويتواصل ويتفرع إلى مدارس ومناهج مختلفة.

بدأ تطور المعرفة الأوروبية المعاصرة من الكليات النظرية (العام) التي اعتمدت على الموروث، ونزعة تجريبية ازدهرت في مختبرات العلوم والاحتكاك مع الآخر، ثم انتقلت تدريجيًّا إلى العلوم الإنسانية وتحديدًا الفلسفة والتاريخ والاجتماع. وحين أُشبعت الكليات بالكثير من النظريات الحديثة أخذت المعرفة تنتقل إلى التفصيلات والجزئيات (الخاص) فتفرعت إلى مناهج مختلفة في قراءة التاريخ والعمران. واستمرّت هذه الحقبة الانتقالية من الكليات إلى الجزئيات (العيّنات) تعيد إنتاج تصوراتها وتتراكم في مدارس متفاوتة النضج والقيمة إلى حاضرنا. إلا أن الجامع المشترك بين مختلف تلك الفروع والمدارس استمر على ما هو عليه من ناحية المبدأ، أي عدم القطع مع السابق ومواصلة البناء النظري على قاعدة العمران البشري.

الفكر الأوروبـي الحديث لم يسقط من فوق إلى تحت وإنما صعد من تحت إلى فوق. والصعود لم ينقطع عن تطور الاجتماع البشري وحاجاته ومتطلباته. فالفكر الأوروبـي ليس للترفيه والتسلية في المنتديات وإنما كان أصل نهوضه تلبية متطلبات اجتماعية فرضها التطور العمراني.

نجحت المعرفة الأوروبية التي نهضت من تحت (علاقات اجتماع) إلى فوق (دولة) في اختراع وظيفة سياسية/ثقافية لنفسها، ولعبت النخبة دورًا في دفع المفاهيم الإنسانية إلى الأمام، وهي مفاهيم تطرح سلسلة فرضيات تتصل بالإنسان والحرية والحقوق وعلاقة الفرد بالمجتمع وعلاقة المجتمع بالدولة وغيرها من قيم تلطّف نزوع القوة الحاكمة نحو التسلط والاستئثار، وتدعو إلى التسامح والانفتاح وتداول الثروة والسلطة. ونجحت هذه الأفكار المتشعبة، التي تطوّرت في سياق تاريخي متدرج، في الصعود في سلم الحضارة الإنسانية خطوة خطوة، وضمن صيغ متوازنة تضبط إيقاع التقدم للرد على متطلّبات مجتمع الرفاهية، وما يحتاجه من مبادئ تعكس في مضمونها الاجتماعي/الثقافي رفاهية فكرية تلبـي رغبات واقعية أو طموحات مثالية. فالرفاهية الفكرية انطلقت بداية من الفكر السياسي بوصفه يمثل بداية وعي موقع الدولة في التاريخ، ومنه انطلقت النظريات وتفرّعت لتسهم في تأسيس وإعادة تأسيس

مجموعة قيم تطورت خطوة خطوة، إلى أن امتدت فروع شجرة المعرفة وألقت بظلالها على مختلف شعوب العالم التي كانت لا تزال تعيش علاقات ما قبل الدولة (العشيرة، الطائفة، المنطقة، وغيرها).

العرب وأوروبا

إلى أي مدى أسهمت الحضارة الإسلامية - العربية في بعث النهضة الأوروبية، خصوصًا في مجالات الفلسفة والعلوم؟ الجواب لا يزال مدار نقاش، وتتراوح القراءات بين متجاهل يعتمد نهج الإقصاء الكامل، وقائل بتأثير محدود وبسيط، ومعترف بوجود صلة بين نهضة أوروبا ودور الإسلام في إطار حضارات البحر المتوسط.

قبل سقوط الحكم الإسلامي العربـي في الأندلس (العام 1492) توالى على حكمها المرابطون، ثم جاءت دولة الموحدين التي عرفت كيف ترعى الفكر والثقافة وتحضنهما، ومنها انتشر الطب والعلم والفلسفة إلى أوروبا القرون الوسطى، ووصل الجزء الكبير من الميراث العلمي إلى أوروبا من طريق إيطاليا (صقلية) من خلال الترجمة والنقل من العربية إلى العبرية واللاتينية[2].

يبرز هنا دور قسطنطين الأفريقي (المولود في قرطاج، تونس) في ترجمة كتب الطب والفلسفة بسبب إجادته اللغات العربية والعبرية والسريانية والكلدانية واليونانية والأثيوبية والهندية. واهتم قسطنطين بإعادة ترجمة ما توافر من كتب حنين بن إسحق، وعلي بن عباس المجوسي، وإسحق الإسرائيلي، وابن الجزار. وبعده جاء الشريف الإدريسي الذي ولد في سبته في المغرب، ودرس في قرطبة وعاش في صقلية في عهد الملك النورماندي روجر الثاني. وتطورت الترجمة والنقل عن العربية في عهد فريديرك الثاني الذي كان يلم بتسع لغات منها العربية، واستعان بالمترجم يعقوب أناطولي لنقل مؤلفات بطليموس وابن رشد. كذلك اعتمد على المترجم الأسكتلندي مايكل سكوت الذي درس في إسبانيا ونقل الكثير من المؤلفات العربية من مكتبة طليطلة (توليدو). وترجم ليوناردو فيبوناشي، وكان والده مكلفًا بالشؤون القنصلية في الجزائر، الكثير من المؤلفات عن العربية، خصوصًا تلك المتعلقة بالرياضيات والتقنيات التجارية[3].

إلى هؤلاء هناك سلسلة من الحلقات تم خلالها نقل العلوم والفلسفة الإسلامية من العربية إلى اللاتينية وترجمتها، خصوصًا بعد سقوط طليطلة، برز منها جيرار دي كريمون الذي انتقل إلى طليطلة وتعلم العربية وأصبح راعي الكاتدرائية، ونقل كتب الفلسفة والرياضيات والعلوم والطب، واهتم بترجمة

أرسطو وجالينوس وإقليدوس من العربية، كما ترجم رسائل الكندي والخوارزمي والفارابـي والرازي وابن سينا إلى اللاتينية. وأحدثت الترجمات حركة فكرية شاملة أثارت نشاط الرهبانيات الفرنسية، خصوصًا الدومينيكان (الإخوة الواعظون) فاشتهر من بينهم إلبرت الكبير، وهو أستاذ توما الإكويني. كذلك برز أبيلار الباثي كأحد كبار النقلة وتولى تربية ملك إنكلترا هنري الثاني، والفرد دي ساريشال الذي نقل بعض العلوم المتصلة بالطب والحيوان. وبرز أيضًا ريمون لول الذي أتقن العربية وأقنع البابا بضرورة إنشاء مدارس باللغات العربية والآرامية والعبرية في روما وبولونيا وباريس وأكسفورد وسلامنقا، وتصنيف المؤلفات بغرض تنصير المسلمين[4].

كذلك لعبت المدن العربية والإسلامية دورها في تطوير فن العمارة وأسهمت في تنظيم الحياة الاجتماعية من خلال ترتيب الأحياء المُدنية وتشكيلها وفق رؤية مهنية - حرفية راعت التقاليد الدينية وتنوع الثقافات. وكان لموقع المدن الإسلامية والعربية في الأندلس (إسبانيا) وصقلية (جنوب إيطاليا) تأثيره في النهضة الأوروبية المعاصرة وتحديدًا دور طليطلة في نقل العلوم الإسلامية إلى أوروبا بعد سقوطها في يد "الفرنجة" في 478 هجرية (1085م)، إذ تحولت إلى مركز للترجمة حين شجع كبير أساقفتها دون ريموندو (توفي في 546 هجرية/1151م) الباحثين في السفر إليها والعمل على نقل الكتب العربية إلى اللاتينية، وهي مهمة استمرت في القرنين الثاني عشر والثالث عشر. وكان تأثير الترجمات الأولى كبيرًا في الحياة الفكرية والجامعات في أوروبا حين أصبحت العلوم والفلسفة في شتى فروعها ومدارسها متوافرة ما أدى آنذاك إلى ظهور ما يمكن تسميته بعصر «الاستعراب»[5].

برز في هذه المرحلة دور مايكل سكوت (توفي في 631 هجرية/1234م) حين نقل الكثير من كتب ابن رشد إلى اللاتينية. ويقال إن المترجم أندراوس اليهودي قام بمعاونته في النقل والترجمة. إلى جانب سكوت وأندراوس اشتهر هرمان الألماني بنقل مؤلفات ابن رشد إلى اللاتينية. وساهمت هذه الترجمات في نشر "المذهب الرشدي" في جامعة باريس وجامعات شمال إيطاليا، فأصبحت مسرحًا للأفكار الحرة التي انتقلت إلى الكنائس، فاشتهر فلاسفة ورجال دين منهم: إسكندر دي هالس، بونا فنثورا، إلبرت الكبير، توما الإكويني، روجر بيكون، جيل دي روم، ريمون لول وسنجر برانبت[6].

قاد برانبت التيار الرشدي في جامعة باريس واشتهر كأستاذ في كلية الآداب في حدود السنة 659 هجرية (1261م) ووجدت أفكاره صدى لدى غيره من الأساتذة مثل جيرو الأبغيلي. كذلك نسبت آراء إلى ابن رشد قام بترجمتها رجل مجهول يدعى موريس الإسباني. وبسبب انتشار "الرشدية" نشب

صراع بين الكنيسة والجامعة انتهى إلى منع تدريس كتب ابن رشد أو تلك المنسوبة إليه من المترجم موريس الإسباني. وجدد البابا غريغوري التاسع في 629 هجرية (1232م) في رسالة إلى أساتذة كلية اللاهوت هذا المنع، إلا أن هذا القرار فشل في تحقيق غاياته فتراجعت الجامعة عنه في 653 هجرية (1255م).

في ضوء التحريم الجزئي أخذ يبرز في جامعة باريس أكثر من اتجاه، فهناك تيار إلبرت الكبير وتلميذه توما الإكويني. فقد درّسا بالتتابع في جامعة باريس بين السنوات 1234 و1272 وردًا على أفكار ابن رشد وناقشاها من موقع "إيماني مسيحي" تناول تحديدًا مقولة وحدة العقل، وانضم إليهما جيل دي روم الذي وضع الكثير من الرسائل ضد "الأضاليل" الرشدية.

مقابل التيار اللارشدي نهض تيار مضاد - قاده برانبت بمعاونة صديقه جيرو الأبغيلي - عمل على نشر أفكار ابن رشد والتشجيع على دراستها. وتطور الصراع بين التيارين فتدخلت الكنيسة ثانية وحرّمت كليًّا تدريس ابن رشد في جامعة باريس بين 670 و676 هجرية (1272-1277م). وانتهى الأمر بطرد برانبت وصديقه جيرو من كلية الآداب ثم أحيلا إلى ديوان التفتيش وتدخل البابا نقولا الثالث لمنع قتلهما. ووضع برانبت تحت الإقامة الجبرية وقتل في حادث غامض على يد سكرتيره. وما لبثت أن نشبت خلافات بين الأساتذة فاضطر أسقف باريس إتين تومبيه إلى التدخل في 688 هجرية (1289م) والاتفاق مع الأساتذة على تحريم تدريس 13 مسألة من أفكار ابن رشد[7].

لم يضمحل التيار الرشدي في أوروبا بمقتل برانبت، بل استمر يثير الجدل في الأوساط الأكاديمية والدينية في وقت شارفت حروب "الفرنجة" في بلاد الشام على نهايتها وعجزت أوروبا عن إعادة تجديدها. وانقسم التيار الرشدي المتعثر آنذاك إلى مدرستين: واحدة تفند أفكاره وترد عليها، وأخرى تدافع عنها وتحاول نشرها وتدريسها. وقاد التيار المضاد الذي أسسه توما الإكويني شخصية عرفت بمعارضتها للرشدية هو ريمون لول الذي جاء من جزيرة ميورقا الأندلسية[8].

درّس لول في 687 هجرية (1288م) في جامعة باريس وأخذ بالتنقل بين باريس وفيينا ومونبلييه وجنوى ونابولي وبيزا ساعيًا إلى تفنيد آراء ابن رشد في 711 و712 هجرية (1311-1312م). واقترح على البابا كليمونت الخامس تأسيس كليات لدراسة اللغة العربية بهدف محاربة الإسلام والدعوة إلى تنصير المسلمين في المناطق التي خضعت لحكم "الإفرنج". وألّف لول 18 كتابًا

في الرد على ابن رشد والرشدية، واستمر في نشاطه المضاد إلى أن توفي في 715 هجرية (1315م)، بينما واصل خصمه جان دي جاندان دفاعه عن ابن رشد ونقده لآراء توما الإكويني[9].

قام دي جاندان بتدريس الرشدية في كلية الآداب في جامعة باريس، كذلك في كلية اللاهوت وانتقل إلى جامعة بادو (تأسست في شمال شرقي إيطاليا في سنة 619 هجرية/1222م)، ورد على انتقادات توما الإكويني لفلسفة ابن رشد واستمر على نشاطه إلى أن توفي في 729 هجرية (1328م).

بقي التجاذب بين التيارين إلى أن تراجعت جامعة باريس عن قرارها في عهد الملك لويس الحادي عشر حين سمح بتدريس ابن رشد بمرسوم أصدره في 888 هجرية (1483م). آنذاك كانت الرشدية فرضت حضورها وانتشرت في أوساط المثقفين والأكاديميين ورجال الدين، وأخذت بترسيخ أقدامها انطلاقًا من جامعات شمال شرقي إيطاليا (بادو والبندقية) ما أدى إلى تعطيل وظائف قرار التحريم[10].

جاء التراجع بعد أن برز تيار قوي يقوم بتدريس ابن رشد والدفاع عنه ونشر أفكاره والتأليف عنه قاده سرفيت أربانو (من بولونيا) وأوغسطين بول (من البندقية) الذي توفي في 833 هجرية (1429م)، وغايتانو دي تين الذي توفي في 870 هجرية (1465م)، ونيكوليتي فرينانس الذي درّس في جامعة بادو في سنوات 886-905 هجرية (1481-1499م). وانتشر التيار الرشدي في جامعة أكسفورد البريطانية أيضًا في القرن الخامس عشر فبرز من أنصاره يوحنا البكنتروبي ووالتر بورلي[11].

وعلى رغم صدور مرسوم بابوي في 918 هجرية (1512م) جدد تحريم الرشدية بعد عقد مجمع لاتران، حصل تحوّل لمصلحة ابن رشد في القرن السادس عشر، بفضل مجموعة أساتذة الجامعات الإيطالية منهم أوغسطين نيفوس ومارك أنطوان زيمارا، إذ ترجما كتبه وشرحاها بين 901 هجرية (1495م) و988 هجرية (1580م). ويعتبر سيزار كريمونيني آخر ممثل صريح للرشدية في أوروبا حين درّس أفكار ابن رشد لمدة 17 سنة في جامعة فرار و40 سنة في بادو. وبوفاته في 1041 هجرية (1631م) انتهى نفوذ الفلسفة الإسلامية في إيطاليا وأوروبا بعد مقاومة اختلط فيها الديني بالعنصري (ظهور اللاسامية) دامت أكثر من ثلاثة قرون[12].

تراجع الرشدية والفلسفة الكلاسيكية (أرسطو) في أوروبا لم يكن نتاج مرسوم وانما جاء بسبب تقدم القارة العمراني وضمور وظيفة الفلسفة العربية الإسلامية في محيط أخذ يشهد نهضة كبرى. آنذاك كانت الديار الإسلامية تعاني تداعيات غزوات المغول وتيمورلنك في بلاد الشام والعراق، بينما كانت البرتغال تعتبر في أوروبا الدولة الأولى بحريًّا، وبدأت تضغط على المسلمين من جهة المغرب فأرسلت قواتها في 1415م (818هـ) واحتلت مدينة سبتة.

مقابل ضعف المسلمين في جهة الغرب كانت الدولة العثمانية تضغط على أوروبا في جانبها الشرقي، ونجحت في هزيمة المجريين في موقعة قوصرة الثانية في 1448م (852هـ) وهي المعركة التي مهدت الطريق للسلطان محمد الفاتح للاستيلاء على مدينة القسطنطينية/البيزنطية في 1453م (857هـ).

شكل سقوط القسطنطينية نقطة تحوّل في توازن القوة بين أوروبا المتحالفة عسكريًّا ضد المسلمين والسلطنة العثمانية التي بادرت إلى أخذ زمام القيادة بعيدًا عن المماليك في مصر والشام. وأحدث هذا الفوز العثماني هزة سياسية في أوروبا وبدأت تحشد قواتها وقواها لمواجهة ما سمّته الخطر الإسلامي.

أحدث هذا التوازن الزئبقي اختلالات غير متوقعة جاءت محصلتها النهائية لمصلحة أوروبا حين استفادت القارة من اكتشافاتها الجغرافية وأحسنت توظيفها في العمران. فتلك الاكتشافات جلبت ثروة غير منظورة وأعطت فرصة للممالك البحرية الأوروبية في تحديث أساطيلها وتطوير أسلحتها ودفاعاتها. وهذا ما أدى لاحقًا إلى تعديل موازين القوى لمصلحة القارة على حساب السلطنة العثمانية التي دخلت في مواجهات عسكرية على جبهتين: واحدة امتدت على مساحة أوروبا الشرقية وأخرى في بلاد الشام ومصر حين تنازعت مع أشلاء دولة المماليك وخاضت المعارك معها لانتزاعهما منها.

على رغم التخبط السياسي استمر التأثير الإسلامي. إلا أن الاستعارات الفلسفية التي استمرت النخبة الأوروبية في استلهامها في القرن السادس عشر أعيد إنتاجها وفق معطيات جديدة في القرن السابع عشر لتلبّي حاجات التطور الاجتماعي (العمراني) وتؤسس لمرحلة مختلفة عن عصور سابقة لعب خلالها الإسلام دور القائد التاريخي لعجلة التطور العالمي[13].

لجأت النخبة الأوروبية المعاصرة إلى نوع من الاستعارة الذكية. فمثلاً هناك من أخذ صفات الله الواردة في القرآن وأسقطها على مفهوم الدولة. فالقدرات الإلهية التي حددها القرآن كصفات للصانع تأثر بها الرعيل الأول من فلاسفة أوروبا. ولكن هذا الرعيل أعاد تحويرها ونقلها من الصانع إلى الدولة. فأعطى الدولة تلك القدرات الكلية والصلاحيات الشاملة واعتبرها هي مصدر التشريع[14]14). كذلك هناك من لجأ إلى استعارة أسماء الله الحسنى وأعاد استخدامها كصفات لوظائف العقل. فأسماء الله وصفاته في القرآن تحوّلت عند الرعيل الأوروبـي الأول إلى أسماء وصفات للدولة أو العقل. ولهذا اعتبر هذا الجيل هو المؤسس للفكر العقلاني (الواقعي) الذي نقل الوعي من الغيب إلى العقل، ومن الدين إلى الدولة[15].

لم يأتِ الفكر الأوروبـي المعاصر من الغيب، لكنه أيضًا لم يهمل وظيفة الدين (المسيحية) كقوة قابضة على العلاقات الاجتماعية. كذلك لم يناهض الفلاسفة فكرة الدولة في أوروبا دفاعًا عن سلطة العشيرة أو الطائفة أو المذهب، وإنما اتجهوا نحو تطوير وظائف الدولة وإعادة صوغ مواقعها في إطار قانوني (دستوري) يضبط العلاقة بين الحاكم والمحكوم[16]16).

آنذاك كان العالم الإسلامي في بدايات هبوطه التاريخي وبدأت تضربه آفة الزمن، بينما كان العالم الأوروبـي يراكم الثروة والمعرفة ويتوسع في عمرانه وأسواقه، ويستولي قطعة قطعة على مناطق المسلمين في غرب إفريقيا وجنوب آسيا.

الانقلاب في موازين القوة بين أوروبا والإسلام سبّبه الكثير من التحولات، ولعبت المصادفة أحيانًا دورها في إنتاج ثروة لمصلحة فريق ضد آخر. والمصادفة بدأت في الجغرافيا وانتقلت لاحقًا إلى التاريخ وما يعنيه من اجتماع بشري تقوده أحيانًا عجلة الدين وأحيانًا أخرى عجلة الدولة. فالتطور الأوروبـي في خطواته الأولى نهض أساسًا على قاعدتين تاريخيتين: الدين والدولة.

يعتبر ابن خلدون، الذي توفي في مطلع القرن الخامس عشر الميلادي، أحد تلك العلامات التي حددت الأطر العامة لبدايات الهبوط والصعود بين الحضارتين. فهذا الفيلسوف الإسلامي (المفكر السياسي) هو شاهد/غائب على تلك المفارقة التاريخية. ففي وقت غاب صاحب "المقدمة" في ظل صراعات قبلية أنهكت دويلات المغرب (المرينية والحفصية) كانت علوم مقدمته تتحوّل إلى مداخل متنوعة تأسست على ضفافها قواعد منهجية في علوم الاجتماع والاقتصاد والسياسة وآليات العمران

وأسباب تطور الأمم وعوامل انهيارها... ومن ضمنها كيفية تأثر الغالب بالمغلوب في بدايات التحوّل ثمّ المغلوب بالغالب في نهاياته[17].

تدفع هذه الإشكالية باتّجاه إعادة طرح السؤال: من أين تأتي معرفة النخبة وكيف تتطور؟

يتحدّث المؤرخ فريدرك هير في كتابه عن أوروبا في العصور الوسطى (1100-1350م) عن دور العالم الإسلامي (العلماء والفلاسفة) في ترجمة التراث اليوناني والتعليق على نتاجات أفلاطون وأرسطو وغيرهما، وكيف تم اقتباس الإنجازات الإسلامية وترجمتها ونقلها من حواضر الأندلس والعرب إلى أوروبا (جنوب فرنسا، صقلية، وجنوب إيطاليا) في القرن الثاني عشر الميلادي. ويرجّح هير فترة ظهور النخبة الأوروبية (الأكاديميون، المثقفون) حين بدأ تأثير الجامعات في شريحة من الناس، ونمو الصراع في الكنيسة بين الدومنيكان والفرنسيسكان وانقسام الإكليروس (رجال الدين) على الدين والفلسفة. وترافق الانشطار الكنسي المتراكم مع بدايات ظهور دور الطليعة الأولى من النخبة الأوروبية بقيادة روجر بيكون، البرت الكبير، توما الإكويني (دومنيكاني)، سنجر برانبت، دنيس سكوتس، إيكهارت، ووليام أوكهام. وأدى التشقق المذكور إلى نمو معارك فكرية بشأن أرسطو وابن رشد وما ترجم ونقل من تعليقات العرب على الفلسفة اليونانية. وساهمت المعارك في تشجيع انتشار الفلسفة وتسرّبها لاحقًا إلى جامعات ألمانيا حين قام غابريل بيل في القرن السادس عشر بتعليم رجل الدين والداعية الإصلاحي مارتن لوثر الفلسفة[18].

يذكر توبـي أ. هاف في كتابه عن فجر العلم الحديث، أن أوروبا شهدت في القرن السادس عشر ثلاث ثورات: واحدة في نظرية الكون، وأخرى في نظرية التوازن في العلوم، والثالثة كانت في بدء حركة إصلاحية في الكنيسة. وقاد الثورات العلمية والدينية الثلاث: كوبرنيكوس، غاليليّو، كبلر، ومارتن لوثر ومساعده فيليب ملانشتون الذي كان له الفضل في إصلاح نظام التعليم الألماني حين قام بإدخال دراسة الرياضيات والفلسفة في منهج الجامعات[19].

لم يتحقق هذا التطور المعرفي من فراغ وإنما جاء استجابة لتطور العمران (الاجتماع) الذي فتح باب التقدم على مسارات متلازمة أخذت تتراكم لتلبـي حاجات فئات وطبقات وتكتلات بدأت تتشكل في سياق تحولات شهدتها القارة الأوروبية في نهايات القرن الرابع عشر وبدايات القرن الخامس عشر. فالمعرفة كان لها وظيفة متّصلة بالاجتماع (العمران). والنخبة الأولى، التي أسست قواعد الانطلاق،

ظهرت بناء على متطلبات فرضت شروطها حاجات التقدم الذي جاء نتيجة الاكتشافات الجغرافية ونمو دور التجارة وتنافس موانئ المدن ودخولها في صراع على نفوذ الممالك القديمة المدعومة من الكنيسة.

لعبت الجغرافيا دورها الانقلابي في صناعة التاريخ، وهي شكّلت قوة الدفع الأولى التي ارتدّت على أوروبا إيجابيًّا وساهمت في إعادة هيكلة وظائفها المعاصرة. انتبه الثنائي ماركس - إنغلز إلى هذه النقطة وتداعياتها الاجتماعية حين ذكر في "البيان الشيوعي" أهمية الاكتشافات الجغرافية في تقديم ميادين جديدة للعمل (استعمار أميركا والتجارة مع المستعمرات) ما عزز النمو السريع في "المجتمع الإقطاعي الآخذ في الانحلال". فالاضمحلال الذي ضرب بهدوء علاقات الإنتاج القديمة ساهم في نشوء بدائل تمثلت في ظهور المانيفاكتورة بوصفها آلة عمل (قوة إنتاج) لعبت دورها في نمو بورجوازية مدينية. آنذاك أخذ التجار يقدمون المواد الأولية المستوردة للمعامل البدائية فيصنّعونها بأدواتهم ما مهّد الطريق لتطوّر رأس المال التجاري وتحوّله لاحقًا إلى رأس مال صناعي (الانتقال من الإنتاج الحرفي الصغير إلى الإنتاج الصناعي الكبير)[20].

يذهب في الاتّجاه نفسه لوي التوسير في كتابه عن مونتسكيو حين أعاد تأكيد أهمية الاكتشافات الجغرافية (فائض التجارة) في القرن الخامس عشر التي فتحت أمام أوروبا آفاق المعرفة واستغلال الهند الشرقية والغربية وأفريقيا. وقد جلب بعض المسافرين في حينها ضمن صناديقه توابل وذهبًا وفي ذاكرته روايات عن عادات وأخلاق ودساتير قلبت الحقائق المعروفة بأسرها. لم تقتصر الاكتشافات على توسيع مساحة الأرض وإنّما اشتملت أيضًا توسيع آفاق العقل وإدراك الكثير من المعلومات المتراكمة (المخزون الثقافي) للشعوب. وأعطى زمن الأرض المكتشفة مفعوله المعرفي المضاف، لأنه تصادف مع الحروب الأهلية وثورة الإصلاح الديني والحروب الدينية وتبدّل بنية الدولة التقليدية وصعود العامّيين وسقوط الكبار. فهذه الاضطرابات التي ترددت أصداؤها في كل أعمال ذلك الزمان أعطت مادة حيوية للتفكر والتقدم[21]. بدورها لم تكن الاكتشافات الجغرافية الموصولة بالتجارة والموظفة في الصناعة التحويلية البسيطة، كافية لانطلاق عصر النهضة من دون وسائط لها علاقة بالآلة والعلوم واستعداد المجتمع لاستقبال الجديد.

المسألة إذن معقدة، وهي تحتاج إلى دراسة تاريخية لالتقاط ذلك الترابط (التعانق) بين المعرفة والعمران وما أنتجه تعدد المسارات من تحوّلات ساهمت في تكوين "نخبة" تمتعت بالمؤهلات الفردية في كل مرحلة من التطور التراكمي الزمني. لم تولد أوروبا الجديدة من دون صعوبات، وهي تجاوزت

القديم بعد معاناة جلبه وباء الطاعون الذي اجتاح القارة في العصور الوسطى وقبل عقود من لحظة اليقظة. النهضة لم تحصل فجأة، وإنّما تراكمت وتدرّجت محطة بعد أخرى حتى وصلت أوروبا إلى طور التقدّم والتفوّق على شعوب العالم غير الأوروبـي[22].

هناك قصة تاريخية لنشوء النخبة، وهذه بعض فصولها.

الرابع عشر، قرن الطاعون الجارف

حتى مطلع القرن الخامس عشر (1400م) كانت أوروبا لا تختلف كثيرًا عن حضارات شعوب العالم. آنذاك كان البحر الأبيض المتوسط يحتل الموقع الأول في التجارة. وشكلت موانئ مدن المتوسط منارات عمرانية - ثقافية تستقطب السلع وتستوردها من الشرق (طريق الحرير) الذي يربط أوروبا بالهند والصين مرورا بالمناطق الإسلامية[23].

كان العالم الإسلامي في تلك الفترة يحتل الموقع الأول في التوازن الدولي مستفيدًا من موقعه الجغرافي الذي يبسط نفوذه السياسي على خطوط التجارة الدولية البحرية والبرية. وبسبب ذلك الموقع الاستراتيجي تشكلت استقطابات سياسية أسهمت في توليد حروب دينية استهدفت السيطرة على المعابر والممرات التجارية وتلك الشبكة من الخطوط التجارية الممتدة من غرب الصين إلى شرق أوروبا.

كان العالم الإسلامي يتحكم حتى القرن الخامس عشر في مختلف المنافذ والبوابات التجارية. وبحكم تلك السيطرة التجارية كانت الممالك والدول الإسلامية تفرض شروطها السياسية في التعاملات الدبلوماسية بسبب قدرة السلطات الإسلامية على التدخل، ومنع حركة العبور والمواصلات والاتصالات أو فرض الرسوم على قوافل الحرير والتوابل الآتية من آسيا[24].

استمر هذا الوضع القلق يتوازن سياسيًّا من دون غلبة دولية. أوروبا بحاجة إلى العالم الإسلامي لكونه يشكل ذاك الممر الجغرافي الاستراتيجي للدخول والخروج. والعالم الإسلامي كان بحاجة إلى أوروبا لأنه كان يستفيد تجاريًّا من ضرائب المرور على تلك السلع والبضائع التي تستوردها مدن أوروبا المتوسطية من الهند والصين[25].

أدى التوازن في مراكز القوى إلى توليد احتكاكات سياسية ودينية وتجارية وثقافية تطورت أحيانًا إلى مواجهات عسكرية وهجمات متبادلة للسيطرة على الموانئ تحت عناوين دينية (حماية

الأراضي المقدسة) أو باسم حروب الاسترداد التي شجعت الممالك الأوروبية على تجييش الشعوب وتحريكها وتحريضها ضد الإسلام. وساهم التجار الأوروبيون في تمويل الجيوش والحملات بقصد تأمين مواقع نفوذ يمكن استخدامها سياسيًّا لتحصين قوافل التجارة وحمايتها من الغزوات أو الضرائب العالية.

استمر هذا الوضع الدولي على حاله يتجاذب خطوط التجارة دون حسم حتى مطلع القرن الخامس عشر. ومنع التوازن العسكري أوروبا من تطوير حملاتها (الحروب الصليبية) فانتهت إلى الفشل والاعتراف مجددًا بقوة الإسلام في المشرق العربي وآسيا وأفريقيا.

كذلك لم ينجح المسلمون في تطوير اختراقاتهم العسكرية إلى الداخل الأوروبي وغرب القارة، إذ توقفت حملاتهم المضادة على أبواب البندقية في المتوسط وأسوار فيينا في شرق أوروبا. وبدأ الإسلام يتراجع في إسبانيا إلى أن خرج منها نهائيا في 1492[26].

انعكس التوازن الدولي على طبيعة العمران ونوعية المعرفة. فأوروبا حتى مطلع القرن الخامس عشر لم تكن متقدمة على العالم الإسلامي في المضمارين. والعالم الإسلامي الذي كان يسبق أوروبا معرفيًّا لم ينجح في توظيف تفوقه المذكور في الميدان العمراني بسبب تكوين سلطاته السياسية التي كانت تحد من إمكانات استثمار المعرفة (العلمية، الفلسفية والفقهية) في مجال القانون (الدستور) خوفًا من تجاوز الفضاءات الدينية.

بسبب هذا البعد الديني المدني للحضارة العربية - الإسلامية كان من الصعب على السلطات السياسية السماح للمعرفة (العلمية، الفلسفية والفقهية) بتجاوز حدود "العلة الأولى" أو حتى اختراقها نظريًّا خوفًا من انعكاساتها على المجتمع واحتمال تطورها باتجاه تداعيات سلبية تقوض الأسس التاريخية لتكوين الدولة وتشكيلاتها الأهلية.

أوروبا، أيضًا، كانت حتى مطلع القرن الخامس عشر غير بعيدة عن فضاءات العالم الإسلامي. كانت الممالك الأوروبية آنذاك تابعة للكنيسة المسيحية/البابوية. وكان الدين يشكل قوة توحيدية تتمثل في مرجعية الفاتيكان التي لعبت دور مظلة سياسية تهيمن على النخب الأوروبية المحاصرة في الأديرة والمعاهد الدينية وتمنعها من التطرق إلى موضوعات مقدسة تزعزع الإيمان بالمقولات الدينية أو تزرع الشك بمصدر "العلة الأولى".

كانت أوروبا آنذاك متشابهة معرفيًّا بالعالم الإسلامي ومتقاربة معه في تصوراتها العامة عن الكون والإنسان والحياة والموت. حاربت الكنيسة في تلك الفترة شرائح من النخبة الأوروبية وحاولت منعها من الاقتراب من الثقافة العربية والاستفادة من تلك الإنجازات العلمية والفلسفية والفقهية التي سجلتها المدن والحواضر الإسلامية، خوفًا من انجرارها نحو اجتهادات تزعزع قواعد الإيمان بالخالق وتدفع رويدًا نحو الشك. وبالتالي، الخروج على الدين والمقدسات.

كانت "النخبة" الأوروبية آنذاك تعيش على نتاجات الفيلسوف المسيحي القديس أوغسطين (354-430م) وكتابه عن "مدينة الله"، وتقتات من ترجمة نصوص الفلاسفة المسلمين وبحوثهم العلمية والفقهية حين نقلتها من العربية إلى اللاتينية. فالنخبة لم تكن استقلت بعد نظريًّا عن فضاء المعارف العربية، بل كانت تجد في الفلسفة الإسلامية وموسوعات الطب والفقه والاشتغال على الفكر الإغريقي مصادر كافية للتعلم والتعرف والاطلاع على ما أنتجته البشرية من أفكار ومدارس. وأدى تأثر النخبة الأوروبية بالمعارف الإسلامية إلى تشكيل مراكز قوى تتعامل أو تتعايش مع الفضاءات العلمية والمعرفية التي أخذت تنتقل أو تتسلل من حواضر المسلمين في الأندلس وصقلية إلى المدن الأوروبية من خلال الاتصال التجاري البري والبحري أو التصادم العسكري بين العالمين[27].

حتى القرن الخامس عشر لم تكن "النخبة" الأوروبية قد اكتشفت ذاتها واستقلت معرفيًّا عن فضاءات الجوار الجغرافي. وبسبب هذه الفجوة الزمنية بين العالمين أسهمت الجغرافيا (الحروب وتبادل السلع) في تكوين علائق ثقافية غير متناسقة تطورت أحيانًا نحو تشكيل مدارس انقسمت فلسفيًّا بين تيار رشدي وتيار غزالي (الإمام الغزالي). وأدى الاختلاف بين المنظومتين إلى توليد توجهات نقدية حاولت الجمع بين المدرستين أو الطرد بينهما. ولعبت الجامعات والمعاهد التي نهضت في شمال إيطاليا في تكوين البذور الأولى للاستقلال المعرفي للنخبة الأوروبية. وبسبب قوة العامل الديني (الكنيسة البابوية) لم تستطع "النخبة" حتى تلك اللحظة اختراق المقدسات والممنوعات وتجاوز حدود "العلة الأولى"[28].

كانت الكنيسة آنذاك مسيطرة، واستمرت تسيطر بقوة على مقاليد المعرفة حتى العام 1453. فالدين كان دوره قويًّا في حياة الناس، ولم يكن بالإمكان تجاوز مواقعه بسبب تدخل رجال الإكليروس في تعطيل كل محاولة للنقد أو تصويب خرافات متداولة في الشارع. ونتيجة هذه الهيمنة تشكلت

مجموعات من النخب في داخل النظام الكنسي (الدومينكان والفرنسيسكان) أخذت تشتغل على الترجمة وتعيد قراءة المناهج الفكرية التي أسستها النخب الإسلامية في عهود الازدهار. آنذاك، أي قبل القرن الخامس عشر، عرفت أوروبا بدايات تشكل نخبة تجمع بين الدين والفلسفة قادها القديس توما الإكويني (1225-1274م) في القرن الثالث عشر، الميلادي. ونجح الإكويني في إثارة نقاشات فلسفية تحت قبة الكنيسة مؤكدًا المقولات الدينية ومعارضًا بعض تلك الاجتهادات العقلانية التي كان يقول بها التيار الرشدي في أوروبا.

مهد الإكويني الطريق لبداية الجدل، وأدى اجتهاده في المجال البحثي إلى تشجيع "النخبة" الأوروبية على مواصلة الرحلة الطويلة في عالم المعرفة، فظهر في نهاية القرن الثالث عشر جون دانس سكوتس (1265-1308م) الذي أخذ يشتغل على نتاجات أوغسطين والإكويني والفلسفة الإسلامية ما دفع الفكر النقدي خطوة جديدة إلى الأمام.

بعد سكوتس جاء دور ويليام أُف أوكهام (1285-1349م) في القرن الرابع عشر الذي نجح في تطوير مقالات فلسفية. لكنه لم ينجح في تجاوز تلك الحدود التي كانت تفرضها الكنيسة على مجالات البحوث النقدية (العلمية والعقلانية).

حتى تلك الفترة لم تنجح "النخبة" الأوروبية في تكوين نواتها المستقلة عن الفضاءات المحيطة بها بسبب لوائح الممنوعات التي كانت تفرضها الكنيسة، ما أدى إلى عزلها في إطارات اجتماعية محدودة التأثير. كانت الجذور الثقافية لتلك النخبة محكومة بالمؤسسات الدينية بينما كان لا يزال دور معاهد التعليم والجامعات الأوروبية في إيطاليا وفرنسا وبريطانيا هامشيًّا. آنذاك كانت الجامعات التي تأسست في القرن الثاني عشر لا تزال في طور النهوض، ولم تكن في وضع يسمح لها بإنتاج شرائح موازية في التأثير على حركة التفكير، لذلك لم يكن بإمكان الفلسفة تجاوز تلك الممنوعات والمقدسات والدخول في حقول معرفية متقدمة تتخطى حدود الاجتهادات التي توصل إليها المسلمون من خلال ترجمة الفلسفة الإغريقية والاشتغال عليها على مدى ستة قرون[29].

إلا أنّ العامل الرئيس الذي منع "النخبة" الأوروبية من التطور وتجاوز الموروثات يعود إلى عدم وجود حوافز تشجع التفكير وتحض على التقدم وتحرض العقل على النقد. وأسهم عامل انتفاء الحاجة إلى تكرار مقولات سابقة وإعادة إنتاجها في سياقات أكثر عصرية. وأدّى انتفاء المحرض على

التفكير والإبداع والاختراع إلى استقرار المعرفة العقلية عند حدود الدين وضفاف "العلة الأولى" ما أعطى فرصة إضافية للفلسفة الإسلامية في تطويل تأثيرها الزمني والمعرفي في النخبة الأوروبية.

إلى تقلص العامل النفسي (الرغبة) وتراجع موقعه في تشجيع النخبة على الإبداع، لعبت البنية الاجتماعية دورها في ترسيم حدود التفكير وحصره في دوائر محددة تمثلت في الرسم والنحت والعمارة والأبنية الرسمية الكنسية. وبسبب حاجة الكنيسة إلى تطوير هيبتها وتحسين مواقع نفوذها وإطلالها على العامة لجأ الإكليروس إلى تشجيع الفن المعماري (الهندسة والنحت) بقصد تحديث الكاتدرائيات وتعظيمها وتفخيمها حتى ترتفع نسبة تأثيرها في الناس.

إلى جانب الكنيسة لعبت الأسر الأرستقراطية نشاطها المالي الموازي لدور الإكليروس في تشجيع المدارس الفنية وحثها على العمل والإنتاج في البناء والنحت والرسم لتلبية حاجات طبقة الملاكين. وأدى توظيف الأسر الأرستقراطية (عائلة مديتشي مثالاً) أموالها في الحقول الفنية، بالتوازي مع طموح الكنيسة في إنشاء الكاتدرائيات الضخمة، إلى تشجيع شريحة من "النخبة" الأوروبية على الإبداع والاختراع وتكوين نواة نهضة عمرانية - فنية في شمال إيطاليا.

هذا الجزء الصغير من القارة الأوروبية (توسكانا/فلورنسا) سيكون له دوره الإشعاعي الكبير في تنوير النخبة وتشجيعها على التفكر والإبداع وتأمين اختراعات تلبي حاجات التطور والاكتشافات. شمال إيطاليا كان قلب القارة ومركز نهضتها بين العامين 1350 و1450م. ومن ذاك الجزء البسيط جغرافيًّا سينطلق الفن ليبلغ أوجَه في نهاية القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر حاملاً معه رفاييل ودافنشي وأنجلو وهي أسماء لا تزال تحفر في ذاكرة التاريخ[30].

قبل أن تبدأ أوروبا نهضتها كان لا بد من أن تتعرف إلى صدمة ستحدث هزة نفسية وتثير المخاوف والرعب وتحرض في الآن على البحث والتفكير عن حلول. وجاءت الصدمة من البحر (الموانئ) حين اجتاح القارة وحوض المتوسّط مرض الطاعون، وبدأ الوباء يجرف معه القرى والمناطق.

أدى الطاعون الجارف في القرن الرابع عشر (1348-1393م) إلى تعطيل جزئي للتجارة (طريق الحرير)، وأسهم في تراجع الإنتاج وتقويض المعاش وانخفاض السكان وتوسيع رقعة الفقر وانتشار المجاعات والفوضى والخوف من الآخرة (نهاية الإنسان والكون)، والانكفاء إلى الخرافات

وطلب المعجزات للخلاص من الهلاك الدنيوي. إلاّ أن الطاعون كان له دوره الإيجابـي حين حث النخبة الأوروبية على التفكر والبحث عن علاج لمقاومة المرض، بينما دخل العالم الإسلامي في حال من الخمول والاستسلام. فالتحدي شجع النخبة الأوروبية على بذل الجهود لتطوير الطب والمختبرات واختراع الأدوية لوقف الوباء من الانتشار. هذا الجانب العلمي من التطور منع الكنيسة من التدخل بسبب حاجتها إلى اكتشاف طبـي يخفف من هلع القارة واندثارها[31].

بعد تجاوز وباء الطاعون (المختبرات والأدوية ومزج المواد الكيماوية) ستبدأ أوروبا خطوتها الأولى نحو التقدم المعرفي من طريق اكتشاف البحر مستخدمة في ذلك العلوم الملاحية العربية لتلبية حاجتها للبضائع والسلع، وتعويض تلك الفترة الزمنية الصعبة التي امتدت إلى نهاية القرن الرابع عشر.

الخامس عشر، قرن السفينة والملاحة البحرية

أحدثت صدمة الطاعون التي اجتاحت البحر المتوسط والعالمين الأوروبـي والإسلامي لمدّة 45 سنة، هزة ساهمت في تشكيل رؤيتين متخالفتين. العالم الإسلامي انعزل وانكفأ وارتد إلى إنتاج الخرافة بينما العالم الأوروبـي واجه التحدي بالذهاب نحو تصنيع العقاقير لمحاربة الوباء. وأدى اختلاف الاستجابة للتحدي إلى توليد نواة نهضة علمية مختبرية في أوروبا مقابل تراجع العالم الإسلامي الطبـي في مواجهة الوباء الدارس للعمران.

شكلت صدمة الطاعون خطوة لمصلحة الجانب الأوروبـي إذ ستعقبها خطوات باتجاه المزيد من التقدم في دائرتي المعرفة والعمران. وجاءت المبادرة من البرتغال التي قاد أميرها هنري الفاتح معركة البحث عن ممرات تجارية بديلة لخطوط التجارة القديمة.

آنذاك كانت البرتغال (لشبونة) القوة البحرية الأوروبية الأولى، وتوسكانا (فلورنسا) القوة الفنية الأوروبية الأولى. ومن هاتين المنارتين ستبدأ القارة رحلة التطور لدوافع مختلفة، ولكنها في النهاية التقت عند تقاطع طرق ساهم في صنع أوروبا الجديدة[32].

أشرف هنري الفاتح (1394-1460م) على خطة تنظيم اكتشاف المعابر المائية في المحيط الأطلسي مستفيدًا من تطور صناعة السفن في مدن المتوسط التجارية. وبدأت رحلة الاكتشاف من لشبونة جنوبًا نحو الشاطئ الغربـي للقارة الإفريقية. وأخذت الرحلات تمتد وتتوسع بين 1434 و1445 حين نجحت السفن البرتغالية في الوصول إلى ساحل سيراليون في 1460[33].

آنذاك كان العالم الإسلامي يخوض مواجهات عسكرية دائمة في الشطر الشرقي من أوروبا. وأدى التصادم، كما ذُكر، إلى سقوط القسطنطينية (إسطنبول) في 1453 بقيادة السلطان العثماني محمد الفاتح.

بين الفاتح البرتغالي والفاتح العثماني ستشهد ساحات أوروبا الشرقية وموانئ المتوسط معركة لإعادة السيطرة على خطوط المواصلات التجارية. لشبونة بعد سقوط القسطنطينية ستقود أوروبا نحو المزيد من البحث عن مخارج بحرية بديلة تعوض خسارة منافذ وممرات التجارة القديمة (طريق الحرير) وستتحول الأنظار من المتوسط إلى الأطلسي. وستبدأ السلطنة العثمانية من جانبها تنظيم سلسلة هجمات باتجاه ترسيم خطوط برية تربط الشرق بالغرب من طريق المعابر القديمة.

شكل سقوط القسطنطينية صدمة نفسية كبرى لا تقل عن تلك التي أحدثها وباء الطاعون حين اجتاح أوروبا. فالصدمة كانت قوية وأنتجت تأثيرات ثقافية (علمية ومعرفية) إيجابية تركزت بعد نزوح موجات من المهاجرين إلى شمال إيطاليا (فلورنسا) في نقل المعرفة من عاصمة البيزنطيين إلى أوروبا، كذلك تشجعت البرتغال على تطوير خطة البحث عن الخطوط البديلة وتحديث علوم البحار لتلبية حاجات القارة من السلع والبضائع.

آنذاك كانت النخبة الأوروبية لا تزال تخضع لسلطة الكنيسة ولم يكن بإمكانها أن تتحرك خارج منظومتها المعرفية. ففي مدينة كوسا الألمانية نجح نقولا دي كوسا (1401-1464م) في تسجيل كتابات فلسفية لم تخرج على حدود التصوّف بسبب اضطراره إلى العمل في إطار الكهنوت (ترقى من أسقف إلى كاردينال). وبسبب الطابع الديني لأعماله الفلسفية تشكلت رؤية تأملية جمعت بين الرياضيات والقانون والتصوف ما وضعه في موقع مضاد للرشدية التي كانت لا تزال تسيطر على شريحة واسعة من النخبة الأوروبية وتحديدًا في جامعة بادو الإيطالية التي درّس فيها[34].

تصادفت أعمال دي كوسا مع صدمة سقوط القسطنطينية التي جاءت لتعطي قوة دفع مهمة، إذ إنها ستشكل دفعة معنوية للنخبة الأوروبية وستوفر لها منطقة نفوذ في إطار الكنيسة التي اهتزت صورتها نسبيًّا أمام العامة بسبب فشلها في الدفاع عن الثغور المسيحية في الشرق. وترافقت هذه المسألة مع اكتشافات البرتغال الملاحية ما أعطى ذاك الحافز المادي المضاف لتشجيع البحث وكشف عالم البحار.

لعبت السفينة في تلك اللحظة الدور التاريخي لقيادة المعرفة. وأدّت الاكتشافات إلى تحويل لشبونة إلى منارة أوروبية وبدأت "النخبة" تعمل على تطوير الملاحة وعلومها وتجتهد لمساعدة السفينة في التقدم لاختراق العالم المجهول في طبيعته وتكويناته البشرية.

إلى السفينة ستدخل أوروبا عصر الطباعة في نهاية القرن الخامس عشر حين نجح الألماني يوهان غوتنبرغ في إعادة اكتشاف المطبعة في 1447. الاختراع لن يكون له تأثيره المباشر على تطور وعي النخبة الأوروبية، لكنه سيمهد لاحقًا وبعد 50 سنة لتكوين شريحة من المثقفين أخذت تعتمد على الكتاب للاطلاع على التاريخ والحضارات ومنجزات الأجيال السابقة[35].

أخذت المطبعة وقتها للانتقال إلى السوق، لكنها ستشكل منذ استخدامها نقطة تحوّل مضافة ستعزز من القوة الأوروبية الصاعدة وستشجع النخبة على تشكيل قناعات وتأملات تعتمد على الفلسفة اليونانية وتتجاوز بحياء حدود سلطة الكنيسة. آنذاك سيقوم مرسيل وفتشينو (1433-1499) بترجمة مقالات أفلاطون وأفلوطين إلى اللاتينية وشرحها انطلاقًا من نزعة تجمع بين الدين والفلسفة ما أدى إلى تكوين بيئات فكرية تبحث عن دين فلسفي يتحرك إلى جانب الدين المسيحي. وفي إطار هذا الفضاء المضطرب ستنشأ توجهات فيثاغورية وأفلاطونية وأرسطية ومذاهب فلسفية دينية نجح جان بيك لاميراندول (1463-1494) في قيادتها لفترة وجيزة.

لم تشكل هذه التحولات في رؤية النخبة قفزة نوعية في تطور المعرفة الأوروبية إلا أنها كانت بداية تؤشر إلى متغير في الوعي أخذ ينمو ويضغط باتجاه الانتقال من الوعظ والإرشاد إلى النقد والبحث[36].

جاء التطور المضطرب ليعكس تلك الحاجة التي أخذت اكتشافات السفينة تفرضها على وعي النخبة. فالبحث عن الحقيقة لم يعد ضربًا من الخيال، ولا رؤية تأملية باتجاه عالم الغيب وما وراء الطبيعة، بل أصبح يعتمد على حيثيات واقعية وحاجات ملموسة أخذت تنكشف للإنسان من خلال الطبيعة نفسها.

أدى امتداد السفينة الجغرافية واكتشافاتها الملاحية إلى توسيع دائرة الوعي (الكوني)، وتشجيع النخبة على العمل لتلبية متطلبات هذا الحقل المترامي الأطراف الذي قادته لشبونة. فالسفينة كانت بداية انكشاف العالم الجغرافي على الوعي الأوروبـي من خلال البحر واتساع السوق الدولية للتجارة. وبسبب

هذا الاندفاع المحكوم بالمصالح بدأ الثنائي (البرتغال/إسبانيا) يتقدم رويدًا رويدًا وصولاً إلى طريق الهند بقصد كسر احتكار العالم الإسلامي لخطوط التجارة القديمة[37].

جاء اكتشاف فاسكو دي غاما طريق الهند في 1498 بعد تحولات سياسية ومعرفية وجغرافية مهمة. فمن جانب السياسة نجحت إسبانيا في إنهاء الوجود الإسلامي في أوروبا بسقوط إمارة غرناطة في 1492، وهو العام الذي نجح فيه كريستوف كولمبوس في اختراق المحيط الأطلسي والوصول إلى أميركا دون أن يعلم أنه حقق أهم إنجاز جغرافي في التاريخ البشري المعاصر. ستفتح الاكتشافات القارة الأوروبية أمام آفاق لا متناهية من التحولات وستشجع "النخبة" على الانتقال من التفكير التأملي في عالم ما وراء الطبيعة إلى عالم الطبيعة/الجغرافيا والتفكير في اختراع الآلة لمساعدة السفينة على مواصلة تقدمها في عالم الملاحة وخطوط التجارة من خلال البحث في الوسائل العلمية والتقنية والفلكية التي تساهم في تعزيز مجالات التعرف على عالم جديد كان بعيدًا عن المنال.

منذ النصف الثاني من القرن الخامس عشر ستشهد القارة نقطة تحوّل استثنائية في وعي "النخبة" الأوروبية إذ ستولد في هذه الحقبة الانتقالية مجموعة عقول سيكون لها شأنها في مطلع القرن السادس عشر. ففي هذه المرحلة سيولد ليوناردو دافنتشي في 1452، ونقولا ماكيافلي في 1469، ونقولا كوبرنيكس في 1473، ولويس فيغيس في 1492. وستعمل هذه الشريحة من العلماء (باستثناء ماكيافلي وفيغيس) على تحديث آلات اكتشاف النجوم في عالم الفلك لتسهيل مهمات السفينة في عالم الملاحة البحرية[38].

تمتع دافنتشي - الذي توفي في 1519 - بمواهب مختلفة، إذ اشتغل بالنحت والموسيقى والتشريع والعمران ونجح في تطوير علم الميكانيك والرياضيات انطلاقًا من المعرفة التجريبية. وكوبرنيكس - الذي توفي في 1543 - قضى عشر سنين في إيطاليا يشتغل في الآداب والرياضيات والفلك، إلى أن نجح في وضع كتابه عن حركة النجوم في سنة رحيله. وأسهم رجل الدين هذا (القسيس كوبرنيكس) في وضع قواعد علمية لحركة الأجرام ودورانها حول الأرض (مركزية الشمس) ما أعطى فسحة للتقدم في مجال العلوم الرياضية والفلكية في حقبات لاحقة. وفيغيس الذي توفي في 1540 سيكون له دوره في تطوير قواعد عقلانية للتربية والتعليم في الحياة الفكرية ما سيترك تأثيراته اللاحقة على نمو الفلسفة الأوروبية وتحديدًا ديكارت. أما ماكيافلي - الذي توفي في 1527 - فسيصنف بعد تأليفه كتاب "الأمير"

بصفته أول فيلسوف أوروبـي معاصر ساهم في تكوين رؤية سياسية اجتماعية تلبـي حاجات السلطة في زمانه.

ولد ماكيافلي في فلورنسا، من عائلة ميسورة ما أتاح له فرصة للتعلم فدرس التاريخ والقانون والفلسفة، ونجح في تأمين فرصة للعمل في عهد أسرة مديتشي. أقام ماكيافلي، من خلال وظيفته في المجلس المحلي لمدينة فلورنسا، علاقات سياسية مع محيطه، وأخذ بالتعرّف على آليات التواصل التي تؤسس التحالفات أو تؤدّي إلى خلافات.

استمرّ في موقعه إلى أن جاءت القوات الفرنسية واحتلّت شمال إيطاليا. وبسبب انتهازيته وقف إلى جانب الاحتلال الذي وفّر له وظائف حكومية مختلفة، وأخذ يترقّى إلى أن وصل إلى منصب السكرتير الأول، وبدأ يقوم بمهمات رسمية للاتّصال بالإمارات والممالك الإيطالية والأوروبية.

لم يستمر الحظ طويلاً لمصلحة ماكيافلي، إذ سرعان ما عادت أسرة مديتشي إلى الحكم بدعم من الفاتيكان (البابا الكاثوليكي كان من الأسرة نفسها) فاعتقل ونفي في 1512 إلى مزرعته في ضاحية فلورنسا وعاش إلى يوم وفاته. وهناك تفرّغ لكتابة "الأمير".

انتهازية ماكيافلي التي تأسّست على ثقافة موظف دولة، أعطته ميزة معرفة حالات الصعود والهبوط للأسر السياسية في عهد أخذت أوروبا تعيد اكتشاف خصوصيّتها بعد أن نجحت في تحقيق خطوات متقدّمة على مستوى التوسّع الجغرافي وما جلبه من جبايات (اقتصاد خراجي) وإغراءات.

قرأ ماكيافلي تاريخ الدول بمنهج تأويلي ساعده على استنباط الحِكَم من التجارب العينية. وبحكم موقعه الرسمي - الدبلوماسي السابق - أخذ يؤسّس أفكاره السياسية بناء على التجربة والملاحظات التي توصّل إليها من خلال متابعته للحوادث الجارية قياسًا على الماضي ودروسه.

كانت كتاباته أشبه بالمواعظ والإرشادات والتوجيهات، ولكنّها مشبّعة بالأمثلة والنماذج منذ عهد موسى وخروجه من مصر إلى عهد أسرة مديتشي التي عرفت شهرة أوروبية بسبب رعايتها للفن والعمران وتحالفها مع الكنيسة البابوية

سيرة ماكيافلي مهمّة، وهي في خلاصاتها العامة لا تختلف كثيرًا عن أفكاره الحادّة في وضوحها، ما أعطاه هامشًا للتفسير واستنتاج قوانين كان لها الفضل في المساعدة على تأسيس فلسفة

سياسية، تحوّلت مع المتغيّرات الأوروبية اللاحقة إلى منهجية في تعامل الدول وتعاطيها البراغماتي (الانتهازي) والمصلحي مع الأصدقاء والخصوم في فترات الصعود والهبوط أو في لحظات السلم والحروب. والمنهج الماكيافلي، الذي عُرف لاحقًا باسمه، تأسّس على مجموعة تصورات هي أشبه بالاقتراحات لرؤساء العائلات، ترشدها سياسيًّا إلى أساليب التعامل مع الآخر بناء على شواهد التاريخ (الحروب والمعاهدات والصراع المصلحي على السلطة مع الأصدقاء والخصوم).

جاءت أفكار ماكيافلي قاسية، ولكّنها من الناحية الزمنية تبدو عادية في قارة كانت في طور التقدّم والانتقال من مفهوم الرعية إلى مفهوم المواطن. فالفظاظة التي تمثّلت في إرشاداته تعتبر نتاج عصر بدأ ينشطر في منعطف تاريخي أخذ يدفع أوروبا نحو النمو المتصاعد باتّجاه عالم مجهول لم يكتمل تطوّره ولم تتوضّح صورته.

أفكار المساواة والتسامح والعدالة والأخوة ليست واردة في فلسفته السياسية (المصلحة العليا). الظروف آنذاك (مطلع القرن السادس عشر) لم تكن بعد ناضجة لتقبّل مثل هذه المفاهيم الإنسانية التي كانت تحتاج إلى وقت للتبلور خطوة خطوة، والانتقال من مرحلة البراعم الجنينية (الفطرة والعفوية) إلى مراحل أرقى حين أخذت الأفكار تتحوّل تدريجيًّا إلى برامج ومنظومات اجتماعية[39].

كانت إرشادات ماكيافلي مدمّرة إنسانيًّا، لكنّها جاءت في زمنه واقعية لكونها ترد على حاجات عصر أخذ يشرف على التفكّك[40]، فهو مثلاً يقول: "إن أردنا الإساءة لإنسان فيجب أن تكون هذه الإساءة على درجة بالغة، لا نضطر بعدها إلى التخوّف من انتقامه". وبرأيه أن "الرغبة في الامتلاك، غريزة طبيعية، وشيء مألوف". وأيضًا "أنّ من يسعى إلى تقوية غيره يحكم على نفسه بالخراب والدمار". والإنسان في طبعه "لا يؤمن بالجديد إلا بعد أن يختبره اختبارًا علميًّا وحقيقيًا"، حتى لو كان الناس "تستهويهم شؤون الحاضر أكثر من شؤون الماضي". كذلك الرجال "يقدمون على اقتراف الإساءات، إمّا بدافع الكراهية، أو بدافع الخوف". و"الكراهية قد تنجم عن الأعمال الطيّبة بقدر ما تنجم عن الأعمال الشرّيرة". والحرب "هي الفن الوحيد الذي يحتاج إليه كل من يتولّى القيادة". وبرأيه "أن الطريقة التي نحيا فيها، تختلف كثيرًا عن الطريقة التي يجب أن نعيش فيها". لذلك على الأمير "أن يتعلّم الطبيعتين الإنسانية والحيوانية وأن إحداهما لا يمكن أن تعيش من دون الأخرى". لهذا، ولكلّ هذه الأسباب، فإن في أعمال الناس والأمراء هناك حقيقة لا استثناء فيها وهي "الغاية تبرّر الوسيلة". فالإنسان يستطيع أن يغيّر طبيعته (وفقًا لتغيّر الأزمنة والظروف) لكن "القدر لا يتغيّر أبدًا"[41].

تأسّست أفكار ماكيافلي على اكتشافات القرن الخامس عشر الذي شهد بدايات استثنائية ستنقل أوروبا لاحقًا من عالم سلطة الكنيسة إلى عالم سلطة المعرفة، وماكيافلي كان من أشهر رموزه. فهذا القرن يمكن وصفه بحقبة السفينة التي شجعت النخبة على تجديد العلوم الفلكية والرياضيات والتقنيّات باتّجاه إعادة ربط وظائفها لخدمة التوسع في مجال الاكتشافات الجغرافية، الذي تواصل بقيادة البرتغال (لشبونة) أولاً وإسبانيا ثانيًا.42

خلال عملية التطور في القرن المذكور بدأت المطبعة تشق طريقها نحو السوق لتظهر أول طبعة للكتاب المقدس في 1500. كذلك سيبدأ العلماء تحديث رسوم خرائط الشواطئ (ظهور أول خريطة مطبوعة في 1506) وتطوير البوصلة ورصد عالم النجوم وحركة الأجرام لمساعدة السفينة على توسيع آفاق اكتشافاتها وإنجازاتها.

السادس عشر، قرن حركة الإصلاح والحروب الدينية

بدأ القرن السادس عشر في ظل متغيرات أخذت تعيد هيكلة العلاقات التقليدية، ما أدى إلى زعزعة استقرار القارة وإثارة الاضطرابات الاجتماعية وبدء تحطيم هيبة الكنيسة وتقديس الحاكم الفرد. لم تظهر تأثيرات الاكتشافات الجغرافية فجأة فهي كانت تحتاج إلى وقت حتى تأخذ ثمارها السياسية والاقتصادية والثقافية بالنمو في هوامش مجتمعات تعاني من الركود. وتطلبت العملية التاريخية نحو قرن من الاكتشافات حتى بدأت تظهر علامات الترف في شريحة اجتماعية جديدة استفادت من عالم البحار والسوق الدولية لتراكم ثروة أخذت تتكفل بتعديل الرؤى التي حددت الكنيسة، على امتداد قرون، آفاقها وشروطها.

العالم الجديد الذي بدأ يتشكل في النصف الأول من القرن السادس عشر كان يحتاج إلى كنيسة جديدة ورجل دين حديث وقراءة مغايرة للكتاب المقدس (الأناجيل) مدعومة بمنظومة علاقات معاصرة تتسم بالمرونة والانفتاح والقدرة على استيعاب حاجات ما وراء الأطلسي.

آنذاك التقط دافنتشي طبيعة اللحظة التاريخية ومتطلباتها. فاللحظة لا تحتاج إلى موعظة بل إلى آلة تلبي حاجات التطور. وجاءت أعمال دافنتشي لتسهم في تطوير علم الآلة انطلاقًا من رؤية تجريبية أدركت بسرعة أن العالم مقبل على عصر الميكانيك. والأمر نفسه توصل إليه كوبرنيكس حين وضع قواعد علمية لحركة الأجرام. وأدت نظرياته إلى توليد قناعات أسهمت لاحقًا في تشجيع النخبة

الأوروبية على البحث عن معادلات عقلانية مخالفة. والمخالفة لا يمكن أن تنهض من دون تشكيل تيار من داخل الكنيسة يعطي شرعية تقليدية ويؤمّن الحماية للأفكار الجديدة.

آنذاك عاصر دافنتشي بدايات الانشقاق الكنسي الذي قاده مارتن لوثر (1483-1546م) في 1517 حين اعترض على صكوك الغفران وطالب بالعودة إلى الإنجيل (الأصول الأولى للمسيحية). إلا أن كوبرنيكس (رجل الدين) عايش جزءًا من التحولات التي أخذت تشهدها الكنيسة بعد نمو قوة حركة الإصلاح الديني وظهور هيئة بروتستانتية أخذت تنافس الكاثوليكية على زعامة المسيحية الأوروبية[43].

استمرت الكنيسة الكاثوليكية توحد أوروبا حتى نهاية القرن الخامس عشر، إلى أن جاءت الحركة البروتستانتية لتحدث ثورة أيديولوجية تخالف تلك القناعات المقدسة التي ارتسمت في ذهن العامة عن رجل الدين ونزاهته. وجاءت الثورة من الكنيسة وضدّها في آن، في لحظة كانت الأسر التقليدية الحاكمة تعاني من انقسامات سياسية أخذت تزعزع نفوذها الذي أخذ يتراجع مع بدء انكسار هيبة الإكليروس وظهور أفكار تعكس الفترة الجنينية في التحوّل الكبير (فلسفة ماكيافلي أوضح تعبير عن تلك المحطّة الانتقالية). آنذاك بدأت حركة لوثر في إطار ظهور مقاومة مدنية ضد رجال الدين ومحاولات الكنيسة جمع المال لبناء كتدرائية روما (كنيسة القديس بطرس). جاءت الحركة في سياق الرد على بذخ الكنيسة وإنفاق أموال الرعايا على أعمال فنية ومشروعات عمرانية لا مردود لها للفقراء، لكنها فعلاً كانت استجابة تاريخية لتحولات بنيوية أخذت تخترق علاقات المؤسسة التقليدية. بدأ لوثر (أستاذ في الجامعة) خطوته الأولى في مقاطعة ساكسون بإصدار بيان تألف من 95 نقطة. والبيان الذي ترجم إلى الألمانية وانتشر بسرعة ليحدث ثورة فكرية اكتسحت غرب القارة وشمالها، لم يكن بإمكانه أن يلقى الاستقبال نفسه في ظروف مختلفة. فالحركة الدينية الإصلاحية جاءت في وقتها، وهي بمثابة جواب عن تشكل تحولات بنيوية أخذت تشهدها القارة منذ نهاية القرن الخامس عشر.

جاء اكتساح حركة الإصلاح منظومة الكنيسة ليلبّي رغبات وحاجات ومتطلبات نخبة دينية بدأت تتنبّه إلى وجود متغيرات أخذت تمس هيبة رجل الدين (الإكليروس) وموقعه القيادي. وحركة لوثر الاحتجاجية التي بدأت بسيطة وعفوية استمدت زخمها من القوى الاجتماعية التي أيدتها ودعمتها بصفتها تشكل الملاذ الآمن لأصحاب الرؤى الجديدة.

لم تتقبل الكنيسة الكاثوليكية التحدي بداية، ورأت في الحركة «مؤامرة»، الأمر الذي فتح الباب لبدء المواجهات الدينية التي امتدّت متقطّعة من العام 1517 إلى العام 1648. حتى العام 1529 لم تكن

كلمة بروتستانتية قد استخدمت بعد، وهي استحدثت لاحقًا للإشارة إلى نمو حركة الانشقاق داخل الكنيسة، أبرزها تلك التي قادها لاحقًا جون كالفن (1509-1564) في 1530[44].

نمو حركة كالفن (فرنسي سويسري) وانتشار الكالفينية بسرعة إلى جانب اللوثرية أطلق موجة إصلاح ثانية لم يكن أيضًا بإمكان الكنيسة الكاثوليكية تحمل عواقبها وتحدياتها. حاولت الكنيسة - بداية - الرد بالأسلوب المضاد نفسه، فدعمت ظهور حركة يسوعية متسامحة وشجعت على تأسيس مواقع في العام 1545 قادرة على تشكيل مقاومة مضادة من البابوبية ضد البروتستانتية، إلا أن المحاولة فشلت. فلجأت الكنيسة إلى نهج المصالحة (مجمع ترانت 1545) وطالبت حركة المنشقين في العام 1550 بتوقيع معاهدة بين المذهبين تحدد نقاط الاتفاق والاختلاف وتمنع الانزلاق نحو هاوية المواجهة، إلا أن الدعوة جاءت متأخرة وأصبحت من مخلفات الماضي[45].

اندلعت الحروب الدينية التي جرت على ثماني دفعات، وامتدت زمنيًّا وأدت إلى دمار وحرق ونزوح عائلات واختفاء قرى وفرز مجتمعات وتقسيمها مترافقة مع إبادات جماعية. كانت الحرب شاملة، لكنها جغرافيًّا، تركزت في موضعين، فرنسا وألمانيا، وانتهت إلى تصفية البروتستانت في جنوب القارة مقابل تصفية الكاثوليك نسبيًّا في غرب القارة وشمالها[46].

ستشهد أوروبا بين 1562 و1598 (الحروب الدينية) تلك التحولات الأهم على صعيد ثورة الميكانيك ما أعطى فرصة للنخبة الأوروبية لتقديم قراءة عقلانية تتجاوز رؤية الكنيسة. فالانقسام الديني شجع على تشكيل هوامش نقدية تلبـي رغبة شريحة من المتعلمين أخذت تقرأ العالم من منظار مخالف لموقع الإكليروس. والمخالفة لا تعني بالضرورة أن دور الكنيسة في تلك الفترة انتهى أو أن نفوذ رجال الدين انكسر ولم تعد له قدرة على التأثير وإثارة العامة وجرجرة "النخبة" إلى محاكم التفتيش بتهمة الإلحاد[47].

استمر الإكليروس يلعب دوره القوي في التأثير في العامة إلى القرن السابع عشر. فهذا القرن الذي تأسست "فلسفته" على تحولات القرن السادس عشر يشكل بداية اختراق لمنظومات كانت تهيمن على ذهنية الناس منذ مئات السنين. لم يظهر التحول فجأة، وإنما تأسس على تلك المتغيرات التي شهدها القرن السابق وساهم في وضع قواعدها التاريخية لنمو القارة الجديدة.

كان هناك ما يشبه علاقات تناسب ومصاهرة بين نمو فلسفة عقلانية وتطور العلوم واختراع الآلة والاكتشافات الجغرافية. أحدثت الاكتشافات في القرن الخامس عشر ثورة في علوم الفلك (النجوم وحركة الأرض ومركزية الشمس الدوران (حول أفريقيا)، وخطوط الملاحة والخرائط). وأعطى اختراع آلة الطباعة الكتاب قيمة استثنائية في التأثير في وعي النخبة (ترجمة وتأليف). وكسرت الحركة الإصلاحية الدينية وحروب الكاثوليك والبروتستانت في القرن السادس عشر احتكار الكنيسة للمعرفة وفتحت الباب لتقدم العلوم. وأخذت المطبعة تتطور بسرعة مستفيدة من نمو علم الميكانيك في جانب وحاجة السوق في جانب آخر. واكتشفت علوم الفلك وظيفتها في عالم البحار وأخذت تتطور لتلبي حاجات سفينة أخذت تخترق المجهولات.

هذه الأنساق المعرفية المتوازية (جغرافيا، فلك، ميكانيك، مطبعة، فيزياء، طب، بصريات ومختبرات) دمجت بين الاكتشافات والاختراعات حين أخذت الآلة تلبي حاجات الأسواق التي شهدت طفرة في التجارة وتحولات في الاستهلاك والحياة اليومية. وكوبرنيكس الذي أوضح نظريته (دوران الأفلاك) في كتاب صدر في 1543 كان البداية. وبعده سيبدأ العالم يشهد ولادات عقول ستلعب دورها الخاص أو الجزئي في تقديم إضافات أو إدخال تعديلات على صورة مجتمع جديد بدأ يتأسس من رحم القديم.

كان السادس عشر قرن الحروب الدينية (الأهلية)، وأيضًا قرن الآلة ونمو التجارة واقتصاد السوق وتدفق السلع وتحسن المواصلات وتقدم نمط المعاش وبدء انكسار هيبة الإكليروس ونفوذهم القهري على عقول النخبة الأوروبية. إنه قرن تأسس على السابق، لكنه سيشهد في نهايته (العام 1596) بدء استخدام الأجهزة التقنية (اختراع المقراب) وهي آلة "التثبيت التجريبي" التي سمحت للعلماء لاحقًا بإنجاز بحوث فيزيائية وميكانيكية. واستخدام الآلة في تصحيح العلوم وتصويب المعرفة وتدقيق الحسابات والاستنتاجات والتقديرات سيكون له دوره في تطور أوروبا وانتقالها من طور السفينة إلى حقبة المانيفاكتورة[48].

آنذاك كان العالم الإسلامي/العربي يواصل تراجعه التاريخي، أو على الأقل يحاول الحفاظ على موقعه السابق بعد تلك الخسائر التي لحقت بالسلطنة العثمانية على إثر نجاح الأساطيل الأوروبية (المتحالفة) في توجيه ضربة عسكرية للبحرية الإسلامية في معركة وقعت في جنوب اليونان في العام 1571. فهذه المعركة البحرية التي كسرت الأسطول العثماني كانت من المؤشرات الجديدة على وجود

معادلة دولية أخذت ترتسم خطوطها بين قوة أخذت تنكمش على نفسها وتنغلق، وقوة مضادة بدأت تشق طريقها المستقل عن دائرة المظلّة الإسلامية التي امتدت قرابة ثمانية قرون. هذه الموقعة (معركة ليبانتو) البحرية شكلت علامة فارقة في نهاية القرن السادس عشر وأسست لنوع من الافتراق بين حضارتين في السابع عشر... وهو القرن الذي سيعيد تأسيس سلسلة تجاذبات حضارية ستكون في مجموعها العام لمصلحة الطرف الأوروبـي. هذا لا يعني أن العالم الإسلامي استسلم بسهولة إلى التفوق الأوروبـي. فالتاريخ سيشهد استثناءات كثيرة من قاعدة آليات التقدم والتراجع، لكنها لن تغير في النهاية هيكلية تلك المعادلة الدولية الجديدة التي أخذت تضغط على أطراف العالم الإسلامي. فالمعادلة الجديدة أربكت المركز (السلطنة العثمانية) ووضعته في موقع دفاعي شجع لاحقًا على نهوض مراكز قوى إسلامية إقليمية في العالم العربـي أخذت تنافس إسطنبول وتثير لها المشكلات والاضطرابات المحلية. حصل في هذا القرن (مطلع السابع عشر) تمرد في العراق ضد الحكم العثماني في 1608. وفي مطلعه أيضًا قررت السلطات الإسبانية إلغاء تعهداتها السابقة بحماية الوجود الإسلامي، فاتخذت سلسلة خطوات ضد المسلمين وقررت ترحيل غالبيتهم العظمى في السنتين 1609 و1610 فطردت قرابة 350 ألفًا منهم[49].

بسبب هذه المعادلة الدولية الصعبة قررت السلطنة الانتقال من الدفاع إلى الهجوم، فأرسلت جيشها العثماني لاحقًا إلى جبهة أوروبا الشرقية ونجحت في اقتحام النمسا ومحاصرة فيينا في 1668. ألّب حصار فيينا أوروبا ضد العثمانيين (المسلمين) ودفع الدول الشابة (الصاعدة تاريخيًا) إلى التجمع وتشكيل قوات دفاع تحالفت خلالها مختلف الدول لوقف الزحف العثماني أو ما كانت تسميه: وقف الخطر الإسلامي على المسيحية. وتحت هذا الشعار التحريضي توافقت أوروبا على محاربة الجيش العثماني، فاجتمعت مختلف الدول وشكلت قوات ضاربة (مجهزة بأحدث الأسلحة) وبدأت هجومها المعاكس على السلطنة من مختلف الجهات. روسيا (القيصرية) مثلاً أقدمت على اقتحام أوكرانيا والاستيلاء على مدينة كييف في 1681. وتحركت ألمانيا (بروسيا) أيضًا فاندفعت بقواتها نحو النمسا ونجحت في فك الحصار عن فيينا في 1683. وتواصل الهجوم على المواقع الإسلامية في أوروبا الشرقية وتلقت السلطنة ضربات عسكرية مختلفة من روسيا وألمانيا. وهذا ما أجبَر إسطنبول لاحقًا، وخصوصًا بعد انكفاء قواتها من المجر في 1687، على توقيع معاهدة كارلوفيتز في 1699 وقضت بانسحاب العثمانيين من وسط أوروبا[50].

بين معركة ليبانتو (1571) ومعاهدة كارلوفيتز (1699) حصل التحوّل الكبير في موازين القوى الدولية، إذ أخذ العالم الإسلامي (السلطنة العثمانية) يتراجع سياسيًّا أمام نمو قوة بدأت تستعيد مواقعها وتؤسس لمرحلة جديدة في علاقات الغرب والشرق، في وقت ترافقت تلك المتغيرات مع ولادة المزيد من شرائح النخبة الأوروبية.

2

الحروب، الدين والاصلاح

السابع عشر، قرن صعود العقلانية التنويرية

شكل النصف الثاني من القرن السادس عشر بداية ظهور متحولات في بنية النخبة الأوروبية مستفيدة من تلك الانشقاقات التي أصابت الكنيسة وأضعفت نسبيًّا هيبة الإكليروس. وخلال تلك العقود الخمسة ستترافق الحروب الدينية (الأهلية) مع ولادة كبار العلماء والأدمغة. ففي مدينة بيزا الإيطالية سيولد غاليله غاليليّو في 1564، وفي بريطانيا فرنسيس بيكون في 1561، وتوماس هوبز في 1588، وسيولد في مقاطعة تورين (فرنسا) رينيه ديكارت في 1591[51].

جاء هذا النمو الطبيعي للنخبة الأوروبية استجابة متواضعة للتحولات التي شهدتها القارة منذ الانتصار على وباء الطاعون في القرن الرابع عشر الميلادي، والبدء في عبور البحار وترسيم طريق جديد إلى الهند واكتشاف أميركا في نهاية القرن الخامس عشر، وصولاً إلى انقسام الكنيسة في مطلع القرن السادس عشر. وجاءت نهاية القرن السادس عشر لتكثف مجموع روافد المعرفة (اكتشافات واختراعات وكتابات) في إطار نهضوي مشترك. فالخريطة الجغرافية أسهمت في تعديل الخريطة العمرانية ـ الاجتماعية. وتطوير الآلة ساعد على تحسين وتيرة الاكتشافات البحرية. وشجعت الاكتشافات العلماء على الاختراع لتحسين أداء السفينة في عملية البحث عن المجهول.

بسبب الانسجام بين القطاعات المعرفية بدأت آفاق الخريطة الذهنية للعلماء تتغير لتلبية حاجات السوق وتغطية متطلبات التطور الذي أخذ يعصف بالتوازنات التقليدية في القارة. فالمعرفة لم تعد لذة شخصية أو محاولة إشباع ذاتية، وإنما تحولت إلى حاجة إنسانية تلبي وظائف حسية مباشرة. والتجديد

الذي طرأ على العلوم الفلكية ونظريات الرياضيات لم يحصل بداعي الترف الفكري وإرضاء الطموحات الذاتية، وإنما بدافع الحاجة وتلبية لمتطلبات السوق (البحر - السفينة). والتطور الذي حصل في علوم الفيزياء واكتشاف قوانين سقوط الأجسام والجاذبية والميكانيكا واختراع الآلات جاء في سياق تحولات شاملة أخذت تهيكل توازنات القارة ما أدى لاحقًا إلى تأثر الفلاسفة بالعلوم والتقاط معنى تطور الآلة وأبعادها المستقبلية. فالميكانيك ساهم نظريًّا في توليد اجتهادات فلسفية تقول بالتطور العقلاني الآلي وتؤكد وجود آليات تحرك قوانين الطبيعة[52].

سيشهد النصف الثاني من القرن السادس عشر بدايات تأسيس مختلف فروع العلوم التي دخلت إلى الفلسفة من جهات مختلفة، وأعادت إنتاج وظائفها وتبويب مدارسها وتنظيم منهجياتها في سياق عقلاني مختلف عن الحقبات الأوروبية السابقة. خلال هذه الفترة ستنتج القارة دفعة من العلماء. ففي إيطاليا، كما ذُكر، سيولد في مدينة بيزا عالم الرياضيات الفيزيائي والفيلسوف غاليليّو في 1564، وقبل أن يرحل في 1642، ستساهم أفكاره النظرية (الرياضيات والفيزياء) في تعديل مناهج الوعي السياسي/الاجتماعي بسبب إدخالها مادة العلوم في الدراسات الاجتماعية. فبعد غاليليّو ستتحول الفلسفة في مختلف فروعها المعرفية والإنسانية إلى علوم اجتماعية وسياسية تعتمد على نسق علمي في التحليل والتفكير نظرًا إلى تأثر جيله بنظرياته التي عرفت الشهرة والانتشار في القرن السابع عشر. جاء غاليليّو من حقل العلوم إلى ميدان السياسة في معناها الفلسفي، وقبله جاء بيكون من التجربة الميدانية السياسية إلى الحقل الفلسفي. ويشير هذا الاقتراب إلى ذاك الترابط العمراني بين تطور علاقات الاجتماع ونمو دور الدولة في قيادة التحولات السياسية. وهذا ما يمكن ملاحظته في تلك الثورة (الجمهورية الدستورية) التي قادها أوليفر كرومويل في بريطانيا[53].

حين اخترعت آلة المقراب (التي سمحت بالتثبيت التجريبي) في 1596، كان ديكارت في الخامسة من عمره. بينما استخدمها الشاب غاليليّو في بحوثه في 1609 لكشف حركة الأجرام (دوران الأرض) ومركزية الشمس. فالآلة ساعدت على تحديث النظرية، والنظرية أطلقت موجة من التقدم المعرفي، ما أثار مخاوف الكنيسة ودفعها إلى جلب غاليليّو إلى المحكمة والتحقيق معه بشأن ما توصل إليه من آراء صدرت في كتاب له في 1632.

محاكمة غاليليّو بشأن دوران الأرض (الشمس مركز الكون) سيسجل وقائعها التاريخ في العام 1633، لأن الفيلسوف (الفيزيائي) سيتراجع عن نظريته خوفًا، ويطلق سراحه ويموت وحيدًا في

1642، بينما ستبقى فكرته تستمر في الدوران حتى اللحظة.

أكدت وقائع المحاكمة أن الكنيسة كانت لا تزال تتمتع بذاك النفوذ على العامة في إيطاليا حتى العام 1633، ما يفسر تعطل إمكانات تطور الفلسفة وتجدد انطلاقها من الشمال الإيطالي (فلورنسا/ توسكانا). وأعطى تعذر حصول الفلاسفة على ضمانات وحمايات من تدخل الإكليروس، فرصة لنمو المعرفة الأوروبية خارج الإطار الكنسي وانبعاثها من أمكنة مختلفة وبعيدة عن الفاتيكان فانتقلت الشرارة الأولى إلى بريطانيا ومنها إلى فرنسا وثم ألمانيا.

لم يشهد الفيلسوف السياسي بيكون (توفي العام 1626) وقائع محاكمة غاليليّو، لكنه تابع وقائع السنوات الأولى من الحرب النمسوية - الألمانية التي اندلعت في 1618، وشهدت لاحقًا صدور بيان لايبزنغ (1631) في ألمانيا الذي فشل في وقف الاقتتال الذي استمر لمدة 30 عامًا. بيكون سيشهد بداية الحرب، وهوبز سيتابعها لتنتهي باتفاق سلمي في 1648، وهو اتفاق ساهم في استقرار القارة وظهور عصر "الدولة المركزية" المحكومة بإرادة الفرد المطلق[54].

كان والد بيكون (السير نيكولاس) خادم الدولة، ما أعطى فرصة لابنه لاحقًا بالصعود في قنواتها والاستفادة منها مستخدمًا علاقاته لتحسين مواقعه وحماية سمعته من تهمة الرشوة. وأهمية بيكون ليست في الفلسفة التي قدمها وإنما في تلك الإشارات التأسيسية ودورها في تكوين إطارات عامة للعلوم السياسية. وبيكون الذي صنف العلوم إلى ثلاثة حقول (الذاكرة وموضوعها التاريخ، المخيلة وموضوعها الشعر، العقل وموضوعه الفلسفة) طالب بنقد العقل وتجديده باتجاه العلم. فالعقل برأيه أداة تجريد وتصنيف ومساواة ومماثلة، بينما العلم يتقدم في اكتشافاته واختراعاته وحقوله المعرفية والتجريبية[55].

بدأ بيكون نشر مؤلفاته في 1597، أي بعد سنة من تجربته النيابية وتعامله اليومي بالشأن السياسي العام. وعرفت مؤلفاته الشهرة منذ ذاك الوقت، واستمر ينتج على هذه الحال إلى موعد وفاته. وفي هذا المعنى يعتبر بيكون من أبرز فلاسفة نهاية القرن السادس عشر، فهو ورث حلقة ماكيافلي، وأورثها إلى سلسلة طويلة ستأتي بعده وتضيف الكثير إلى نتاجات المعرفة الأوروبية التي ستزدهر وتنتشر في القرن السابع عشر. فهذا القرن سيشكل مفارقة نوعية في تاريخ تطور المعرفة الأوروبية في فروعها الممتدة جغرافيًّا من إيطاليا إلى بريطانيا وفرنسا وصولاً إلى ألمانيا.

أدى نقد بيكون للعقل، بناء على منهج استقرائي، إلى تحطيم دور "العقل" المركزي وتوزيع وظائفه إلى ثلاثة أنواع من النشاطات الوهمية (أوهام القبيلة، أوهام الكهف، وأوهام السوق)، وساعد على تحرير النظريات العقلية من القيود الكلاسيكية والمقدسات الدينية وأعطاه وظيفة جديدة في حقل العلوم[56].

إعادة تشكيل دور "العقل" وتحديد وظائفه المعاصرة سيطلقان موجة من التقدم في مختلف فروع المعارف العلمية والتجريبية والوضعية والبرهانية، وهي في النهاية ستتألف منها وفي ضوء سجالاتها مجموعة منظومات معرفية ستتأثر كثيرًا بالمحيط السياسي والفضاءات الاقتصادية والاكتشافات والاختراعات وتطور الميكانيك.

سينتهي القرن السابع عشر الذي بدأ في ضوء إيقاعات الحروب الدينية وتداعياتها، ومحاكم التفتيش ومضاعفاتها، ومعاقبة غاليليّو لمخالفته التعاليم الكلاسيكية، في سياقات مضادة تبدأ بتراجع موجة الحروب الدينية وانكسار نسبـي لوظيفة الكنيسة وتحطيم معقول لهيبة الإكليروس مقابل نمو قوة الدولة المركزية. فالدولة في مهماتها المضافة ستكون في القرون المقبلة مدار التجاذب والتفاوض والتناحر والتنافس... فهي كنيسة أوروبا الجديدة[57].

ماكيافلي الإيطالي فتح الباب أمام بيكون الإنكليزي. وبيكون ورديفه الإيطالي غاليليّو مهدا الطريق لظهور أعظم فلاسفة القرن السابع عشر توماس هوبز. يعتبر هوبز الذي ولد في 1588، مؤسس علم السياسة الحديث، فهو قرأ كتابات بيكون، وتأثر بنظريات غاليليّو الفيزيائية، ونجح في نقلها إلى حقل الاجتماع السياسي، وأسس عليها نظرياته وبرامجه في إصلاح الدول وتطوير وظائفها ودورها وموقعها في سياق التنافس مع الدين. عاش هوبز عمرًا طويلاً - على عكس رديفه الفرنسي ديكارت - الذي ولد بعده في 1591، وتوفي قبله في 1650. عاش ديكارت عمرًا قصيرًا (59 سنة) قياسًا بهوبز، وألف كتبه التأسيسية قبل ان يظهر مؤلف هوبز المهم المعروف بـ (Leviathan). وبسبب هذه المفارقة الزمنية بين الفيلسوفين، الإنكليزي (هوبز) والفرنسي (ديكارت) احتدم النقاش ولا يزال على من له الفضل في تسجيل الصدمة، وإحداث تلك النقلة النوعية على مستوى تطور الفلسفة الأوروبية المعاصرة. أصحاب ديكارت يتمسكون بسنة الوفاة (قبل هوبز) وصدور كتبه المهمة تباعًا منذ 1620، وصولاً إلى كتابه "مبادئ الفلسفة" في 1644. وأصحاب هوبز يتشبثون بميلاده (قبل ديكارت) ووفاته (بعد ديكارت) ويهملون فترة صدور كتابه التأسيسي الأول الذي ظهر بعد سبع سنوات

من كتاب ديكارت التأسيسي الرابع. من سبق الآخر، ديكارت أو هويز، ليس هو المهم في المسألة. فالنقاش لا يلغي أهمية الثنائي هوبز/ديكارت في إعادة صوغ الذهنية الفلسفية في أوروبا ونقلها من مكان إلى آخر. فبعد هذا الثنائي لن تتوقف القارة عن تخليق نخبتها في حلقات متتابعة ستنتج منها تصورات سياسية/فلسفية وستلعب دورها في تحريك عجلات التطور المعرفي[58].

سيكون هوبز، فيلسوف "الوحش" الصاعد وصاحب نظرية القوى الكلية في صلاحيات الدولة وإدارتها للحكم المطلق. فهذا الفيلسوف ليس مثاليًّا في تفكيره لأنه اكتشف باكرًا صعود القوة البديلة (الدولة/التنين) ودورها التاريخي في إعادة تصنيع المجتمع وتكسير أدوات السلطة الكنسية.

هوبز، كما ذُكر، ولد قبل ديكارت وتوفي بعده. ولهذا يعتبر زمنيًّا هو السابق، الأمر الذي أتاح له حين بلغ 54 سنة من عمره معاصرة الحرب الأهلية البريطانية في 1642. فهذا الفيلسوف عاصر بيكون وغاليليّو وكرومويل وأيضًا ديكارت، وشهد الكثير من التحولات في عمره الطويل، الأمر الذي اعطاه ميزة شمولية في الإطلال على مجموعة قراءات وسياسات مكنته من تأسيس علوم حديثة ترد اجتماعيًّا على حاجات التطور العمراني ومتطلباته. ولهذا السبب تصادم هوبز كثيرًا مع رجال الدين، واضطر مرارًا إلى مغادرة بلده ونفي أيضًا إلى فرنسا بسبب الخوف عليه أو خوفًا على أفكاره التصادمية. وبرأي روسو، إن "الفيلسوف هوبز، من بين جميع مؤلفي النصارى، هو الذي أبصر الشر جيدًا وعالجه، وهو الذي جَرُؤ على اقتراح جمع رأسي النسر وردِّ كل شيء إلى الوحدة السياسية التي لا تكون الدولة، ولا الحكومة، حسنة التنظيم بغيرها (...)"[59].

عاش هوبز 91 سنة بكامل وعيه الذهني، وعاصر الكثير من التحولات في أوروبا، فهو زار فرنسا في 1634 ودخل في سجال فلسفي مع ديكارت، ما اضطر الأخير إلى الرد عليه، وزار إيطاليا في 1636 والتقى غاليليّو، وعايش اندلاع الحرب الأهلية في بريطانيا التي أعقبت الثورة الجمهورية التي قادها أوليفر كرومويل، وأيضًا شهد توقيع السلام بين النمسا وبروسيا ونهاية حرب الثلاثين عامًا وبدء الاستقرار النسبي في أوروبا في 1648 لمصلحة صعود دولة "الحكم المطلق"[60].

كل هذه العينات التاريخية أسست قواعد منهجية في تفكير هوبز ووضعته في موقع الخائف من صعود التنين (Leviathan) كما جرى وصفه في سفر أيوب. فالدولة التي تخوّف منها قصد بها الحكم المطلق الناجم عن رد الفعل على الفوضى المطلقة. فالفوضى التي تتجاوز القانون وتحتقر الصلاحيات وتمارس سياسة تسلّط الفرد على الجماعة تعطي شرعية للحكم المطلق باسم الدستور.

صدر الكتاب (التنين) في 1651، وهو جاء رد فعل على "الفوضى الجمهورية" التي افتعلتها ثورة كرومويل (الحرب الأهلية الإنكليزية 1642-1648) وانتهت بسقوط أكثر من مئة ألف قتيل، ما دفع هوبز إلى محاكاة الحكم المطلق الذي يمنع الأفراد من التخاصم والتنابذ ويضع السلطة العامة في قبضة حكومة ملكية دستورية لا بإشراف "ديموقراطية أرستقراطية" ترفض الطاعة ولا تحترم القوانين[61].

تعتبر ثورة كرومويل، من أوائل الثورات الجمهورية وأبرزها في تاريخ أوروبا الحديث، وهي انتهت إلى تأسيس نزعة استبدادية تسلطية (الانفراد بالحكم) أسهمت لاحقًا في سقوطها وعودة الملكية (دستورية هذه المرة) إلى الحكم. ولد كرومويل في 1599، بعد 38 سنة من مولد الفيلسوف (والسياسي) بيكون. وعلى رغم الفارق الزمني بينهما فإن هناك الكثير من المصادفات تجمعهما. ولد كرومويل في المنطقة نفسها ودرس أيضًا في كامبردج المدينة التي عاش ودرس فيها بيكون. كذلك أدرك الثائر السياسي كرومويل الفيلسوف السياسي بيكون قبل وفاته واطلع على كتبه وأبحاثه. إلى ذلك، وهذا هو الأهم، تعاطى كرومويل الشأن السياسي ودخل مجلس العموم البريطاني. تعني هذه المصادفات الكثير لفهم تلك الصلة بين السياسة والدين واتصال الفلسفة بالتحولات العمرانية (الاجتماع البشري).

كان كرومويل السياسي ينتمي إلى تيار مسيحي/بروتستانتي أصولي (البيوريتان) يتميز بنزعة دينية تطهرية ويدعو إلى نوع من النقاء الديني. وبسبب هذه النزعة الأصولية تعامل مع السياسة من موقع تطهري (النقاء الديني) الأمر الذي دفعه إلى العنف وتنظيم ثورة انقلابية، ما أدى إلى تفجير حرب أهلية بين الجمهوريين والملكيين امتدت سبع سنوات وتوجت بإعدام الملك البريطاني تشارلز الأول في 1649.

توفي كرومويل في 1658، بعد أن فشل في توريث ابنه السلطة الجمهورية، إلا أن ثورته الدستورية العنيفة تركت تأثيراتها السياسية على مجرى تطور المعرفة. فبعد كرومويل وخلال حياته أخذت "النخبة" تعيد النظر بالكثير من العناصر التي تلعب دورها في دفع الناس نحو التحوّل الاجتماعي. فالثورة أحدثت نقلة نوعية في اكتشاف ذاك الارتباط العميق بين العمران والدستور ودور الدين في الدفع نحو التطور، وموقع الدولة في قيادة ذاك التحول وتنظيمه. وسيظهر دور هذا التأثير السياسي المباشر لاحقًا في ترتيب الوعي الفلسفي للنخبة الأوروبية في القرن السابع عشر، وهو القرن

الذي سيشهد تحولات كبرى في سياق التطور المعرفي للقارة الجديدة وبدء تخوّف النخبة من نمو القوة الفائضة للدولة[62].

لم تلقَ دعوة هوبز إلى الاستبداد التجاوب لأنها ليست حقيقية، ولأن أوروبا بدأت تتطور سياسيًّا نحو ما أسماه لاحقًا جان جاك روسو بـ "العقد الاجتماعي" مستفيدة اقتصاديًّا من حركة الإنتاج التي ولّدتها الاكتشافات والاختراعات مترافقة مع نمو منهج الشك الديكارتي العقلاني[63].

اختلفت حياة ديكارت عن حياة هوبز. وبسبب اختلاف ظروف البيئة السياسية/الثقافية اختلفت أحواله. ديكارت الذي يعتبره أنصاره، وهيغل من بينهم، مؤسس الفلسفة الأوروبية الحديثة خدم في مطلع حياته جنديًّا مع الحركة البروتستانتية المنشقة عن الكنيسة الكاثوليكية. إلا أنه عاد وانقلب على حركة الإصلاح الديني في فرنسا وانضم إلى الكاثوليكية وخدم في الجيش البافاري. ومنذ شبابه برز كناشط في حقلي الرياضيات والفلسفة. فهو فيلسوف وعالم رياضيات. وربما أسهم هذا الجمع بين الحقلين في تشكيل وعي متقدم ساعده على تأليف كتابه الأول في 1620، وهو في عمر الشباب (29 سنة). ثم ألف الثاني في 1634، وهو في عمر 43 سنة، ثم كتابه الثالث في عمر 50 سنة وصولاً إلى الرابع (مبادئ الفلسفة) في 1644. عاصر هذا الفيلسوف الشاب تحولات عصره والصراعات الدينية وانشقاقات الكنيسة الكاثوليكية وكان قريبًا من الدولة حين وجد فيها القوة القابضة، والقادرة على قيادة التحول الاجتماعي، وصوغ شخصية دستورية معاصرة تتناسب مع التطور العمراني.

يعتبر ديكارت مؤسس الفلسفة العقلانية حين ربط الفكر بالوجود والعقل بالواقع. إلا أن ديكارت العقلاني صاحب فلسفة تعرف مجازًا بكوجيتو (cogito) كان ابن عصره ونتاج تحولات عمرانية طرأت على بيئته الثقافية. فهو لم يخترع الحداثة والنزعة العقلانية، وإنما الحداثة (العمرانية) أسهمت في إنتاج الحاجة نحو تأسيس عقلانية في التفكير الفلسفي فرضتها ظروف التطور ومأزق العلاقة بين الدين والدولة. وفي هذا المعنى التأسيسي اختلفت اهتمامات ديكارت الفلسفية عن اهتمامات هوبز السياسية.

ولد ديكارت، كما ذُكر، في 1591 بعد هوبز بثلاث سنوات وتوفي قبله بنحو 30 سنة. فالفيلسوف الفرنسي عاش 59 سنة، لكنها كانت كافية لإعادة إنتاج قواعد الشك (الثنائية الديكارتية) في إطار رؤية معاصرة تتناسب وتلك المتغيرات التي شاهدت النخبة الأوروبية ملامحها الفكرية والثقافية والدينية والعلمية. فالمثقف الأوروبـي بدأ يستكشف معالم إيجابية في التقدم، كما أعطته الاختراعات

حماية علمية لقراءاته واستنتاجاته. كذلك الفلسفة أخذت تتأثر بالعلم وترتبط به، وبدأت العلوم بأنواعها تعيد إنتاج المنظومات الفلسفية وفق آخر ما توصّل إليه الإنسان من ابتكارات[64].

ديكارت مثلاً تأثر بإعلان العالم ويليام هارفي (1578-1657) اكتشافه للدورة الدموية في 1628 فقام بالبناء على ذاك الاكتشاف الطبي سلسلة تفسيرات تحاول الربط بين العلم والفلسفة والعقل. وهذا ما فعله هوبز من جانبه، كذلك سيفعله الكثير من الفلاسفة لاحقًا في اعتبار أن وظائف العقل أخذت تتخطى حقبة التأمل إلى طور تجريبي أرقى يحاكي العلوم والآلة. وبما أن العلم في حال تطور دائم يصبح العقل مجرد شاهد تجريبي يفكر ويقرأ ويفسر أسباب ذلك التقدم. فالعقلانية التنويرية منذ النصف الثاني من القرن السابع عشر ستنجح في اختراق الحاجز التأملي للعقل، وإقحامه في حقول المعرفة التجريبية وما تنتجه من اختراعات (آلات) تلبي حاجات السوق وطموح الإنسان.

اكتشاف "النخبة" تلك الوظائف المعاصرة للاختراعات ودور الآلة وقوانين الفيزياء وقواعد الهندسة في تحديث الحياة العامة، أعطى بدوره قوة دفع جديدة وساعد المثقف الأوروبي في تطوير مقولاته وشجعه على اختراق الممنوعات والمقدسات. وديكارت جاء في سياق تطور طبيعي للمعرفة حين كان العلم الحديث يعاد تشكيله من خلال المنهج التجريبي والاستدلال الرياضي - الفيزيائي للتعرف إلى الظواهر الطبيعية ومحاولة تفسيرها بعيدًا عن منطق أرسطو أو عن التفسير الديني للتاريخ.

عاصر ديكارت محاكمة غاليليّو واطلع على اعترافاته ما دفعه إلى تأخير الكثير من أطروحاته أو إهمالها أو الاشتغال على غيرها من حقول حتى لا يستنفر العامة ويستفز الكهنوت (الإكليروس) لذلك لجأ إلى منطق الشك بقصد اكتشاف اليقين (الحقيقة). وتكمن أهمية ديكارت في هذا النهج التصالحي لأنه أعطاه فرصة للتهرّب من المواجهة وترك له مساحة للجمع بين الهندسة والرياضيات في إطار البحث عن منهج جديد يسعف على التفكير ويتجاوز تلك الكلاسيكيات الأرسطية المتوافق عليها منذ قرون. وأوصل بحث ديكارت عن بدائل إلى كتابة "مقال في المنهج" وصولاً إلى "مبادئ الفلسفة" وانتهاء بمقولة "أنا أفكر إذن أنا موجود"[65].

على وقع "أنا أفكر" أنهى ديكارت وضع مقدمات الفلسفة المعاصرة لكنه لم ينجح في التوصل إلى صوغ نهاياتها. فالنخبة الأوروبية التي تأسست على قواعد جديدة في التفكير ستبدأ من هذه المقدمات الأولية (التمهيدية) نشاطها لإعادة هيكلة رؤى تتناسب مع تحولات متسارعة أخذت تشهدها القارة.

فأوروبا منذ القرن الخامس عشر لم تتوقف عن التطور والاكتشافات والاختراعات. وكان كل تقدم في العلم أو اكتشاف أو اختراع يترك تأثيره آليًّا على فكر "النخبة" وينتج مقولة تتجانس مع ما توصلت إليه التقنيات من وظائف جديدة تطرح على الإنسان تحديات وقراءات واستنتاجات مغايرة للمألوف والمتوارث. فالعلوم في تلك اللحظة بدأت تتجاوز حدود العقل وأخذت تضخّ إليه المعرفة لإعادة تشكيل وعيه[66].

عبور العقل إلى المعرفة التجريبية

لم ينتهِ القرن السابع عشر برحيل ديكارت. السلسلة طويلة وهي تشمل أسماء تأثرت بمنهج ديكارت وقواعده المنطقية الهندسية الأربع، وأسماء تجاوزت العقلانية دافعة التفكير نحو اتجاهات مضادة تبحث عن أدلة علمية تتجاوز البراهين النظرية وتتجه نحو العلوم التجريبية.

عرفت فلسفة ديكارت شهرة أوروبية وانقسم الأكاديميون ورجال الدين عليها، فعارضها البعض بذريعة أنها تخالف منطق أرسطو ومدرسة توما الإكويني وتعارض القراءة الدينية للنشوء والكون، وأيدها البعض في اعتبارها تشكل عودة عاقلة إلى "مملكة الله" التي قال بها الفيلسوف أوغسطين.

تأسس انتشار أفكار ديكارت على نمو وعي شرائح اجتماعية نخبوية جديدة في أوروبا أخذت تبحث عن تفسيرات تتجاوز حدود المألوف والقراءات المتعارف عليها. حتى الفئات المتدينة لم تعد مقتنعة بالكثير من تلك المقولات الجاهزة ما جعل الكثير من رجال الدين يتجهون نحو الاشتغال على الفلسفة والعلوم والدخول في نقاشات جدلية للرد على تلك الأسئلة الحائرة بين الدين والعلم.

اعتمد ديكارت، كما ذُكر، على علوم عصره والاكتشافات التقنية والجغرافية والطبية (التشريح) والهندسية والفلكية التي طرأت على أوروبا بعد القرن الرابع عشر ليصوغ منهجه الفلسفي الحديث المضاد للفلسفة الكلاسيكية (أرسطو) فأكد "أن العقل أداة شاملة، يمكن أن تستعمل في جميع المناسبات". والفارق بين الحيوان والإنسان هو في الإحساس والتعبير (العقل والانفعال).

أطلق ديكارت على منهجه "الفلسفة العملية" عوضًا "عن هذه الفلسفة النظرية التي تدرّس بالمدارس". ويقوم نظام الطريقة الذي توصل إليه على ثلاث آليات: العثور على المبادئ أو الأسباب الأولى (تقديم النتائج على الأسباب)، فحص النتائج التي يمكن استخلاصها، التجارب (ارتباط النتيجة

بالمبادئ من خلال التجربة). وتعتمد الآليات على ثلاث أدوات: العين (الرؤية والمشاهدة)، الأصابع (التحسس)، والحرارة (التجربة).

إلى الحس المشترك، والذاكرة، والحفظ، والمخيلة أخذت الاكتشافات الطبية تلعب دورها في توضيح السبب الحقيقي لحركة الدم (اكتشاف هارفي الدورة الدموية الكبرى) إضافة إلى الوظائف الخاصة للغدة الصنوبرية، ونظرية الضوء وانكساره. برأي ديكارت أن الفكر والحواس واعتماد المنهج كلها تساعد على معرفة الأشياء وشرحها[67].

تكمن أهمية ديكارت أنه شكل إشارة إنذار مبكر لرجال الكنيسة في عصره لأنه جاء من قوة اجتماعية (أسر النبلاء) أخذت ترفد الدولة "الجديدة" بعناصر توتر من داخل قنواتها التقليدية. فالكنيسة المتحالفة تاريخيًّا مع الأرستقراطية وتعتمد على طبقة الملاك لدعم مهماتها الروتينية بالمال، بدأت تكتشف نمو قوة مضادة لنفوذها من داخل شبكة تلك العائلات والأسر (فئة النبلاء) المتحالفة تقليديًّا معها.

أعطى ديكارت تلك الإشارة السلبية بوجود نوع من الانكسار في دائرة نفوذ الكنيسة. فهذا الفيلسوف جاء من عائلة أرستقراطية مثقفة تهتم بالعلم. جده جندي يهتم بالطب، والده مستشار في برلمان رين، والدته ابنة جنرال. وديكارت درس في معهد يديره اليسوعيون لتربية وتعليم أبناء نبلاء وعائلات ميسورة.

مفاجأة ديكارت أنه ترك المعهد (مجازًا في الحقوق) واتجه إلى الجامعة لدراسة العلوم. لكنه انخرط في الجندية وتجوّل وسافر إلى هولندا (الصاعدة آنذاك) التي كانت في حال حرب مع إسبانيا، وتعلم مهنة القتال إلى جانب الرياضيات والموسيقى والفلسفة.

قصة ديكارت مهمة لأن سيرته الشخصية تعطي لمحات عن مسار تحولات بدأت تشهدها "نخبة" القارة في لحظة الانتقال إلى عصر الثورة الصناعية. وديكارت الأرستقراطي الذي انخرط في جيش بافاريا "الكاثوليكي" ولجأ إلى مدينة ألمانية ليعود منها إلى باريس في ظل حكم لويس الثالث عشر اكتشف، بعد 9 سنوات من التجوال، أن علومه لم تعد تسمح له بتقبل ما يرفضه العقل.

بسبب عدم استطاعة ديكارت تفهم حاجات دولته الكاثوليكية في عهد ريشيليو وصراعها ضد دولة الإنكليز البروتستانتية، قرر مغادرة فرنسا إلى هولندا "الليبرالية". وهناك عاش 20 سنة يسجل أفكاره ويخوض في الآن صراعات من نوع آخر مع اللاهوتيين البروتستانت.

اتّهم ديكارت بالإلحاد وأحرقت كتبه وهدد بالقتل فاضطر إلى اللجوء إلى السويد وهناك مات في 1650. وحين نقل رفاته في 1666 إلى فرنسا في عهد لويس الرابع عشر دفن في الكنيسة من دون صلاة بأمر مباشر من الملك الفرنسي.

آنذاك كانت الكنيسة استوعبت فلسفة أرسطو التي حاربتها طويلاً في القرون الثلاثة السابقة، وتحوّلت إلى نصير لها تحارب كل فيلسوف يفكر في نقد أرسطو أو تجاوزه. وديكارت صاحب المنهجية المخالفة للفلسفة الكلاسيكية كان أحد أبرز الوجوه المتمردة لأنه شكل ذاك التحدي من داخل مصادر الثروة والقوة المتمثلة في تحالف العائلات الأرستقراطية مع الكنيسة.

لم يكن ديكارت وحيد عصره. فالزمن الأوروبـي دخل في موجات متتالية من التقدم. وكانت "النخبة" تلاحظ بسرعة مدى تأثير التطور العلمي/التقني على حياة العامة، الأمر الذي يفسر نمو نزعة التنافس والتفاؤل والإحساس بفوائد الآلة وأهميتها في تعديل نمط معاش الإنسان. يمثّل ويليز باسكال الذي ولد في كليرمون (فرنسا) في 1623 (والده موظف دولة) ذاك النموذج عن ولادة قوة جديدة أخذت تجمع العلوم وتربطها في سياق واحد بهدف إنتاج نظرية جديدة تخدم الناس.

حاول ديكارت الجمع بين الهندسة والجبر (الحسابات) والرياضيات والطب ليؤسس منهجية هندسية تحليلية تقوم على المنطق الفلسفي. وباسكال، الذي لا يصنف من الفلاسفة، اجتهد بإشراف مباشر من والده في دمج الرياضيات بالهندسة بالفلسفة. وبسبب وظيفة والد باسكال (جابـي ضرائب) أقدم الابن على اختراع آلة حاسبة تساعد الأب على الجمع والطرح والضرب وتوفر عليه إضاعة الوقت في جمع جداول الضرائب.

أدهش اختراع باسكال جيله في 1649 - أي قبل سنة من رحيل ديكارت الذي لم يكن يحب طموحات الشاب وعبقريته - حين تركت نظرياته الحسابية (التفاضلية) تأثيراتها اللاحقة في النخبة الأوروبية. فهذا الشاب العبقري نجح في العام 1648 في ربط قوانين توازن السوائل بمبادئ الميكانيكا العامة ما أثار حنق ديكارت لأنه دحض تجريبيًّا تأملاته النظرية[68].

لم يعش باسكال العبقري كثيرًا إذ توفي في دير كاثوليكي وحيدًا يعاني من أمراض الإرهاق الناجم عن المعاناة في التفكر والزهد والتصوف. فهذا الشاب أدهش جيله باختراعاته واكتشافاته ونظرياته وتجاربه قبل أن يبلغ الثلاثين من عمره. ونجح في تلك الفترة القصيرة في ابتداع مكتشفات

نظرية ساهمت في تطوير علوم الرياضيات من خلال التجربة (الاختراع) لا الاستدلال. فالتجربة أوصلته إلى تأسيس نظريّة "حساب النهايات" التي تدمج بين حساب التكامل وحساب الاحتمالات، وهي نظرية كانت محط إعجاب وتركت تأثيرها في تيار من الفلاسفة لاحقًا.

توفي باسكال في 1662 (39 سنة) متدينًا بعد أن مرَّ في فترة زندقة وضياع، نتيجة عدم قدرته على الربط بين العقل والقلب أو ما كان يسميه التمييز بين الروحية الهندسية وروحية الدقة. لن تذهب جهود باسكال هدرًا، إذ سيتعرف إليه الفيلسوف الألماني (عبقري عصره) غوتفريد فيلهلم ليبنتز، ويأخذ عنه في مطلع شبابه أيضًا معادلة المفاضلة الحسابية ويقوم بتطويرها فلسفيًا. وليبنتز الذي لا يزال يصنف على أنه الإنسان الأذكى الذي أنجبته أوروبا تعرّف أيضًا إلى الفيلسوف باروخ سبينوزا الذي أطلعه على كتابه عن "الأخلاق" لأخذ رأيه قبل النشر.

ولد سبينوزا في أمستردام في 1632 وتوفي شابا في 1677 (45 سنة)، وهو يعتبر حلقة وصل بين الفلسفة العربية - الإسلامية والفلسفة الأوروبية المعاصرة. فهذا الفيلسوف الشاب تأثر بكتاب الفيلسوف اليهودي العربـي موسى بن ميمون (دلائل الحائرين) المعجب بفلسفة ابن رشد ومنهجه الفقهي. وبسبب تلك الصلة البعيدة بين الفيلسوفين تشكلت منطقة وسطى عند سبينوزا تربط الدين بالفلسفة والفقه بالعلم ما دفعه إلى الاشتغال باكرًا بمبادئ فلسفة ديكارت والطرق الهندسية التي ابتكرها للبرهان على صحتها. وجاءت باكورة مؤلفات سبينوزا في 1660 لتضعه في مصاف كبار العاملين في حقل الفلسفة العقلية المعاصرة، ما أدى إلى تحويله نموذجًا يحتذى في وسط جيله الحائر والباحث عن مرشد يدل الحائرين على الطريق (المنهج) الذي يجمع بعقلانية هندسية بين الواحد والكثرة[69].

يشكل سبينوزا نقطة إضافية في نهايات القرن السابع عشر، وذلك لأسباب مختلفة، منها انه ولد في عائلة يهودية. وبسبب يهوديته نجح في دراسة العبرية وتعلم التوراة والاطلاع على الفلسفة الإسلامية التي تُرجمت أهم نصوصها إلى اللاتينية. اكتشف سبينوزا أهمية نظريّة ديكارت (الشك العقلي) من خلال معرفته بأصولها التاريخية وصلاتها البعيدة والقريبة بالمنهجيتين الغزالية (الغزالي) والرشدية (ابن رشد). وبسبب هذه الإطلالة على القديم (الغزالي وابن رشد وابن ميمون) والجديد (ديكارت) نجح سبينوزا في شرح نظرية الشك في كتاب "مبادئ فلسفة ديكارت" الذي صدر في 1664. ثم ألحقه بكتاب آخر عن "اللاهوت والسياسة" أو الدين والسياسة في 1670، مؤكدًا فيه ما ذهب إليه ابن رشد في وقت سابق وهو أنه لا تعارض بين الدين والفلسفة، وهناك أيضًا صعوبة في التوفيق

بينهما. حاول ابن رشد في الكثير من مقالاته الإشارة إلى عدم التعارض بغية التوفيق ما بين الشريعة والفلسفة وفشل بسبب تلك الاعتراضات السياسية التي نهضت ضده في عصر دولة الموحدين الأندلسية. تكرر الأمر مع سبينوزا الذي تعرض لمحاولات قتل فاضطر إلى مغادرة مدينته، ثم هرب ثانية من مدينة بوسبرغ في 1663، منتقلاً إلى لاهاي ليتعرف إليه هناك الفيلسوف ليبنتز في 1676. وفي لاهاي عاش سبينوزا الشطر الأخير من عمره لشرح وجهة نظره التوليفية التي تؤكد عدم التعارض بين الدين (الشريعة) والعقل (الفلسفة). وحين مات في 1677، كان سبينوزا أنهى تأليف كتابه الأهم الذي يتحدث فيه عن أصول "النظام الأخلاقي" وأسسه.

في كتابه عن "علم الأخلاق"، اعتمد سبينوزا في فلسفته منهج الرياضيين في الهندسة (فلسفة على النمط الهندسي) متأثرًا بمنهج ديكارت (انتقد طريقته في موضوع الغدة الصنوبرية) وفلسفة هوبز. اختلف سبينوزا عن سلفه ديكارت في نقطة الانطلاق (البدء) إذ بدأ من المطلق (الذات الإلهية) بوصفه مبدأ نشوء المعرفة الإنسانية وتكوينها. في رأيه "الكائن اللامتناهي يتألف من عدد لا محدود من الصفات تعبّر كل واحدة منها عن ماهية أزلية ولا نهائية" و"الأحوال ليست شيئًا سوى تحولات لصفات الله"، و"نظام الأفكار وترابطها هو عينه نظام الأشياء وترابطها"، و"المعرفة من الحدس والعقل هي التي تعلمنا التمييز بين الحق والباطل"، وأن "الأشياء المنسوبة إلى الماضي أو الحاضر أو المستقبل سنتخيلها كلها ممكنة"، وأن "الفكرة تنطوي، من حيث هي فكرة، على الإثبات أو النفي"، والإنسان الحر "تتمثل حكمته في تأمل الحياة لا في تأمل الموت"، والإنسان الحر "لا يستهدي إلا بالعقل"، و"سعادة الإنسان تستكمل في عقله"[70].

أهمية سبينوزا أنه اتبع أسلوب ديكارت في البحث عن منهج جديد للاستدلال والمعرفة. لذلك حين صنّف ضروب المعرفة على ثلاثة فروع (معرفة بالتجربة المجملة، معرفة عقلية استدلالية، ومعرفة عقلية حدسية) اعتبر أنه يتابع ديكارت في جانب ويخالفه في جانب آخر حين ربط الخلود بالوعي العقلي، وأعطى "العقل" مهمة تاريخية وهي ملاحقة الحقائق السرمدية والتعرف إليها حتى تستمر قيمتها الوجودية.

جاءت شجاعة سبينوزا في اقتحام "المقدسات" و"الممنوعات" و"المحرمات" في فضاء شهد متغيرات في بنية الوعي وبدأت خلاله الاختراقات العلمية تتقدم في عصره على أكثر من صعيد بسبب نمو مراكز قوى معادلة أو منافسة للإكليروس ونفوذه التقليدي على العامة. فأوروبا الآن قطعت الأشواط

الزمنية المطلوب تحقيقها في سياق الانتقال من التفسيرات الدينية إلى التفسيرات المنطقية (التأويلات) إلى التفسيرات العقلانية. وما أنتجه بيكون وهوبز وديكارت وسبينوزا من قراءات فلسفية - سياسية وعلمية - هندسية ورياضية معاصرة يشكل بداية طريق طويل أخذت النخبة تكتشف قنواته الخاصة في إطار نمو تحولات اجتماعية، اقتصادية وثقافية سيكون لها تأثيرها التنويري على السياسة أيضًا[71].

ستدخل أوروبا في النصف الثاني من السابع عشر طور القيادة البريطانية للفكر الفلسفي المعاصر بفضل دور تلك الطلائع السياسية والاقتصادية التي أنتجت مقولات عن الحرية سيكون لها تأثيرها الخاص في الكثير من المدارس الليبرالية في الحقبات اللاحقة. وجاء ظهور هذا النوع من الفكر السياسي الليبرالي في سياق الانسجام مع التحولات التي تلت الاضطرابات الدينية (الطائفية - المذهبية) والانقلابات العنيفة على الدساتير، قبل الانتقال إلى فترة عَرَفت خلالها القارة حالات من الاستقرار والسكينة ما شجع على نمو رؤى تطالب بالمساواة والعدالة والحرية، وتؤكد مقولات التسامح والتساكن والتعايش والقبول بالآخر والاعتراف برأي المختلف[72].

تشكل هذا التيار الليبرالي فلسفيًّا في إنكلترا التي دخلت في حرب أهلية مبكرة (العام 1642) وحروب تجارية مع هولندا والدنمارك انتهت باتفاقات في 1667، وأخيرًا ازدهار الحياة الملكية الدستورية في بريطانيا وتطورها وصولاً إلى بلورة صيغة تعايشية مرنة حديثة ومعاصرة في 1688. ففي هذا الفضاء المستقر نسبيًّا بدأت تزدهر أفكار التسامح والحرية ونشر العلم في وقت كانت فرنسا دخلت في عصر وحدة الدولة المركزية بقيادة العائلة المالكة (لويس الرابع عشر حكم فرنسا من 1643 إلى 1715).

تحوّلت بريطانيا بين القرنين السابع عشر والثامن عشر نموذجًا أوروبيًّا يحتذى في وقت كانت لا تزال القارة تشهد في بعض زواياها اهتزازات وانتفاضات وثورات. بريطانيا بعد الثورة الجمهورية (الحرب الأهلية) ستنتج موجة نخبوية من كبار العلماء والفلاسفة والمخترعين ورجال الدولة والاقتصاد ما سيكون له تأثيره الكبير في تشكيل مدارس اجتماعية وسياسية واقتصادية في عالم بات لا يعرف الاستقرار الذهني ولا يعترف بالحقائق كما هي[73].

لم تستقر المدرسة الإنكليزية المادية (الوضعية والتجريبية) إلا بعد حركة احتجاج بدأت طوباوية، حين تمرد توماس مور (1478-1535) على الملك ورفض الاعتراف به بوصفه رئيسا للكنيسة ما أدى إلى قطع رأسه. مور الذي رحل قبل ولادة بيكون وماكيافلي بثلاثين سنة ألّف كتابه عن

المدينة الفاضلة (اليوتوبيا) في لحظة انتقالية، ما يعتبر إشارة سياسية مبكرة إلى نمو نزعة مثالية تطالب بالمشاركة في الإنتاج والتوزيع. وسيكون لحركة مور الطوباوية الشاعرية دورها الخاص في تثوير الاجتهادات العقلية التي بدأت إرهاصاتها مثالية في الانتفاضة في القرن السادس عشر وأخذت تتدرج وصولاً إلى عقلانية نيوتن وواقعية لوك في القرن السابع عشر[74].

صعود الليبرالية إلى جانب الدولة القومية

أهمية جون لوك أنه يجمع بين الرؤية والتجربة. وأعطت سيرته الشخصية التي تربط الجانب السياسي بالجانب النظري فلسفته قوة تجريبية كان لها دورها لاحقًا في التأثير على قادة الثورة الأميركية حين استلهم رموزها أفكاره عن الحرية والتسامح خلال كتابة دستور الولايات المتحدة.

مبدئيًّا يخالف لوك رأي هوبز في الإنسان وتصويره لتلك الرؤية المتوحشة في التعامل مع مبادئ العدالة والمساواة. لوك أكثر انفتاحًا على عصره، وظروفه اختلفت عن ظروف هوبز بعد أن قرر التصالح مع الواقع.

ولد لوك في منطقة بريستول في 1632 وتأثر بوالده المحامي الذي انخرط في الحرب الأهلية دفاعًا عن البرلمان؛ ما أعطاه تجربة غنية بالسياسة وهو في سن الطفولة والشباب. وخلال دراسته اللغات القديمة في مدرسة وستمنستر اطلع على كتب فلسفية وأخرى لها صلة بالعلوم قبل أن ينتقل إلى جامعة أكسفورد لمتابعة دراساته الدينية.

قرر لوك مغادرة حقل الفلسفة والانتقال إلى دراسة الطب. وبعد اتصاله في 1666 بالسياسي المشهور اللورد أشلي (كونت شفتسبري) أصبح مساعده وطبيبه لمدة ثلاث سنوات. وحين تجدد الصراع بين البرلمان والملك غادر إلى فرنسا بين 1672 و1679 وثم هولندا بين 1683 و1689 وعاد إلى إنكلترا بعد استقرار الوضع مقرِرًا اعتزال الوظائف العامة والتفرغ للكتابة[75].

يعتبر لوك الأهم من بين كل أقرانه نظرًا إلى تأثيره السياسي المباشر في زمنه، ثم تأثيره غير المباشر في زمن غيره. فهو كان أحد أبرز المؤسسين للفكر السياسي المعاصر في زمنه وزمن غيره. وهذا ما أشار إليه برتراند راسل حين أوضح كيف أن لوك نجح في أن يوصل أفكاره التجريبية (نظرياته السياسية) إلى جيله ويجعلها مقبولة لدى الكثير من معاصريه، الأمر الذي أعطى لفلسفته قوة

للاستمرار والتواصل، ما جعلها تؤثر مباشرة في نخبة رجال الاستقلال في الولايات المتحدة في لحظة إعلان قيام الدولة الأميركية.

ربما تكون المصادفات قد لعبت دورها في إطلاق فلسفة لوك السياسية ونشرها، إلا أن هذا الفيلسوف في النهاية كان نتاج تراكم المعرفة التي شهدت طفرة في عصره وخصوصًا تلك التي صاغها ديكارت على الصعيد الفلسفي الوجودي (نظرية الشك) أو على الصعيد الفلسفي السياسي (تنين هوبز). لم يكن لوك خارج ذاك السياق التطوري، لكنه شكّل إضافة نوعية أعطته ميزة التعلم من حوادث زمنه والإطلال عليها برؤية سياسية لعبت دورها بالتأثير في جيله.

هوبز مثلاً، تحدث عن توحش الدولة ودورها التدخلي في صوغ حياة الجماعة الأهلية. بينما انطلق لوك من هذه الرؤية ليعيد تفكيك وظائف الدولة وصوغ هيكلها التنظيمي لإعادة ترتيب الصلاحيات الدستورية للمؤسسات.

لم تأتِ أفكار لوك من فراغ، وإنما جاءت تلبية لحاجة وردًا على تعقيدات سياسية شهدها في عصره. فهذا الفيلسوف التجريبـي والمؤسس للفكر الإنكليزي المعاصر ولد في أسرة تمتهن السياسة والعمل البرلماني، وحين بلغ 34 عامًا جمعته المصادفة بالسياسي أنطوني أشلي كوبر الذي تبوأ منصب حاكم مقاطعة شفتسبري ثم وزارة العدل.

بدأت المصادفة، كما ذُكر، حين طلب أشلي كوبر من لوك أن يكون طبيبه الخاص. فالفيلسوف درس الطب لكنه لم يتفرغ ليمارس مهنته في هذا الحقل. وشكلت المصادفة (اللقاء) بداية جديدة في حياته وتحوّل من مراقب للحوادث والتطورات السياسية إلى صاحب رأي يتبنى وجهة نظر في التعامل مع المشكلات، ما ساهم في تأسيس قواعد تعامل تحوّلت لاحقًا رؤية نظرية تعتمد على مبدأ تجريبـي في وضع الحلول.

بسبب هذه العلاقة الخاصة بين فيلسوف ورجل دولة تولّدت سلسلة أفكار نجح لوك في وضع تصوراتها النظرية عن الإصلاح والتسامح الديني والحريات الصحافية. ففي تلك الفترة شهدت بريطانيا حوادث سياسية خطيرة فجرت مشكلات كثيرة بين الدولة (الملك) ونزوع الكنيسة البيوريتانية (الدينية المتشددة) إلى الهيمنة، واحتجاج أعضاء البرلمان ورجال السياسة. امتدت تجاذبات تلك الفترة إلى سنوات طويلة استمرت من 1660 إلى 1680. خلال هذه الفترة تأسست نظريات لوك السياسية، إذ لعب

دوره النشط بالتأثير في أفكار صديقه (رجل الدولة) الذي مال نحو تأييد الاتجاه الليبرالي وإعطاء دور للرأسمال التجاري في الحياة السياسية. في هذه الأجواء المضطربة كتب لوك في 1667 مقالاً عن التسامح، أظهر فيه رفضه لتدخل الدولة في تنظيم كل شؤون الكنيسة. وحين اتهم الإيرل (أنطوني أشلي) بالتآمر على الملك في 1679 اضطر لوك مغادرة لندن إلى هولندا بسبب صداقته للسياسي. وهناك التقى مصادفة الأمير ويليام الذي أصبح في 1689 حاكم إنكلترا، فتشجع على العودة إلى بلاده.

بسبب هذا التحول السياسي الذي شهدته إنكلترا بدءًا من العام 1688، أقدم لوك على مناقشة نظريات هوبز عن الدولة وسجل ملاحظاته في كتاب حمل عنوان "مقالتان عن الحكومة" صدر في 1690، حدد فيه وجهة نظره عن وظائف الدولة والحدود التي تنتهي فيها صلاحياتها وتدخلاتها. وشكل هذا العمل الفكري الفلسفي نقطة تحوّل في الوعي السياسي التجريبـي بحكم علاقاته التي امتدت وتنوعت على أكثر من 35 سنة من الصلات المباشرة مع رجال الدولة وكبار حكام المملكة لاحقًا.

كتب لوك الكثير من المقالات والأبحاث التي تتحدث عن العقل والوعي والمفاهيم الإنسانية ووظائف الذهن، وانتقد تلك الأفكار التي تبالغ في الكلام عن الفطرة والتلقائية. فهو كان من أنصار التجريبية والتعلم الحسي والعلوم التي تأتي من طريق الاكتساب والمصادر الخارجية. وبسبب هذا النزوع نحو التعلم والاكتساب والتجربة، الذي تكوّن أصلاً بحكم علاقاته السياسية، أنتج في النهاية تصورات عملية عن ممارسة الحكم ودور الدولة في تنظيم المجتمع والعلاقات على قاعدة الفصل بين السلطات وتحديد وظائف قوى الإنتاج ودورها في التأثير على صوغ القرارات وتوجيه الصلاحيات. وجاءت الأفكار التحديثية، التي تناولت نشاطات الدولة وقطاعاتها وحددت الشروط الموضوعية لتدخلها، بناءً على تجربة خاصة تمثلت في علاقات فيلسوف برجال قانون يتعاطون السياسة[76].

لم تكن نظريات لوك عن حقوق المواطن المدنية وواجباته، وكلامه عن الحرية والحياة وحق الملكية والمساواة السياسية والإصلاح (التربية والتعليم) مجرد توهمات أيديولوجية (إرادوية) وإنما جاءت في ظرف تاريخي شكّل وعيه وصقل أدواته وأعطاه القدرة على الابتكار والبحث عن الحلول. فالفكر السياسي (الفلسفة التجريبية) الذي أنتجه لوك كان ردًا على حاجة وله وظيفة محددة، ولكن المصادفات جعلت من هذه الاقتراحات بداية تأسيسية ألهمت الكثير من السياسيين في القرن الثامن عشر وتحوّلت إلى مواد دستورية قامت عليها الدول المعاصرة.

اشتغل لوك كثيرًا على تطوير رؤيته الفلسفية انطلاقًا من إعادة ترتيب منظومة أفكار عامة تركزت في توضيح بعض المفاهيم التي كانت متداولة في عصره التائه بين الاضطراب والاستقرار. وبسبب رؤيته الفلسفية التي تؤكد الاستقراء والمنطق والحس والتجريب والملاحظة والاختيار اندفع إلى حفر منهجية واقعية تشير إلى أهمية التجربة ودورها في صقل نماذج سياسية متقدمة في تعاملها مع الإنسان وحقوقه ومتطلباته وحقه بالحرية والاعتراض والتملك والاحترام.

جاءت مفاهيم لوك عن التسامح والحكومة المدنية في وقتها المناسب، فهي من جانب شكلت ردًا على تلك الأفكار المتعصبة التي أنتجتها الحروب الأهلية (الدينية) وأثارتها الصراعات بين الدول في أوروبا، ومن جانب آخر أطلقت موجة من التفاؤل والحلول الإيجابية ضد نزعة الكراهية وإلغاء المختلف.

كان لدعوات لوك بشأن فصل وظائف الدولة عن مهمات الكنيسة، وإعطاء الفرد حرية العبادة، ومنع الحكومة من التدخل في شؤون المواطن الدينية، دورها في تعديل الكثير من المفاهيم المتداولة عند النخبة الأوروبية عن مبدأ الدولة. وبسبب هذه الرؤى المتجانسة مع طبيعة المتغيرات في تاريخ القارة لعبت أفكاره دورها في التأثير السياسي في الكثير من رجال القانون في القرن الثامن عشر. فالمفردات التي استخدمها لوك عن حق الملكية، وحق العمل، والحرية الشخصية، والسلطة القضائية، والمجتمع المدني (الطبيعي)، والحكومة المدنية، والعقد الاجتماعي ستتحول مصطلحات في قاموس الثورات السياسية وسيأخذ بها الكثير من رجال الدولة والعاملين في حقول القضاء، حين بدأت أوروبا والولايات المتحدة بالانتقال من حكم الفرد المستبد وحقبة السلطة المطلقة إلى عصر الدولة الدستورية[77].

رحل لوك في 1704 في وقت كانت بريطانيا تعيش مرحلة واعدة من التقدم. فالاكتشافات الجغرافية أخذت تعطي مردودها الاقتصادي وبدأت تساعد في تجاوز الأزمات الاجتماعية ما أنعش الحياة العامة للناس وسهل مهمات الدولة وطور خدماتها للمواطن. وأدى نمو دور الدولة الاجتماعي وتحسين معيشة الطبقات الوسطى إلى تعزيز ولاء الفرد للحكومة ما رفع من نسبة المصالحة بين الدولة والمجتمع[78].

تقدم وظائف الدولة وتطوير مهماتها ساعدا على توسيع قاعدتها الاجتماعية في السوق، ما أعطاها موقع القائد السياسي في توحيد المجتمع وضمان حقوق المواطن وحماية أمنه. فرنسا بدأت تتوجه نحو الوحدة القومية، كذلك بريطانيا (المملكة المتحدة)، وجمهوريات هولندا وبعض مقاطعات

ألمانيا. شكل هذا التطور على صعيد الوحدات السياسية انعطافة تاريخية في صعود الدولة القومية في مرحلة لاحقة مستفيدة من عمليات الصهر لمكوّنات المجتمع، واتّساع وظائفها الاجتماعية، ونمو مشاعر الولاء عند المواطنين نتيجة الاستقرار النسبي للمداخيل واستفادتهم من الموارد التي أخذت تتدفق على القارة من وراء البحار.

أسهمت الاكتشافات الجغرافية في تطوير المواصلات والنقل، وأعطت فرصة ثانية للسكان حين أسهمت في توفير حق الانتقال والتوطن في المستعمرات التي أخذت تنتشر في أميركا. دام الاستيطان في العالم الجديد نحو القرنين، بدأ بقوة في 1580 واشتد في 1620 وتصاعد في نهاية 1700 وبلغ عدد المستوطنات في الشمال الأميركي وحده 40 مستوطنة احترفت الزراعة والتجارة والصيد والبحث عن المعادن الثمينة. ولعب هذا التطور غربًا (الأطلسي) المضاف إلى اكتشاف طريق الهند شرقًا، دوره في تحريك التنافس بين شركات الملاحة التجارية الأوروبية للسيطرة على موارد ما وراء البحار. وأدى التنافس على مراحل إلى انتقال موقع القيادة الأوروبية من دولة إلى أخرى وصولاً إلى دخول فرنسا وبريطانيا على خط القيادة البحرية بعد تراجع دور البرتغال وإسبانيا في الساحة الدولية[79].

في هذا الفضاء المزدحم بالتنافس، بدأت أفكار الفيلسوف ليبنتز تشق طريقها في قارة أخذت تتجه نحو التصادم الداخلي بقيادة دول معاصرة. استفاد ليبنتز من كل علوم عصره لينسج فلسفة خاصة مركبة من مختارات وفروع وروافد نجح في تجميع عيّناتها من جهات متخالفة. فهو أخذ من ديكارت وباسكال وسبينوزا ونيوتن ولوك ورد عليهم، ما أدى إلى توسيع دائرة خصومه ومقاطعته من مختلف المؤسسات والمعاهد الأكاديمية في أوروبا في نهاية حياته.

يمثل ليبنتز الذي ولد في مدينة لايبزنغ في 1646- قبل سنتين من نهاية حرب الثلاثين عامًا - من أب قانوني وأستاذًا للأخلاق في جامعة المدينة، ذاك النموذج الخاص الذي يجمع بين العبقرية والانتهازية. في الجانب العبقري يوصف بأنّه من أبرز أذكياء القارة، وفي الجانب الشخصي لم يتردد في استخدام الفلسفة لتمرير مصالحه النفعية وطموحاته الخاصة. فهو مثلاً رد على فلسفة ديكارت لإرضاء رجال الكنيسة والتقرب من الحركة اليسوعية (المدعومة من البابوية) بهدف كسب ثقتها لترويج أفكاره. وهو لم يتردد في استلهام اختراع باسكال (الآلة الحاسبة) ليعمل على تعديلها وتطويرها ويضيف عليها حتى تأخذ اسمه. وهو استكشف حساب الفوارق (التفاضل) في 1676 ودخل في حال تصادم وتنافس مع العالم الفيزيائي إسحق نيوتن الذي سبقه في اكتشاف هذا العلم[80].

آنذاك كان نيوتن (1642-1727) من المشاهير العلماء وأستاذ الفيزياء في جامعة كامبردج وصاحب المبادئ الرياضية للفلسفة والبصريات، وله مكتشفات منهجية في قانون الجاذبية وعلوم الفيزياء. أعطاه هذا الدور المتميّز قيمة خاصة في المعاهد والأكاديميات، وجعله من الشخصيات الكبيرة صاحبة الموقع الفريد من نوعه في التأثير في حقول الفلسفة في إطارها العلمي والرياضي ما أسهم في تأييد الوسط الأكاديمي لنيوتن (صاحب ثلاثة قوانين للحركة: قانون القصور الذاتي، قانون تناسب القوة والسرعة، وقانون تساوي الفعل ورد الفعل المضاد) حين ادعى ليبنتز أن نظريته في مسألة حساب الفوارق (التفاضل) التي انتهى من تطويرها في 1676 تجاوزت نظرية نيوتن التي وضعها في 1665. والأمر نفسه فعله ليبنتز مع لوك حين رد على كتابه «محاولة في الفهم الإنساني» الذي صدر في العام 1690 بكتاب «محاولات جديدة في الفهم الإنساني» الذي انتهى منه بعد وفاة لوك.

انتهازية ليبنتز لا تلغي عبقريته. فهذا المفكر الألماني جمع الرياضيات والقانون والعلوم (الكيمياء) إلى جانب الهندسة والفلسفة والتاريخ والدبلوماسية. كتب 15 ألف مخطوطة (لم ينشر منها سوى 15 في المئة) تناولت مختلف شؤون عصره من سياسة ودبلوماسية وعلوم وفلسفة وتاريخ. ولأنه لا يلتزم منهجية فلسفية واحدة في التفكير انفتحت آفاقه على أبعاد لا متناهية من القدرة على الرؤية والتوليف والتركيب والتوفيق.

يعتبر ليبنتز رائد علوم زمنه. فهو على رغم سطوته على نظرية نيوتن نجح في منافسته في الحقل نفسه متفوقًا عليه في مجموعة حقول يصعب أن تجتمع في إنسان واحد. فهذا العبقري وحَّد مجموعة اختصاصات (عالم رياضي، فيزيائي، مهندس، مخترع، أستاذ في القانون، دبلوماسي، رجل دولة، مؤرخ وفيلسوف). وبكل بساطة يعتبر مؤسس المنطق الرياضي الحديث ومطور علم الحسابات المعاصرة ومخترع آلة الحساب التي نستخدمها في أيامنا. وأيضًا يعتبر إلى جانب نيوتن مكتشف نظرية حساب "التفاضل والتكامل" ونظام العد الثنائي. فهو نجح في دمج علم الحساب بالقواعد المنطقية، وأعاد إنتاجها في نظام فلسفي جديد تحدث فيه عن المقومات النهائية للحقيقة، وهي برأيه غير قابلة للتجزئة.

المهم في نتاجاته ليس اختراعاته واكتشافاته وإنما دوره الدبلوماسي وأسفاره الكثيرة واتصالاته الأوروبية من بريطانيا إلى فرنسا وهولندا واجتماعه بالفيلسوف سبينوزا. وكل هذه الإنجازات والرحلات عززت لديه فكرة التقارب بين المواطنية والعالمية. وسيكون لهذه الفكرة موقعها في الصراع الذي ستشهده أوروبا في القرون الثلاثة المقبلة، حين أخذت الدولة تصطدم مع المواطن على الواجبات،

والمواطن يصطدم معها على الحقوق. كذلك سيتعرف العالم من خلالها إلى تلك الحروب القومية للسيطرة على السوق الدولية.

تحدث ليبنتز عن "حقائق العقل" و"حقائق الواقع" وقال بنوع من العقلانية التوفيقية التي تقف في منطقة وسطى بين الحقيقة والخطأ. والمنطقة الوسطى أطلق عليها تسمية المعرفة الاحتمالية التي تقف في وسط الطريق بين الأحكام التقريبية والأحكام القطعية، وتفتح النظريات على وظائف ومحمولات نسبية تعطل التصادم وتدفع نحو علوم التوافق والتناغم والتناسق.

ساعدت معادلة التماكن (الإمكان) ليبنتز على تطوير منظومته المعرفية، وفتحتها على أنساق فكرية ما جعله يؤسس قاعدة حساب التفاضل ومفهوم التناغم (توحيد الكثرة وتكثيف التعدد في إطار الوحدة) منتقدًا الطبيعة الميكانيكية (المنهج الآلي التلقائي) داعيًا إلى اعتماد فن التوافق (التفاضل) انطلاقًا من نظريته عن الطاقة (المونادة).

رفض ليبنتز نظرية ديكارت الميكانيكية، وهذا ما دفعه إلى تطوير آليات القوة (الديناميكا) والمطالبة بالتوافق (المصالحة) بين العقيدة (المسيحية) والعقل، لأن العالم يشتمل على حقائق أزلية وحقائق وضعية وقضايا ضرورية وقضايا عرضية. وكل هذه الثنائيات تحتاج إلى طاقة (قوة دينامية) قادرة على إنتاج حركة تدفع نحو التجانس والتناغم والتماكن وعقلنة الكهنوت وتقريب الدين من الفلسفة في اعتبار أن الدين يضمن نجاح العلم[81].

نقد ديكارت ونظرية الطبيعة الميكانيكية ومزاحمة قوانين نيوتن ومحاورة لوك وسبينوزا وهوبز وابن رشد والتقرب من الحركة اليسوعية (الكاثوليكية) والدعوة إلى اعتماد قانون الطاقة (القوة الدينامية المتحركة) والاطلاع على منتوجات باسكال وتطوير آلته الحسابية وتحديث قاعدة حساب التفاضل والدفع باتجاه العقلانية التوفيقية (التناسق، التناغم، والمعرفة الاحتمالية) كلها تشكل عناوين فلسفية وعملية لتوضيح مشروع ليبنتز السياسي وتبريره.

كانت عبقرية ليبنتز أوسع من دائرته الجغرافية وحقبته الزمنية. فهو التقط تلك المؤشرات الكونية للاكتشافات والملاحة إلى فضاء ما وراء البحار. لذلك كان السبّاق في الدعوة إلى "الإنسان الكوني" انطلاقًا من رؤية كونية للعالم. وبسبب ملاحظته لتسارع وتيرة التطور ومضاعفاته على القارة

الأوروبية اتجه ليبنتز إلى تبني دعوة توحيد الكنيسة وإعادة دمج المذهبين الكاثوليكي والبروتستانتي للتخفيف عن شعوب أوروبا مصائب المستقبل.

مخاوف ليبنتز من "فائض القوة" الأوروبية دفعته فلسفيًّا إلى تطوير نظرية التوفيق (التناغم والانسجام)، وسياسيًّا إلى التحرك دبلوماسيًّا والاتصال بملوك بروسيا وفرنسا وبريطانيا محاولاً إقناعهم بتوحيد القارة وجمع الكنيسة وتصدير "فائض القوة" إلى خارج أوروبا[82].

اعتمد ليبنتز مفردة "المونادة" اليونانية وتعني "الوحدة" لإقناع قادة أوروبا بالتفاهم والتضامن والتنسيق ضد الخارج ومحاربة السلطنة العثمانية واحتلال مصر. وجاءت فكرة "مونادة" لترجح الاتحاد على الانقسام وتؤشر إلى وجود انتباه مبكر إلى خصوصية المنتوج السياسي التوحيدي، الذي يمكن أن تتوصل إليه البشرية من طريق التطور والتقدم، بشرط أن تتوافق أوروبا على تصدير مخزون قوتها وعدم التورط واستخدامه في الداخل. بسبب هذه القناعات السياسية توجه الفيلسوف بتكليف دبلوماسي من بروسيا إلى باريس في 1672 وحاول إقناع الملك لويس الرابع عشر باحتلال مصر ومحاربة السلطنة العثمانية لكونها تشكل خطرًا على أوروبا وثقافتها الحديثة. كذلك توجه إلى بريطانيا وهولندا للغرض نفسه من دون طائل.

مشروع ليبنتز فشل في زمنه. فالكنيسة استمرت منقسمة، وشركات الملاحة واصلت التنافس، والدول الأوروبية أخذت تتزاحم على النفوذ والمستعمرات وتتقاتل على ترسيم الحدود وانتزاع المقاطعات وتعديل الخرائط السياسية والتورط في الحروب القومية (الاقتصادية) في داخل القارة وخارجها. ونظريات ليبنتز عن الخالق والحرية والعقل والعدل والخير والعلة الكافية وحدوث العالم وكونية الإنسان وتناغم الوحدة وتناسقها لم تنجح في إقناع أوروبا بالتخلي عن الانقسام القاري والكنسي والابتعاد عن المصالح وحروب الحدود، لكنها نجحت لاحقًا، وبعد رحيله بعقود، في إقناع الجنرال نابليون بونابرت في احتلال مصر في نهاية القرن الثامن عشر (1798).

جاء رحيل ليبنتز في 1716 في لحظة تاريخية صاعدة شهدت القارة خلالها خطوات متسارعة في نموها وتقدمها وتطورها. فالآليات الدينامية التي تحدث عنها الفيلسوف والدبلوماسي والمؤرخ والعالم بدأت تضغط بقوة رافعة أوروبا إلى حقبة أكثر حداثة وميكانيكية لكنها الأعنف في تصدعاتها القارية والكونية[83].

انتقلت أوروبا بعد فلسفة ديكارت (كوجيتو) وفلسفة هوبز (ليفاثيان) إلى مستوى متقدم من التفكير العقلاني صاغته تحولات اجتماعية طرأت على البيئة الثقافية بسبب تطور العمران البشري. "كوجيتو" الديكارتي الفلسفي و"ليفاثيان" الهوبزي السياسي أثمرا مجموعة مقالات في ترسيم خطوط تطور المعرفة العقلانية وتحديد وظائف الدولة في قيادة التقدم وتنظيمه والإشراف عليه. استعار هوبز كلمة "ليفاثيان" من الكتاب المقدس واستخدم المفردة الدينية للدلالة على نظام كلّي/شمولي حديث. فالكلمة ترمز إلى وحش بحري ضخم ورهيب (الشر المطلق)، استعارها هوبز من كتاب قديم لشرح مفهومه لتطور وظائف الدولة المعاصرة وتدخلها الهائل في تدبير شؤون المجتمع وصناعة مستقبل الإنسان.

توفي ديكارت باكرًا بعد إنجاز مشروعه الفلسفي حين كان يقوم برحلة إلى السويد في 1650. وتوفي هوبز لاحقًا، بعد أكثر من ربع قرن في 1679، بعد أن انجز مشروعه في فلسفة السياسة. وبعدهما ستدخل الفلسفة الأوروبية في مرحلة جديدة لتعيد تشكيل وعي نخبة القارة لموقع أوروبا ودورها الرائد في قيادة عصر إنساني يختلف عن ذاك الذي عرفته البشرية في عصور مديدة. إلا أن الحداثة هذه لن تكون بعيدة عن ماضيها ولن تعزله عن حاضرها الذي شهد مناظرات وسجالات جدلية عن طبيعة الدين ومهمات الدولة ما مهّد الطريق لظهور العقلانية كإطار نظري للتوفيق بين الوظيفتين. وهذا ما فعله ديكارت وسبينوزا على صعيد مفهوم الفلسفة وهوبز ولوك على مستوى النظرية السياسة. ولهذا السبب كتب ديكارت مؤلفاته الفلسفية باللغتين اللاتينية والفرنسية واستخدم هوبز اللاتينية والإنكليزية في كتابة مشروعه الفلسفي السياسي، كذلك كتب ليبنتز آلاف الرسائل باللغتين الفرنسية واللاتينية. وهذا الأمر له دلالة من ناحية اتصال المعرفة (لا انقطاعها) بين ماضي أوروبا الفلسفي (الديني) اللاتيني اليوناني وحاضرها العلمي[84].

هذه الأزمة المزدوجة وصفها بول هازار مشيرًا إلى أن تلك الحقبة شكلت نقطة تحوّل في شخصية القارة الأوروبية بعد تعرضها إلى موجات من التحدي بين العامين 1680 و1715 تعانقت خلالها الاضطرابات في فترة زمنية قصيرة المدى ما أدى إلى توليد مأزق في الوعي أنتج سلسلة انهيارات في الأبنية المعرفية المتوارثة منذ قرون. آنذاك عصفت بأوروبا أزمة في الوعي كانت ناجمة عن صدمات، تمثلت برأي هازار بالمضاعفات الآتية: أولاً، كتابات الرحالة (الاكتشافات الجغرافية وتعديل صورة الآخر). ثانيًا، إعادة نقد تاريخ الماضي (الحفريات، علم الآثار، الوثائق، النقود). ثالثًا، اللغات، الترجمات، المعرفة المتبادلة، النقل (أوروبا مسرح التاريخ الجديد). رابعًا، الانقلاب على

معاهدة نانت وطرد البروتستانت من فرنسا وظهور الهرطقة (عندما توفي الملك لويس الرابع عشر، بدا أن التغيير قد أنجز). خامسًا، بداية الشك المطلق أو الكامل (بابل نموذجًا). سادسًا، الفاسقون (مبدأ اللذة) العقلانيون (نور العقل). سابعًا، مكافحة الشعوذة والسحرة وإعادة قراءة الظواهر الفلكية ومعنى الأسرار والعجائب. ثامنًا، نقد الكتاب المقدس بمنهج لغوي (فقه اللغة) وتاريخي (التسلسل الزمني) واكتشاف أخطاء في النقل والتحقيب للروايات الدينية. تاسعًا، فشل دفاع بوسوييه (رجل دين) عن الكنيسة والدين ضد الهرطقة وتطرف العقل وإنكار الألوهة والسر المقدس (التيار الديني وعجزه). عاشرًا، فشل آخر محاولة لتوحيد الكنيسة (مشروع ليبنتز) ما أدى إلى تقويض الماضي (حصل مع نهاية عهد لويس الرابع عشر) وبدأ بعده العمل في البناء الجديد. الحادي عشر، ظهور مسيحية عاقلة، حين أشار لوك إلى التسامح وفتح الباب إلى علم جديد وهو دراسة دوافع العقل الإنساني، وهذا ما تابعه كوندياك (فيلسوف تجريبـي حسي) في دعوته للمصالحة. فالتيار التألهي كان يؤمن بالتفكير الحر وغير ملحد ولكنه أقل إيمانًا[85].

كان القرن السابع عشر لحظة التحولات العمرانية الكبرى في أوروبا الحديثة، كذلك شكل منطلق التغيير في الأبنية المعرفية حين تداخلت في سنواته الطويلة السياسة بالدين والدين بالدولة، فأنتجت سلسلة حلقات في تطور وعي النخبة. آنذاك شهدت نخبة أوروبا الحروب الدينية والقومية والأهلية محدثة قفزات معرفية في مختلف المستويات العلمية (المختبرات) والاكتشافات المتصلة بالطب والهندسة والرياضيات والفيزياء والكيمياء. وأسهمت كل هذه الحقول العلمية، حين اخترقت العلوم الإنسانية، في إنتاج معرفة حديثة تأسست في ضوء مناراتها سلسلة منهجيات اقتصادية وسياسية وتاريخية واجتماعية أعادت قراءة الموروث (الماضي) المنقول من العصور اليونانية والرومانية والجرمانية والإسلامية، واستعارت منه ما هو قادر على التكيف مع مقتضيات الحاضر ومتطلبات المستقبل.

كان القرن السابع عشر عصر النخبة الأوروبية الحديثة بامتياز. ففيه شهدت القارة ظهور مجموعة من الحلقات المتصلة التي واصلت بحثها طولاً وعرضًا لاكتشاف تلك الآليات التي تأسست عليها قوانين التطور في الطبيعة والاجتماع. ومجموع تلك الاكتشافات المعرفية لم تنفصل عن حاجات العمران ولحظات التطور التاريخي. فالفلسفة الأوروبية الحديثة لم تقتصر على التنظير الأيديولوجي وإنما استخدمت النظرية في بناء معرفة لها وظيفة اجتماعية وتبحث عن دور سياسي في إعادة تعريف نسق العلاقة بين الدين والدولة، وكيف يمكن إعادة بناء تلك العلاقة وترتيب أولويات وظائفها الإنسانية.

عاشت في سنوات ذلك القرن وكتبت وظهرت أسماء أسهمت في تأسيس معرفة حديثة تتناسب والتطور العمراني الذي شهدته القارة. ففيه لمعت أعمال وكتابات بيكون، وغاليليّو، وهوبز، وديكارت، وباسكال، وسبينوزا، ونيوتن، ولوك، وليبنتز... ولولا هؤلاء لما كانت أوروبا التي نعرفها الآن، على ما هي عليه.

3
التنوير، الدولة والثورة

الثامن عشر، قرن اكتشاف العالم والاتجاه نحو القومية

قطعت أوروبا في تطورها العمراني/المعرفي الأشواط الكثيرة قبل أن تصل إلى الثورة الفرنسية. اجتازت القارة الكثير من العقبات في القرن السابع عشر وشهدت طفرة نوعية في تقدمها الاجتماعي على مستوى سيطرة الدولة على علاقات السوق الداخلية. كذلك أسهم الانتشار الجغرافي (التوسع الاستعماري) في رفد الدول بالثروات، الأمر الذي أعطاها القدرة على تطوير أدواتها الإنتاجية والعسكرية وتوفير بعض الرفاهية لسكانها.

هذا التطور/التوسع فتح الباب مجددًا أمام النخب لتلعب دورها في التفكر والابتكار. فالنخبة لم تكن «لزوم ما لا يلزم»، بل كانت حاجة تبحث عنها الدولة لتقديم الاستشارات وتحديد الأطر المناسبة لاستيعاب متطلبات التقدم[86].

تقدمت أوروبا كثيرًا في القرن السابع عشر، وكان عليها أن تدفع ثمن التطور من خلال تفاقم النزاعات السياسية الناتجة أصلاً من التنافس على الغنيمة ونهب المواد الخام وثروات الشعوب في دائرة ما يسمى "العالم الثالث". وبسبب ذاك التنافس اندلعت في القارة الكثير من الحروب الأهلية والقومية والسياسية في سباق محموم لأخذ زمام المبادرة والقيادة. وتحت غطاء الصراع الأوروبي - الأوروبي الذي اتخذ سلسلة ألوان دينية وقومية وسياسية، اشتد التنافس على المستعمرات، وكذلك ارتفعت حمى الاختراعات لتلبية حاجات الدولة ونمو متطلباتها على مختلف الصعد العلمية والتنظيمية والإنتاجية والعسكرية. سارت الحروب جنبًا إلى جنب مع النمو الاقتصادي والتطور الاجتماعي - الثقافي. والدولة

التي بدأت توسع مجالها الجغرافي/القومي داخل السوق المحلية أخذت تستكمل توسعها الخارجي من خلال تنويع مهمات تلك الشركات العاملة في أسواق أفريقيا وآسيا وأميركا. وشكّل هذا الحلف القومي/ القاري ثنائية تاريخية أنتجت سلسلة مفاهيم قومية وقارية وأيضًا عالمية تتحدث عن الإنسان والحرية والمساواة بين البشر[87].

أنتجت فكرة الحداثة السياسية في أوروبا في القرن السابع عشر، وأثمرت في الولايات المتحدة في نهاية القرن الثامن عشر لترتد من جديد على القارة وتبدأ زعزعة استقرارها القائم على محاصصة تاريخية تتألف من القديم والجديد. ويمكن ملاحظة هذا الانتقال على المستوى القاري العام من خلال رصد تلك الحلقات الفلسفية الأخيرة في نهايات القرن السابع عشر. فهذه الحلقات وُلدت كلها في ذاك القرن ولكنها رحلت عن الدنيا في القرن الثامن عشر. وهي بذلك تمثل زمنيًّا تلك الخطوات الانتقالية من لحظة اختلاط المفاهيم إلى لحظة أخرى ستشهد إعادة فرز لتلك الأفكار تمهيدًا لتشكيل رؤية معرفية سياسية (دستورية) واضحة تنظم العلاقة بين الحاكم والمواطن. فظهرت مثلاً في الحلقات الأخيرة من سلسلة الفلاسفة أسماء ستلمع لاحقًا كمصادر للفكر التنويري في دستور الولايات المتحدة خلال حرب الاستقلال، والدستور الفرنسي خلال الثورة. وأبرز هؤلاء الإنكليزي جون لوك الذي يعتبر المؤسس الثاني للفلسفة السياسية بعد هوبز (ولد لوك في 1632 وتوفي في 1704). كذلك الفيلسوف الألماني ليبنتز (وُلد في 1646 وتوفي في 1716). وأيضًا الفيلسوف جورج بيركلي الذي وُلد في 1685 وتوفي في 1753 وأخيرًا جوزيف باتلر الذي ولد في 1692 وتوفي في 1752. الأخير يمكن اعتباره من نتاجات القرن الثامن عشر لكنه عمليًّا يمثل آخر حلقات سلسلة القرن السابع عشر، التي راكمت المعرفة ونقلتها من وسيط إلى آخر وصولاً إلى عصر الثورات والانقلابات والحروب في النصف الثاني من القرن[88]3).

كل هذه التطورات التاريخية كان لها دورها في إعادة إنتاج تصورات فلسفية/سياسية تتناسب والعصر الحديث وتوسع مجاله الدولي، ولا تقطع في الآن نفسه مع الموروث الديني ودور الدولة في قيادة التحولات. وأسهم هذا التقدم المركب من مجموعة عوامل في توليد ثلاثة فلاسفة في نهايات القرن السابع عشر، على رأسهم كان الألماني ليبنتز وبعده جاء جورج بيركلي، وجوزيف باتلر.

هؤلاء الثلاثة رحلوا عن الدنيا في القرن الثامن عشر. وأهمية هؤلاء كانت حاسمة في إحداث النقلة النهائية المطلوبة للوصول إلى عصر آخر ظهر في نهايات القرن الثامن عشر. فالثلاثة كانوا على

علاقة بالدولة والكنيسة ولعبوا سلسلة أدوار متفاوتة في تقريب السياسة من الدين وانجاز تلك الخطوات المطلوبة لردم الهوة بين الفلسفة والمسيحية أو الحد من التعارض بين العقل والإيمان. وهؤلاء الثلاثة في النهاية هم نتاج تلك التحولات العمرانية/المعرفية التي شهدتها القارة على المستويات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية. لذلك اشتغلوا كثيرًا على تلك الأفكار التي أنتجتها جهود هوبز وديكارت ولوك وغيرهم، وطوروها باتجاه المزيد من العالمية أو القومية.

أوروبا إذن كانت على موعد مع هذا الثلاثي الذي أسهم في توضيح الكثير من الملابسات بين الدين والسياسة، العقل والإيمان، الدولة والحداثة وبالتالي تعريف معنى المواطن وموقعه ودوره في مجال الدين وصلته بالدولة. يعتبر ليبنتز الرجل الأهم في هذا الثلاثي. وحين توفي كانت أوروبا اجتازت الكثير من الخطوات المتقدمة في سياق تطورها التاريخي. كذلك ستبدأ إعادة اكتشاف نظريات هوبز ولوك سلبًا وايجابًا من خلال كتابات بيركلي وباتلر الفلسفية.

أهمية نتاجات بيركلي وباتلر تنبع من كونهما من أتباع الكنيسة (رجلا دين). وبسبب هذا الموقع الديني نجحا في تأمين التغطية الشرعية المطلوبة للتعاطي مع محرمات فلسفية وتطويعها لخدمة المسيحية والدولة الجديدة ومحاولة التوفيق بينهما من خلال إعادة تعريف وظائف المؤسسات.

ولد بيركلي قبل باتلر وتوفي بعده، ويعتبر الثاني في الترتيب بعد ليبنتز، على رغم أن باتلر المعاصر له لا يقل أهمية في إحداث تلك النقلة النوعية التي احتاجت إليها أوروبا على مستوى المعرفة والمصالحة المطلوبة بين الدولة والمجتمع (المواطن)، السياسة والدين للوصول إلى درجة أرقى في تطوير الدستور وأفكار الحرية والمساواة والإخاء.

أسهم بيركلي الذي ولد في أيرلندا في 1685 في ربط العلوم المعاصرة بالمسيحية. وبحكم موقعه الديني (مطران) حاول إعادة قراءة التاريخ والاجتماع والأشياء الملموسة (المحسوسات) من موقع مثالي لا يتعارض مع حقائق العلم وحاجات الدولة والناس. ولهذا يعتبر بيركلي من أنصار الفلسفة المثالية التي تنظر إلى الواقع كعالم من الأفكار. وبسبب نزعته المثالية وسجاله ضد لوك ودفاعه عن دور الدين في إنتاج واقع مغاير، أسهم بيركلي في دفع التفكير الديني خطوات متقدمة نحو التصالح مع الفلسفة المادية والتوصل من خلالها ومعها إلى ثنائية كانت أوروبا تحتاج اليها في هذا الطور من تقدمها التاريخي[89].

في السياق نفسه يمكن وضع إسهامات باتلر الفلسفية. فهذا المطران الفيلسوف عمد إلى تقريب العقل من الدين انطلاقًا من مناظراته وسجالاته ضد نظريات هوبز. ولعب هذا الفيلسوف المثالي دورًا في تطوير أسس الفلسفة المثالية وتقريب مفاهيم العقل نحو الدين المسيحي من خلال أطروحاته التي نشرها على دفعات في 1726 و1736. تطرّق باتلر في هذه الأطروحات، بحكم حصانته الدينية وإيمانه بالمسيحية ودورها في صنع مستقبل الإنسان الأوروبي، إلى موضوعات محرّمة مثل التحدث عن طبيعة الصانع وبداياته. وكل هذا التقدم المعرفي الذي اندفع إليه باتلر كان استجابة لحاجات السوق وتحديات التطور العلمي. فهذا التطور فرض البحث عن أدوات تحليل منهجية للتوفيق بين الدين والسياسة والمصالحة بين الدولة والمجتمع[90].

توفي باتلر قبل سنة من رحيل بيركلي. وتعتبر أعمالهما إلى جانب مكتشفات ليبنتز وإنجازاته بدايات معاصرة لتلمس خطوط التقدم العام الذي حققته أوروبا باتّجاه تعيين حدود المصالحة بين الدولة والمجتمع (مفهوم المواطن المسيحي الصالح).

أوروبا تستعد لاستقبال الثورة الفرنسية

أصبحت أوروبا الآن مستعدة تاريخيًّا، بعد أن قطعت الكثير من المسافات في تحقيق التقدم العمراني وتطوير الوعي المعرفي، إلى الدخول في ما سيعرف لاحقًا بعصر الأنوار (أو التنوير) الذي امتد إلى نهاية القرن الثامن عشر مختتمًا سنواته بالثورتين: الأميركية والفرنسية.

لم يتأسس هذا الطريق الطويل والمتعرج على فراغ. وأفكار الفلاسفة لم تتأسس من خارج أطر الشروط الموضوعية للتطور. فالمعرفة آنذاك كانت حاجة سياسية/اجتماعية، وشكلت أفكار النخبة استجابة ذاتية لواقع موضوعي أخذ يفرض شروطه ويدفع بالعلاقات الاجتماعية نحو المزيد من التقدم.

كانت أوروبا آنذاك تقود العالم، وفي الآن نفسه كانت دول القارة تتصارع على قيادتها. فالعالمية (العولمة) كانت تسير في سياق ثنائي مع تطور الوعي القومي (وحدة السوق الداخلية) الأمر الذي فرض على النخبة إعادة تعريف الدولة ووظائفها ومؤسساتها المتوارثة. وأسهم هذا الأمر في إنتاج مفاهيم تبحث في قواعد نهوض الدولة الجديدة ومؤسساتها الدستورية والشروط القانونية التي يجب أن تُعتمد لضبط علاقة الحاكم بالمحكوم[91].

هذه الحاجات القانونية (الدستورية) تصدى لها فلاسفة القرن الثامن عشر معتمدين على تلك النتاجات النظرية التي أسهم في تكوين أصولها المعرفية فلاسفة القرن السابع عشر. فالسلسلة واحدة، وهي في النهاية مشدودة إلى حلقات متراصة ومتتابعة ومتداخلة أحيانًا ومتعارضة في أحيان. فالسلسلة هي التنوير (الوعي العقلاني لشروط التقدم) والحلقات هي مجموعة فلاسفة اجتهد كل واحد منهم برأيه محاولاً استثمار «التنوير» بهدف تحديث الدولة وتطوير مؤسساتها الدستورية.

آنذاك بدأت فكرة الدولة تتوضّح في عقل النخبة. فالدولة أخذت تحتل رويدًا موقع الكنيسة مستفيدة من تصدّع المجتمع (حرب الثلاثين عامًا 1618-1648) ونمو آليّات قادرة على التحكّم عنوة بمصادر القوّة. هوبز الذي تحدّث عن "الوحش" الصاعد متأثّرًا بالمتغيّرات التي لاحظها في تضاعيف القرن السابع عشر في إنكلترا، معتبرًا أن هناك حركة آلية للقوانين تديرها قوى خارجيّة، ربط السلطة بالمعرفة الحسّية التي تقوم على قاعدة العقد الاجتماعي الموصول بالمصلحة. فالمصلحة المشتركة (العامّة) تقيد سلطة الدولة وتحدّ من شموليّتها وقهرها. وفكرة المصلحة العليا التي وضعها ماكيافلي في إطار قوة ذاتيّة الدفع، معتبرًا أنّها تلعب دورها الخاص في تحريك التاريخ صعودًا باتّجاه الدولة، أخذ لاحقًا يطوّر بوعيه الانتهازي منظومتها الفلسفيّة في إطار اجتماعي بدأ يتمظهر في تقدّم العمران وتنوّع مساراته.

برز في هذا المنعطف الحاسم في تطوّر معرفة النخبة، جيامباتيستا فيكو (1668-1744) الأستاذ في جامعة نابولي. شهد فيكو تراجع الكنيسة وصعود الدولة مترافقًا مع تفكّك أسر أرستقراطيّة وظهور قوى بورجوازيّة.

ساعد هذا المشهد العمراني فيكو على ابتكار نظريّة في التاريخ تقارب تلك التي اكتشفها ابن خلدون عن آليات الدولة في مقدّمته، فهي ترجّح أن التاريخ يمرّ في محطّات (صعود، هبوط، صعود) تندفع من أدنى إلى أعلى وتعود للانحدار من أعلى إلى أدنى (هبوط، صعود، هبوط) ما ساعده على وضع تصوّرات عن عقارب ساعة تتحرّك زمنيًّا على محطّات ثلاث: المرحلة الإلهية (الكنيسة)، المرحلة البطوليّة (الأرستقراطية)، والمرحلة الإنسانيّة (الحرّية والعدالة الطبيعيّة). والأخيرة تكون بداية تفسّخ وانهيار القيم حين يعود المجتمع في نهايتها إلى فطرته الأولى ليستأنف مجدّدًا صعوده التاريخي وصولاً إلى الدولة التي تنهض في مرحلة الأرستقراطيّة (البطولة).

كان فيكو ينظر إلى التاريخ من نافذة جامعته، ويرى من الخارج تدرّج نمو الإنسان من الطفولة إلى المراهقة، انتهاء بالنضج (الشيخوخة). لكن هذا الخارج لا يتطوّر إلا وفق منظومة قوانين ذاتيّة الدفع (داخليّة) تنقله من محطّة إلى أخرى وصولاً إلى نهاية/بداية جديدة.

جاءت فلسفة التكرار (التطوّر الدائري) لتعكس تلك اللحظات القلقة التي أخذت تحفر وعي النخبة، وتُظهر عدم قدرتها على التحكّم في آليات عجلة التقدّم المتسارع وما ينتجه من ارتدادات وانهيارات تمثّلت في تساقط الأسر الأرستقراطيّة والحروب الأهليّة - الدينيّة وتراجع نفوذ الكنيسة وبدء صعود دول أخذت تتأسّس قيمها الإنسانيّة على المصلحة المشتركة العليا لا على مبادئ الأخلاق والإرشادات والمواعظ[92].

في هذا العصر شهدت حركة التنوير في أوروبا ولادة الكثير من حلقات التطور المعرفي (الفلسفي) وكان أبرزها ثلاثة: مونتسكيو، ديفيد هيوم، وجان جاك روسو.

سيلعب هؤلاء الثلاثة دورًا مميزًا في التأثير في المنظومات الفكرية في أوروبا. كذلك ستترك أفكارهم الدستورية المتصلة بشؤون الدولة الحديثة (دورها ووظائفها) بصماتها على الأجيال المقبلة وتحديدًا الرعيل الأول من قادة الثورتين الأميركية والفرنسية.

ولد مونتسكيو في 1689 في عائلة أرستقراطية فرنسية. فهو ورث لقب «بارون» من أسرته. وبسبب موقعه الطبقي الخاص اكتشف الكثير من الثغرات في النظام الملكي، كذلك أعطاه هذا الموقع ثقة بالنفس ومناعة للسخرية من السلطات الفرنسية وفضحها.

ركز مونتسكيو كثيرًا على الجانب القانوني للدولة، وأظهر ضعفها وميلها إلى الاستبداد والقهر وقمع الحريات. وبسبب إعجابه بالتجربة البريطانية (الملكية الدستورية) طالب مونتسكيو بتحديث القوانين وتطويرها في كتابه الشهير "روح الشرائع" الذي ألفه في 1748.

تحدث في هذا الكتاب عن أنواع الدساتير وصنف الدول إلى ثلاث فئات: ملكية، استبدادية، وجمهورية. وركز على أهمية القانون في صناعة هيئة الدولة. فالقانون هو الأساس وعليه يجب أن تبني الدولة مؤسساتها. وانطلاقًا من هذه الرؤية الدستورية عارض مونتسكيو الاستبداد وتحكم القلة، ودعا إلى حرية الإنسان وفصل السلطات الثلاث (التشريعية، التنفيذية والقضائية) مؤكدًا أن الحرية لا تتعارض مع احترام القانون[93].

أسهمت كتابات مونتسكيو في تطوير الوعي الدستوري لعلاقات الدولة بالمواطن وأثرت لاحقًا في كتابة دساتير الدول حين تحوّل "روح الشرائع" إلى مرجع قانوني لرجال الدولة. فالتطور في رأي مونتسكيو له قوانين، كذلك الدول تحتاج دائمًا إلى قوانين لتتطور. وهذا النوع من الوعي الفلسفي لوظيفة الدستور أعطاه ميزة التأثير المباشر في أصحاب الدول حتى قبل وفاته في 1755.

لم يكن ديفيد هيوم البريطاني أقل تأثيرًا من الفرنسي مونتسكيو في حقول الفلسفة والسياسة. ولد هيوم في أدنبره (أسكتلندا) في 1711 في أسرة مرتاحة اجتماعيًا. فوالده صاحب شركة عقارات ووالدته جاءت من أسرة محامين. ومنذ صغره تربى على تعلم الأصول القانونية، وهذا ما ساعده على اكتشاف الكثير من الآليات المنطقية التي وظفها في تطوير النظريات الاجتماعية والعقلانية. ويعتبر هيوم، في هذا الإطار، أكثر فلاسفة القرن الثامن عشر تأثيرًا في تطوير المدرستين: الشك (مبدأ ديكارت) والخبرة (المذهب التجريبي). برأيه المعرفة الجديدة تأتي من التجربة ولا توجد إلا في العقل الذي يكتشف آلياتها من المدركات الحسية. صنّف هيوم كل الاستدلالات إلى صنفين: الاستدلال البرهاني (علاقات الأفكار) والاستدلال العملي (وقائع العيان والوجود العيني) إذ "إن كل مواد التفكير مشتقة إما من إحساسنا الداخلي أو من إحساسنا الخارجي. وإنما إلى الذهن والإرادة وحدهما يرجع مزج هذه وتركيبها"، لذلك "إن الأسباب والمفاعيل لا تكتشف بالعقل وإنما بالتجربة"، والتجربة الاستدلالية ليست معصومة عن الخطأ باعتبار "أن كل الاستنتاجات المأخوذة من التجربة إذًا هي من أثر العادة لا من أثر الاستدلال"[94].

أحدثت فلسفة هيوم العقلانية ونزعته التجريبية هزة في سياق تطور العلوم الاجتماعية. وأسهمت مكانته العلمية في توفير فرصة سياسية له للعمل في الحقل الدبلوماسي. وبسبب اشتغاله في هذا الميدان كُلف هيوم بمهمات في فرنسا وغيرها وترأس بعثات دبلوماسية وقاد مفاوضات.

لعب هذا الجمع بين الفلسفة والعمل الدبلوماسي في تركيب منهج عقلاني - اجتماعي ربط بين المثال (عالم الأفكار) والواقع (امتحان الإنسان) الذي يعتبر محك الاختبار لتلك المفاهيم. ولهذا السبب اشتهرت فلسفة هيوم بتلك الثلاثية المركبة من قواعد ثلاث: التشابه، التجاور، والأثر. والأثر هو القاعدة الأهم لأنها تقوم على نظرية السبب والنتيجة. وبفضل نظرية السببية اشتغل هيوم كثيرًا على تاريخ تطور الدين والطبيعة البشرية والعقل الإنساني والسلوك الأخلاقي. وساعدته هذه المجموعات البحثية لاحقًا في كتابة "تاريخ بريطانيا" و"تاريخ إنكلترا"[95].

جمع هيوم الكثير من العلوم وأصاب شهرة واسعة في بلاده والقارة، وكان له أنصار كثر في فرنسا التي عاش فيها بعض الوقت، وتعرف خلال وجوده هناك إلى مجموعة من الفلاسفة الموسوعيين واتصل بجان جاك روسو ودعاه إلى بريطانيا حين اشتدت عليه الضغوط.

لم تستمر علاقة هيوم بالفيلسوف الفرنسي كثيرًا فاختلف معه خلال فترة وجوده في بريطانيا بين العامين 1765 و1767 بسبب تعارض منهجية الفيلسوف البريطاني الواقعية مع نزعة روسو المتمردة على التقاليد والاجتماع. عاش هيوم إلى 1777 وحين غادر الدنيا كانت أميركا بدأت ثورة الاستقلال ضد بريطانيا.

على المقلب الآخر (فرنسا) عاصر الفيلسوف روسو تحولات كثيرة، لكنه نظر إليها من موقع مختلف عن هيوم. فهيوم رجل دولة وروسو من النوع المتمرد الذي ينتقد المجتمع بقوة ويدعو إلى الفردية وتحرر الإنسان من القيود الاجتماعية. وسيترك هذا الأمر اثره لاحقًا في رجال الثورة الفرنسية التي ستشهدها القارة بعد سنة من انتصار الثورة الأميركية على الاستعمار البريطاني[96].

ولد روسو في العام 1712 في سويسرا (جنيف) من أسرة بروتستانتية. واجه والده مشكلات كثيرة اضطرته إلى الهرب من المدينة تاركًا ابنه عند رجل دين (قسيس) ليتولى تربيته.

تركت طفولة روسو أثرها في تطور شخصيته ونزقه الدائم نحو افتعال المشكلات. فهذه النفسية المشاكسة كانت رد فعل على تربية صارمة في التعليم والتلقين. فوالده يعمل في صناعة الساعات وهي مهنة قاسية تتطلب الانضباط بالوقت والخضوع لدقات الزمن. وما فات والده تكفل القسيس باستكماله. فالتربية الدينية على الطريقة البروتستانتية تعني أيضًا الانضباط الصارم بالبيئة الثقافية وتلقين الفرد أصول الخضوع للعلاقات الاجتماعية القاسية.

هذا الوضع المشروط باحترام الوقت والخضوع للتقاليد كان كافيًا لتشجيع روسو على مغادرة جنيف والهرب إلى فرنسا في 1728. وفي بلده الجديد سيولد روسو الآخر المتمرد على الوقت والكاره للمجتمع والداعي إلى حرية الفرد (الفطرية) والناقم على المؤسسات. فهذا الشاب سيعيش فترة مراهقة صعبة وسيعاني كثيرًا من القلق والتشرد والتمرد بحثًا عن شخصية تتناسب مع هويته المضطربة[97].

مرّ روسو بتجربة صعبة سجلها لاحقًا في مذكراته (اعترافات) بسبب ضياعه وهواياته المختلفة وانقلاباته المزاجية. فهو غادر البروتستانتية والتحق بالمذهب الكاثوليكي واتجه نحو الموسيقى محاولاً

وضع نظام جديد لها... وفشل في مسعاه.

لم يغادر روسو حقل الموسيقى، لكنه أخذ يطرق مجالات أخرى بحثًا عن الشهرة. فانتقل إلى باريس في 1741-1742. وهناك اشترك في مسابقة عن العلوم والفنون وفاز بجائزتها الأولى، الأمر الذي وضعه في مصاف المشاهير وأصبح محط أنظار كبار رجال الدولة والأغنياء.

نقلت الشهرة روسو من موقع إلى آخر. فالتحق بالسلك الدبلوماسي وعمل في هذا الإطار في البندقية (إيطاليا) في 1743-1744. واكتسب من تجربته الدبلوماسية مجموعة معارف جديدة تتصل بالعلاقات الدولية، ودور الدولة وموقعها ووظائفها، ومكانة الفرد في الجماعة وتلك المؤسسات التي تتحكم بالمواطن وتحد من حريته (فطرته الطبيعية).

إلا أن طفولة روسو القاسية لم تغادره. فهو نقم على المجتمع في كتاباته الفلسفية، وعارض النظام الاجتماعي القائم، واقترح قواعد جديدة للتنمية والتعامل مع المؤسسات. ومال في كتاباته إلى الحرية الفردية مقترحًا العودة إلى فطرة الفرد الطبيعية وتحريرها من قيود التقاليد والموروثات الاجتماعية. برأي روسو "إن في الجنس البشري ضربين من التفاوت: أحدهما ما أسميه تفاوتًا طبيعيًّا أو فيزيقيًّا، لأنه من وضع الطبيعة ويقوم على فارق السن والصحة وقوى الجسد وصفات الروح أو النفس؛ وثانيهما هو ما يمكن تسميته بالتفاوت الأخلاقي أو السياسي، لأنه تابع لنوع من التوافق، ولأنه مبني على تراضي الناس، أو في الأقل، على إجازتهم إياه وسماحهم به. وهذا النوع الأخير قائم على امتيازات يتمتع بها بعض الناس إجحافًا بحقوق الآخرين". والفرق "بين الإنسان والحيوان، هناك صفة نوعية جدًا تميز بينهما ولا يمكن أن تكون محل اعتراض، ألا وهي ملكة التكامل (التحسن) وهي ملكة إن ساعدتها ظروف مواتية قامت بتنمية كل ما عداها من الملكات الواحدة تلو الأخرى". وبرأيه أن التفاوت السائد بين جميع الشعوب المحكومة بالسياسة المدنية هو أمر مضاد للناموس الطبيعي. ويرى روسو أن المجتمع المدني بدأ خطوته الأولى بتسوير الأرض (اقتطاعها) وهذه الخطوة التي بدأت (هذه لي) كانت الأولى نحو الملكية الخاصة (أصل التفاوت بين البشر). وبهذا أسهم روسو في تأسيس قواعد معاصرة لفلسفة التاريخ الاجتماعي وهي فلسفة أخذ بها أو تأثر بها لاحقًا كل من هيغل وكونت وماركس. وبعد كتاب "أصل التفاوت" طوّر روسو نظريته المعرفية بالتقدم مرتبة نحو العقد الاجتماعي أي التعاقد الواعي العقلاني بين الدولة والمجتمع[98].

أسهمت هذه الأفكار التجديدية في إثارة المشكلات لروسو فارتد عن الكاثوليكية وعاد إلى البروتستانتية في 1754. يعكس هذا التقلب المذهبي مزاج الفيلسوف المتمرد والناقم على طفولة تحكمت فيها صناعة الوقت (الساعات) وتربية التلقين (القسيس). وجلب التقلب لروسو المزيد من المشكلات فدخل في خصومات مع فلاسفة عصره وساجل ضدهم.

آنذاك كان روسو اكتشف نفسه وأعاد إنتاج شخصيته المتمردة والمتقلبة على مختلف الحقول الفنية والإبداعية والفلسفية، فكتب الشعر والمسرح وألف أعمالاً موسيقية وغنائية (أوبرا)... إلا أن أهم ما توصل إليه هو تأليف كتابه "العقد الاجتماعي" الذي وضعه في 1762. وسيكون لهذا الكتاب الفلسفي دوره المهم في تكوين فكر نخبة الثورة الفرنسية، إذ سيعتمده بعض رجالها (روبسبير مثلاً) مصدرًا لإعادة بناء الدولة وتأسيسها مجددًا على قواعد مختلفة في التربية والتعليم والأدب. وهذا التأثير المباشر سيجعل لاحقًا من روسو أحد أهم كتّاب عصر الأنوار[99].

الكتاب دعوة إلى الحرية من خلال ضرب القيود الاجتماعية التي ترهق فطرة الإنسان الفردية وطبيعته البسيطة. فهو ينتقد المجتمع وما يتفرع منه من مؤسسات باسم الدفاع عن الفرد وحريته، وهو يتهجم على الملكية الفردية بوصفها الأساس الاجتماعي للتفرقة والظلم وعدم المساواة. فالفرد برأي روسو ليس كائنًا اجتماعيًّا بل إن المجتمع يفسد فطرته الطبيعية ويحطم حريته ويخضعه لمجموعة شروط تكبل حركته وبحثه عن الاستقلال.

أطلقت هذه الدعوة الرومانسية لحرية الإنسان موجة من التمرد، وأسهمت في تكوين ثقافة نزقة تميل إلى تحطيم كل المؤسسات التي تقف عائقًا أمام الميول الفطرية (الطبيعية) للفرد. برأيه القوانين هي تعبير عن الإرادة العامة للشعب، والأخلاق تأتي قبل العقل، والمواطن حر في طبيعته منذ الولادة وعليه أن يكسر تلك السلسلة الاجتماعية التي تكبله[100].

شكل هذا النوع من النقد نقمة عامة، ولقي اعتراضات من نخبة عصره فاختلف مع المسرحي فولتير، والموسيقي فريدريك غريم، والفيلسوف دونيس ديدرو، ودخل معهم في سجالات قوية زادت من مشكلاته. وتدخل هيوم لمصلحته ودعاه إلى بريطانيا فعاش هناك فترة سنتين اختلف خلالها مع فيلسوف بريطاني يعتمد منهجية تجريبية صارمة في التحليل الاجتماعي/العقلي، ويخالف روسو في نزعته الرومانسية ودعوته العشوائية إلى الثورة والتمرد على النظم والقوانين المتعارف عليها.

عاد روسو إلى باريس واستكمل نقاشاته النزقة مع خصومه في سنوات 1772-1776 بعد أن اكتسبت كتاباته الرومانسية المتمردة على الواقع الاجتماعي، شهرة تركت تأثيرها في مجال العلوم السياسية وبناء الدولة القائمة على حرية الفرد والمساواة. برأي روسو "إن الذي يجعل الإرادة عامة هو المصلحة المشتركة"، و"إن الميثاق الاجتماعي يجعل بين المواطنين من المساواة ما يلزمون أنفسهم معه بذات الشروط وما يجب أن يتمتعوا معه بذات الحقوق، وهكذا فإن كل عقد سيادة (...) ولا يفرق بين من تتألف منهم (...) ليس هذا عهدًا بين الأعلى والأدنى، بل عهد هيئة بين كل واحد من أعضائها، وهو عهد شرعي لأنه قائم على العقد الاجتماعي، وهو عادل لأنه مشترك بين الجميع (...)". إن "غاية المعاهدة الاجتماعية هي سلامة الطرفين المتعاقدين". و"بما أن جميع المواطنين متساوون بالعقد الاجتماعي فإن ما يجب أن يصنعه الجميع يُمكن الجميع أن يأمر به"[101].

بعد 11 عامًا على رحيل الفيلسوف المتمرد في العام 1778 ستندلع الثورة الفرنسية وستضم في صفوفها مجموعة تيارات سياسية تأثر بعضها بأفكار روسو الرومانسية. إلا أنّ هذه الثورة التي ستقتتل بعضها بعضًا وتنقلب على بعضها بعضًا، بسبب نزعتها الأخلاقية المتطرفة، سيكون لها أثرها الكبير في تغيير مسار التاريخ الأوروبي وستأخذ شعاراتها الرومانسية الكبرى (الحرية، الإخاء، والمساواة) بعدًا دوليًا.

قبل اندلاع الثورة الفرنسية كانت النخبة الأوروبية قد تحوّلت إلى قوة دينامية معاصرة تلعب دورها الخاص في التأثير في السلطة وتغيير سياساتها أحيانًا وإقناع رجال الدولة (البيروقراطية) أحيانًا أخرى باتخاذ إجراءات قانونية تعود بالنفع على المواطنين.

في بريطانيا ظهر تيار من المفكرين والعلماء والفلاسفة اشتغل في مختلف حقول المعرفة. إسحق نيوتن مثلاً ساهم في تطوير نظريات فيزيائية مستخدمًا المنهج الرياضي في تفسير طبيعة المكان والزمان. جون تولاند (1670-1721) اعتمد في فلسفته على المذهب المادي (الطبيعي) وردّ على سبينوزا ودحض نظرية المادة كما تصورها ديكارت. لورد شفتسبري (1671-1713) حاول تبديد مقولات هوبز ولوك بشأن العقل وذهب إلى تنميط غريزة الإنسان خلقيًّا واجتماعيًّا، معتبرًا أن حال الإنسان الاجتماعية طبيعية وعفوية. جورج بيركلي (1685-1753) حاول انطلاقًا من نزعته الدينية أن يرد على أصحاب المذهب المادي (الحسي) الذي ينكر الخالق وقام بتأسيس مدارس وجمعيات خيرية

لمساعدة المحتاجين وانتقد هوبز ولوك وديكارت وسبينوزا بسبب قولهم بوجود مادة يعترفون بأنهم لا يدركونها.

تشبه نظريات بيركلي عن اللامادة فلسفة جوزيف باتلر (1692-1752) الذي حاول إعادة الاعتبار للفلسفة الأخلاقية انطلاقًا من نزعة دينية مثالية (راعي كنيسة دورهام) اجتهدت في تفنيد تلك الآراء المادية التي انتشرت في أوروبا منذ القرن السابع عشر. والأمر نفسه أقدم عليه فرنسيس هاتشيسون (1694-1747) حين نشر مجموعة كتب عن الفضيلة والأخلاق محاولاً ترتيب أفكار اللورد شفتسبري وشرحها وتمّ نشرها بعد تعيينه أستاذًا في جامعة غلاسكو في 1729[102].

لم يقتصر الصراع بين المذهبين المثالي والمادي على بريطانيا وإنما أخذ بعده القاري بسبب نمو حاجات بدأت تؤثر في وعي الإنسان وأسلوب معاشه وتعامله اليومي مع الكنيسة. وساهم النقاش الذي أنتجته بريطانيا في القرن الثامن عشر في تكوين تيارات متعارضة في توجهاتها تجمع بين المثالية والاقتصادية أو بين الفضيلة والمنفعة أو بين الأخلاق (الطوباوية) والأفعال الاجتماعية للإنسان. ديفيد هارتلي (1704-1757) الذي تأثر بنظريات نيوتن وأفكار لوك الليبرالية أبدى في الآن نفسه إعجابه بآراء تولاند الذي يصنف عادة من أوائل دعاة المادية في بريطانيا. واتخذ توماس ريد (1710-1796) الموقف المضاد حين اختار لنفسه مهمة الدفاع عن الأخلاق والدين ودعوة الإنسان للرجوع إلى الضمير وعاطفته الطبيعية. أما آدم سميث (1723-1790) الذي درس في جامعة غلاسكو وأخذ من هاتشيسون فلسفته الأخلاقية اتّجه نحو الاقتصاد محاولاً الربط بين آليات الطبيعة وآليات السوق. وأدى كتاب سميث عن "ثروة الأمم" في مجال دراسته للشعوب وثرواتها ومصادرها، إلى تأسيس علم "الاقتصاد السياسي" الذي يعتمد قانون المنفعة بصفته آلة طبيعية تتكفل بتنظيم الشؤون الاجتماعية. ويعتبر سميث من أوائل فلاسفة اقتصاد السوق حين رفض تدخل الدولة في قانون العرض والطلب حتى لا تعطل منطق تقسيم العمل الذي يعتمد على الكفاءات لا المساعدات. وأدت نظريات سميث إلى تكوين فلسفة للرأسمالية المعاصرة أخذت تتطور تحت مظلة الاقتصاد الحر وحرية السوق وترك الطبيعة تتكفل بتصحيح نفسها آليا من دون تدخل من الدولة[103].

اندفعت كل هذه الاتجاهات والاجتهادات على أنواعها المادية والمثالية، الأفلاطونية والأرسطية، الديكارتية والهوبزية وغيرها من القراءات والتحليلات والمراجعات في سياقات متعارضة للرد على تلك التحديات التي أخذت تجرف شخصية أوروبا القديمة وتعيد تشكيلها من جديد. فالقارة التي مرّت

طوال قرون بفترات من البرودة والهدوء والركود والتكرار والجفاف دخلت فجأة عصر الانقلاب الدائم على الذات وبدأت تضخ عشرات العلماء والفلاسفة ورجال الدولة وأصحاب النظريات العلمية والاكتشافات والاختراعات إلى السوق لمواكبة التحولات والرد عليها والاستجابة لها. وشكّلت هذه الحيوية نقطة قوة أعطت المزيد من الزخم لمشروع نهضة بدأ يتأسس من الجذور[104].

صدمة خطاب الموسوعة الفرنسية

لم تقتصر الحيوية على بريطانيا في اعتبار أن النشاطات الناجمة عن الفعل الإنساني تشابهت في رد فعلها العقلي والنفسي على ما تشهده القارة الأوروبية من تحولات ساهمت في زعزعة قناعات مألوفة ومتوارثة منذ مئات السنين. جاء دور فرنسا القيادي بعد بريطانيا. ولعبت النخبة، منذ مطلع القرن الثامن عشر، دورها في تشكيل تيارات تراوحت بين الدعوة إلى العودة إلى الأخلاق والفضيلة وبين دعوات أخذت تروّج للثورة وإطاحة النظام الملكي - الأرستقراطي المتحالف مع الكنيسة.

تأثر الفلاسفة والعلماء الفرنسيون بداية بالنخبة الإنكليزية - الأسكتلندية وأخذوا عنها الكثير من أفكارهم ووجهات نظرهم الداعية إلى الحرية والدستور والحدّ من صلاحيات السلطة المطلقة. حتى رجال الدين في الكنيسة الفرنسية تأثروا بأفكار نخبة تلك الجزيرة المجاورة. القسيس كونداياك (1715-1780) مثلاً اعتنق مذهب لوك الحسي واشتغل عليه وعارضه أحيانًا وصولاً إلى القول إن الإحساس الظاهري «يكفي لتوليد كل القوى النفسية». فالميول برأيه تصدر عن الانفعالات. فولتير (1694-1778) أقام في إنكلترا لمدة ثلاث سنوات ودرس هناك الفلسفة واطلع على كتابات بيكون ولوك ونيوتن واعتمد المذهب التجريبـي في فلسفته. ديدرو (1713-1784) بدأ اهتمامه بالفلسفة من خلال ترجمته عن الإنكليزية كتابات المفكرين والفلاسفة والعلماء متأثرا بالموسوعة البريطانية عن الفنون والعلوم التي ظهرت في 1728 فقرر أن يعمل على إنتاج موسوعة فرنسية موازية في العام 1746[105].

شكلت الموسوعة الفرنسية نقطة تحوّل في تاريخ الفكر الأوروبـي لأنها جمعت كبار العلماء والفلاسفة والشعراء في دائرة مشتركة للإشراف على إصدار مجلداتها بعد أن انضمت إلى فريق ديدرو شلة من الأصحاب على رأسهم فولتير وروسو والعالم الرياضي وعضو أكاديمية العلوم دالامبير (1717-1783). ونجح الفريق في إصدار المجلد الأول في 1751 واستمرت تصدر إلى أن اكتملت في 1772 بعد أن بلغ عددها 17 مجلدًا.

استغرق العمل في الموسوعة الفرنسية 21 عامًا ونجحت في استقطاب كبار الأكاديميين والعاملين في مجالات الفكر والاقتصاد والسياسة والفلسفة والدين. هلفتيوس (1715-1771) مثلاً كتب فيها وهو من دعاة الفكر المادي والمذهب النفعي، ودولباك (1723-1789) وهو ألماني عاش في فرنسا يعتبر من دعاة الفلسفة المادية أيضًا، وغيرهما من أصحاب المقالات التي حملت معلومات عشوائية عن مختلف العلوم والفنون انطلاقًا من توجهات فلسفية متضاربة تعتمد منهج الشك في التعامل مع القضايا الإنسانية والإيمانية والأخلاقية[106].

تعود أهمية الموسوعة إلى توقيت صدورها الزمني. فهي اكتسحت السوق عشية الثورة الفرنسية ولعبت مقالاتها دورًا في تنوير الكثير من القضايا التي كان يحتاجها القارئ للإجابة عن أسئلته الحائرة بشأن الدين والكنيسة والسلطة والطبيعة والإنسان. وبسبب موقع الموسوعة الخاص يرى الكثير من المتابعين أنها شكلت خطوة تمهيدية لانفجار الثورة وإعلان وثيقة حقوق الإنسان على رغم أن كل كتابها رحلوا قبل حصول الثورة بسنوات أو خلال السنة نفسها أو بعد سنة من قيامها. والربط بين الموسوعة والثورة الفرنسية ليس مبالغة باعتبار أن رموز الانتفاضة وقادتها تأثروا بفلاسفة الموسوعة وأخذوا من مقالاتهم المتناقضة الكثير من العناوين في خطاباتهم الحماسية لتحريك الجماهير.

الحدث الفرنسي الذي استقطب اهتمام أوروبا والعالم لم يحصل من فراغ، وإنما جاء بناء على المعطيات الاجتماعية للتحولات التي شهدتها فرنسا خلال القرون الثلاثة الماضية. كذلك جاء بسبب تأثر نخبتها بالثورة الأميركية (وثيقة الاستقلال والدستور) وقبلها بالثورة الجمهورية في بريطانيا التي قادها كرومويل ثم عادت وانتكست لتتحول إلى ملكية دستورية.

الثورة الفرنسية (1789) هي نتاج تحوّلات قارية ودولية اجتمعت فروعها وتوحدت في الداخل الأوروبـي. فهناك العامل الأميركي، وهناك الدور الإنكليزي (البريطاني لاحقًا)، وهناك التفاعلات المحلية التي تشكلت منها مدارس فلسفية اهتمت بالقانون والأدب والشعر والمسرح والفن وركزت على تعديلها وتطويرها في إطار إنساني يتطلع إلى الحرية والمساواة والعدالة.

كان من الصعب أن ينتهي القرن الثامن عشر دون ثورة كبرى تهز العالم. فالسياق التطوري كان يقود نحو هذا الاتجاه الطبيعي للتحول. والنخبة التي بدأت تستقل عن الكنيسة مستفيدة من الاختراعات والمختبرات والاكتشافات لم تعد خائفة من البوح بمقالاتها كما كان حال كوبرنيكس في

العام 1542 أو كما حصل مع غاليليو حين تعرّض إلى الإهانة واضطر إلى التراجع عن أقواله أمام محكمة التفتيش في العام 1633. العالم تغير والنخبة الأوروبية تحصنت وبدأت تستعد لأخذ زمام المبادرة متسلحة بإنجازات علمية لم يعد بإمكان الكنيسة تجاهل تأثيراتها في صنع وعي الناس[107].

حتى العقود القليلة التي سبقت الثورة الفرنسية كانت النخبة تتردد في إعلان إلحادها، وكان معظم أصحاب المذاهب المادية (الحسية والنفعية) يتجهون نحو التوفيق بين الدين والعلم أو التناغم بين المعتقد الديني والفلسفة أو الانسجام بين العقل والإيمان. فالاستقلال عن الكنيسة كان مجرد دعوة عامة لا صلة لها بالقناعات بقدر ما هي رؤية سياسية أو إدارية أو تنظيمية تريد ترتيب العلاقة بين الدولة والدين من طريق فصل أو عزل رجال الدين عن رجال الدولة. المسألة آنذاك لم تطرح على قاعدة الإلحاد ونكران الخالق وإنما من باب تمييز مهمات الدولة عن واجبات الكنيسة. واستمر هذا الفكر الملتوي ينمو باطراد ويتحرك في القارة بحياء إلى أن انفجرت الثورة وتحوّلت فرنسا ساحة للصراع ومنطقة نفوذ للفكر الحرّ الذي اكتسح أوروبا متجاوزًا مختلف الحواجز والممنوعات والمحرمات والمقدسات.

آنذاك كانت البرتغال تراجعت عن موقعها في قيادة القارة ولم تعد تلعب ذلك الدور الريادي الذي صنعه أميرها هنري الفاتح في مطلع القرن الخامس عشر، إلا أن لشبونة كانت لا تزال تحمل في الذاكرة الجمعية تلك الخصوصية الرمزية في الفن العمراني والقيادة الملاحية، واستمرت كذلك إلى أن ضربها ذاك الزلزال المدمّر في 1755. أحدث الزلزال اهتزازات "أيديولوجية" في عقل النخبة الأوروبية بعد انكشاف مشهد الدمار وإخراج لشبونة من المعادلة الأوروبية. الصدمة نفسية وهي لا تقل في تأثيراتها المعنوية عن صدمة سقوط القسطنطينية أو تفشي وباء الطاعون. فالعقل الأوروبي وقف مدهوشًا أمام المأساة وانقسمت النخبة تناقش وتسجل وتبحث في الأسباب والمسببات و"العلة الأولى". وأدى الزلزال إلى إعادة طرح تلك الأسئلة البديهية بشأن الخالق والإنسان والطبيعة والفاعل والقوانين المادية وآليات التطور وأدوات التحطيم. وساهم الفيلسوف الألماني كانط (1724-1804) في الإجابة عن الكثير من تلك الأسئلة الحائرة بشأن أسباب الزلازل في إطار اشتغاله الطويل على العقل ومشتقاته[108].

إلى زلزال لشبونة توقفت حرب السنوات السبع بين فرنسا وبريطانيا وانتهت إلى توقيع معاهدة سلمية في 1763، ما أعطى فرصة للنخبة الأوروبية لإعادة التفكير في الكثير من المسلّمات السياسية التي تشكلت خلال العهود الغابرة. إلا أن الحدث الأهم الذي تجاوز في تأثيراته البنيوية، كل النقاشات

بشأن زلزال لشبونة والمعاهدة الفرنسية - البريطانية، وأدى إلى تحويل تاريخ أوروبا ودفعها بقوة إلى عصر الميكانيك الصناعي كان اختراع الأسكتلندي جيمس واط الآلة البخارية في 1765[109].

بعد 1765 لن تعود أوروبا إلى الوراء، لأن اختراع الآلة البخارية أسس تحديات عقلانية (واقعية وحسية) دفعت النخبة إلى التقدم نحو المزيد من الاستقلال عن تلك المظلات الفلسفية الكلاسيكية التي كانت تتحكم بالمنظومات المعرفية وأبنيتها الهرمية المتوارثة من العصر اليوناني، أو بتأثير من الفلسفة العربية/الإسلامية التي انتقلت إلى أوروبا بحرًا (الموانئ) أو برًا (الاحتكاك) من القناتين: الأندلس من وسط إسبانيا وصقلية في جنوب إيطاليا.

جاء اختراع واط مصادفة، لكنه حصل للرد على حاجة أخذت تفرضها المتغيرات التي أعادت تشكيل خريطة أوروبا الحديثة. فالثورة الصناعية التي بدأت قبل عشر سنوات من الثورة الأميركية ضد بريطانيا في 1775، تطورت طرديًّا بعد 1781، أي قبل انفصال الدولة الجديدة (الولايات المتحدة) عن التاج البريطاني بسنتين (1783).

لم يكن اختراع واط الآلة البخارية هو السبب في توليد الصناعة الحديثة. فالاختراع جاء في سياق إعادة اكتشاف ذاك التراكم الهائل في الثروات النقدية والسلعية التي تم تحويلها من «العالم الجديد»، وأتى ردًا على حاجات توسع السوق وتلبية لنمو متطلبات التقدم وتفرعاته وتقاطعاته العلمية والاقتصادية والتقنية.

بدأ واط استخدام آلته في المضخات، ثم طوّرها في العام 1781 إلى آلة ميكانيكية. ونجحت شركته في إنتاج 200 مضخة و300 محرك بخاري. في البدء انتشرت الآلة في محيط مناجم الفحم الحجري والحديد، ثم انتشرت بالقرب من المرافئ البحرية والنهرية وأخذت بتسريع وتيرة النقل (القطار) وتسهيل الشحن (البواخر). وبدأت المواصلات بالتطور السريع حين نجحت في ربط مراكز إنتاج مواد الخام (المناجم) بالمصانع بالمرافئ النهرية والبحرية من خلال توسيع شبكة الطرقات وخطوط سكك الحديد وشق القنوات المائية وتوصيلها بفروع الأنهر ومراكز العمل[110].

أحدث تطور الآلة ثورة في عالم الاتصالات وخطوط المواصلات وطرق النقل ما شجع على نزوح الباحثين عن عمل من مناطق الريف والتوجه إلى المراكز الصناعية لتأمين السكن والوظيفة. وأدى التحوّل في بنى علاقات الاجتماع إلى توسع المدن وتطورها وازدهارها مستفيدة من ذلك النمو

المطرد في تعداد السكان (طفرة ديموغرافية) ما أسس لاحقًا قواعد اقتصادية معاصرة لنشوء المدينة الحديثة.

لم تقتصر أهمية الآلة البخارية على قطاع الإنتاج الصناعي وإنما امتدت تداعيات الاختراع لتشمل مختلف الفروع المتصلة بهذا الاكتشاف. فالآلة دفعت الملاحة إلى درجة متقدمة من التطور (تحديث البواخر البحرية) والشحن البري (القطار) والمواصلات والاتصالات. فمن جانب المواصلات اخترع الفرنسي نيكولا جوزيف كونيو سيارة في العام 1769 تعمل بالمحرك البخاري. ومن جانب الاتصالات اخترع الفرنسي كلود شاب في العام 1792 التلغراف ما أعطى دفعة قوية لتسهيل تدفق المعلومات عن حركة النقل والشحن وتوزيع الأخبار ونشر الأنباء[111]. كان من الصعب أن تمرّ كل تلك المتغيّرات (الآلة والتقنيات والاتّصالات والمواصلات) المترافقة مع نمو المدن وتوسّعها، من دون أن تترك تأثيراتها المعرفية على النخبة الأوروبية (البريطانية، الفرنسية، والألمانية) التي كانت تراقب المشهد وتنفعل معه فكريًّا وسياسيًّا وفنيًّا على امتداد حقبات القرن الثامن عشر.

برأي راسل أن الفلسفة المعاصرة بدأت في القرن الخامس عشر وترعرعت عناصرها الجنينية في شمال إيطاليا (فلورنسا) في عهد أسرة مديتشي في توسكانا. ومن فلورنسا بدأت الخطوة التأسيسية الأولى بعد صدور كتاب "الأمير" لميكافيلي (1467-1527)، ثم اراسموس (1466-1536)، ثم توماس مور (1478-1535) وكتابه عن "يوتوبيا" في سنة 1518. وهكذا يواصل راسل بحثه عن تطور الفلسفة الغربية مشيرًا إلى ظهور الحركة البروتستانتية (لوثر وكالفن) ونمو العلوم من كوبرنيكس (1473-1543) وتايسو براهي (1546-1601) وكبلر (1571-1630) وغاليلو (1564-1642) وغيلبرت (1540-1603)، وهارفي (1578-1657) وروبرت بويل (1627-1691)، ونيوتن (1642-1727)[112].

برأيه فلسفة فرانسيس بيكون (1561-1626) تبلورت في ظل المتغيرات الإصلاحية الدينية والمتحولات العلمية والاكتشافات الفلكية والاختراعات التقنية وظهرت في فترة سابقة لنظريات نيوتن عن الجاذبية وأنواع الحركات. يعتبر هذا الفيلسوف الإنكليزي من مؤسسي مدرسة العلم المادي التجريبي، إذ دافع عن منهج الاستقراء العلمي وتبوأ مناصب عليا في عهد الملك جيمس الأول، ودعا إلى اعتماد مبدأ الشك وتطهير العقل من المفاهيم المسبقة. وتصوّر مدينة خيالية (مجتمع مثالي) تقوم على أساس العلم ومزدهرة اقتصاديًّا وتقنيًّا، ما ترك تأثيره على فلسفة لوك. أفكاره شكلت خطوة ثانية

في سياق تطور الفلسفة الغربية التي بدأت تتوالى حلقاتها من دون انقطاع على سكة حديثة في تكوينها وعناصرها. فجاء هوبز (1588-1679)، ديكارت (1596-1650)، سبينوزا (1632-1677)، وليبنتز (1646-1716)، إلى أن ظهرت موجة الليبرالية التي انتعشت بداية في إنكلترا وهولندا. يرى راسل أن سبب إشراق الليبرالية في إنكلترا يعود إلى ذلك الصراع الذي نشب بين الملك والبرلمان في فترة الحرب الأهلية ما أعطى فرصة لنمو فلسفة تؤكد على التصالح (التسوية) والتحديث (التطوير). بدأت الليبرالية حين وضع جون لوك (1632-1704) إطارها السياسي - الفلسفي (المجتمع المدني والعقد الاجتماعي) وأخذت تتفاعل بعده متأثرة بمبادئ التسامح التي أشار إليها في أعماله. بعد لوك جاء جورج بيركلي (1685-1753)، وديفيد هيوم (1711-1776).

إثر هذه الموجة من الفلاسفة يفتح راسل صفحاته على فصل جديد يبدأ من جان جاك روسو (صديق هيوم وخصمه في الرؤية الفلسفية) وما يسميه بظهور الحركة الرومانسية. بدأت مع روسو والعقد الاجتماعي (1712-1778) الروح الفرنسية تعيد تشكيل وظيفة الفلسفة ودورها التنويري في ضوء تداعيات الثورة وتأثيراتها على المحيط الإقليمي في نهاية القرن الثامن عشر. بدأت الفلسفة، بعد روسو وانتقالها إلى ألمانيا تنشطر إلى وحدات غير متجانسة وحقول متخالفة في اختصاصاتها ومنطلقاتها. فظهر كانط (1724-1804)، فيخته (1762-1814)، هيغل (1770-1831)، شوبنهور (1788-1860)، ونيتشه (1844-1900).

يتوقف راسل عند نيتشه ليقول إن الفترة الألمانية التي امتدت من كانط إلى نيتشه خففت من تأثير الفلسفة الإنكليزية باستثناء أعمال السير ويليام هاملتون وجيرمي بنثام وجيمس مل وابنه جون ستيوارت مل وتشارلز داروين وروبرت أوين.

هذا المزيج بين الأفكار السياسية والمذهب النفعي والمادية الطبيعية والاشتراكية المثالية أخذ يولّد اتجاهات فلسفية غير منسجمة مع تاريخها التطوري (وحدة الأضداد) إذ بدأت تتفرع إلى اختصاصات سياسية واقتصادية واجتماعية واشتراكية وشيوعية (كارل ماركس)[113].

تصادفت كل هذه المتغيرات التقنية مع تحولات درامية كبرى بدأت معالمها تتمظهر في العالم الجديد. آنذاك ستعلن أميركا وثيقة الاستقلال في 1776 مستفيدة من تلك المقولات التي أنتجتها النخبة البريطانية - الأوروبية في القرنين السابع عشر والثامن عشر.

التاريخ "المعاصر" ينطلق من "العالم الجديد"

لِمَ يبدأ التاريخ المعاصر من أوروبا؟ المفاجأة كانت أميركا. القصة في أساسها متصلة بأوروبا وتحديدًا ذاك الصراع الفرنسي - البريطاني والتنافس على زعامة القارة وقيادة العالم. فالصراع امتد وانتقل من أوروبا إلى أميركا. وهناك تطور التنافس ليؤسس دولة جديدة مستقلة سيكون لها شأنها الكبير في التاريخ.

هذه الدولة الجديدة غريبة من نوعها. فهي تشكلت من مهاجرين زحفوا إليها من أوروبا. وبسبب هذا النوع من التكوين التاريخي تأسست الدولة قبل المجتمع وأسهمت في ترسيم هويته من خلال دمج المجموعات المهاجرة في المؤسسات، الأمر الذي فرض عليها البحث عن صيغة قانونية لضبط العلاقات[114].

هيغل لاحظ هذا الأمر باكرًا حين تحدث عن دور مميز للدين في تشكيل الدولة الأميركية وتوقع في كتابه عن "فلسفة التاريخ" أن يكون للمسيحية الزاحفة مع المهاجرين دورها في التأثير في هوية الدولة وسياساتها[115].

كذلك لاحظ توكفيل في كتابه عن "الديموقراطية في أميركا" أن الديموقراطية في هذه الدولة الوليدة تختلف تكوينيًّا عن تلك الديموقراطية الموجودة في أوروبا. فالديموقراطية الأميركية ممارسة اجتماعية وليست مجرد نظرية فكرية[116].

يعود هذا الاختلاف على مستوى دور الدين وهوية الديموقراطية وتعريفها السياسي إلى اختلاف الاجتماع البشري والنمط التركيبـي الذي تألف منه العمران وما أنتجه من حاجات خاصة تتصل بالمعرفة.

الدولة في أميركا دولة مهاجرين (مستعمرات ومستوطنات) وبالتالي لعبت المؤسسات من البداية دور الرابط والناظم لمصالح الجماعات الأهلية الزاحفة من أوروبا. يشبه هذا الزحف الاستيطاني كثيرًا حال انتقال البدو من مكان إلى آخر بحثًا عن الماء والكلأ. والفارق التاريخي أن البداوة الأوروبية كانت حديثة ومعاصرة (نمط رأسمالي جاهز) وحصلت لدوافع البحث عن الثروة (الذهب) تقوم قواعدها على تصورات ذهنية (معرفة) مكتملة ومستوردة من الخارج[117].

لم يتطور المجتمع الأميركي، وإنما انتقل بكامله من مكان إلى آخر حاملاً معه مجموعة أفكار تتسم بالنقاوة (التطهر) الدينية والأحلام السعيدة وبناء وطن مستقر وبعيد عن مشكلات القارة الأوروبية (القديمة نسبيًا). أميركا لم تتطور تقليديًّا وتمر في سياقات تاريخية متشابهة مع مجتمعات موغلة في القدم. فهذه الدولة قفزت إلى التاريخ وانتقلت مباشرة إلى الرأسمالية الاستيطانية وانتشرت من الرأس (الدولة) إلى الجماعات النازحة. لذلك بدأت الدولة الجديدة من فوق (المؤسسات) وليس من تحت (المجتمع). وتكفلت روح المؤسسات الدستورية بصوغ هوية جديدة للجماعات المتنوعة الأشكال والألوان محاولة دمجها في إطار الولاء للدولة[118].

قادت الدولة في أميركا المجتمع، والمجتمع ولد منها وفق تصورات دستورية حددت شخصية الناس وضبطت علاقاتهم الاجتماعية وفق صيغ قانونية كان لها تأثيرها القوي في تكوين ثقافة جديدة استهوت لاحقًا الكثير من التيارات الأوروبية.

حين اندلعت ثورة الاستقلال في أميركا كانت الدولة الجديدة تتألف من 13 ولاية فقط تقع كلها في الجانب الشرقي من الولايات المتحدة أو الضفة الغربية من المحيط الأطلسي. وسيولد من هذه الولايات وحش رأسمالي جديد ليؤسس دولة توسعية في مجالها الحيوي الجغرافي تمددت بسرعة إلى أن بسطت نفوذها على الجانب الغربـي من الولايات. وجاء هذا النمو في سياق تصادمي مع أهل البلاد (اقتلاع الهنود الحمر) ومع مصالح دول أوروبا التي أخذت تتراجع أمام هجوم الرأسمالية الجديدة.

بدأت أميركا من الدولة (رأس الهرم) وانتقلت تاريخيًّا إلى المجتمع (قاعدة الهرم). وهذا يعاكس تاريخ نشوء الدولة في أوروبا. فالأخيرة تأسست في سياق تطور العمران وتقدمه المعرفي. لذلك جاء الدستور المعاصر في أوروبا ردًا على حاجة، ولم يكن الدستور هو المؤسس لهوية المجتمع كما هي حال أميركا. في أوروبا حدّدت هوية المجتمع إطار شخصية الدولة وروح الدستور (الشرائع)، بينما الدولة في أميركا هي التي حددت هوية المجتمع وصاغت قنواته الدستورية.

كان النموذج الأميركي جديدًا على التاريخ الأوروبـي وفرضته مستلزمات التأسيس الحديثة لدولة مهاجرين (جماعات نازحة أو راحلة) تألفت عناصرها البشرية الأولى من هيئات ومنظمات متدينة أو لوبيات تطمح إلى الثروة، مستخدمة تلك الأفكار التطهرية التي شاءت البدء معها من "الصفر"[119].

البدء من الصفر جاء في نهاية القرن الخامس عشر (اكتشاف كولومبوس للقارة الجديدة) ونما «الصفر» بسرعة وتحوّل إلى رقم حقيقي في مطلع القرن الثامن عشر. هذا النمو السريع لتلك القوة الجديدة خلق تحديات للرأسمالية الأوروبية (القديمة نسبيًا) وأثار مشكلات بين دولها التي تنافست على كسب ثروات هذه السوق الضخمة.

كانت بريطانيا آنذاك هي القوة البحرية الأولى في العالم وفي حال تنافس مع فرنسا على قيادة القارة. وبسبب النزاع الفرنسي - البريطاني استفاد الوليد الجديد من دعم فرنسا لمواجهة ما أسماه الاستعمار البريطاني. كانت بريطانيا تعتبر أميركا ولاية تابعة لها وتتعامل معها باعتبارها مصدرًا للرزق والثروة تقع في دائرة مجالها الحيوي ومنطقة نفوذها وراء المحيطات. اعتبرت فرنسا أميركا مركز القوة لبريطانيا ونقطة الضعف في الآن نفسه، لذلك تركزت سياستها على معادلة كسر قوة بريطانيا في أوروبا من خلال ضرب نفوذها في العالم الجديد. برأيها سيبدأ التغيير من غرب الأطلسي لا شرقه[120].

تحت سقف الصراع الأوروبي - الأوروبي يمكن فهم أو تفسير ظاهرة حركة الاستقلال التي قادها جورج واشنطن في 1775. بدأت حرب الاستقلال بسبب اختلاف المصالح بين الدولة (الأم) والمستعمرة (الابن). فالابن تشكلت لديه شخصية خاصة أخذت تضغط نحو الانفصال عن قوة قديمة تفرض شروطها وفق مراسيم تلبي مصالح بريطانيا ولا تأخذ في الاعتبار قدرات القوة الجديدة ورغباتها. مثلاً كان من حق الحاكم البريطاني أن ينقض كل القوانين التي تصدر عن الجمعية التشريعية في المستعمرة. وكان من حق الحاكم منع الولايات الأميركية من تصنيع المواد والسلع التي تنافس المنتوجات البريطانية. كذلك كان الحاكم البريطاني يفرض الضرائب ويطلب من الولايات تمويل حروب دولته وتأمين تسهيلات لجيوشها. وكان أيضًا يمنع تلك الولايات من شراء الأراضي أو إقامة مستعمرات جديدة في مناطق الهنود الحمر من دون العودة إلى الحاكم.

شكلت كل هذه التراكمات حساسية بين قوة اقتصادية نامية تتمتع بمواصفات خاصة ومصالح مستقلة لا تنسجم مع هيمنة المستعمر، وبين مصالح دولة عظمى تعتمد على مستعمرات لرفد موازنتها بالمال. فالثورة لم تحصل لأسباب عقائدية وإنما جاءت تجاوبًا مع مصالح كتلة اقتصادية طامحة للنمو والتوسع في مجالها الجغرافي. وبسبب تعارض المصالح وجدت الكتلة الجديدة أن نظام

العلاقات الذي تفرضه بريطانيا لم يعد يناسبها، وهذا ما أدى إلى نمو نزعة تطالب بالانفصال (الاستقلال)[121].

بدأت الثورة بشرارات بسيطة بسبب رفض الناس شراء طوابع (رسوم) تُفرض على المستعمرات للمساهمة في تمويل نفقات الجيوش البريطانية. وانضم التجار إلى حركة التمرد تلك، وقرروا مقاطعة البضائع البريطانية إذا لم تبادر هيئتهم التشريعية (مجلس البرلمان) إلى إلغاء ذاك الطابع، فألغي الطابع.

بعد ذلك حاول وزير الخزانة البريطاني فرض ضرائب على الرصاص والأصباغ والورق والشاي فأثار إضرابات أدت إلى إلغاء الضرائب واستثنى الشاي منها. وحصلت ثورة في ميناء بلتيمور ضد قانون الشاي. وهكذا أخذت الشرارة تمتد وتنتقل وبدأت الولايات تتحرك نحو التكتل في محاولة منها للانفصال عن بريطانيا بعد أن أخذ التجار يحرضون الناس على رفض الخضوع لتلك القوانين القسرية التي تفرضها دولة أجنبية على البلاد. وبسبب نمو نزعة الاستقلال التجارية عن بريطانيا تشجع الكثير من أعضاء الكونغرس الأميركي الذي يمثل مصالح الولايات، إلى اتخاذ قرارات وطنية ترفض الاستجابة لشروط تلك القوانين القسرية[122].

هكذا تجمعت السحب من كل الاتجاهات وتكثفت في فضاء كان من الصعب عليه تحمّل أكثر من قوة واحدة. فانفجرت الحرب الأميركية - البريطانية وامتدت إلى الولايات واستمرت من العام 1775 إلى العام 1783.

انتهت حرب الاستقلال الأميركية بعد ثماني سنوات بسقوط أكثر من 45 ألفًا من القتلى بين الجانبين. وبسبب صعوبة المعارك التي استنزفت الخزانة البريطانية اضطرت حكومة لندن إلى الموافقة على التنازل عن مستعمراتها (13 ولاية) في العالم الجديد.

اعتبرت فرنسا آنذاك أنها انتصرت في معركتها على بريطانيا لكنها اكتشفت لاحقًا، أن حرب الاستقلال التي جرت بتمويل فرنسي ودعم عسكري مباشر، أسهمت أيضًا في كسر موازنة فرنسا وإرهاق خزينتها بالديون.

شاءت فرنسا أن تنهي الحرب في ديارها فاقترحت على الطرفين إجراء مفاوضات السلام في عاصمتها. وهذا ما حصل حين وقّعت "معاهدة باريس" في 1783 اعترفت بريطانيا بموجبها باستقلال

"الولايات المتحدة".

سيكون لهذا الاستقلال تداعياته وتبعاته الكثيرة سواء على مستوى الداخل الأميركي (إعلان الدستور واجتياح مناطق الهنود الحمر) أم على المستوى العالمي (بدء تراجع اقتصادات الدول الأوروبية) وتشجيع النخبة الفرنسية على الثورة[123].

الآن أصبحت أميركا دولة مستقلة. وهذا التطور السياسي فرض على قادة ثورة الاستقلال البحث عن صيغة دستورية تضبط العلاقات الأهلية وتضمن التوازن بين السلطات حتى لا تنقلب المسألة وتبدأ الولايات حروبها الخاصة للتنافس على السوق الداخلية أو ترغم الدولة وتأخذها إلى مجالات تخدم حفنة من الملاك والتجار.

شكلت هذه المخاوف قوة ضغط على أعضاء الكونغرس. فالكونغرس الآن اختلفت وظيفته وبات في موقع يقود الدولة ويصون مصالحها ويشرّع دورها ويضبط علاقات الولايات بعضها ببعض. سابقًا كان دوره أضعف ويخضع لسلطة أعلى تتلقى التوجيهات من الحاكم البريطاني الذي ينفذ سياسة دولته. شكل هذا التطور الجديد نقطة تحوّل أسهمت في تأسيس وعي فرضته حاجات الاستقلال على أعضاء الكونغرس. فالاستقلال مضى عليه الآن أربع سنوات والثورة التي انتزعت الاستقلال مضى عليها 12 سنة، وحتى الآن لم تتضح صورة دستور الدولة الجديدة[124].

بسبب هذا الواقع اتجه أعضاء الكونغرس - وهم في معظمهم تجار وملاك أرض وأصحاب صناعات بسيطة يمثلون المقاطعات واجتمعت مصالحهم على هيئة لوبيات تحت قبة البرلمان - نحو البحث عن إطار جديد للدولة. ولدّت هذه الحاجات الجديدة الإحساس لدى حكام الولايات بوجود ضعف في المواد القانونية (وثيقة الاستقلال) التي تضبط علاقات الاتحاد. وبسبب هذا الخلل تداعت الولايات إلى عقد اجتماع دستوري في العام 1787 للنظر في تعديل قوانين الاتحاد. وانتدب جورج واشنطن (قائد الجيش وبطل الاستقلال) إلى رئاسة وفد فرجينيا في "المؤتمر الدستوري" الذي انتهى إلى إعلان دستور الولايات المتحدة.

من يقرأ مواد الدستور اليوم يلاحظ مدى بساطته، إلا أنه في أيامه أحدث ثورة سياسية كان لها وقعها الكبير على أوروبا وتحديدًا فرنسا. فالدستور الذي وقعته 13 ولاية في 17 سبتمبر/أيلول 1787، وتوافقت بعد أشهر منه على انتخاب واشنطن أول رئيس للولايات المتحدة، تألف من مقدمة وسبع مواد،

كانت كافية في ذاك الوقت وفي تلك الظروف لبعث دولة عظمى توغلت بداية في مجالها الحيوي لتقضي على مناطق الهنود الحمر ثم انتقلت لاحقًا إلى التوسع الخارجي في إطارها الجغرافي وأخيرًا أصبحت المنافس الدولي لأوروبا والقوة الأولى اقتصاديًّا وعسكريًّا في العالم[125].

المسألة ليست في الإكثار من المواد الدستورية والتعقيدات القانونية بقدر ما كانت في التوقيت. الدستور الأميركي آنذاك كان خطوة جديدة في عالم بدأ يتكون من "الصفر" وفي سياق تاريخي لم تعرفه أوروبا. فأوروبا مثقلة بالتاريخ وكانت دولها أسيرة الحراك الاجتماعي والإطار الزمني الذي يتشكل منه النسق المعرفي للمجتمع. بينما أميركا كانت متحررة من الماضي وتأسس المجتمع وفق الصيغة الدستورية التي قررتها الدولة. فالدولة هي التي صنعت المجتمع وقادت ثورة الاستقلال وليس العكس كما هو حاصل في أوروبا.

تألفت المادة الأولى من الدستور الأميركي من عشر فقرات، والثانية من أربع، والثالثة من ثلاث، والرابعة من أربع، واقتصرت المادة الخامسة على فقرة وحيدة تنص على حق تعديل الدستور، والسادسة على فقرة واحدة تبحث مسألة الديون القومية، بينما اقتصرت المادة السابعة والأخيرة على فقرة تجيز المصادقة على الدستور. 24 فقرة غيّرت وجه أميركا وأحدثت موجة ارتدادية في أوروبا. والفقرات التي نصت على تنظيم العلاقات بين الولايات وانتخاب الكونغرس من غرفتين (الشيوخ والنواب) وتأكيد فصل أو استقلال السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية وغيرها من نقاط، تعتبر بسيطة وساذجة في مقاييس عصرنا، لكنها آنذاك تحوّلت نموذجًا يحتذى في أوروبا.

الجديد في نهوض هذه الدولة الكبرى أنها أسست لنوع مختلف من السياسة اعتمد أصلاً على التشريع الدستوري. فالثورة بدأت في البرلمان وانتقلت إلى الشارع وقادتها الدولة ضد الاستعمار. فالدولة هي أصل الثورة كما كانت في بداياتها الأولى أصل المجتمع.

هذا الجديد في الموضوع لم تدركه آنذاك قيادة الثورة الفرنسية حين حاولت تقليد ما حصل في أميركا، فحصلت مجازر حصدت الكثير من الرؤوس (عهد الإرهاب) وانتهت إلى الانغلاق والانزياح نحو الاستبداد بقيادة جنرال نجح في السيطرة على الجمهورية وتحويلها إلى إمبراطورية.

كانت الولايات المتحدة إذن بداية ما يسمى "التاريخ المعاصر". والبداية اختلفت عن كل التجارب. لذلك جاءت نتائج ثورتها مختلفة عن تلك التي حصلت في فرنسا.

العنف يولد جمهورية فرنسية

أحدثت ثورة الاستقلال الأميركية ردود فعل كبرى في أوروبا. فالقارة كانت تنتظر ولادة قيصرية وجاءت المفاجأة من "العالم الجديد" لتعيد صوغ التوجهات ووضعها في سياق تاريخي مختلف. فبعد الثورة الأميركية ونجاح قادتها في التوافق على وضع دستور جديد ستصبح أبواب أوروبا مفتوحة لتقليد ذاك الحدث والاحتذاء به كنموذج لبناء دولة حديثة.

تقليد أميركا لم يكن السبب الوحيد الذي دفع نخب فرنسا إلى أخذ المبادرة والإسراع في نقل الدولة من الملكية إلى عصر الجمهورية. فهناك الكثير من الأسباب التي اجتمعت وولدت الحاجة إلى التغيير. أولها المال. فالدولة وقعت في أزمة ديون أغرقتها في مشكلات اقتصادية كبيرة. فرنسا آنذاك أرهقت خزينتها لتمويل حرب السنوات السبع بين 1756 و1763. وما كادت الحرب تنتهي حتى تورطت في تمويل الثورة الأميركية (1775-1783) بهدف إضعاف بريطانيا وكسر هيمنتها البحرية على التجارة الدولية.

ثاني الأسباب كان التركيب الاجتماعي (الطبقي) للبرلمان الذي أسهم في تعطيل الكثير من القرارات وعرقل تحقيق إنجازات كانت فرنسا تطمح إليها.

ثالث الأسباب صعود موجة ثورية تطالب بتعديل الدستور وتطويره تأثرًا بتلك الدعوات الرومانسية التي أطلقها فولتير ومونتسكيو وروسو وغيرهم من فلاسفة ومفكرين، أسهموا في نشر مقالاتهم في الموسوعة.

كل هذه الأسباب (المالية والاجتماعية والفكرية) اجتمعت في وقت واحد وتحركت مصادفة بعد إقرار الدستور الأميركي، لتطلق انتفاضة سياسية دموية سيكون لها أثرها الكبير في التاريخ الفرنسي وستترك أيضًا بصماتها الأيديولوجية على شريحة واسعة من النخب الأوروبية[126].

لم تكن الثورة الفرنسية رد فعل على الثورة الأميركية ولا امتدادًا لها. فهي لن تشبهها في مقدماتها ونتائجها على رغم محاولة بعض النخب تقليد ما حصل في الولايات المتحدة. كانت الثورة في فرنسا ستحصل حتى لو لم يقع ذاك الحدث في أميركا. ولكن ثورة الاستقلال سرّعت من خطوات الثورة الجمهورية وشجعت قيادتها على الاحتذاء بذاك النموذج الجديد دليلاً للعمل السياسي.

اختلاف مقدمات الثورة الفرنسية له أسبابه الكثيرة، منها أن الدولة في أميركا هي التي قادت ثورة الاستقلال، بينما نخبة المجتمع في فرنسا هي من اندفع نحو إعلان الجمهورية. وفي أميركا لعبت الدولة (رجال الجيش والكونغرس) الدور الرئيس في إعادة صوغ دستورها مستفيدة من فكر فلاسفة بريطانيا الذي اتسم بالواقعية والبراغماتية والنفعية، بينما في فرنسا لعبت شريحة من المثقفين دور التأسيس في صوغ الدستور وبيان حقوق الإنسان ضمن أجواء رومانسية ودعوات إلى الحرية والتمرد وَردت في كتابات "فلاسفة الأنوار"[127].

يعود هذا الاختلاف بين النموذجين (الأميركي والفرنسي) في مقدماته إلى اختلاف تكوين المجتمع الأميركي الجديد (مستوطنات، ومستعمرات) عن المجتمع الفرنسي التقليدي. فاختلاف التكوين التاريخي أعطى فرصة للدولة في أميركا لإعادة تشكيل صورتها من الصفر وبحسب مقاييس وضعها الكونغرس وصاغها في دستور بسيط في مواده ينسجم كثيرًا مع تقاليد العقلانية - الدستورية البريطانية (هوبز، لوك، وهيوم). بينما هذه الشروط الاجتماعية التكوينية لم تكن متوافرة في دولة قديمة كفرنسا. فإعادة تركيب المجتمع ليتناسب مع تصورات جاهزة تعني ارتكاب مجازر بحق فئات اجتماعية وشرائح واسعة من المثقفين. وبسبب اختلاف المقدمات التاريخية/الاجتماعية اختلفت النتائج بين الثورتين. في أميركا تطورت الدولة وقادت المجتمع نحو التوسع الجغرافي في مناطق الهنود الحمر وصولاً إلى الضفة الغربية من الولايات المتحدة. بينما في فرنسا انتكست الثورة وانهارت الدولة بعد أن تشكلت وفق تصورات غير ثابتة بدأت بالحرية والمساواة والإخاء وانتهت بالفوضى والاستبداد وأخيرًا نجاح جنرال في السيطرة على مقاليد الحكم وقيادة فرنسا نحو حروب وحملات عسكرية في أوروبا[128].

أسهم اختلاف المصادر الفكرية (الفلسفة الدستورية) والتكوين الاجتماعي بين الثورتين في صوغ نتائج متباينة إذ لعب هذا الاختلاف دوره في توليد سياسات غير متطابقة. قادة الاستقلال في أميركا مثلاً تأثروا بأفكار مونتسكيو وفولتير وروسو، ولكن هذه الدعوات جاءت تحت مظلة فلاسفة بريطانيا. فالفكر السياسي البريطاني تشكل في إطار منظومة عامة تأسست قواعدها البراغماتية من تجربة تعتبر الأقدم في أوروبا. فهذا الفكر النفعي استفاد كثيرًا من تلك التجربة الثورية التي قادها كرومويل في القرن السابع عشر وكادت تنتهي إلى نظام استبدادي فردي يعتمد توريث السلطة السياسية. كانت التجربة سبّاقة وشكلت نزعتها التجريبية صيغة واقعية/عقلانية دمجت بين الحديث والقديم ونجحت في صوغ دولة ملكية/دستورية زاوجت بين التقاليد وحاجات العمران الحديث. لذلك كان النموذج البريطاني (السياسي الفلسفي) أقوى في تأثيره البراغماتي في وعي قادة الاستقلال في أميركا، بينما

كانت الأفكار الأيديولوجية التي أنتجها "فلاسفة الأنوار" في فرنسا هي الأقوى في تأثيرها المباشر في وعي قادة الثورة الجمهورية.

بدأت الثورة الفرنسية في مايو/أيار 1789 حين دعا الملك لويس السادس عشر مجلس الأمة إلى الاجتماع لمناقشة قضية جمع الضرائب. فالمجلس آنذاك كان يتألف من ثلاث طبقات، وكان القانون ينص على أن كل طبقة تصوّت بشكل منفرد عن الأخرى. رفضت الطبقة الثالثة (الأوسع في عدد المقاعد) الفكرة وطالبت بأن يكون التصويت لكل الطبقات الثلاث، باعتبار أن البرلمان يمثل الأمة. رفض الملك الاستجابة لهذه الرغبة فطالبت الطبقة الثالثة بتعديل الدستور ومساواة الناس أمام القانون[129].

هكذا بدأت الثورة. الطبقة المستفيدة من القانون القديم تمسكت به والطبقة المتضررة رفضته متأثرة بتلك الأفكار الفلسفية/الرومانسية التي صاغها فولتير ومونتسكيو وروسو. فهؤلاء الثلاثة كتبوا كثيرًا عن التجربة البريطانية ودعوا مرارًا إلى تقليدها وخصوصًا في مسألة المزاوجة بين الملكية والدستور.

إلا أن الفكر السياسي البريطاني تميّز عن تفكير هؤلاء الثلاثة بنزعته النفعية/البراغماتية التي تعتمد ضوابط عقلانية صارمة في قراءة الواقع وتوازناته. هذا النوع من التفكير السياسي فات فرنسا في تلك اللحظات التاريخية فاندفعت الجماهير في 14 يوليو/تموز واجتاحت سجن الباستيل وحصلت مواجهات دموية في باريس والريف. وقام الفلاحون بانتفاضات ضد النبلاء وعمّت الفوضى البلاد، فاضطر الملك إلى التراجع ونجح البرلمان (الجمعية الوطنية) في الانعقاد في أغسطس/آب وأصدر سلسلة مراسيم (مراسيم 4 أغسطس) وبيانًا عُرف لاحقًا بـ "إعلان حقوق الإنسان والمواطن"[130].

شكل هذا الانقلاب السياسي الدموي بداية لسلسلة انقلابات اجتماعية دموية. فالمراسيم ألغت الضرائب التي كان الفلاحون يدفعونها لأصحاب الأرض. وألغت أيضًا امتيازات كانت ممنوحة لرجال الكنيسة (الكاثوليكية). وأعطت الحق للجمعية (البرلمان) بالاستيلاء على الأراضي ومصادرتها وبيعها لتسديد ديون الدولة.

استمرت الثورة التشريعية (الدستورية الاجتماعية) إلى العام 1791 ونجحت خلال تلك الفترة القصيرة في وضع شروط جديدة لضبط العلاقة بين الدولة وفئات المجتمع، وصاغت مجموعة قوانين

لإصلاح النظام الضريبـي، وانتخاب الهيئات وإعطاء الحقوق الأساسية لكل المواطنين، وعززت فكرة التسامح الديني لتشمل البروتستانت واليهود. وفي ضوء هذه القرارات استقالت الجمعية الوطنية معتبرة أنها أنجزت مهماتها ودعت الناس إلى اختيار مجلس تشريعي منتخب وفق أصول دستورية جديدة.

أدى انتخاب جمعية تشريعية جديدة إلى إنتاج كتلة برلمانية متطرفة وعفوية وقليلة الدراية والخبرة، وتحمل معها مجموعة أفكار رومانسية. وظهر الأمر بعد افتتاح الجمعية الجديدة أعمالها في أكتوبر/تشرين الأول 1791، إذ عصفت بالدولة مشكلات هبّت عليها من كل الجهات. الملك وطبقة النبلاء رفضا هذه التعديلات. الكنيسة ورجالها والملاك رفضوا الاستجابة لتلك التغييرات الدستورية. النمسا وبروسيا أعلنتا الحرب على فرنسا دعمًا للسلطة القديمة، وغزت القوات النمسوية - البروسية البلاد فانتفضت باريس واتهمت رجال المرحلة السابقة بالخيانة، وأعدم في سبتمبر/أيلول 1792 أكثر من ألف شخص بذريعة التآمر والتعامل مع الأجنبـي[131].

هزّت الإعدامات أوروبا، وحقنت فرنسا بقيادة تيار الجمهورية بالمزيد من التطرف والكره للأجنبـي والمتعاملين معه. وبسبب سياسة التجييش والتحريض حشدت "الجمهورية" أنصارها لمواجهة الغزو الأجنبـي. وهذا ما حققته.

ساعد التصدي للقوات الأجنبية في تثبيت الجمهورية وتعزيز مواقع رجالها ونشر أفكارها الجديدة، فقررت الجمعية التشريعية في مؤتمرها الأول تنحية الملك وإلغاء الملكية الدستورية وإعلان الجمهورية في 21 أيلول/سبتمبر 1792 تحت شعارات ديموقراطية عامة تلخصت في كلمات ثلاث: الحرية والمساواة والإخاء.

لم تكن هذه الكلمات الرومانسية كافية لوقف دورة الدم. فالحركة الجمهورية انفتحت على دائرة العنف وبدأ التطرف يقود رجال الثورة إلى مزيد من التطرف. وطغت على رجال الجمهورية مجموعة أفكار تطهرية تدعو إلى اجتثاث بقايا المرحلة السابقة. فأصدروا حكمًا برلمانيًّا بإعدام لويس السادس عشر في 21 يناير/كانون الثاني 1793. وبعدها أخذت الثورة تأكل بعضها بعضًا. فانقسم البرلمان ودخل رجال الجمهورية في مرحلة صراع على السلطة وتخوين بعضهم وتصفية المخالفين أو المعترضين[132].

شهدت فرنسا خلال سنة واحدة سلسلة مجازر نفذها رجال الجمهورية ضد كل من يُشتبه فيه. وانقسم قادة الثورة إلى تيارات نجح المتطرفون في السيطرة عليها بقيادة روبسبير. ونفذ روبسبير عشرات المجازر وأعدم 18 ألفًا وساق الآلاف إلى السجون وأعلن الطوارئ وعلّق الدستور واستباح الحرمات، ولم يوفر حتى تلك الحلقة المؤيدة له فأعدم أقرب الأصدقاء إليه.

انتهت الثورة الجمهورية التي حملت شعارات رومانسية إلى تأسيس نظام استبدادي يعتمد الإرهاب في سياسة التعامل مع الآخر. والآخر ليس دائمًا هو العدو الاجتماعي للثورة وإنما أيضًا صديق الثورة وقادة الجمهورية.

اعتمد روبسبير منهج قطع الرؤوس، ظنًا منه أن هذه السياسة هي الوحيدة القادرة على اجتثاث «القديم» وتأسيس «الجديد» من الصفر، تمثلاً بما حصل في العالم الجديد. نجاح هذا الأمر في أميركا له أسبابه لكنه كان من الصعب أن يصح في دولة قديمة ومجتمع طبقي مغرق في التاريخ. وهكذا استمرت الثورة تنقلب على بعضها وتصفي بعضها (إعدام دانتون ورفاقه)، إلى أن نهضت انتفاضة مضادة في 27 يوليو/تموز 1794 وقررت إنهاء عهد الإرهاب وتنفيذ حكم الإعدام برأس الطاغية روبسبير[133].

أحدث إعدام قائد النظام الإرهابي رد فعل أرتد على الكثير من المراسيم الإصلاحية، فأقر البرلمان دستورًا بديلاً في 1795 تراجع فيه عن تلك الأفكار والشعارات الرومانسية، لكنه حافظ على «النظام الجمهوري» في فرنسا. واحتاج هذا النظام الجديد إلى وقت طويل ليستقر ويتبلور وينضج، وكان لا بد له من أن يمرّ بمنعطف حاد اضطره إلى تسليم القيادة إلى جنرال[134].

تعارض أفكار فلاسفة الأنوار

شكل انكسار الثورة الفرنسية وتقهقرها من الحرية إلى الإرهاب (عهد اليعاقبة بقيادة روبسبير) والردة على كل القوانين المثالية وصولاً إلى القبول بالاستبداد، صدمة كبرى لكل النخب الأوروبية المتعاطفة مع المبادئ الإنسانية للثورة. فهذه الرحلة من الملهاة الأيديولوجية إلى المأساة الإنسانية شكّلت محطة تاريخية أسهمت لاحقًا في تكوين اتجاهات متباينة في القرن التاسع عشر تراوحت بين العنصرية (القومية) والفوضوية والتيارات الاشتراكية[135].

رحلة الثورة الفرنسية من الحرية إلى الاستبداد لم تتشكل قوانينها مصادفة. فهذه الانتكاسة أسهمت مجموعة عوامل في إنتاجها وكلها تتصل باختلاف الواقع الفرنسي (شروط العمران البشري)

عن ظروف إنكلترا (النموذج الجديد آنذاك) أو تلك الفضاءات التي ساعدت قادة الدولة في أميركا في إنتاج ثورة استقلالية انتهت إلى تصور دستوري للولايات المتحدة.

اختلفت ظروف الاجتماع الفرنسي تاريخيًّا ومعرفيًّا عن تلك التي أنتجت النموذج الإنكليزي (البريطاني) كذلك اختلفت أفكار "فلاسفة التنوير" عن تلك المنهجيات الفلسفية التي أنتجها فلاسفة الفكر السياسي البريطاني.

انعكس هذا الاختلاف العمراني/المعرفي على تكوين الدولة وصلتها بالمجتمع، كذلك صلة الملك (رأس الدولة) بالهيئات التي تتكون منها المؤسسات. الدولة الفرنسية في هذا المعنى تختلف عن تلك التي نهضت في أعقاب ثورة كرومويل في بريطانيا. فالأخيرة نجحت في تشكيل تسوية دستورية بين الملك والبرلمان في النصف الثاني من القرن السابع عشر أعطت مجالات واسعة للحرية والتعددية والتنوع، بينما الدولة الفرنسية كانت فردية وشديدة الانغلاق وترفض تأسيس تسوية تعطي حرية للبرلمان. وأدى انغلاق الدولة وتمركز صلاحياتها في الرأس (الملك) إلى صدور قرارات تعسفية ضد الأقليات غير الفرنسية أو غير الكاثوليكية أو غير المسيحية كما حصل في نهايات القرن السابع عشر في عهد لويس الرابع عشر.

آنذاك أقدم الملك في 1685 على توقيع قرار بإلغاء معاهدة نانت التي تعطي البروتستانت حقوق التمتع بحرية العبادة. فالملك آنذاك اقتنع بفكرة أن وحدة الدولة يجب أن تقوم على قاعدة التجانس الديني/ المذهبي. وبسبب رفض التعدد والتنوع ارتكب الكاثوليك مجازر ضد البروتستانت بهدف اجتثاث كل المخالفين لهوية الدولة. وخلال فترة ثلاثة أيام نفذت مذابح رهيبة ضد كل الأقليات في باريس ومختلف المناطق الفرنسية، ما دفعها إلى النزوح والهجرة إلى ألمانيا وهولندا.

أنتج طموح رأس الدولة سلسلة قوانين قاسية اتصفت بالانغلاق وأسس لنوع من الملكية الاستبدادية التي اختلفت جذريًّا عن تلك الملكية الدستورية في إنكلترا. ولهذا السبب تحوّل النموذج الإنكليزي إلى هدف تطمح له كل تيارات حركة التنوير أو فلاسفة الأنوار في فرنسا القرن الثامن عشر. آنذاك كانت بريطانيا متقدمة على فرنسا قرابة مئة سنة في ترتيب تفكير عقلاني (تسووي) يقوم على مبدأ التسامح. وهذا ما زاد من إعجاب فلاسفة التنوير بها وامتداح تجربتها مثالاً يحتذى.

كيف بدأت فكرة التنوير؟ يرجح أن يكون ديكارت هو أول من استخدم مفردة التنوير في كتابه «مبادئ الفلسفة». ثم جاء بعده الفيلسوف الألماني ليبنتز فاستعار المفردة وأعاد استخدامها في سياق مختلف. وفي مطلع عصر الأنوار جدد آن فونتنيل (1657-1757) استخدام المفردة واقدم على تحويلها إلى فكرة أسست لاحقًا تلك الحركة التي عرفت بالتنوير.

بدأت فكرة التنوير في إنكلترا وتحوّلت إلى حاجة فرنسية تلبـي طموحات النخب الفكرية في إعادة النظر في تكوين الدولة وطبيعة الاجتماع. بينما لم تكن الفكرة تضغط بقوة على النخب البريطانية نظرًا إلى كون الدولة قطعت أشواطًا بعيدة في تركيب نوع من التوازن بين الملك والبرلمان[136].

إلا أن مسار التنوير الفرنسي اختلف عن ذاك المسار التطوري الإنكليزي. فالمسار الفرنسي كان أقرب إلى الرومانسية والمثالية والانقلابية، الأمر الذي أنتج سلسلة مدارس اتسمت عقلانيتها بروح التمرد. فهذا المسار الضيق في أفقه يفسر انتقال الثورة من المساواة (المطلقة) إلى الإرهاب العنيف وصولاً إلى الطغيان والاستبداد والعودة إلى فكرة الملك (الإمبراطور). لم يكن نابليون بونابرت خارج سياق التطور التاريخي لفكرة الأنوار بحسب طبعتها الفرنسية. فهذه الفكرة كانت مثالية ومتضاربة وغير موحدة وتفتقد إلى روح الواقعية على رغم إعجاب فلاسفتها بالتجربة الإنكليزية. فالاجتماع البشري في النهاية أقوى من الفكرة، والواقع يفرض في الأخير شروطه على النخبة وكيفية إدارتها للدولة.

نظرة سريعة على أفكار فلاسفة الأنوار في القرن الثامن عشر تعطي لمحة عن ذاك المسار العنيف وصولاً إلى خضوعه لأنظمة الإرهاب والاستبداد. فالعودة إلى تلك الأفكار تكشف عن وجود تعارضات جذرية بين الفلاسفة في فهم عناصر الفكرة من جهة صلة العقل بالإيمان، والدولة بالمجتمع. فالأفكار كانت متفقة على العموميات ومختلفة إلى درجة التناقض الحاد في التفصيلات. وكانت المفاهيم مغرقة في المثاليات (الرومانسية) وتفتقد إلى آليات للتطبيق. وكل هذه التفاوتات أورثت الثورة الفرنسية سلسلة قراءات متناقضة للتغيير، الأمر الذي أسهم لاحقًا في تفجير خلافات أيديولوجية دموية انتهت إلى انزلاق قادتها إلى الطغيان.

لا يعرف كيف بدأت المغالطات إلا أن هناك ما يشبه التوافق على حصول خلل في تكوين فلسفة الأنوار. وأسهم هذا الخلل في توليد أفكار مضطربة تفتقد منهجية صارمة في التحليل والتركيب، وبالتالي جاءت نتائج الأنوار متطابقة مع مقدماتها. فالمقدمة كانت فوضوية وجاءت النتيجة المنطقية فوضوية.

بدأت فوضوية فلسفة الأنوار في تلك الموسوعة التي أعلن عن تأسيسها الفيلسوف الفرنسي دينيس ديدرو في 1751 بالتعاون مع زميله المفكر دالامبير الذي ولد في 1717 وتوفي في 1783.

أسست هذه الموسوعة العظيمة في أيامها تلك الفوضى العامة في الأفكار، والتعارض في المواقف، والاختلاف على آليات أو منهجيات صارمة في قراءة الواقع وحركة التاريخ، ما أسهم في عدم وضوح الرؤية في تنظيم عمليات الانتقال من مرحلة أدنى إلى مرحلة أعلى[137].

كانت الموسوعة أشبه بتجميع كل الكتابات التي صدرت بشأن مختلف المعارف والعلوم. وبسبب ضغط الوقت والسرعة المطلوبة لإنجاز هذا الهدف الكبير اتصل مؤسسها الفيلسوف ديدرو الذي ولد في 1713 وتوفي في 1784 بكل معاصريه وأصحابه من مفكرين وأدباء وشعراء وفلاسفة وعلماء للكتابة في الموسوعة كل بحسب اختصاصه ورغباته. فالكل تقريبًا كتب في تلك الموسوعة من الشاعر الفيلسوف فولتير الذي ولد في 1694 وتوفي في 1778، إلى مونتسكيو، إلى روسو، إضافة إلى المؤسس ديدرو، وبول هنري دولباخ (D'Holbach)، وكلود أرديان هلفتيوس (Helve'tius) وغيرهم. فالكل كتب تقريبًا وأعطى وجهة نظره في الإنسان، والدين، والقوانين، والطبيعة، والقوانين الطبيعية، والحق الطبيعي، والعقد الاجتماعي، وسيادة الشعب، والدساتير، وأنواع الدول وأشكالها، والتنظيمات والصلاحيات والفصل بين السلطات، والنظام الجمهوري، والحرية، والمساواة، والثروة، وتوزيع الثروة، والملكية الخاصة (الفردية) والتفاوت الاجتماعي بين البشر، وأسباب اختلاف البشر، إلى آخر المفردات التي كانت تشكل بدايات الوعي المفارق في أوروبا.

شكلت الموسوعة خطوة نوعية على مستوى تجميع (أرشفة) آخر ما توصلت إليه المعارف الأوروبية في القرن الثامن عشر، إلا أنها افتقدت التماسك نظرًا إلى تنوع الاجتهادات واختلاف رؤى فلاسفة الأنوار في تحديد آليات عملية تنتقل بالمثاليات (الرومانسية) من المجرد (النظرية) إلى الواقع. كانت هناك اختلافات في قراءة التاريخ وتطور المجتمعات وأنظمة الدول. وكانت وجهات النظر غير متوافقة على مسألة الدين وعلاقة الدولة بالكنيسة. كذلك حصلت تعارضات بين الفلاسفة على فكرة المساواة (هل هي مطلقة أم نسبية؟) وعلى فكرة الحرية (هل هي فوضى أم أنها حق طبيعي للإنسان؟) وعلى فكرة الإخاء (هل البشر متساوون في الطبيعة أم في الاجتماع؟). وكل هذه التعارضات في المقدمات النظرية أسست سلسلة نتائج متناقضة في النهايات[138].

مثلاً، فولتير الذي جاء من أسرة غنية وكان شاعرًا متمردًا وتحوّل بعد سجنه 11 شهرًا ونفيه إلى إنكلترا فيلسوفًا يتعاطى السياسة، رفض فكرة "التعاقد" معتبرًا الدولة ولدت من «الإكراه». فاختلف في هذا الشأن مع مونتسكيو ورد عليه، كذلك اختلف مع روسو ورد عليه أيضًا.

فولتير أيضًا كان معجبًا بالنموذج الإنكليزي ودستوره، كذلك هو أمر مونتسكيو وروسو، لكنه اختلف معهما على فكرة "الملك الصالح" أو "العادل المستنير" أو "المستبد المستنير". فكل فيلسوف وضع تعريفًا خاصًا به لكل تلك المفردات. فولتير مثلاً رأى أن النظام العادل يقوم على فكرتي الحرية والملكية الخاصة (حق الإنسان في التملك) ودعا إلى إصلاحات على النسق الإنكليزي. مونتسكيو، وهو أيضًا سليل أسرة ميسورة، تأثر بالمفكرين الإنكليز ودعا إلى نوع من الملكية المستنيرة تعتمد التسامح الديني وتقوم على تطوير روح الشرائع في إطار تطوري هادئ ومرحلي.

لم تنسجم هذه الأفكار كثيرًا مع دعوات روسو إلى التمرد والعودة إلى الطبيعة الإنسانية الأولى والتحرر من كل القيود. كذلك لم تعجب أفكار مونتسكيو مؤسس الموسوعة ديدرو. فأقدم على نقد مخططه رافضًا الحكم التعسفي ونظرية "المستبد المستنير"، إلا أنه رفض أيضًا فكرة المساواة المطلقة في اعتبارها وهمية ويصعب تطبيقها واقعيًّا، واكتفى بالمطالبة بإعادة توزيع الثروة بحسب العمل والجهود والحفاظ على الملكية الفردية (الخاصة)، لأن إلغاء الحق الطبيعي للإنسان في التملك سيؤدي إلى انهيار تطور الصناعة والتجارة[139].

دولباخ، وهو ألماني المولد وعاش منذ طفولته في فرنسا، أبدى أيضًا إعجابه بالنموذج الإنكليزي، لكن رؤيته للنظام السياسي لم تكن واضحة، فهو يطالب بنوع من البرلمانية المتصالحة مع الملكية الدستورية، وأيضًا تحفظ عن فكرة المساواة في الأنظمة الجمهورية لأنها تؤدي في النهاية إلى تدمير الدولة وإنتاج الاستبداد. وتوقع دولباخ النظري أثبتته تجربة الثورة الفرنسية لاحقًا.

دولباخ أيضًا لم يتفق مع روسو في الكثير من استنتاجاته. فهو رد عليه وسخر منه وانتقد تلك الرومانسيات المثالية التي افتعلها بشأن حرية الإنسان. دولباخ ركز كثيرًا على المناخ وتأثيره في الإنسان وفي دور الأرض (الطبيعة) في تكوين قوانين الاجتماع الطبيعية. وبرأيه أن حقوق الإنسان طبيعية (ليست اجتماعية فقط) والمجتمع من صنع الطبيعة، والإنسان بحاجة إلى حاكم (دولة) يدير التوازن وفق منظومة قوانين الطبيعة للاجتماع البشري. ولهذا هاجم دولباخ رجال الكنيسة (الكاثوليكية)

معتبرًا أن الإكليروس "أصل الاستبداد" لكنه تحفظ عن المساواة المطلقة وهاجم الرعاع (الطبقة الثالثة) وأيد حق الملكية الفردية ورأى أنها لا تتعارض مع فكرة العدل أو نظرية العقد الاجتماعي.

كان هلفتيوس (1715-1771) من أبرز كتّاب الموسوعة وكان أيضًا على صداقة مع مونتسكيو وديدرو لكن أطروحاته الفكرية كانت أقرب إلى مفاهيم دولباخ. فهو تحدث عن الإنسان الطبيعي وقوانين الحق المتصلة بمبدأ "الحق الطبيعي".

إلى جانب كتاباته في الموسوعة أصدر هلفتيوس كتابًا في 1758 عن "العقل" ثم أصدر في 1773 كتابًا آخر عن "الإنسان" وفيهما يوضح الكثير من الآراء التي أكدت حق الإنسان في التملك وأن العدل يولد من الخوف وأن البشر صالحون حين تتوحد مصالحهم (المصلحة) معتبرًا أن قوانين الطبيعة مقدسة. ولهذا اختلف مع مونتسكيو بشأن طبقة النبلاء ودورها رافضًا فكرة "الحاكم المتنور" لكنه عاد وأيد مفهوم "المستبد العادل" شرط أن تكون الملكية دستورية تقوم على أساس القانون.

هلفتيوس كان معجبًا مثل أصحابه بالتجربة الإنكليزية، ورأى أن أسباب نجاحها تعود إلى أربعة قوانين: مجلس العموم يملك صلاحية تحديد نوع الضرائب، المواطن بريء حتى تثبت التهمة، هيئة المحلفين (لا القاضي) تملك حق إصدار الأحكام، وأخيرًا حرية الصحافة.

الكل إذًا اختلف مع الكل. وفلاسفة الأنوار أطلقوا شرارة التفكير، لكن شعاعها انتشر في الجهات الأربع. فأفكار تيار التنوير تعارضت واختلطت وتوزعت على وجهات نظر كان من الصعب توحيدها على برنامج عمل مشترك عشية اندلاع الثورة الفرنسية[140].

حتى فكرة الثورة (العنف) كانت آراء فلاسفة الأنوار غير موحدة بشأنها. فالكل كان يبدي إعجابه بالتجربة الإنكليزية كمثال يحتذى، لكن الفلاسفة فشلوا في التوافق على منهجية تحدد آليات التطبيق ونقل التجربة. الكل مال إلى اعتماد التطور الهادئ والسلمي باستثناء روسو الذي انجرف بنزق إلى نوع من التمرد الفوضوي (الفردي). وكان هلفتيوس الوحيد بين هذه المجموعة الذي تميز بفكرة تبني العنف وسيلة للتغيير. اعتبر هذا الفيلسوف أن قوة الأمة هي مصدر قوة الأمير رابطًا بين العقل والمصالح، ورأى أن المصلحة العامة توحد البشر، وانتفاء تلك المصلحة المشتركة (الصالح العام) يسهم في تمزيق وحدة الناس ويبعثرها ويحوّل البشر قوى تتضارب وتتقاتل. وبهذا المعنى اتجه هلفتيوس إلى بلورة فكرة الغلبة للأقوى منطلقًا من نظرية أن صراع المصالح يشكل القوة المحركة للتطور التاريخي.

هذه الفكرة اعتبرها الماركسيون لاحقًا بداية تشكل الوعي المادي للتاريخ، لأنها نقلت القوانين من الطبيعة إلى الاجتماع معتبرة أن العنف يشكل واحدًا من أشكال الصراع على المصالح بهدف التغيير. وأن نظرية الحق الطبيعي لا مكان لها في عالم الإنسان. فالحق للقوة، والقوي يفرض شروطه ويرسم حدود المصالح. والغريب في فلسفة هذا المفكر المادي (التنويري) أنه ليس ملحدًا، فهو (هلفتيوس) ميّز بين الإيمان والكنيسة وبين الدين ورجال الدين معتبرًا أن الله هو "العادل" و"الرحيم".

أطلق على هذا "الكشكول" الفكري (الموسوعة) مصطلح التنوير في تلك الأيام حين كانت فرنسا تعاني الظلم الاجتماعي واستبداد السلطة. فهؤلاء الفلاسفة وجدوا في النموذج الإنكليزي ضالتهم، لكنهم تشتتوا إلى فرق متناحرة حين حاولوا نقل المثال إلى الواقع والنظريات العامة إلى حيز التجربة.

كَتَبَ فلاسفة الأنوار في الموسوعة ونشروا أيضًا مؤلفات مستقلة تحدث فيها كل مفكر على هواه. وحين وصلت تلك الأفكار المبعثرة في أنوارها إلى قادة الثورة الفرنسية تمزقت أهدافهم وتضاربت آليات التطبيق. فكل قائد قرأ الموسوعة وأخذ منها ما يريد وتأثر بوجهة نظر واستبعد الأخرى. وبسبب تناحر قادة الثورة نجح الجناح الأكثر تطرفًا (اليعاقبة بقيادة روبسبير) في إقصاء كل التيارات وتصفيتها كتلة بعد أخرى. حتى أنّ روبسبير سخر من أفكار فلاسفة الأنوار معتبرًا أن الشعب تجاوز في قوانينه الثورية كتابات الموسوعة ورأى أن أفكار "الموسوعيين" متخلفة.

هذه الفوضى التنويرية التي حاول روبسبير القضاء عليها مستخدمًا المقصلة وأساليب العنف الدموي انتهت إلى القضاء عليه وإعدامه. وما ان استقر الوضع الثوري حتى أخذ البرلمان يتراجع عن تلك القوانين المثالية (المساواة المطلقة) ويعيد تنظيم دستور الدولة وفق تصورات هي أقرب إلى التيار المعتدل في حركة الأنوار. وأنتج التراجع ردة على مستوى السلطة السياسية ودفع فرقاء الصراع إلى الإسراع في اللجوء إلى المؤسسة العسكرية (الجيش) لوقف التدهور واحتواء الفوضى.

استنجاد قادة من بقي من الثورة الفرنسية بالجنرال نابليون بونابرت أكد وجهة نظر دولباخ الذي أبدى تخوفه من المبالغة في المساواة المطلقة في الأنظمة الجمهورية، لأنها تؤدي إلى الانهيار وتأسيس الفوضى والطغيان وإعادة الدكتاتورية والاستبداد. وهذا ما حصل في فرنسا حيث انزلقت الثورة، وانعطفت من الحرية وفق النموذج الإنكليزي، إلى تقليد الثورة على الطريقة الأميركية، وانتهت إلى عصر جمهوري إمبراطوري أشبه بنسخة معدلة عن دولة لويس الرابع عشر[141].

انهيار أحلام الثورة

لم تكن فلسفة النخبة تنويرية بالكامل، فهي جمعت الأضداد في وحدة افتقدت منهجية متماسكة تقرأ الحاضر في نسق عقلاني. فالعقلانية كانت مجبولة بروح التمرد، والتمرد سيطرت عليه مثاليات اتسمت بالرومانسية التي تبالغ في قراءة الأشياء وتطمح إلى تحقيق تغيير ما حتى لو كانت صورة الجديد غير واضحة المعالم.

جعل هذا الحماس نصف العقلاني/نصف المثالي فلسفة الأنوار مشتتة الاتجاهات، ووصلت إلى النخب الأوروبية موزعة في تياراتها. فالبعض أخذ جانبها الأخلاقي (الرومانسي المثالي) والبعض الآخر أخذ جانبها العقلاني (التحليل الواقعي). وبين هذا النصف وذاك تشكلت الفلسفة الكلاسيكية الألمانية في نهايات القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر.

معظم فلاسفة ألمانيا (بروسيا قبل تشكلها القومي) أيدوا الثورة الفرنسية وشعاراتها الأخلاقية، وتعاطفوا معها وطمحوا إلى أن يعاد إنتاجها في بلادهم التي كانت آنذاك موزعة بين ممالك وكانتونات.

كانط تأثر بحركة التنوير على طريقته، كذلك فعل فيخته، وشيلر أيضًا اهتم بنتاجات تلك الحركة وثورتها. والأهم من كل هؤلاء كان هيغل الذي أيد الثورة واستمر يدعم أفكارها على رغم حملة بونابرت واحتلاله برلين.

قرأ هيغل الثورة الفرنسية من زاوية المستقبل لا من جهة ما اقترفته من أخطاء وحروب. كذلك نظر إليها من زاوية تطور الاجتماع البشري (العمران). وبرأيه حصلت في فرنسا لأن فرنسا متطورة ومتقدمة تاريخيًّا على ألمانيا.

أورد هيغل في كتابه عن "فلسفة التاريخ" فقرة تقول ما معناه "لو كانت الغابات الألمانية موجودة في فرنسا لما قامت الثورة". فالغابة برأي هيغل تعني التأخر. فهي الدليل الثقافي على عدم تطور المجتمع من مرحلة الصيد والاعتماد على الاقتصاد الطبيعي إلى مرحلة الزراعة والاستقرار. فالزراعة تعني بدء قطع الأشجار لتأمين مساحة لتدخل الإنسان واستغلال الأرض لنشاطات إنتاجية[142].

يشير هذا الموقف الهيغلي إلى وجود ذاك الرابط الأيديولوجي بينه وبين فكر الثورة الفرنسية وشعاراتها، على رغم اجتياح نابليون تلك المدينة التي كان يدرِّس في جامعتها. بينما فيخته تغير موقفه بعد الاجتياح وتحوّل من فيلسوف معجب بالثورة ونصير أفكار فلاسفة الأنوار إلى عدو يكره فرنسا وثقافتها وحضارتها. وشكل الانقلاب في فلسفة فيخته وخصوصًا في خطاباته إلى «الأمة الألمانية» بداية وعي قومي أسهم في تكوين تيار متطرف معادٍ للسامية من جهة ويحمل من جهة أخرى دعوة إلى توحيد ألمانيا. وهذا ما حققه بسمارك لاحقًا.

هذه الانقلابات المترافقة مع تحولات سلبية في علاقات الأمم مهّدت لها أيديولوجيا تلك السياسات التي انطلقت بعد فشل الثورة الفرنسية في تحقيق أهدافها واصطدامها بطريق مسدود. وفتح الطريق المسدود الباب لدخول نابليون بونابرت. هذا الجنرال الكورسيكي الذي أظهر عبقرية حربية في حملاته على دول الجوار وفي دفاعه عن حدود فرنسا وثورتها.

وَجَدَ قادة الثورة في نابليون ملاذهم الآمن. فهو ابنها، وفي الآن يملك تلك القوة القادرة على احتواء أزمتها وما أطلقته من تداعيات فوضوية تمثلت في الانتقال من اليمين إلى اليسار ومن اليسار إلى اليمين. وحين استقرت الثورة على اليمين كان لا بد من جنرال يعيد تعويمها وإعادة فرنسا إلى واجهة أوروبا وقيادة القارة ولو من طريق الحروب[143].

آنذاك كانت الثورة تعاني من حصار أوروبي. فكل الممالك وجمهوريات المدن والأنظمة الملكية وجدت في شعارات الجمهورية الوليدة مجموعة أخطار تهدد أمن القارة وتزعزع استقرارها لمصلحة السلطنة العثمانية. ولهذا السبب (الذريعة) تحالفت كل الدول والممالك الأوروبية آنذاك لمحاصرة الثورة ومنعها من الانتشار خارج حدود فرنسا.

الحصار السياسي لم يمنع فكر الثورة من الانتشار. فالنخبة الألمانية تأثرت بشعاراتها وبفلسفة الأنوار واجتهدت في قراءة أفكارها وأضافت عليها الكثير من الشروحات والتفسيرات. كانت النخبة الإنكليزية أقل تأثرًا نظرًا إلى تلك الإنجازات (تحديث الدستور وتوسيع صلاحيات البرلمان) التي حققتها المملكة بعد ثورة كرومويل الجمهورية في القرن السابع عشر.

المخاوف - إذن - كانت موجودة، وهي دفعت الدول الأوروبية إلى التضامن وتشكيل جبهات متحالفة سياسيًّا وقوات عسكرية مشتركة لمواجهة هذا الخطر الفرنسي المتمثل في الثورة وأفكارها.

فالثورة اتُّهمت آنذاك بأنها تسهل أو تنفذ مؤامرة إسلامية تقودها السلطنة العثمانية ضد أوروبا (النمسا تحديدًا) من خلال تقويض دولها من الداخل[144].

أحرجت هذه التهمة كثيرًا قادة الثورة الفرنسية وحاولوا نفيها من خلال تأكيد فكرة العداء للإسلام والمسلمين. آنذاك ذاع صيت بونابرت وبرز في أوروبا قائدًا عسكريًّا لعب دوره في تنظيم الدفاع عن فرنسا وحماية حدودها ومصالحها، وحقق إنجازات عسكرية في مختلف معاركه على جبهات النمسا وإيطاليا وألمانيا. فهذا الجنرال كان محبوبًا من مختلف تيارات الثورة وخصوصًا بعد نجاحه في هزيمة النمسا (عدوة السلطنة) في 1796 واختراق جيوشه الألب واستيلائه على شمال إيطاليا وتهديد فيينا بالحصار. وهذا ما أدى إلى شل قوة النمسا وإجبارها في 1797 على توقيع معاهدة تنازلت بموجبها عن أراض لفرنسا. رفع هذا الانتصار من شعبية الجنرال واستقبل في باريس بطلاً وبات يتمتع بامتيازات خاصة أعطته فرصة لاستخدام رصيده في تحقيق أحلامه التوسعية في الشرق.

الحملة على الشرق كانت حاجة فرنسية بامتياز. فهي أولاً ترفع التهمة عن الثورة بأنها تنفذ «مؤامرة» إسلامية، وهي ثانيًا تنقل المعركة من أوروبا إلى ديار بعيدة، وثالثًا تفتح أمام فرنسا مجالات جغرافية بديلة تنافس بريطانيا في السيطرة على التجارة البحرية[145].

اختار نابليون مصر لأسباب مختلفة. فمصر تشكل نقطة استراتيجية مهمة في خطوط التجارة. فهي تقع على مفصل بحري يربط المتوسط بالأحمر، ومن يستولي عليه يقطع الطريق على الإدارة البريطانية التي كانت تخطط للهيمنة على معابر (مضائق وقنوات) المواصلات البحرية من جبل طارق (المغرب وإسبانيا) إلى السويس (مصر وفلسطين) إلى عدن (الميناء المطل على البحر الأحمر والمحيط الهندي).

إلى ذلك، هناك مسألة تتعلق بالظروف السياسية التي كانت تمر بها مصر. فهذه البلاد منذ الفتح العثماني في عهد السلطان سليم الأول في 1517م (923هـ) كانت تعيش حالات ملتبسة. فهي تعود إداريًّا إلى السيادة العثمانية لكن حكامها الميدانيين ينتمون إلى عهد المماليك. أضعف هذا الالتباس بين السيادة السياسية والحكم الميداني مصر وشلّ دورها ومكانتها، الأمر الذي شجع الجنرال على تنفيذ حملته العسكرية التي سبق ودعا إليها الفيلسوف ليبنتز.

بدوره كان بونابرت بحاجة إلى تلك المعركة، نظرًا إلى رمزيتها في العقل الجمعي الأوروبي، فهي تعطيه دفعة سياسية قوية وتسعفه في الاستيلاء على الحكم في فرنسا.

سجلت الحملة على مصر وفلسطين سلسلة نقاط لمصلحة نابليون، لكنها أضعفت استراتيجيًّا موقع فرنسا في المشرق وأعطت ذريعة لبريطانيا لإرسال قواتها والتحرك للدفاع عما تسميه ممراتها المائية وتجارتها الدولية مع الشرق.

الفشل لم يسقط نابليون، بل أسقط أحلام الثورة الفرنسية. فالحملة على الشرق كانت بداية صعود نجم الجنرال في الغرب. فبعد تلك الحملة، وفشلها عسكريًّا وسياسيًّا، سيعود "البطل" نابليون (فاتح الشرق) إلى بلاده كجنرال منقذ للثورة الفرنسية من تداعيات الردة والإرهاب والفوضى والانهيار. هذا ما حصل بعد أن نفذ تلك الغزوة إلى مصر.

4

الطفرة، الفائض والتغيير

كانط وأنوار الفلسفة

توفي الفيلسوف إيمانويل كانط في 1804 العام الذي أُعلن فيه نابليون إمبراطورًا على فرنسا. لذلك لن يشهد هذا الفيلسوف الألماني تلك الحروب البونابرتية التي ستضرب أعماق القارة الأوروبية وصولاً إلى روسيا.

يعتبر كانط نتاج التراكم المعرفي الذي تأسس في أوروبا الحديثة بعد توسع الاكتشافات الجغرافية وتطور مختلف قطاعات المعارف من علوم وطب وهندسة وفيزياء ورياضيات. فهو ابن هذا العالم المتجدد في مختلف فروعه وروافده. لذلك يعتبره البعض أعظم فيلسوف أنجبته القارة. ويضعه هذا البعض في مرتبة واحدة مع أفلاطون وأرسطو. وهناك من يجد في هيغل أعظم فلاسفة أوروبا ويقدمه على كانط. لم يتوقف هذا النقاش إلى أيامنا: هيغل أولاً أم كانط؟ وفي الحالين اعتمد كل فيلسوف على مجموعة روافد رفعته إلى القمة، ثم تفرعت منه مجموعة مدارس فلسفية انقسمت وتعارضت، لكنها كلها أسهمت في بلورة وعي النخبة الأوروبية وكرّست قيادة ألمانيا لحركة التنوير في القرن التاسع عشر.

ولد كانط في أسرة بسيطة في مدينة كونيجسبرغ في 1724. كان والده يعمل في إسطبل خيول ومهنته هي سرج الخيل (Saddler). وتعتبر المدينة التي تقع في بروسيا الشرقية في مقاييس ذاك الوقت متأخرة قياسًا بلندن أو باريس. فآنذاك كانت ألمانيا غير موحدة وتأخر تطور الرأسمالية فيها قرابة القرن. فهي كانت متخلفة عن فرنسا نحو مئة سنة وفرنسا كانت متأخرة عن بريطانيا نحو مئة سنة أخرى. لذلك

كانت النخبة الألمانية في تلك الأيام معجبة بالإنجازات التي حققتها بريطانيا على صعيد التقنية الصناعية وتطور مؤسسات الدولة، كذلك كانت متفاعلة مع صعود حركة الأنوار في فرنسا وما رافقها من نهوض فكري (الموسوعيون) مضافًا إليها تلك الحوادث التي وقعت وانتهت إلى إنتاج ثورة كان لها صداها في أرجاء القارة.

نجح ابن السرَّاج في دخول معاهد المدينة، ثم درس في جامعتها اللاتينية والأدب والفلسفة والرياضيات وعلوم الدين والفيزياء وحصل في 1755 على ماجستير. بعدها انتقل للتدريس في الجامعة (أستاذًا محاضرًا) وحصل على مرتبة بروفيسور في المنطق والرياضيات والماورائيات في 1780، واستمر يدرّس في الجامعة إلى 1796[146].

عاش كانط حياة عادية ومستقرة ولم يعرف عنه تعاطيه الشؤون السياسية. فهو ابن عائلة متواضعة ومجرد أستاذ يبحث في علم الماورائيات ولم يكن له شأن في الحقل السياسي. بعدها حصلت تغيرات في تفكيره ومنهجه البحثي (التحليل والتركيب) وتعمق في قراءة تلك النتاجات التي وصلت إليه من بريطانيا وفرنسا، فاطلع على نظريات نيوتن وتأثر بكتابات هيوم وتابع كتابات لوك وروسو وفلاسفة الأنوار. ومن مجموع هؤلاء أعاد تركيب منهجه النقدي بعد أن تجاوز نصف قرن من عمره[147].

استمر كانط في حياته العادية ونشط في تطوير منهجه النقدي (اللاأدرية) وكان على اتصال بفلاسفة عصره، وخصوصًا فيخته الذي تأثر به، وشيلر الذي تأثر بدوره بأفكار كانط وفيخته سوية. وبفضل كانط ستنتقل فلسفة الأنوار في صيغة منهجية جديدة من فرنسا إلى ألمانيا التي ستتربع على عرش الفلسفة (المثالية) في القرن التاسع عشر.

برزت فلسفة كانط المستقلة في سنواته الأخيرة حين شرح منهجها في سلسلة كتب نقدية صدرت بين 1781 و1793، وواصل حياته العادية والمستقرة من دون مشكلات مهمة مع السلطة السياسية. فهو كان قادرًا على إدارة علاقاته من دون اضطراب. ونجح في فضاء هذه الحياة العادية، في زعزعة استقرار فلسفة التنوير ونقلها من مكان إلى آخر. فأعماله النقدية الأخيرة ستحدث انقلابًا في رؤية المعرفة وصلتها بالفلسفة والعقل والدين، وتصنيفه وظائف كل حقل وصلته بالآخر، مميزًا بين الموضوعي والذاتي وبين الحدس والاستدلال وبين رؤية التصورات والبناء عليها. وأهم من كل ذلك

ركز على الإنسان وقيمته الفردية ودوره الأخلاقي في الحياة العامة ونظام الدولة ورؤيته للقانون. لذلك أطلقت على مدرسته هذه فلسفة الأخلاق.

مرّت فلسفة كانط في طورين: الأول حين تأثرت أفكاره بآراء الفيلسوف كريستيان ڤولف (تلميذ ليبنتز) الذي كان يعتقد أن الإنسان يستطيع أن يتعرف إلى العالم الغيبـي (الماورائي) من طريق الفكر البشري. والثاني حين استقلت أفكاره عن ڤولف وبدأ يفلسف نظريته بشأن عدم قدرة الإنسان على معرفة الماورائيات (الغيبيات) متأثرًا بمنهج هيوم التجريبـي[148].

عاش كانط 80 سنة وأتاح له عمره الطويل نسبيًّا توضيح عناصر فلسفته النقدية الجديدة، حين تخلص من هيمنة أتباع ليبنتز. كان تجاوز الخمسين من عمره حين بدأ يشق طريقه الفلسفي المستقل ويعيد تأسيس منظومة نقدية متكاملة بعد العام 1770 وهي خطوة سيكون لها وقعها الخاص في مجرى تطور العقل الفلسفي في أوروبا.

اكتشف كانط في بحوثه الثلاثة: نقد العقل الخالص أو المحض (1781)، نقد العقل العملي (1788)، ونقد ملكة الحكم (1790) أن العقل البشري قاصر يستطيع أن يفهم الظواهر المحسوسة من طريق التجربة ولا يستطيع أن يفهم ما وراء الظواهر إلا عن طريق التأمل. لذلك اتجه في 1793 إلى تأليف كتاب رابع بعنوان: "الدين ضمن حدود العقل فقط" تعرض فيه لمسألة الدين محاولاً تقديم تفسير عقلاني للمسيحية. وشكل هذا الكتاب خلاصات فلسفية لأفكاره النظرية عن "العقل الخالص" و"العقل العملي"، إذ دعا فيه إلى محاربة العقلية الغيبية التي تدفع الإنسان نحو الخرافة مؤكدًا ضرورة التنوير باستخدام العقل الحر[149].

استخدام العقل هو طريق كانط نحو الحرية، لأنه يساعد الإنسان على التخلص من الأفكار الشائعة والآراء الخاطئة والسائدة في المجتمع. لم يكن كانط ضد المسيحية أو ضد الدين، وإنما كان ضد التوهمات التي تدّعي معرفة الغيب. لذلك اصطدمت فلسفته بتلك الفئة من رجال الإكليروس وذاك التيار الذي يدّعي معرفته بالماورائيات.

زلزال لشبونة كان المحرض، فهو الذي دفع كانط درجات متقدمة نحو التفكير العقلاني في البحث عن العلة والأسباب. ولجوء كانط إلى البحث العلمي في كشف الأسباب الطبيعية للزلزال دفعه إلى الاستفادة من تلك القراءات العلمية (الفيزيائية/الفلكية) وعلوم نشأة الكون التي أخذت تتأسس رويدًا

منذ زمن كوبرنيكس وغاليليو وكبلر وأخيرا نيوتن وما أنتجوه من إضافات نوعية شرحت قوانين الجاذبية وفيزياء الطبيعة والرياضيات. فالزلزال كان عنيفًا وأحدث هزة في الرؤى الفلسفية وزعزع تلك المقولات الكنسية بشأن الفاعل. وأدى دمار المدينة إلى توليد صدمة عقلانية لمصلحة التنوير والتفاؤل بالحضارة وضرورة تقدمها لتسهيل سيطرة الإنسان على الطبيعة. بعد تجاوز هذا الحدث المخيف دخل كانط في مهمة تطوير مشروعه الفلسفي ومنظومته المنهجية، فبدأت كتاباته العقلية بالظهور منذ 1770 إلى أن نجح في تكوين مدرسة مستقلة خاصة به دون أن ينقطع عن تلك الفروع والروافد التي قدمت له مقولات منجزة في مختلف الحقول. فهو تابع بانتباه نظريات نيوتن وكبلر وعلماء الفيزياء بشأن قوانين الطبيعة (صدر نقد العقل المحض في 1781) كذلك تأثر بأفكار ديكارت وليبنتز وڤولف وباركلي وأنوار الثورة الفرنسية، وتلك الاجتهادات التي أنتجها الفيلسوف ديفيد هيوم.

أسهم هيوم مساهمة كبيرة في تحديث رؤية كانط العقلية في المرحلة الثانية من كتاباته. نجح هذا الفيلسوف التجريبي والمؤرخ الأسكتلندي في تعديل الكثير من المقولات المتداولة بشأن المعرفة من خلال مؤلفاته وتحديدًا تلك المتصلة بالتحقيق في الذهن البشري. برأيه تقتضي معرفة الطبيعة الإنسانية نبذ الوهم الميتافيزيقي. الفلكيون مثلا يعتمدون على الاستدلال انطلاقًا من مراقبة الظواهر أما تقصي الذهن البشري فإنه يتطلب تحليل قواه وطاقاته.

أدى هذا الاستنتاج الذي توصل إليه هيوم إلى نقد المعرفة، ونقد الذهن، ونقد فلسفة الإنسان كائن عاقل أو فلسفة الإنسان كائن اجتماعي. فالإدراكات برأيه هي نتاج المعرفة والتجربة. فهناك الوجود العيني (السبب والمفعول)، وهناك الوجود والبرهان (الاستدلال)، وهناك الواقعة الراهنة، وهناك الواقعة المستنتجة. وهكذا توصل هيوم إلى عقلنة فلسفة تجريبية، لأن الأسباب والمفاعيل لا تكتشف بالعقل وإنما بالتجربة. فهناك الاستدلال البرهاني (الفكري) وهناك الاستدلال العملي (العيني). والمفعول لا يصدر عن العقل وإنما يستمد أصله من العادة والتجربة معًا، لأن «كل الاستنتاجات المأخوذة من التجربة هي من أثر العادة لا من أثر الاستدلال». وتؤكد هذه المعرفة أن العادة أساسًا جاءت من تجربة مهما أنتج الواقع من توهمات (مخيلة). وبكلام هيوم «يمكننا أن نعمد في توهمنا إلى قرن رأس إنسان بجثة فرس، ولكنه ليس بمشيئتنا أن نعتقد أن مثل هذا الحيوان قد وجد أبدًا»[150].

لم يكن هيوم فريد عصره، فهو أخذ الكثير من نتاجات بيكون وبركلي ولوك ونيوتن وكوبرنيكس، لكنه نجح في إضافة قراءات نوعية أسهمت في تطوير المعرفة التجريبية (فكرًا ونهجًا)

مستفيدًا من تقسيم لوك للحجج إلى برهانية ومحتملة وتقسيم نيوتن للحركة في اكتشافاته عن قوانين الجاذبية. وبما أن التجربة عند هيوم تعتمد مبدأ التخزين (تراكم العادة) فإن الحاجة تقتضي تطوير التجارب في مختلف الحقول (الرياضيات، الفيزياء، علوم التشريح) حتى يمكن الاستدلال العقلاني للحكم على الظواهر الطبيعية.

توصّل هيوم من نزعته التجريبية إلى صوغ اجتهادات فلسفية بشأن مذهب الضرورة وصلته بمذهب الحرية (التجربة والاستدلال) انتهاء بنعي المعجزات (لأنها اختراق لنواميس الطبيعة) ليلتقي بذلك مع اللورد بيكون الذي انتقد بشدة الخرافات والمعجزات. فالدين برأيه ليس إلا "ضرب من ضروب الفلسفة". وهذا ما أخذ به كانط حين كان يطوّر نظريته عن قصور العقل[151]6).

شكلت نظريات كانط عن نقد "العقل" نقطة تحوّل في الفلسفة الأوروبية وأسست قواعد جديدة في التعامل مع الوقائع السياسية والحيثيات الاجتماعية وأسهمت في تشكيل منظومة نقدية واعية لقوانين الطبيعة والإنسان سيكون لها أثرها النوعي في تطوير النزعة النقدية المثالية/العقلية. فالعقل الخالص (المحض) في فلسفته عاجز عن معرفة ماهية الأشياء وهو بطبيعته متناقض لذلك لا يستطيع أن يصل إلا إلى متنافيات. لذلك لا بد من وجود لعقل آخر أطلق عليه «العملي». فالعقل العملي هو الإرادة. والإرادة قوة تميز الإنسان وتجعله حرًا في اتخاذ القرار. فالإرادة عند كانط هي العقل العملي الذي يمتلكه الإنسان وهي تحدد له قبول القوانين أو رفضها. وهذا يتطلب أن يتملك الإنسان نزعة أخلاقية عالية أو متعالية على الأشياء. فالإنسان حر بعقله العملي وعليه يعتمد في اتخاذ القرار وليس بسبب الخوف أو الرهبة من العقاب.

جاء هذا التطور الانقلابـي في منهجية كانط الفلسفية وانتقاله في السنوات الأخيرة من عمره الطويل من مرحلة التأمل، والقبول بالتفسيرات الماورائية إلى مرحلة نقد التأمل وضبط حدود المعرفة (الإدراك) بالظواهر، نتاج عصر الأنوار الذي نجح هذا الفيلسوف الألماني في دمج روافده وتجميعها في نسق عقلي يرى كل شيء يسير وفق قوانين علمية محددة.

آنذاك كانت العلوم شقت طريقها من فروع الفيزياء (الطبيعية) والرياضيات والهندسة إلى المعارف الإنسانية. وكانت الآلة قد بدأت تتطور تقنيًا واضعة الفلاسفة في زاوية صعبة طارحة مجموعة أسئلة عن العقل، وأسلوب تعامله مع المعرفة.

كان كانط في هذا المعنى ابن عصره. فهو قرأ كتاب هوبز السياسي عن الدولة الكلية (المطلقة) وتعرف إلى كتابات هيوم وإضافاته في تطوير النزعة التجريبية ونظرية الشك. كذلك قرأ ما كتبه جيرمي بنثام عن الفلسفة النفعية، وتابع كتابات الفيلسوف الليبرالي لوك عن الإنسان ونزوعه نحو الحرية. كل هذه الإسهامات الفلسفية البريطانية التي سبقته أو عاصرته نجح كانط في استيعابها أو تجاوزها أو نقدها لتتشكل منها مجموعة مصادر دمجها في منهجية ثنائية حاولت محاكاة أفكار فلاسفة الأنوار من فولتير ومونتسكيو وديدرو ودولباخ وروسو. فكانط هو قمة التطور الفلسفي الذي انطلق في أوروبا من ديكارت وهوبز ونيوتن إلى عصر الأنوار الذي عايشه عن بعد وتأثر به وصولاً إلى الثورة الفرنسية قبل الانقلاب عليها[152].

ضمن هذه التحولات طور كانط فلسفته وأقدم على تأسيس نظرية نقدية في المعرفة والأخلاق وعلم الجمال. لذلك تعتبر نظريته أول اعتراف بتقدم العلوم على حساب الفلسفة ونجاحها في إعادة تشكيل أنساقها الفكرية. انبهر كانط بالتطور التقني (تقدم الآلة والاكتشافات الفيزيائية والاختراعات العلمية) فأقدم على غلق باب البحث عن الماهيات (الماورائية) لمصلحة النظر العقلي. فانتقد التأمل لأن العقل المحض (الخالص) لا يصل في الموضوعات الفلسفية إلا إلى متنافيات. ولأن المعرفة النظرية معرفة تأملية لا بد إذًا من عقل عملي ينظر إلى ظواهر الأشياء. فكانط ضد التأمل وضد الحدس أيضًا. برأيه العقل عاجز عن إدراك الأشياء في ذاتها كذلك غير قادر على إمكان إدراك الماهية الأخيرة للوجود. فالعقل عاجز ولأنه كذلك فهو متناقض يبرهن على الشيء ونقيضه (اللاشيء). وبسبب نقده للتأمل والحدس ومعرفة الماورائيات أو ادعاء إدراك الماهية الأخيرة للوجود اندفع كانط إلى الدعوة إلى مصالحة الفرد مع المجتمع والإرادة الواعية (العقلية العملية) مع القانون[153].

بكل بساطة أعاد كانط الفلسفة إلى الإنسان. فالإنسانية عنده غاية. والرادع عند الإنسان الأخلاق، والواجب أخلاق، والطاعة أخلاق. فكل شيء يعود إلى الأخلاق. وتقوم هذه الفلسفة الأخلاقية على عقل نقدي. فالدين عنده "العقل"، والدولة "أخلاق".

وزع كانط الفلسفة على أربعة فروع، الأول: الماورائيات ويجيب عن سؤال "ماذا يمكن أن أعرف؟". والثاني: الأخلاق ويجيب عن سؤال "ماذا يجب عليّ أن أفعل؟". والثالث: الدين ويجيب عن سؤال "ما المتاح لي أن أتوقعه؟". والفرع الرابع هو الإنسان: (الإناسة) ويجيب عن سؤال "ما

الإنسان؟". وبرأيه أن الأسئلة الثلاثة الأولى (الماورائيات والأخلاق والدين) مرتبطة أو متعلقة بالأخير: الإنسان[154].

شكلت فلسفة كانط نقطة تحوّل في حركة التنوير العقلانية ورفعت ألمانيا إلى القمة الأعلى في تطور منظومات المعرفة. كانت الفلسفة قبله دراسة الحكمة والتأمل في الكون والوجود والماورائيات والعلل الأولى وبعده ستتحول إلى العلم بالغايات الأخيرة للعقل الإنساني. وبما أن بلوغ الغاية الأخيرة للعقل الإنساني الأكثر ضرورة والأصعب، فستبقى الفلسفة في هذا المعنى مجرد مشروع لم ينجز بعد. فالإنسان برأيه سيبقى عقله يسعى إلى حل مشكلة نهائية أو لا نهائية العالم في الزمان والمكان. فالعالم كما يراه متناه ولا متناه، والجزئيات التي لا تنقسم موجودة وغير موجودة. كذلك الإنسان حر وغير حر، يعرف ولا يعرف. فالعقل متناقض والطبيعة متناقضة والإنسان متناقض[155].

أسهمت هذه النظرية التي اعتمدها كانط لدراسة الطبيعة المتناقضة للعقل، تأسيسًا لثنائية الأشياء في ذاتها وظاهرها، في تطور الفكر الجدلي والنظريات الوضعية والمثالية التي تشكلت في سياقات مختلفة في ألمانيا وأوروبا. فبعده ستنطلق ثورة عقلانية في هذا المشروع الفلسفي ستدفع النخبة نحو الإسراع في تحديث نظرتهم إلى حقول العلوم التجريبية والوضعية أو ما يسميه «العقل العملي». وبعده أيضًا ستنقسم النخبة بين مؤيد ومعارض. وسيقف معه الشاعر الفيلسوف شيلر (توفي بعد كانط بسنة) والعالم اللغوي فون همبولدت، وفيخته، والفيلسوف شلنغ[156].

هؤلاء الأربعة تضامنوا، كل على طريقته، مع فلسفة كانط الأخلاقية العقلانية. كذلك ستتشكل ضده معارضة قوية تألفت أيضًا من مدارس شتى تبنّت وجهات مضادة في التعامل مع فلسفته المتشعبة والمتناقضة. هيغل مثلاً سينتقد نظرياته الجامدة عن الثنائيات والمتنافيات انطلاقًا من فلسفته الجدلية. كذلك سيتحفظ هذا الفيلسوف الكبير، المنافس على قمة الفلسفة الأوروبية، عن قراءة كانط لمسألة حدود قدرات الإنسان المعرفية، لكنه في الآن نفسه سيطور نظريته عن أهمية دور الصراعات (التدافعات) في تقدم السيرورة التاريخية للحياة الاجتماعية[157].

مقابل ملاحظات هيغل المتقدمة على نظريات كانط سيعترض عليها أيضًا الفيلسوف هامان (1730-1788) انطلاقًا من موقف روحاني متخلف عنه يؤمن بوحدة الذات والموضوع ويرفض التقسيم الكانطي للإنسان إلى ذات وموضوع. وجاء هذا النوع من التفكير الفلسفي في سياق رد فعل على

عقلانية كانط التي تمسكت بالأخلاق ورفضت كل تلك الأحاسيس التأملية التي تتصل بالمشاعر والخيالات والأحلام والأوهام[158].

بعد كانط ستنقسم النخبة إلى تيارات. فالبعض سيستغل جوانب من أفكاره باتجاه المثاليات (الماورائيات) والبعض سينتقدها انطلاقًا من نزعة تاريخية جدلية (هيغل مثلاً) والبعض من أصحابه وأنصاره سينقلب عليها انطلاقًا من نزعة رومانطيقية تكره هذا التشدد العقلاني الذي قام كانط بتأصيله في كتبه الأربعة الأخيرة من حياته التي توقفت لحظة اعتلاء بونابرت عرش الإمبراطورية الفرنسية[159].

هيغل في الفترة البونابرتية

عندما ولد جورج فريديرك هيغل في شتوتغارت في أغسطس/آب 1770 كانت أوروبا تمر بمرحلة انتقالية دقيقة وعلى عتبة تحولات تاريخية كبرى. من جهة شهدت القارة حالات من الاضطراب الديني ثم استقرت. ومن جهة أخرى كانت القارة على موعد مختلف من الاضطرابات الاجتماعية التي أدت إلى استقرار آخر وثبات في شخصيتها المعاصرة ودورها العالمي.

ولد هيغل في وقت كانت أوروبا قد انخلعت، أو تخلصت من وضع سابق، وبدأت تتحول إلى وضع جديد فرض عليها البحث عن صيغة تهيكل شخصيتها التاريخية ودورها العالمي، الأمر الذي فرض على "نخبتها" طرح كل المسائل على طاولة النقاش والبحث في كل المشكلات وإعادة صوغ أجوبة عصرية لأسئلة قديمة.

قبل مولد هيغل كانت أوروبا انتهت من تنفيذ ثلاث خطوات تاريخية خطيرة عبرت منها إلى مستوى أعلى ومختلف عن السابق، وهي:

أولاً، انتهاء عصر الاكتشافات الجغرافية الكبرى التي أسهمت في إعطاء أوروبا أفضلية "كونية" في الصراع مع السلطنة العثمانية؛ فهي من جانب تخلصت من تحكم المسلمين في طرق التجارة القديمة وهي من جانب آخر ساعدتها المواصلات الجديدة على الاستقلال الاقتصادي وإلغاء الشراكة التجارية مع العالم الإسلامي. ولعب اكتشاف أميركا الدور المميز في توفير فرصة لأوروبا في حل أزمتها الاقتصادية ومشكلة الزيادة السكانية عبر فتح ممرات تجارية أطلسية همشت إلى حد كبير دور البحر المتوسط التاريخي[160].

حصلت كل هذه التحولات الجغرافية الكبرى في دائرة من المتغيرات التاريخية، أظهرت مراكز قوى دولية تجمّع لديها من الإمكانات ما جعلها قادرة على إخضاع أو إضعاف أية قوة منافسة وفي طليعتها السلطنة العثمانية. فالسلطنة كانت تعاني الضعف، ولاحظ السلاطين أن هناك مشكلة، كذلك انتبه المسلمون إلى وجود شيء ما يحصل على مقربة منهم في أوروبا. لكن محاولات الإصلاح (الترقيع) التي باشرها الباب العالي في إسطنبول فشلت في عملية الإنقاذ نظرًا إلى افتقار السلطنة إلى معرفة تاريخية تقرأ بدقة الأسباب الحقيقية التي أسست ذاك الافتراق بين القوتين. فالإصلاحات العثمانية في مناطق السلطنة أو تلك المحاولات الإصلاحية التي قادها الولاة في بلاد الشام ومصر أو قادها رجال الدين في القاهرة (شيوخ الأزهر) أو في نجد (الحركة الوهابية) لم تكن قادرة على المواجهة وتحصين الأمة بسبب التفوق التقني الذي أحرزته أوروبا في مجال تطورها على المستويين العمراني والمعرفي[161]. وهذا التفاوت بين القوتين الأوروبية والعثمانية قاد العالم إلى صراعات وكذلك شجع الدول الاستعمارية الصاعدة دوليًّا على التنافس للسيطرة على مناطق شاسعة وغنية بالخامات وتتميز بمواقع استراتيجية تشرف أو تطل على خطوط الملاحة الدولية[162].

ثانيًا، انتهاء الحروب الدينية التي اندلعت على دفعتين: الأولى، في القرن السادس عشر وامتدت نحو 36 سنة (1562-1598). والثانية، في القرن السابع عشر (1618-1648)، وهي الحروب التي وزعت أوروبا جغرافيًّا إلى ثلاث كتل رئيسية: أوروبا الشرقية وجنوب شرقيها (أرثوذكس وكاثوليك)، أوروبا الجنوبية وجنوب غربها (كاثوليك)، وأوروبا الشمالية وشمال غربها (بروتستانت). وتأسس الانقسام الديني المذهبي المذكور على قواعد سياسية - ثقافية وفي الآن نفسه على انقسام الكنيسة إلى قديمة (كاثوليكية غربية وأرثوذكسية شرقية) وجديدة بروتستانتية (لوثرية، كالفينية وإنغليكانية). وكان أساس تلك الانقسامات الاكتشافات الجغرافية نفسها من حيث أنها فتحت الطريق لاستغناء شمال القارة وغربها عن جنوبها وشرقها، وراكمت ثروات (ريع الاكتشافات وخراجها) في مناطق الاحتكاك التجاري مع «العالم الجديد»، الأمر الذي رفع من مستوى القارة العمراني (الاجتماعي - الاقتصادي)[163].

بعد الاكتشافات واصلت أوروبا في القرن الثامن عشر تطورها العمراني - المعرفي، ونجحت في تحقيق خطوات متقدمة باتجاه الوصول إلى الثورة الفرنسية. وبقدر ما كان العمران يشهد تحولات على مستوى علاقات اجتماع البشر كانت القارة تولّد المزيد من الطاقات العاملة والمنتجة على مستوى النخبة. وشهدت أوروبا في ذاك القرن طفرة في سياق نمو المعرفة وأسهمت النخب في تطوير آليات

(منهجيات) تستجيب إلى حاجات السوق واتساعها. فاتساع السوق فرض شروطه وأخذت النخبة تستفيد من عمليات التطوير التي دخلت على الأبنية الاجتماعية والمؤسسات المدنية والأهلية. جاءت الطفرة الفكرية للرد على متطلبات السوق وما ولّده العمران من حاجات للبحث عن وسائل سياسية (عقلانية) تضبط إيقاع التطور الاجتماعي وفق أنساق تنظيمية تتناسب مع نمو دور الدولة وتوسع وظائفها التدخلية في إعادة تشكيل حياة الناس وموقع الدين (المسيحية) في صوغ الهوية الثقافية للمجتمعات. لم يحصل هذا التطور التاريخي من دون صدامات أهلية تورّطت بها دول القارة. كذلك لم يخرج التقدم إلى النور من دون إحداث صدمات في وعي الجماعات الأهلية. فالجدل العقلاني في تلك الفترة استمر بين رجال الدولة ورجال الدين بهدف ترتيب العلاقات وإعادة تنظيمها وفق أسس حديثة تتناسب مع انسياب التطور ومستوى درجاته السياسية[164].

ثالثًا، بداية تكون وعي جديد لشخصية القارة وتحديد مهمات تاريخية مختلفة عن المراحل السابقة، إذ أسهمت الاكتشافات الجغرافية في توسيع أفق أوروبا الكوني وأخذت تبحث عن دور عالمي جديد يأخذ مكان عالمية المسيحية القديمة. كانت أوروبا تحاول الاستغناء عن المسيحية العالمية القديمة (الشرقية) واستبدالها بمسيحية جديدة أوروبية عالمية تعيد النظر في الأطروحات القديمة وتجدّدها فكريًّا (عقليًا) لتتناسب مع متطلبات العصر الحديث[165].

ولد هيغل وترعرع، بعد إنجاز تلك التحولات الكبرى، على المذهب البروتستانتي - اللوثري في نهاية مرحلة الاكتشافات الجغرافية والحروب الدينية وتحديد خطوط مواصلات تجارية جديدة، وبداية مرحلة الاستقرار النسبي، وتحسن وضع القارة المعيشي، وانبلاج عصر الأنوار، واندلاع الثورة الفرنسية ونشوء ظاهرة البونابرتية، ونمو قراءة مختلفة لمهمات العصر الجديد.

عاش هيغل في مرحلة طفولته وشبابه ثلاثة تحولات تاريخية في أوروبا تركت حوادثها تأثيرات مباشرة في تفكيره، وهي:

أولاً، استقلال الولايات المتحدة السياسي عن بريطانيا في 1776، وهو الاستقلال الذي سيمر بمراحل صعود وهبوط إلى أن نجحت القارة الجديدة في الانفصال الاقتصادي عن القارة القديمة في 1783.

ثانيًا: سقوط سجن الباستيل واندلاع الثورة الفرنسية في 1789 التي طرحت شعارات إنسانية ومساواتية بتأثير من أفكار مونتسكيو وفولتير وروسو وفلاسفة الموسوعة. وفي الآن نفسه ستنتج الثورة فكرها المستقل من خلال تأثيرها في فلسفة كانط.

ثالثًا، صعود نجم نابليون بونابرت (ولد في كورسيكا في 1769، قبل سنة واحدة من هيغل) ودخول أوروبا عصر الفكر الإمبراطوري العالمي. فالبونابرتية سياسيًّا محاولة توحيد أوروبا بقيادة فرنسا، وفي الآن نفسه محاولة توحيد العالم بقيادة أوروبا.

لم يتردد هيغل في الانحياز إلى فكر الثورة الفرنسية وتبني أفكارها التغييرية واستمر متمسكًا بها حتى في مرحلة الحرب البروسية - الفرنسية. فألمانيا آنذاك لم تكن موحدة وكانت تتألف من 300 مقاطعة ومدينة حرة ترتبط بعلاقات جوار وتماس "روحي" مع الإمبراطورية الرومانية المقدسة. وهي الإمبراطورية التي استمرت ألف عام، وسيضع نابليون في حروبه الأوروبية حدًا لها[166].

إلى ذلك، لم تكن الثورة الصناعية قد تحوّلت في فترة شباب هيغل إلى حال انفجارية قارية، فهي كانت في بداياتها البريطانية وعلى شفير الانتقال إلى شمال القارة وغربها (1765-1781). حتى عندما انفجرت الثورة الصناعية وأخذت تنعكس تأثيراتها على أوروبا (1781-1820) لم يلحظ هيغل الكهل أبعادها المستقبلية (كان يعيش أسبابها وليس نتائجها) وهو أمر سيلاحظه كارل ماركس الذي ولد في 1818[167].

في السياق التاريخي المذكور يمكن رسم صورة عصر هيغل سياسيًّا في ثلاثة إطارات. الأول، عاش ومات قبل أن تتوحد ألمانيا (توحدت في عهد بسمارك البروسي في 1870). الثاني، شهد صعود الثورة الفرنسية وهبوطها، إذ عاصر بونابرت في أوج قمته وشهد نهاية أحلامه الإمبراطورية وموته في 1821 في جزيرة سانت هيلانه. والثالث، بداية انفجار الثورة الصناعية وامتدادها القاري تأسيسًا على ريع الاكتشافات الجغرافية وما تركته من تأثيرات شجعت على طرح تصور كوني معاصر مضاد للكونية المسيحية التقليدية في سياق إعادة صوغ شخصية القارة (المركز الجديد) ودورها العالمي المزدوج، فهي قائدة نفسها وأيضًا قائدة العالم القديم (آسيا وأفريقيا).

دخول أوروبا في مرحلة انتقالية دقيقة دفعها إلى بداية تحولات كبرى وفرض على نخبتها إعادة النظر في كل شيء، في محاولة للبحث عن شخصية جديدة ودور بديل. كانت أوروبا في مرحلة البحث

عن هويتها المستقلة وتأسيس نص مختلف يقرأ العالم وتاريخه من خلال "فكرها" و"قوانينها" و"فلسفتها".

هنا بالضبط التقط هيغل تحولات المرحلة التاريخية والجغرافية والاجتماعية وأمسك بخيط الفلسفة وأعاد تركيبه مستفيدًا من عصره المثقل بالنقاش والجدل والحوار. فالجانب الأول هو الإطار الموضوعي لعصر هيغل، أما الثاني فهو الإطار الذاتي لأعماله واشتغاله على فكر عصره وفلسفة العصور التي سبقته، القديمة منها (اليونانية والرومانية والشرقية) والجديدة (المسيحية المعاصرة والجرمانية والفرنسية). ومعه تطورت الفلسفة المتشابهة ووصلت في أعماله إلى قمتها الأوروبية وبعده أخذت في الانحدار[168].

كيف توصل هيغل إلى ما توصل إليه؟ كانت البداية في جامعة يينا (JENA) عندما كان يُدرّس الفلسفة ويلقي المحاضرات على تلامذته. آنذاك كانت أوروبا تمر في عصر عمالقتها (فكريًّا وفنيًا) على مختلف المستويات. غوته كان يمثل قمة الأدب الأوروبـي، وموزارت ثم بتهوفن (ولد في عام ولادة هيغل) قمة الموسيقى، وكانط قمة الفلسفة بعد رحيل فولتير وروسو وهيوم.

بدوره كان الفيلسوف يوهان فيخته (1762-1814) أول من التقط التحول المذكور وأمسك به. فقد استند إلى كتابات كانط وهي كتابات أطلقت في فرنسا موجة من الإلحاد امتدت من 1789 إلى 1813، وصلت إلى حد مطالبة بعض شرائح النخبة بإلغاء المسيحية وتبني أفكار الثورة (فولتير، روسو) وفلسفة كانط فقط[169].

في هذا الجو المضطرب المشحون بالصراع بين العقل والعاطفة وبين الفكر المثالي والفكر المادي أصدر فيخته كتابه عن فلسفة الأخلاق في 1798. لم يخرج فيخته عن مقولات كانط ونظرياته بشأن الحواس وانعكاسها على العقل ومسائل الفعل ورد الفعل والعلة والرغبة، والواقع والانفعال. واستند إلى موضوعة المعرفة بذاتها، التي قال بها كانط، قاعدة لنظرياته الفلسفية التي دمجت بين العقل والأخلاق. وفتح فيخته الباب لشيلر للمباشرة في إصدار أبحاثه الاجتماعية اللاحقة[170].

لم يكن في هذه الفترة نجم هيغل بدأ بالصعود، بل كان يعيش ويراقب مرحلة صعود نجم صديقه شلنغ الذي ربطته به علاقة حميمة عرفت الكثير من التعاون والنقاش والحوار وإن انتهت إلى خصام

بينهما. في تلك الفترة أقدم شيلر على نقد فلسفة كانط (الأخلاقية والعقلية)، مستخدمًا منهج كانط نفسه، وأخذ يعمل على التقليل من تأثيرات الفلسفة الفرنسية في الفكر الألماني وخصوصًا في منهج فيخته[171].

في فضاء التشويش الأيديولوجي حاول هيغل، في أول مقال فكري مهم له، عقد مقارنة بين فلسفة فيخته وفلسفة شلنغ انحاز في نهايته إلى صديقه. إلى صداقة الفيلسوف شلنغ كان هيغل من أعز أصدقاء الشاعر هولدرلن الذي كان له الفضل في تعريفه بالأساطير ورموزها وخصوصًا «آلهات» أثينا وروما[172].

في هذه الفترة الدقيقة من حياة هيغل الفكرية (كانط، فيخته، شيلر وشلنغ) والشاعرية (غوته وهولدرلن) والموسيقية (موزارت وبتهوفن) صعد نجم بونابرت السياسي في فرنسا ومن ثم أوروبا.

لمع اسم نابليون في 1793 وانتخب في 1802 "قنصلاً" مدى الحياة، ثم أُعلن إمبراطورًا. وفي الوقت الذي بدأ نابليون يخطط لاجتياح أوروبا و"توحيدها" توفي كانط في 1804، وهي السنة التي بدأ الإمبراطور حروبه في أوروبا وضدها.

حتى ذاك الوقت كانت أفكار الثورة الفرنسية لا تزال في أوجها وما زال هيغل من المعجبين بها والمدافعين عن شعاراتها وغاياتها الإنسانية. إلى ذلك، كان هيغل قد بدأ في تأسيس فلسفته (نصه) المستقلة عن تأثيرات كانط وفيخته وشيلر وشلنغ. وشاءت المصادفة أن تترافق أول أعمال هيغل الضخمة في 1806 و1807 مع بداية حروب نابليون في وسط أوروبا وشرقها وسحقه قوات بروسيا واحتلاله مدينة يينا (الجامعة التي يدرّس فيها). لم يتشنج هيغل ولم تحطم حروب نابليون تأييده للثورة الفرنسية. ويعبّر رد فعله هيغل عن نزعة متفائلة تقرأ التاريخ في سياق المستقبل[173].

أدى احتلال يينا إلى إقفال الجامعة وبدأ هيغل يبحث عن عمل، فاشتغل في صحيفة ثم حصل على وظيفة جامعية في نورمبورغ، ومكث هناك 9 سنوات متواصلة. في هذه الفترة (1809-1818) تزوج، وكان بلَغ من العمر 41 سنة، وأخذت منظومته الفلسفية تشق طريقها المستقل وبدأ اسمه يلمع في عالم الفكر والمعرفة.

في وقت كان نجم هيغل يصعد، بوصفه صاحب مشروع فكري مستقل، كان نجم بونابرت يهبط وأخذ مشروعه السياسي يتلقى الضربات العسكرية الواحدة تلو الأخرى. فبعد أن اكتسح نابليون وسط أوروبا شق طريقه نحو أوروبا الشرقية إلى أن جهز حملة عسكرية كبرى ضد روسيا في 1812.

وهناك بدأ مشروعه بالتقهقر إلى أن تلقى هزيمة كبيرة في لايبزيغ (شرق ألمانيا) في 1813. بعدها تم نفيه إلى جزيزة ألبا في 1814 وهرب منها وحاول تجميع قواته مرة أخرى، فتلقى هزيمة منكرة في واترلو في 1815، وتم اعتقاله ونفيه إلى سانت هيلانه وبقي هناك حتى وفاته في 1821[174].

بين هزيمة مشروع نابليون (1814-1815) ووفاته في 1821 ضربت أوروبا موجة رجعية ارتدادية على المستوى الفكري، تشبه إلى حد كبير الموجة التي عمت القارة بعد انهيار حائط برلين وتفكّك المعسكر الاشتراكي في 1989. في تلك الفترة اهتزت الأفكار الإنسانية والتغييرية وحصلت تموجات خالفت الكثير من الشعارات والقيم التنويرية التي سادت بين انفجار الثورة الفرنسية وهزيمة بونابرت[175].

على رغم هذا الانقلاب الفكري/النفسي الذي عم أوروبا واصل هيغل إنجاز مشروعه الفلسفي الذي وصل إلى قمته عندما احتل أستاذية الفلسفة في جامعة برلين من 1818 حتى وفاته في 1831. وتعتبر الفترة الأخيرة من حياته الأغنى، إذ أوصل فلسفته إلى نهايتها المنطقية المجردة، وفي الآن نفسه قام بتطبيقها على مختلف علوم المعرفة وحوّلها إلى قانون ديالكتيكي شامل (منهج تاريخي) يفسر كل شيء خصوصًا في حقلي الاجتماع البشري والتاريخ الإنساني[176].

من كانط إلى هيغل

بين رحيل كانط، الذي يعتبره ميشال فوكو أحد كبار المؤسسين للفلسفة الحديثة، ورحيل هيغل 27 سنة. الفترة قصيرة لكنها كافية لإعادة تأسيس قمة أوروبية جديدة في الفلسفة. فهيغل طور منهجية كانط النقدية ثم انتقدها وتجاوزها. وهذا التطور النوعي في المعرفة لم يسقط فجأة من أعلى، وإنما جاء نتاج تراكم التطور العمراني الذي شهدته القارة في مختلف المستويات والحقول. آنذاك حققت أوروبا قفزات نوعية في حقول العلوم التطبيقية والوضعية واخذت نظريات الفيزياء الحديثة والرياضيات والهندسة في التأثير في الاهتمامات الفلسفية. وترافق الأمر مع نمو دور الآلة وتقدمها في مجال الصناعة وتوفير نوع معقول من الرفاهية الاجتماعية لمختلف طبقات المجتمع.

أفرز هذا التقدم السريع بين رحيل كانط ورحيل هيغل وجهات نظر شمولية سلبية وإيجابية في رؤية التاريخ والكون. وأخذت النظريات الكونية (العولمة الجديدة) تظهر كقراءات اجتماعية للإنسان والعقل والنوع والتنوع الحضاري. فأوروبا أخذت تكتشف نفسها بعد أن نجحت في اكتشاف العالم.

وأعطى هذا الاكتشاف المركب فرصة للنخبة في إعادة قراءة أُسس الحضارة في ضوء «التقدم» وتطور العلوم والنمو السريع للعلاقات الإنسانية.

بسبب هذا التعقيد في التطور وتسارعه على أكثر من صعيد ظهرت إلى جانب المفاهيم الإنسانية وجهات نظر قومية وعنصرية وتفوقية تنظر إلى البشر ضمن قراءات طبقية. فالمجتمع طبقات كذلك البشر (الأمم) طبقات يتدرج خلالها الإنسان من درجة دنيا متخلفة (الحيوان) إلى درجة عليا وصولاً إلى الأرقى (الإنسان الأوروبـي)[177].

كل هذه المدارس الفلسفية ستشهدها أوروبا منذ نهاية القرن الثامن عشر إلى نهاية القرن التاسع عشر. وخلال هذه الفترة التي تجاوزت قليلاً مئة سنة ستغرق أوروبا بعشرات من الفروع المعرفية المتفاوتة في رقيها وشموليتها من اقتصاد وسياسة واجتماع وعلوم مختبرية وهندسية وفيزياء وتقنيات وآراء فلسفية تنويرية وظلامية، إنسانية وعنصرية، كونية وقومية، رأسمالية واشتراكية، إيمانية وإلحادية، رجعية وثورية، نقابية وفوضوية.

فاق التطور الأوروبـي في تصوراته حدود القارة وتحوّل نوعًا من المركزية الدولية التي تفرض تصوراتها على العالم في وقت كانت دول القارة تتنافس على القيادة وتزعم مجرى التاريخ المعاصر. وكان هذا التاريخ في مجراه الحديث يتشكل زمنيًّا ومحليًّا وكونيًّا في وقت واحد. وكان أيضًا ينتقل من دولة إلى أخرى ومن فيلسوف إلى آخر وبسرعة قياسية لم تشهدها القارة في أزمنة سابقة.

الفارق الزمني بين كانط وهيغل قصير بحسابات التطور القديم، إلا أنه بحسابات أوروبا الحديثة كان فترة طويلة. ففي هذه السنوات ظهر الإمبراطور (نابليون) في فرنسا وقادها إلى حروب أسقطته في 1815. فالإمبراطورية لم تصمد أكثر من 11 سنة كذلك زعامة كانط للفلسفة الأوروبية لن تصمد أكثر من 27 سنة لتنتقل إلى هيغل وما تفرع منه من وجهات نظر أسست الكثير من المدارس الفلسفية.

توفي هيغل بعد عشر سنوات من رحيل الإمبراطور، وخلال هذه الفترة الطويلة بمقاسها الزمني الحديث ستقطع المعرفة الأوروبية خطوات جديدة متشعبة سيقوم الفيلسوف فيخته (الألماني) بتأسيس جانب منها، بينما سيتكفل الفيلسوف جيرمي بنثام (الإنكليزي) بتأسيس الجانب الآخر منها.

توفي فيخته في 1814 وكان على اتصال بكانط وفلسفته المثالية النقدية لكنه عاد وأسس طريقته الخاصة (تصوّره لمجتمع مثالي/طوباوي متخيّل مركزًا على نزعة قوميّة) بعد أن شهد ذاك الاجتياح

الإمبراطوري الذي قاده بونابرت. تشكّلت فلسفة فيخته المثالية انطلاقًا من قراءة منطقية للتطور من خلال نمو الذات الإنسانية. فهو يركز على ذات الإنسان ورؤيتها لنفسها. فالانتباه إلى الذات هو بداية كل معرفة. والمعرفة تتدرج برأيه من تنبه الذات إلى الذات، ثم تنبه الذات إلى الآخر (النقيض المقابل)، ثم ارتفاع الذات وجمعها بين الذات والمقابل.

انطلق فيخته من رؤية مثالية للكون توحد بين العلم والمعلوم الأمر الذي جعله يمرحل تطور الفكر البشري إلى ثلاث محطات: التفكير الإيجابي، التفكير السلبي، والتفكير المتعالي الذي يجمع النقيضين (التسوية) من خلال استخدام منهج الجدل[178].

مقابل نزعة فيخته المثالية أسس بنثام فلسفته النفعية التي سيكون لها تأثيرها الكبير في فلسفة جون ستيورات مل السياسية. ولد بنثام في لندن في 1748 ودرس في ثانوية وستمنستر ومعهد كوينز. وبدأ يكتب تعليقات عن القانون الإنكليزي ونشرها في كتاب صدر في 1776. وزار في 1785 شقيقه في روسيا وعاد في 1788 لينشر كتابه المهم في 1789 عن "المبادئ والأخلاقيات والتشريع". ومنذ ذاك التاريخ انخرط في سلسلة نشاطات سياسية واجتماعية إلى أن تعرف إلى عائلة مل (جيمس والد جون) في 1808. وبعدها أخذت أفكاره الاجتماعية التي تتحدث عن المعرفة النفعية تترك تأثيراتها على صنّاع القرار في جيله والأجيال التي جاءت بعده.

أطلق على منهج بنثام في الفلسفة "مذهب المنفعة" وهو يقوم على فكرة أن النظريات والمفاهيم والمؤسسات والأعمال تتأسّس على قاعدة مدى فائدتها. ووظيفة المنفعة في النهاية هي تحقيق السعادة للإنسان. فالغاية برأي بنثام الوصول الى السعادة، لذلك لا بد من البحث عن الخير للإنسان والإنسانية، وهذا لا يمكن الوصول إليه دون تطوير المؤسسات لتحقيق المنفعة (أو المصلحة) لأكبر عدد من البشر[179].

أدت ملاحظات بنثام وانتقاداته ونشاطاته إلى إنجاز الكثير من الإصلاحات الاجتماعية المطلوبة لرفاهية الإنسان وضمان حقوقه في بريطانيا. مثلاً نجح في استصدار قوانين تهتم بإعادة تنظيم مؤسسات تراعي المصالح العامة للناس، كذلك أسهم في التشجيع على إصلاح نظام المحاكم القضائية وتجريدها عن المصالح الشخصية ووضعها في خدمة المصالح العامة.

توفي بنثام في 1832 (عاش 84 سنة) بعد سنة من رحيل هيغل. إلا أن الأخير يعتبر وفق كل المقاييس الزمنية والفكرية نقلة نوعية مفارقة في تطور المعرفة الأوروبية في عصرها الحديث.

يعتبر هيغل عن حق "شيخ" الفلسفة الأوروبية المعاصرة، بل هو في المعنى المذكور أستاذ الفلاسفة، إذ أثرت أعماله الكثيرة ونتاجه الضخم وحقول المعرفة التي خاض غمارها (على تنوعها وتعددها) في عشرات المفكرين وشكلت مصدر إلهام لمعظم الفلاسفة الذين عاصروه أو عاشوا بعده.

لماذا تحوّل هيغل إلى فاصل زمني بين حقبتين في تطور الفكر الأوروبـي؟ قبل هيغل تطورت الفلسفة الأوروبية المعاصرة بهدوء وبطء منذ مطلع القرن الخامس عشر إلى أن وصلت إلى نهاية القرن الثامن عشر حين نجح كانط في تطويرها ونقدها ونقلها إلى ألمانيا. إلا أن الفلسفة شهدت على يد هيغل قفزة نوعية إلى الأمام في مطلع القرن التاسع عشر (وتحديدًا بين 1800 و1831) وبلغت قمتها العقلانية عندما نجح في اكتشاف نظريته وصوغ قانونه الديالكتيكي (جدلية الروح) وقام بتطبيقه على التاريخ والجغرافيا والفكر والسياسة والفن واللغة والاجتماع والاقتصاد والتطور، وهو أمر يعترف بجميله كل الفلاسفة في أوروبا[180].

"جدليات الروح" عند هيغل تفرعت عند غيره إلى "جدليات" كثيرة منها جدليات المادة، التاريخ، الطبيعة، البشر، الاجتماع واللغة. وقراءة التاريخ (فلسفته) تفرعت منها مدارس كثيرة منها التاريخ الاجتماعي، السياسي، الفني، اللغوي (الألسني)، الوجودي، والتاريخ الديني وغيرها من مدارس.

أخذ عنه كارل ماركس ديالكتيك "الروح" وطبقه على "المادة". كذلك أخذ فكرة ظهور الدولة وتطورها الاجتماعي والتاريخي وطبقها على نشوء الطبقات والصراع الطبقي، كذلك فكرة الملكية الخاصة والتقسيم الاجتماعي، وفكرة المجتمع المدني، وأيضًا فكرة النظام البطريركي. وأخذ عنه تشارلز داروين فكرة النشوء والارتقاء من حيث أن الفكرة عند هيغل "تسير نحو تعارض لامتناه" أي نحو "تعارض بين الفكرة في صورتها الكلية الحرة - التي توجد فيها لذاتها - والصورة المقابلة لها" وتسعى الفلسفة إلى "إدراك المضمون الجوهري أو الوجه الواقعي للفكرة الإلهية، وإلى تبرير الواقع الحقيقي للأشياء" فقام داروين بنقل نشوء الفكرة وارتقائها من مستوى الوعي إلى مستوى البشر (تاريخ النشوء والارتقاء)[181].

أثرت فكرة هيغل عن "الطوائف الحرفية" و"التجارة النمطية الرتيبة" في منهج ماكس فيبر التاريخي. فهيغل اشتغل على الفلسفة الهندية القديمة (الطوائف والطبقات وتشريع مانوا الهندي) ثم بحث في موضوع علاقة الحرف (المهن) بالطوائف الدينية في ألمانيا وأوروبا وقبائل أميركا (الهنود الحمر وثقافاتهم) وصولاً إلى اختلاف أنماط الكنيسة الكاثوليكية وعلاقاتها عن سلوك الكنيسة البروتستانتية. وأسهمت هذه الطريقة في تطوير منهج فيبر الذي درس الرأسمالية وتطورها من خلال روح البروتستانتية وتميزها عن الكاثوليكية. وأثرت فكرة "الروح" عند هيغل من حيث أنها روح "حاضرة بطريقة أبدية، ولا شيء من الماضي ضاع عندها" لأن "جوهر الروح كان موجودًا دائمًا في ذاته" والحاضر دائمًا "حلقة من التجسيدات المتعاقبة" على الفلسفة الوجودية، وخصوصًا فلسفة جان بول سارتر عن "الوجود والعدم" وفكرة الوجود أو كما يسميها "الحاضر الدائم" التي لا ماضي لها ولا مستقبل.

من الصعب قراءة كل ما ذكره هذا المفكر الموسوعي، لكن الأهم في فلسفته تلك الجوانب التي لها صلة بالعمران والمعرفة وخصوصًا العناوين المتصلة بوجهة نظره عن التاريخ ونظرته إلى عالم المعرفة وإسقاطاته الأيديولوجية على تاريخ البشر ثم خلاصاته المنهجية على المستويين الفكري والاجتماعي. ففي الجانب الأول هناك روح فلسفته (المبدأ المجرد) وفي الجانب الثاني هناك مادة فلسفته (التاريخ كمجال لتطبيق نظريته).

الجانبان يمكن اختصارهما إلى ستة فروع نظرية، هي:

أولاً: نظريته عن نشوء الدولة. يعتبر أن النزوح السكاني الدائم (الهجرة والانتقال والارتحال) يعطل قيام الدولة. فالدولة حتى تقوم لا بد من استقرار وتجمع. ولأن النزوح (الهجرة) يستنزف التراكم السكاني ويعرقل التجمع البشري وينفس التوتر بصفته "المنبع الأساسي للسخط والاستياء"، فإن الدولة لا تنشأ في أرض لا تعرف الاستقرار. وبرأيه أن "الدولة الحقيقة لا تظهر إلا بعد أن تظهر الطبقات المتميزة، وعندما يصل الغنى والفقر إلى حدهما الأقصى، وعندما يوجد وضع يتعذر معه على الغالبية العظمى من الناس إشباع حاجاتها الضرورية بالطريقة التي اعتادتها".

ثانيًا: نظريته عن الملكية الخاصة. يعتبر أن التشريع (القوانين) لا يظهر في مجتمع مشاعي بدائي بل في مجتمعات مستقرة يتوافق أفرادها على ملكية الأرض والرزق. وعندما «تبدأ الملكية

الخاصة للأرض وما يترتب عليها من علاقات تشريعية» تبدأ أسس الدولة بالظهور لأنها "لا تصبح ممكنة إلا عن طريق هذه العلاقات وحدها".

ثالثًا: نظريته عن المجتمع المدني. يقوم "المجتمع المدني" عندما يندفع السكان نحو الداخل (المركز) ويضغط بعضهم على بعض ويسعون نحو الحرف التي توجد في المدينة والتجارة مع غيرهم من المواطنين، وعندما تتوقف الزيادة المباشرة للمزارعين، آنذاك ينهض نظام محكم من المجتمع المدني وتزداد الحاجة إلى الدولة المنظمة.

رابعًا: نظريته عن المجتمع البطريركي (الأبوي). برأي هيغل أن النظام البطريركي هو تجاوز للنظام العائلي. إنه حال تجاوز لرابطة الدم إلى رابطة الاجتماع، وهو "الوضع الذي يتم فيه الجمع بين العنصر القانوني وبين الاعتراف الواجب بالجوانب الأخلاقية والانفعالية في طبيعتها". وأساس هذا الوضع البطريركي هو "العلاقات الأسرية التي تطور الشكل الأولي للأخلاق الواعية، الذي يتلوه الشكل الثاني وهو أخلاق الدولة". وحال "النظام البطريركي هي إحدى حالات الانتقال، التي تكون فيها الأسرة تقدمت فعلاً لتقوم بدور القوم (الجنس أو العرق) أو الشعب، ولا تعود فيها الوحدة مجرد رابطة حب وثقة، بل تصبح رابطة خدمة تعهدية".

خامسًا: نظريته عن أسس الدولة الاجتماعية. إن اتساع العائلة (الأسرة) وامتدادها إلى الوحدة الأبوية (البطريركية) ينقلنا إلى ما يتجاوز روابط الدم (الرحم) ويتجاوز العناصر الطبيعية لأساس العائلة (الأسرة). وإذا لم تكن العائلة من حيث علاقاتها العامة انفصلت بعد عن المجتمع المدني والدولة، فإن انفصال الدين عنها لن يكون بدوره حدث بعد. لذلك "ينبغي على الدولة أن تحترم إلى اقصى درجة علاقة الولاء للأسرة أو العائلة. فعن طريق هذا الولاء تكتسب الدولة أعضاء فيها من أفراد أصبحوا أخلاقيين فعلاً"[182].

سادسًا: نظرية التوسع أو القهر. أحيانًا يسمي هيغل هذه المسألة "الفتح" وهو يميزها عن الاستعمار. ونظرته إلى الفتح سلبية وتعني برأيه "القهر". أما نظرته إلى الاستعمار فهي إيجابية، لأنها برأيه تعني انتقال جماعة (كتلة) إلى مكان آخر للعمران. وأثرت فكرة "حسنات" الاستعمار كثيرًا في عقل رجال الدول في أوروبا وبررت أعمالهم اللاأخلاقية في مرحلة استعمار العالم الثالث. والأساس النظري لفكرة التوسع عنده أنها تبدأ عندما تتغير صورة الحياة الأبوية (البطريركية) وتتطور إلى نوع من الالتحام وتكوين كتل بشرية ضخمة تندفع نحو الخارج لتحتل وتسيطر دون أن

تتطور نحو دولة (تنظيم أرقى). كما حصل مع المغول (التتار) عندما اندفعوا كالسيل - كما يقول - نحو الغرب وضد العرب ثم "انقرضوا" دون أن يتركوا أثرًا يذكر في الحضارة العالمية[183].

لم تمر فلسفة هيغل على النخبة مرور الكرام. فهو أعاد تشكيل الفلسفة وفق منهج ديالكتيكي مستخدمًا كانط في بداياته النقدية واضعًا نفسه إلى جانب فيخته وشلنغ. ثم قام لاحقًا بإعادة تأسيس منهجه ضمن رؤية كونية للإنسان والتاريخ انطلاقًا من دراسته للفكرة في لحظات ثلاث: القضية (الإيجاب)، النقيض (النفي)، والتركيب (توحيد السلب والإيجاب). وتحت سقف جدليات الروح درس هيغل المفاهيم والجماليات والطبيعيات والقوانين وتطور الفكرة والأخلاق والتاريخ والدين[184].

لعبت فلسفة هيغل دورها في ترسيم حدود معرفة النخبة في عهده وفي الأجيال التي جاءت بعده، وأسهمت في شق المدارس المؤيدة لفلسفته إلى جناحين: يميني ويساري. قاد الجناح اليميني القاضي غوشيل بينما قاد الجناح اليساري لودفيغ فيورباخ (1804-1872). وبين غوشيل وفيورباخ ظهر جناح وسطي ثالث قاده ستراوس (1808-1894). وتشكلت من هذه التيارات الهيغلية الثلاثة مجموعات من المدارس الفلسفية التي تراوح نطاقها المعرفي بين نزعة قومية مثالية، ونزعة نقدية مادية، ورؤية كونية تاريخية، وقراءة يسارية تتوجت بأعمال ماركس التي عرفت لاحقًا بالماركسية.

ما هي العوامل التي ساعدت هيغل على تأسيس مدرسته؟ هناك مجموعة روافد تجمّعت في المصب، وأسهمت في تشكيل منظومة هيغل الفلسفية. فالتطور الذي أخذ ينتشر في القارة أنتج سلسلة اختراعات واكتشافات وتقنيات لعبت دورها في تسهيل حصول الباحث على معلومات تساعده في تحديث مصادره واجتهاداته. استفاد هيغل من المعارف (الموسوعات) ونجح في التعامل معها مبتكرًا منهجًا في قراءة آلياتها الداخلية وإعادة ربطها في سياق تطوري مبرمج وصولاً إلى الغاية وهي برأيه: الحرية.

آنذاك في مطلع القرن التاسع عشر توصل الألماني فريديك سرتورنر إلى اختراع المورفين في العام 1803، ما أسهم في تطور الجراحة وعلم التشريح، الأمر الذي ساعد في التوصل إلى التعرف إلى الكثير من المعلومات بشأن جسد الإنسان وآلياته. كذلك نجح الإنكليزي جورج ستيفنسون في تطوير القطار في 1825 مستفيدًا من آلة واط البخارية. وأدى تطور حركة القطار إلى تحسين سكك الحديد وإطلاق موجة متقدمة في عالم النقل والمواصلات. وفي العام التالي اخترع الفرنسي جوزيف نيبس الكاميرا ونجح في 1826 في التقاط أول صورة فوتوغرافية في التاريخ.

لم يقتصر التقدم على المستوى العلمي (اختراعات واكتشافات) وإنما تطور ليشمل فروع المعرفة وحقل السياسة. معرفيًّا أخذت الاكتشافات الجغرافية تؤتي ثمارها الثقافية والعقلية حين بدأت شريحة من النخبة (الرحالة) تترجم الكتب القديمة وتنقل إلى اللغات الأوروبية الفلسفات الشرقية (الصين، الهند، بلاد فارس والعرب) وتستفيد منها في قراءة التاريخ العالمي للبشر. وسياسيًّا دخلت أوروبا فترة من الاستقرار بعد توقيع معاهدة فيينا في 1815 وهي وثيقة ستدخل أوروبا في سلام نسبـي سيستمر متقطعًا إلى العام 1848[185].

ستعطي كل هذه المنعطفات النخبة الأوروبية دفعة قوية للتحرك بسرعة إلى الأمام وإنجاز منظومات فكرية سيكون لها تأثيرها المباشر في تكوين قواعد جديدة للتحليل والتركيب والاستنتاج. ففي تلك المحطة التاريخية ستشهد أوروبا حرب أفكار بين النخبة وضد المؤسسات الأكاديمية.

لم تكن الانقسامات التي تولّدت وتناسلت في عقول النخبة الأوروبية في القرن التاسع عشر نتيجة فلسفات أنتجتها المدارس الإنكليزية والفرنسية والألمانية في فترات سابقة وإنما جاءت أيضًا ردًا على الانكسارات التي أحدثها التطور العلمي السريع المترافق مع الاختراعات التقنية والمنتوجات الثقافية (الميثيولوجية) التي استوردتها أوروبا من المستعمرات والمستوطنات في أميركا وإفريقيا وآسيا. فهذا التدفق الهائل في المعلومات الذي أخذ الرحالة ينقلونه عن خفايا العالم الآخر أنتج مضادات حيوية ألهبت المخيّلة ورفعت من درجة الاكتشاف المعرفي للتاريخ[186].

في تلك المرحلة الانتقالية شهدت أوروبا طفرة في كتب التاريخ، وصدرت عشرات المؤلفات عن تاريخ نشوء الكون، وتاريخ الميتافيزيقا (ما وراء الطبيعة) وتاريخ الفيزيائية (الطبيعية) والطبيعة (الفلسفة الطبيعية) وتاريخ العلوم، وتاريخ الاقتصاد، وتاريخ الحيوان والنباتات والكائنات الحية، وتاريخ الإنسان، وتاريخ الفن والفلسفة والموسيقى، وتاريخ الأديان وغيرها من متابعات أخذت تركز على الزمن ودوره في ترسيم حدود التطور ودرجاته ومحطاته.

شجعت هذه "التواريخ" على تقديم مادة معرفية عن حضارات الآخر، وأعطت خلفية زمنية للمدارس الفكرية فظهرت الفلسفة الطبيعية، وفلسفة الكون، وفلسفة العلوم، وفلسفة الاقتصاد، وفلسفة الاجتماع، وفلسفة التاريخ، في حقبات متقاربة ما ساعد على تعزيز حرب الأفكار وتوليد نزعات مادية وضعية (إلحادية) إلى جوار نزعات مثالية دينية ما ورائية (صوفية). ولعب كانط وهيغل وشوبنهور

وكيركغارد دورهم في تثوير قضايا راهنة اعتمادًا على ذاك المنتوج الإنساني (مدرسة الاستشراق) الذي أخذ يتدفق على القارة من الصين والهند وبلاد المسلمين وشعوب أفريقيا وآسيا وأميركا اللاتينية.

بدأت الترجمات والحفريات والاكتشافات الأثرية، وغيرها من منقولات فلسفية من الكتب القديمة، تعطي مفعولها حين أخذت بالصدور بإشراف هيئات أكاديمية ومؤسسات تعليمية وبعثات جامعية، أو بواسطة القناصل والسفراء والطواقم الدبلوماسية ومجموعات من الرحالة انتشرت في أقاصي الدنيا بحثًا عن المعرفة وتقصيًا للحقيقة. وهذا ما أشار إليه هيغل حين ذكر كتابات القنصل البريطاني في الهند (كو لبرووك) الذي كان له الفضل في ترجمة فلسفة الهنود وشرحها خلال فترة عمله وبعد عودته إلى لندن وتأسيسه "الجمعية الآسيوية" وإشرافه على إصدار منشورات الجمعية التي ساهمت في توضيح تلك الرموز والإشارات والألغاز والطلاسم الشرقية[187].

لم يكن المنتوج الفلسفي الذي توصل إليه هيغل واضحًا في صيغته النهائية، لكنه شكّل بداية نوعية سيكون لها تأثيرها في مدارس الفلسفة في أوروبا حتى تلك التي قاومته أو رفضته. فالتعارض الذي ولّده منهج الديالكتيك (المثالي التاريخي) سيؤدي إلى انقسام أنصاره إلى تيارات متناقضة بين اليمين واليسار وصولاً إلى تبلور الفكر المادي للتاريخ.

لم تتبلور الفلسفة المادية فجأة فهي أخذت دورتها الزمنية لتتطور. وكان لا بد للماركسية قبل أن ترى النور أن تسبقها مقدمات تاريخية عمرانية ومعرفية سيكون لها الفضل في توضيح معالمها وخطوط سيرها. فالعالم الأوروبـي بدأ في مطلع القرن التاسع عشر يتطور بسرعة مخلفًا الكثير من الانكسارات العنيفة والتحولات النوعية ما ترك تأثيره الكبير في نمو اجتهادات فلسفية اشتراكية مثالية، وقراءات اقتصادية في السياسة، وقراءات سياسية في الاقتصاد، وانتقادات للدين والفكر الغيبـي وغيرها من موجات انقلابية أخذت تتكيّف مع عصرها. وفي هذه الفضاءات المتحولة صعودًا وهبوطًا ظهر الثلاثي الاشتراكي المثالي (سيمون، فورييه، واوين) ليقرأ المستقبل ضمن رؤية ميدانية طوباوية تطمح إلى المصالحة والحوار السلمي بين قوى النخبة المتصادمة مصلحيًّا والمتنافسة معرفيًّا في كسب المعلومات من مصادر متعددة المنابت ومتنوعة المنابع.

سان سيمون الاشتراكي - المسيحي

شكل "مؤتمر فيينا" في 1815 نقطة تحوّل في تاريخ أوروبا. فبعد هذا المؤتمر ستشهد القارة متغيرات نوعية في تكوينها السياسي ورؤيتها لنفسها ولخريطة العالم. جاء المؤتمر استجابة لتحولات تراكمت زمنيًّا في القرون الثلاثة التي تلت الاكتشافات الجغرافية، كذلك أسس منظومة جديدة للعلاقات القارية والدولية. فأوروبا تعولمت جغرافيًّا وباتت القارة في موقع المتفوق حضاريًّا بينما كان العالم الإسلامي يلهث للالتحاق بأسس التقدم ولا يلقى سوى الفشل.

اتفقت الدول الأوروبية الكبرى بعد فيينا على إعادة رسم خريطة القارة (نظام دولي جديد) والتفاهم على تقاسم النفوذ في آسيا وإفريقيا. وتشكلت من خلال هذه التفاهمات نزعة استعمارية تحوّلت لاحقًا حجر زاوية في استراتيجيات الدول الأوروبية[188].

تأسّس مشروع التوسع والإلحاق قانونيًّا في ذاك المؤتمر الذي عقد في فيينا بعد هزيمة نابليون في حروبه الأوروبية. آنذاك كان هيغل لا يزال على قيد الحياة ينظر ويراقب ويقرأ التاريخ من منظور فلسفي محاولاً استنباط معادلات تفسر تلك الغلبة العسكرية بأنها ناتجة من تفوق حضاري أوروبـي. فأوروبا برأيه هي مركز العالم التنويري ومن ذاك المركز ستشرق الشمس من الغرب. لذلك لم يتردد هذا الفيلسوف في تأييد أوروبا في توسعها الجغرافي، بل شجع مرارًا على تصدير فائض القوّة واحتلال بلدان المغرب العربـي نظرًا إلى قربها من أوروبا وتجاورها الجغرافي واتصالها التاريخي بحضارات المتوسط.

قرأ هيغل التاريخ من منظار المستقبل ورأى في الماضي مجرد حلقات متتابعة تعاقبت عليها حضارات أشرقت من آسيا وانتقلت في سلسلة من الموجات انطلقت من الصين ثم الهند ثم فارس ثم اليونان ثم الرومان لتنتهي في عصره (الجرمان) الذي رأى فيه أن دولة بروسيا (ألمانيا) تمثل نهاية الزمن والطور الأخير في تدرج التاريخ حقبة بعد أخرى.

ستتحوّل لاحقًا نظرية التحقيب التاريخي عند هيغل إلى نوع من النموذج الهرمي الذي ستقول به الكثير من المدارس الفلسفية. فالهرم له قاعدة تبدأ بالشعوب المتخلفة (أو الهمجية) ثم ترتقي طبقات الهرم درجة درجة وصولاً إلى قمته. والقمة برأي هيغل هي دولة بروسيا الملكية الدستورية. وبناء على هذا التصور الافتراضي أسس هيغل قواعد فلسفية لنظريات التخلف والتقدم، الانحطاط والتفوق، الأطراف والمركز، الظلام والتنوير. وجاءت قواعده النظرية في سياق تحقيب زمني يرتقي بالتاريخ من الطبيعة (الإنسان البدائي) إلى الدولة (الإنسان المتحضر)[189].

يمكن قراءة معالم ظهور الطور الجديد للفلسفة الأوروبية (السياسية والاجتماعية) في كتابات ونشاطات سان سيمون. فهذا الاشتراكي الرومانسي ينتمي إلى عائلة نبلاء فرنسية. وحين ولد في 1760 حمل لقب كونت (الأرستقراطي) الأمر الذي أعطاه فرصة التعلم في مدارس النخبة وقام بتربيته أفضل أساتذة عصره. إلا أن سان سيمون دخل في تجارب ميدانية أثرت في تفكيره وأدخلته في عالم من الأفكار مزج خلاله بين الواقع الراهن (الوضعي) والمستقبل. وشجعه المثال (النموذج) على بناء تصورات لعالم متخيل.

جاءت مثالية سان سيمون من خلال تجربته القصيرة في ثورة الاستقلال الأميركية. آنذاك دعمت فرنسا الثورة ضد بريطانيا وبحكم ولادته في أسرة أرستقراطية تحمس سيمون الشاب (15 عامًا) للثورة وذهب إلى أميركا للمساعدة في حرب الاستقلال. وهناك اكتشف "العالم الجديد" ومجتمعًا يتأسّس ضمن هيكليات مهندسة تشرف الدولة على تنظيمها من "الصفر".

تأثر سان سيمون الشاب بهذه التجربة الجديدة وأخذ يبني تصوراته لعالم مثالي غير موصول بالواقع المادي والمجتمع الذي يعيش فيه. وحين عاد إلى فرنسا (الأرستقراطية القديمة) اندلعت فيها الثورة (البورجوازية الجديدة) التي خلعت بالقوة الملكية وأسست جمهورية اتسمت أيديولوجيتها بالتناقضات العنيفة التي أورثت المجتمع سلسلة مجازر دموية انتهت إلى توليد إمبراطورية يقودها نابليون.

لم يتردد سان سيمون الشاب بالانخراط في الثورة الفرنسيّة وتأييد شعاراتها الرومانسية والانحياز إلى أكثر أجنحتها تطرفًا (اليعاقبة)، إلا أنه في نهاية المطاف صدم بالنتائج التي وصلت إليها. وبدأ من حينها في إعادة تأسيس نظرياته المثالية ومزجها بشيء من الواقعية من دون أن يغادر تلك الأبنية الرومانسية التي تخيلها وشاهد بعض جوانبها في الولايات المتحدة.

انحاز سان سيمون في فلسفته الاشتراكية المثالية إلى الأفكار المادية، وعارض تلك التقاليد البالية التي حاربها جان جاك روسو، لكنه فشل في مغادرة تلك النزعة الرومانسية التي دفعته إلى تشكيل تصورات تقوم على أبنية متخيلة تفترض المساواة والحرية من دون عوائق اجتماعية وحواجز تاريخية. وأدرك في سياق رؤيته لمجتمع مثالي أن العالم يتقدم إلى الأمام وأن التقدم البشري بحاجة إلى العلوم الطبيعية وإعادة إنتاج المعارف العلمية والأخلاق الإنسانية وعلوم الدين. قرأ التاريخ وفق محطات

ثلاث: الأولى لاهوتية (دينية)، الثانية عبودية (ماورائية)، والثالثة مستقبلية (وضعية)، وبرأيه المحطة الأخيرة تتشكل من نظم اجتماعية تقوم على العلم[190].

قراءة سان سيمون للتاريخ مثالية، لكنه لم يتردد في الانحياز إلى الأفكار الوضعية حين تخيل أبنية نظامه الاجتماعي الذي توهم انه سيتأسس في المستقبل. جاءت رؤية المستقبل من خلال مشاهداته لتلك التجربة البكر في "العالم الجديد" في فترة ثورة الاستقلال الأميركية، وهي مشاهدات أعاد تأسيسها وإنضاجها من خلال مراقبته للمشهد واتصالاته برجال الثورة الفرنسية. فمن فرنسا تعلم المنطق الوضعي الذي يؤمن بقوانين الطبيعة وصلتها بالاجتماع البشري. ومن أميركا تعلم كيف يرى تلك التصورات الهندسية لهيكل عالم جديد ينهض مباشرة في أطار دولة دستورية محكمة التنظيم[191]46).

توصل سان سيمون، بسبب هذه التجربة النموذجية، إلى نوع من المزج بين الوضعية والمثالية، فتخيل أن مجتمع المستقبل سيقوم على أساس الصناعة الواسعة النطاق والمنظمة تنظيمًا دقيقًا. ففي هذا المجتمع الجديد ستلعب النخبة (العلماء والصناعيون والتجار ورجال المصارف) دورها في التخطيط وقيادة الدولة. وهذا المجتمع المتخيل الذي رأى بداياته في ثورة الاستقلال الأميركية سيقوم على المساواة والتوزيع العادل للثروة وسيعطي الجميع فرصة للعمل وسيأخذ كل فرد بحسب قدرته لأن ذاك المجتمع سينجح في توليد آليات تدير الإنتاج وتتحكم في الأشياء بدلاً من التحكم في الناس. كانت أفكار سان سيمون تعكس أزمة متدحرجة في الوعي. والأزمة جاءت متراكمة، وهي ناجمة أصلاً عن تداعيات ذلك التحول التاريخي الذي أدى سابقًا إلى بدء انهيار الأبنية القديمة[192]47).

شكل هذا التفكير الرومانسي (الطوباوي) الذي هو أقرب إلى الفكر الاستبدالي (استبدال القديم بالجديد) وبعيدًا عن الفكر التغييري (التحول التدريجي) نقطة تحوّل في رؤية النخبة ونقلها من الأفكار المجردة إلى شيء من الواقعية المتخيلة التي عرفت بعض صورها التجريبية في فلسفة جيرمي بنثام النفعية، كذلك ستظهر لاحقًا في الفلسفة الوضعية (الاجتماعية) عند أوغست كونت[193].

التقى كونت سان سيمون في العام 1818 وأصبح صديقه بعد أن اشتغل معه مديرًا لأعماله. وعلى يد كونت ستشهد الفلسفة الوضعية نقلة نوعية في سياق قراءة الواقع الموضوعي من خلال مكوناته الطبيعية الظاهرة. استمر كونت يعمل سوية مع سيمون إلى العام 1824 (ست سنوات)، وأخذ عنه الكثير من أفكاره وأعاد تطويرها وإنضاجها حتى تتناسب ونزعته الوضعية (الاجتماعية) التي مالت إلى الابتعاد عن التصورات المثالية.

بعد سنة على الافتراق توفي سان سيمون في 1825 تاركًا مجموعات سياسية تأثرت بمذهبه الفلسفي. إلا أن هذه المدارس (السانسيمونية) أخذت تتنازع وتنقسم، وتحوّل بعضها إلى تبني اجتهادات دينية تعتمد على تلك الأفكار التي أطلقها في كتابه الأخير "المسيحية الجديدة". فاشتراكية سيمون كانت أقرب إلى المسيحية في طبعتها الأولى حين جاءت من منطقة قريبة من طبيعة الإنسان وفطرته البسيطة.

يكشف كتاب سان سيمون الأخير عن جوهر التكوين البدائي للفكر الاشتراكي المثالي (المساواة المطلقة) كذلك يظهر مدى اقتراب الفكر التنويري من التفكير الديني. وتجربة سيمون التي بدأت ثورية (المشاركة في ثورة الاستقلال الأميركية وتأييد الجناح المتطرف في الثورة الفرنسية) وتدرجت إلى واقعية (وضعية) رومانسية تخيّلت ذاك المجتمع الذي يحكمه رجال الصناعة والمال والعلم، انتهت إلى نوع من المثالية الدينية التي عبّر عنها في كتابه عن المسيحية الجديدة الذي صدر في السنة التي توفي فيها. فاشتراكية سان سيمون "مسيحية". وسيكون لهذه الفكرة الواقعية المثالية أنصارها ودورها في المستقبل وستتأسس في ضوء عناصرها التكوينية مجموعة أحزاب ومدارس تحمل الأسماء والشعارات نفسها (الاشتراكية المسيحية، أو الديموقراطية المسيحية)[194].

جاءت تصورات سان سيمون استجابة موضعية لتحولات طرأت على باريس في العام 1815 في أثناء "حرب المئة اليوم" وهزيمة بونابرت. فالاستجابة كانت ردًا على التحديات الطارئة في ساحة مفتوحة على احتمالات متخالفة. وسار في السياق نفسه شارل فورييه الذي وجه انتقادات لاذعة للنمط الاقتصادي الجديد وأخذ يقترح تصورات بديلة لتعديله وتهذيبه، بناء على رؤية تاريخية لتقدم المجتمع الزمني حقبة بعد حقبة.

وضع فورييه أربع درجات لتطور المراحل الاجتماعية للتاريخ تبدأ بالهمجية، والأبوية، والبربرية، والمدنية. والأخيرة تشكل عنده الرديف الراهن للحياة المعاصرة في مطلع القرن التاسع عشر. فالحضارة برأي فورييه تسير من حال إلى آخر دون أن تستقر على ضوابط نهائية لتذليل الصعوبات والعقبات. وهذا ما يؤدي إلى اندفاعها الدائم في حلقات مفرغة من التعارضات بين المقدمات والنتائج والمقدمات، الأمر الذي لن يساعد الإنسان في بلوغ كماله التام. فهناك درجة من التقدم إلى الأمام والأعلى إلى جوار درجة أخرى من التراجع والهبوط إلى الأدنى، وهذا ما سيؤدي برأيه إلى فناء البشرية في المستقبل[195].

نظرية الفناء ليست جديدة. كانط مثلاً تحدث عن فناء الأرض في المستقبل، وهيغل عن اضمحلال التعارض بين العلة الأولى وتطور الإنسان، وسان سيمون عن عالم هندسي مبرمج ومستقل عن الطبيعة والمجتمع، وفورييه عن اضمحلال البشرية ومالتس عن الانفجار السكاني.

كل هذا الرعيل من النخب الذي أنتجته القارة في حقبة متقاربة، توزع بداية بين بريطانيا (الثورة الصناعية البخارية) وفرنسا (الثورة الدستورية) وألمانيا (الثورة الأيديولوجية)، جاء ليعكس حالات انتقالية متجاورة ومتوازية قبل أن تدخل أوروبا في مرحلة لاحقة في طور التوحد والانقسام في منظومات من القراءات التاريخية التي تنظر إلى الدين والدنيا من زوايا مختلفة. فالتضاد صنع الوحدة، والوحدة أنتجت التضاد السياسي ومدارسه المعرفية.

وحدة الأضداد كانت التعبير المنطقي عن تحولات تاريخية غير مكتملة الشروط شهدتها القارة، وهي كانت تحتاج إلى وقت لترتسم هيكليتها الاجتماعية وهويتها الثقافية والعمرانية. واحتاج الانكسار الذي حطم العلاقات السابقة إلى فترة زمنية حتى يتم اكتشاف الأسلوب الجديد في تشكيل هيئة المجتمع. وبما أن النمط الجديد كان لا يزال في طوره البدائي، وبداية خط معاصر في صعوده الطردي، شهدت أوروبا تلك الأشكال الحديثة في التصورات الطوباوية للدولة البديلة. فالنمو الصناعي الطردي الحديث ساهم في توليد أيديولوجيات طاردة للعلاقات المتخثرة القديمة[196].

المبالغة في التفاؤل، والإفراط في السعادة، والتسريع في خطوات التقدم، كلها نقاط إيجابية تنتج منها في حالات انعدام الرؤية انزلاقات خطيرة تفتح الباب لنمو نقاط سلبية تتخوف من المستقبل وتستشعر احتمالات سيئة تسرف في الحديث عن القنوط والنهاية والسقوط الأبدي. وكلام كانط وهيغل وسان سيمون وفورييه ومالتس عن نهايات متخالفة بين السعادة والإحباط هو نتاج رؤى متفاوتة في قراءات تاريخية لم يكن في إمكانها التوافق في فترة زمنية لا تتعدى 50 عامًا على تصورات متشابهة أو متطابقة في نهاياتها.

آنذاك كانت النخبة الأوروبية قد دخلت لتوها في مسارات تاريخية وقنوات متعددة في التعامل مع مرجعيات المعرفة ونظرتها إلى المستقبل. فهناك رجل الكنيسة وإلى جواره رجل الدولة (البيروقراطية) والمخترع والمكتشف ورجل الأعمال (الاقتصاد الحديث) والرحالة (بعثات الاستكشاف والحفريات والآثار) والطبيب والفيزيائي والكيميائي وعالم الفلك ورجل المختبر (المختبرات) والأكاديمي والمستشرق والفيلسوف والصحافي (المحقق الاجتماعي) وعالم الطبيعة (الأحياء) ورجل النقابة أو

المناضل (الثوري) أو عالم الاجتماع، وكل هذه القوى المتجاورة من الفعاليات النخبوية دخلت حقول المعرفة وأخذت تتنافس وتتزاحم في توضيح رؤيتها لعالم انهار وبدأ يتلاشى وآخر بدأ ينمو وينهض على أنقاض الماضي.

الاختلاف على البديل التاريخي كان يحتاج إلى فترة زمنيّة، ليأخذ موضع ذلك التفسير الديني المتوارث للكون والنشوء والإنسان والبداية والنهاية و"العلّة الأولى" والماضي والمستقبل. وشجع الاختلاف النخب على تجاذب القيادة وإنتاج مجموعة من المناهج (الاستقراء والتفكيك والتركيب) بقصد صناعة أبنية معرفية تحتل مكانها الخاص في العالم الجديد الذي بدأ يبتعد عن الكنيسة[197].

آنذاك شكلت الاشتراكية في مختلف مدارسها (المثالية، الطوباوية، الفوضوية، النقابية، الوضعية، الواقعية، والعلمية) سلسلة من الحلقات المتحالفة والمتضادة في آن، لكنها في المجموع العام نجحت في تكوين فلسفة مضادة للرأسمالية الصاعدة من رحم عالم الأرستقراطية المنهار. وستلعب هذه المدارس في قضها وقضيضها دورها التاريخي في زعزعة الاستقرار من جهة وإطلاق منظومة أفكار من جهة أخرى، ما سيترك أثره لاحقًا في رسم معالم أخرى لمستقبل أوروبا.

سان سيمون (1760-1825) وشارل فورييه (1772-1837) وروبرت أوين (1771-1858) كانوا طليعة الاشتراكية المعاصرة. والبداية عادة تكون طفولية وعفوية وبسيطة ومثالية وحالمة تفكر في المستقبل انطلاقًا من فطرية تفتقر إلى التجربة وتحتاج إلى معرفة للاختبار والتعلم واكتشاف صعوبات الحياة وشقاوة الدنيا. فهؤلاء الثلاثة خاضوا تجارب ميدانية إنسانية بديلة لم يتوافر لها النجاح وفشلت في تحقيق أغراضها وطموحاتها في إنجاز العدالة والمساواة بين البشر. والفشل الميداني (التجريبي) لا يعني سقوط الأمل وتبخر الحلم. فالأفكار استمرت وأخذت تنتشر وتمتد لتعيد إنتاج نفسها في منظومات فلسفية أكثر واقعية وعلمية وعنفية[198].

أوين مثلاً بدأ مسيرته الإصلاحية حين كان مديرًا لمعمل في مانشستر إذ حاول تنظيم حياة 500 عامل بهدف تلبية الحد المعقول من حاجاتهم الضرورية. وبين 1800 و1829 أدار معملاً للأقمشة في أسكتلندا (نيولانارك) ما جعله ينجح في تطوير نموذج خاص اتصف بالمثالية وكسب شهرة في أوروبا بسبب نجاحه في السيطرة على ظواهر السكر والدعارة نتيجة أعماله الخيرية ورعايته للفقراء واهتمامه بالتربية وتأسيس مدرسة للأطفال وتوفير ظروف معيشية صالحة حين خفض ساعات العمل من 14 إلى عشر ساعات.

أدت مثالية أوين إلى تحسن أداء العمال وتطور إنتاجهم، قياسًا بالمصانع المنافسة، ما عزز ثقته بنظرياته الطوباوية عن إمكان الحصول على فرص في المستقبل تضمن السيطرة على الفوضى في إدارة المعامل واحتواء التوتر بين أرباب العمل والطبقة العمالية. أخذ أوين، وبناء على هذا النجاح المحدود في بلدة لا يتجاوز سكانها ثلاثة آلاف نسمة، يفكر في توسيع دائرة تجربته ما جعله يندفع نحو التخطيط لبناء مشروع (مستوطنة شيوعية) في أيرلندا أو أميركا يزيل فيها الفقر ويضع حدًا للسرقة والنهب والربح.

لم تلقَ فكرة الهروب من المجتمع والابتعاد عن سلبياته بين 1830 و1840 النجاح بسبب عزلتها ومثاليتها. فالمدينة الفاضلة كانت رومانسية حين اصطدمت بالحقائق الميدانية وأرض الواقع وأدت إلى إفلاس أوين وانهيار مؤسساته. الفشل العملي في جانب لم يسقط فكرة المساواة والعدالة من جانب آخر، ما أدى إلى تقبل الدول الأوروبية الفكرة لاحقًا وإصدار قوانين تخفف من استخدام الأطفال في المعامل وخفض ساعات العمل وتقديم ضمانات اجتماعية وصحية وإعطاء العمال حق تنظيم نقابات تدافع عن حقوقهم وتشرح مطالبهم.

أعطى فشل الاشتراكية المثالية والإنسانية الحالمة والأفكار الفوضوية فرصة لنمو نظريات أكثر واقعية في تعاملها العلمي الدقيق مع تطور العلاقات الاجتماعية. فالزمن الذي عاشه سان سيمون وفورييه وأوين اتسم بغموض الهوية الجديدة للمجتمع وضبابية التطور ما جعل هذه الحفنة من الطوباويين تفكر مثاليًّا مستخدمة مخيلتها في تصور حقائق المستقبل بناء على ماضٍ أخذت معالمه تتلاشى وتضمحل صورته عن مسرح التاريخ.

بدأت الطوباوية تتراجع وأحيانًا تتكيف أو تندمج في القوانين الاجتماعية التي أخذت تصدر تباعًا عن المؤسسات التشريعية الرسمية لضمان حقوق العمال وتأمين الحد المعقول لتلبية متطلباتهم التعليمية والصحية والمعيشية. وجاء هذا التحول في العلاقات بين رب العمل والعامل ردًا على التطور السريع الذي شهدته بريطانيا والقارة في السنوات الخمسين اللاحقة حين أخذت الصناعات الكبيرة تتقدم وتعيد هيكلة المجتمع وفق قواعد واضحة في صورتها وهيئتها[199].

ستكون هذه الفترة المتقدمة من نصيب حفنة جديدة من النخب، وهي لن تكون منفصلة عن تلك الاجتهادات المعرفية والاختراعات والاكتشافات السابقة التي أطلقت موجات متتالية من التقدم منذ القرن

الخامس عشر وصولاً إلى نشوء الطوباوية (المثالية) في عالم متغير بين النصف الثاني من القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر.

خلال فترة المئة سنة هذه ستعيد أوروبا اكتشاف هويتها وإعادة تعريف وظيفتها التاريخية والعالمية. وطوباوية الثلاثة لم تظهر خارج السياق الزمني وتطوره، فهي جاءت نتيجة التأثر بالموجة الأولى للثورة الصناعية (1750-1820) وصولاً إلى الثانية (1820-1870) وهي كانت مرحلة سياسية سيئة إذ ساد خلالها فكر المحافظين الجدد في نسخته القديمة في مواجهة تحديات الحاضر.

أسّست تلك الفترة الانتقالية بين موجتَين صناعيتَين وعيًا انقلابيًّا تمثل بداية في تطور المخيلة وصولاً إلى تطور وعي العقل واكتشاف قوانين علم الاجتماع الذي بادر دعاة الفلسفة الوضعية إلى وضع مصطلحه وقواعده وأصوله المعرفية بناء على قراءة التحولات المعاصرة.

الطوباويون الثلاثة كان لهم دورهم الخاص في المساعدة على التقدم في اتجاه هذه النقلة النوعية في علوم الاجتماع. سان سيمون، ابن الأسرة الأرستقراطية، عاصر تداعيات الموجة الأولى للثورة الصناعية وتخيل مدينة حديثة بناء على رؤيته الفلسفية التي قسمت تطور التاريخ إلى ثلاث مراحل: الدين والميتافيزيقا، والنظام الاجتماعي الوضعي. فورييه، ابن طبقة وسطى تعمل أسرته بالتجارة عاصر لحظة الانتقال من الموجة الصناعية الأولى إلى الثانية وقرأ التحولات السلبية كنتيجة لخطأ المجتمع وليس الفرد، لذلك تخيل مدينة في عالم صناعي جديد يتأسس على نظام اجتماعي يشترك الناس اختياريًّا في إدارته. وأوين، ابن أب مهني تعلم منه العمل الحرفي لكسب الرزق، عاصر بدايات الموجة الثانية للثورة الصناعية وتصور في منظومته التجريبية ونماذجه التطبيقية تأسيس مجتمع غير طبقي يعتمد على نظام اتحادي حر يتألف من جماعات تتمتع بالحكم الذاتي[200].

جاءت هذه المتخيلات في لحظتها التاريخية وهي كانت تشكل ذلك التعبير العفوي المثالي (الطفولي) عن حاجة للبديل المبرمج للرد على الفوضى الرأسمالية التي خلقتها الثورة الصناعية في الموجتين الأولى والثانية. وهذا ما سيكون له انعكاسه المعرفي على إنتاج مدارس أوروبية في علوم الاقتصاد والسياسة والاجتماع والأحياء وأدب الرحلات. آنذاك كانت أميركا تعيش في عصر تحوّلات مختلفة في آلياتها اليومية عن تلك السائدة تقليديًّا في أوروبا. فالعالم الجديد كان ينتج فلسفته الخاصة من التجربة (الممارسة) وغير مهتم بتلك الطفرة من نظريات العالم القديم. وهذا ما انتبه إليه باكرًا دو توكفيل.

الصدمة الأميركية

حين زار المفكر الفرنسي أليكس دو توكفيل (1805-1859) الولايات المتحدة في العام 1831-1832 وقبل اندلاع الحرب الأهلية أصيب بصدمة ثقافية. فهذا الشاب القادم من فرنسا اكتشف عناصر حياة مختلفة عن تلك السائدة في أوروبا. ودفعت الدهشة المثقف الشاب إلى البحث عن "سر" الحياة السياسية في هذه الدولة الجديدة إذ "لا توجد في الولايات المتحدة إدارة مركزية، ولا نظام متدرّج للموظّفين العامّين، فقد تقدّمت السلطة المحلّية شوطًا أطول مما يمكن أن تحتمله أية دولة أوروبية، من غير أن تضيق به ضيقًا كبيرًا. بل إنه أدى في أميركا نفسها إلى بعض النتائج الضارة. ولكن تركيز الحكومة في أميركا قد بلغ الكمال، ومن السهل التدليل على أن السلطة القومية مركزة في أميركا أكثر مما كانت في أمم أوروبية قديمة في أي عصر من العصور..."[201].

لم يلجأ توكفيل إلى قراءة الكتب لمعرفة أميركا وإنما اشتغل على دراسة الواقع كما يراه. وأخذ يبحث ميدانيًّا عن العوامل الخاصة التي أسهمت في تأسيس علاقات اجتماعية مختلفة عن فرنسا. فالديمقراطية في أميركا مختلفة عن تلك الفرنسية. ورؤية الناس للحياة تختلف. ونظرتهم إلى الدولة تختلف[202].

أثار هذا الجديد انتباه توكفيل وشجعه على قراءة مباشرة للواقع الأميركي وما يمثله من رؤية للآخر تتميز بهامش من الاستقلالية. فالديمقراطية التي اكتشفها في أميركا تمثل طبعة جديدة وتختلف نسختها عن تلك التي عاصر تفاعلاتها بعد الثورة الفرنسية. فالأميركية ملتصقة بالمجتمع وممارسة في علاقات الناس اليومية، وهي أقرب إلى الثقافة الجمعية التي يتشكل منها عقل سياسي حر وناقد بعقلانية للسلوك العام. بينما الديمقراطية الفرنسية منفصلة عن المجتمع وتقتصر على المؤسسات التي تنظم علاقات الناس وتحدد نهجهم اليومي، وهي أقرب إلى سياسة تعتمدها الدولة في صلاتها الفوقية والعامة مع الناس بينما المجتمع يعيش في مكان آخر ويقرأ الديمقراطية بوصفها فكرة مؤقتة محكوم عليها بالفشل.

شكلت هذه الملاحظات مادة أولية لتوكفيل، ومنها انطلق ميدانيًّا ليكتب بحثه عن "الديمقراطية في أميركا". فالكتاب جمع بين التوثيق والتحليل والانطباعات الشخصية والمقارنة بين نموذجين. لذلك اعتبر عمله رائدًا في مجاله لأنه جمع التاريخ والاجتماع والسياسة إلى جانب فلسفة

اعتمدت منهج المقارنة لاستنتاج سلسلة توصيفات لتجربة جديدة تمارس عمليًّا في مكان بعيد عن أوروبا.

كان توكفيل قبل زيارته للولايات المتحدة وتفاعله مع تلك التجربة الجديدة، غير متحمس للديمقراطية كفكرة. فهو تأثر بوالده المؤيد للنظام القديم والملكية الفرنسية ولم يكن يثق بإمكان نجاح فكرة الديمقراطية وشعارات الثورة: حرية، إخاء، مساواة.

بعد الزيارة تغيّرت رؤيته واكتشف حسيًّا أن الديمقراطية تعني الكثير وليست مجرد أسلوب تعامل سياسي تعتمده الدولة لتمييز نظامها الجديد عن القديم. ولاحظ أن الديمقراطية يمكن أن تعاش بصفتها ذاك الأسلوب الثقافي، أو الإطار الذي يحدد العلاقات الشخصية بين البشر. لذلك رأى في الديمقراطية ذاك الوعاء الذي يزيد من جرعة النقد ويطور ملكة العقل ويساعد الفرد في استخدام قدراته العقلية للتفكر والاختيار والتفضيل. كذلك وجد أن الديمقراطية تطلق سراح العقل من الأسر وتكسر تلك القيود الاجتماعية التي تكبّل الإنسان وتحاصره في حياته اليومية وسلوكه الشخصي.

بناء على هذه الصدمة الثقافية السياسية انقلبت رؤية توكفيل، فهو بات من المؤيدين للديمقراطية في نسختها الأميركية لأنها تتجاوز حدود صناديق الاقتراع ودورات الانتخاب الزمنية والمتعاقبة ضمن فترة محددة. كانت الديمقراطية التي تحمّس لها بعد عودته من أميركا تميل إلى الممارسة اليومية والعلاقات الحياتية. فهي أوسع من أن تكون صيغة نظام أو فكرة تقول بها الدولة بينما الناس يعيشون علاقات ثقافية تقليدية ومستبدة وبعيدة في جوهرها الإنساني والحقوقي عن مبدأ الديمقراطية ومعانيه الشاملة.

عاد توكفيل إلى فرنسا وأصدر كتابه عن الديمقراطية في أميركا في العام 1835 فأثار ضجة في أيامه، وأشعل مجموعة نقاشات طاولت سلسلة حقول سياسة وفلسفية واجتماعية، لكنها لم تثمر في التأثير على النخبة والمجرى العام للتحولات. آنذاك كان في الثلاثين من عمره فعرف شهرة واسعة في مقتبل العمر وانتخب عضوًا في أكاديمية العلوم السياسية في العام 1838 ثم عضوًا في الأكاديمية الفرنسية في العام 1841.

لا تقتصر أهمية توكفيل على تأريخ تطور الفكرة الديمقراطية واختلاف نسختها الأوروبية عن الأميركية، بل تأكيده على حتمية انتصارها التاريخي وبأن العالم دخل مرحلتها ولن يعود عنها. كانت

هذه الفكرة حاسمة في تفكيره بعد تردد، وشكّلت نقطة عبور له للانتقال إلى نقد "النظام القديم" وهو كتابه الثاني بعد عشرين سنة على الأول.

أحدثت أفكار توكفيل ثورة في نظريات الفلسفة السياسية من دون أن تعطي نتيّجة في المجال الميداني. آنذاك كانت الديمقراطية مجرد فكرة يقول بها الفلاسفة ولم تكن منتشرة ثقافيًّا (ممارسة) في أوساط الناس. كان البعض ينظر إليها من زاوية أيديولوجية لا تاريخية وأنها ستموت مع الأيام ولن تنجح في تأسيس علاقات بديلة عن تلك المتوارثة منذ قرون. بينما فكرة توكفيل أكّدت أن الديمقراطية ليست مؤقتة وأن النظام القديم انتهت مرحلته واستنفد وظائفه، وأن المستقبل هو لهذه الفكرة الجنينية التي ستنتشر عالميًّا وستتحول من عالم المثل إلى عالم واقعي تعيشه الشعوب.

انحياز توكفيل إلى الديمقراطية وفق النمط الأميركي لم يمنعه من نقد بعض جوانبها السلبية على رغم قناعته بانتصارها التاريخي. أهم سلبية وضعها كانت تخوفه من احتمال تحوّل الديمقراطية إلى المبالغة في تعزيز النزعة الفردية للإنسان ودخوله في المنافسة من دون وعي لمخاطر عدم احترام حقوق الآخر ومصالحه. فالديمقراطية برأيه قد تؤدي إلى زيادة طمع الإنسان وتنافسه على احتكار السوق والمال والثروة والسلطة من دون وجود رادع اجتماعي/أخلاقي يحدّ من تطرف سلوكه الفردي المحكوم بحرية الاختلاف واستخدام العقل قوة للسيطرة تمنع الارتباط بالآخر.

السلبية الأخرى التي قرأ توكفيل عناصرها الخفية في الديمقراطية الجديدة (الأميركية) هي عدم احترامها للمساواة بين البشر (سلطة الغالبية). فالفكرة جميلة وقوية وستكتسح تاريخيًّا العالم وستعزز ملكة العقل وحرية النقد، لكنها في النهاية لن تنجح في تحقيق المساواة بسبب نزعة التنافس التي ستطلقها بين البشر.

ميَّز توكفيل بين الحرية والمساواة. فالحرية لا تعني المساواة، والمساواة لا تعني الحرية. الديمقراطية تفتح الباب أمام الحرية لكنها لا تفتحه بالسوية نفسها والنسبة نفسها أمام الإخاء والمساواة[203].

كانت الانتقادات التي أطلقها توكفيل في أيامه مجرد فرضيات تتحسب من سلبيات مستقبل الديمقراطية (طغيان الأغلبية) في لحظة بدء انتصارها العالمي وتحوّلها إلى واقع تاريخي لا يمكن

النكوص عنه. تعود تحفظات هذا المفكر الفرنسي إلى عاملين: الأول حصول اضطرابات سياسية في فرنسا وأوروبا ناتجة عن الإفراط في دعوات الديمقراطية (حرية، إخاء، مساواة) الأمر الذي زعزع بعض القناعات وجعله يطلق تحذيرات بشأن التطرف الفردي وخروجه على الإجماع والمصالح المشتركة للبشر. الثاني أصوله الاجتماعية. فهو ينتمي إلى أسرة أرستقراطية وقفت إلى جانب الملك لويس السادس عشر وزوجته ماري أنطوانيت. فوالده تحدى الثورة الفرنسية وهاجمها وقاتلها دفاعًا عن النظام الملكي (الأرستقراطي/الكنسي) وكاد الثوار يقطعون رأسه بالمقصلة لكنه نجا مصادفة.

ولد توكفيل بعد الثورة الفرنسية في العام 1805 وتربى في أسرة تعشق "النظام القديم" وتتوقع عودته في وقت سريع. كانت السنوات الأولى من حياته رافضة للديمقراطية، بذريعة أنّها تؤسس الفوضى السياسية وتحطم التراتب الاجتماعي وتضع معايير مبهمة للإنسان وتساويه بالآخر من دون تمييز بين الخير والشر، الحق والباطل، الغني والفقير، المتعلم والأمي، العارف والجاهل.

آنذاك كانت الديمقراطية ضعيفة في أوروبا وحديثة الولادة وغير مفهومة لدى الناس وتعاني من صعوبات سياسية في فرض شروطها وكسر ثوابت النظام القديم الضارب جذوره في عمق التاريخ وعلاقات الاجتماع. كانت الديمقراطية في مطلع القرن التاسع عشر محاصرة وغير مقبولة عمومًا. حتى أن كبار الفلاسفة في تلك الفترة من كانط وهيغل وماركس تعاطوا معها بكبرياء ومن فوق ولم تشكل لهم ذاك الهاجس الذي يؤرق العقل والمصلحة كما هو حال توكفيل.

لم تكن ملاحظات هذا المفكر الشاب الذي عاش إلى العام 1859 (توفي في 55 من عمره) مفتعلة. فهو قرأ بوضوح عناصر نجاح الديمقراطية ورأى فيها ذاك الحل الحتمي للبشرية وتوقع باكرًا امتدادها العالمي وانتصارها الكاسح على "النظام القديم". إلا أنه رأى أيضا أنها تعني الحرية ولا تعني المساواة. فالتمييز الاجتماعي، الاقتصادي، اللوني، العنصري بين البشر وعدم التساوي في المعاش والحياة كلها عناصر تحتاج إلى حلول أخرى لا تستطيع فكرة "الديمقراطية" أن تعالجها لوحدها. فالحرية مسألة سياسية أما المساواة فهي مشكلة اجتماعية، لذلك من الصعب تحقيقها بسبب الطمع وحب التسلط والتنافس المفتوح بين الأفراد. شكّل هذا التوقع ما يشبه الحدس الوجداني. فالديمقراطية في أميركا ستتعرض فعلاً إلى حرب أهلية كبرى بعد أكثر من سنة على رحيل توكفيل. والحرب لن تكون بسبب الديمقراطية التي وصفها في كتابه وإنما بسبب نظام الرق وعدم المساواة بين البشر، وضعف المؤسسات. فالاتّحاد برأيه موجود بالقانون لا بالواقع[204].

الديمقراطية الأميركية

أرسلت إشارات توكفيل، حين زار الولايات المتحدة بعد نحو نصف قرن على استقلالها، بشأن الفارق الكبير بين الديمقراطية الأميركية الحديثة والديمقراطيات الأوروبية التقليدية، نقاط تنبيه تحذر من المبالغة في المساواة السياسية (سلطة الغالبية) لأنها تحتمل إمكانات الارتداد إلى الاستبداد كما حصل في فرنسا في عصر نابليون بونابرت. كذلك طور جون ستيوارت مل (1806-1873) في فلسفته نظريات العلم السياسي الحديث، متأثّرًا بأفكار والده جيمس مل وصديق والده الفيلسوف جيرمي بنثام، مؤكدًا على أن "الأفراد أحرار في العيش كما يريدون" مطالبًا بالحماية من الأذى و"ضمان حقوق البشر" حتى لا تتضارب الحرية بالحياة[205].

أكّد مل في مخططه الإصلاحي، على أهمية العقل في قيادة التفكير إذ "لا يستطيع أحد أن يصبح مفكّرًا عظيمًا ما لم يدرك، إنه كمفكر، فإن أول واجباته هو إتباع عقله نحو أيّة استنتاجات يقوده إليها"[206]. واستخدام العقل، لا يعني برأي مل نهاية للشرور، لأن "الاستخدام المطلق لحرّية النطق بكل الآراء الممكنة" لن يضع "نهاية لشرور الطائفية الدينية أو الفلسفية"[207]. العقل ليس كافيًا برأيه لضبط الشر، وإنّما هناك حاجة دائمة للإصلاح لمنع الشرور من إعادة إنتاج أدواتها.

اجتمعت كل هذه الأفكار عند النخبة الصاعدة لتشكّل قاعدة صلبة لنمو الفكر السياسي لاحقًا وتطوّره واقعيًّا حتى يؤسّس هياكل عقلانية لموضوع الدولة المعاصرة. ولعبت أفكار جون ستيورات مل دورها في ترسيم رؤية سياسية في مجال نشاط الحكومة. وساهمت اقتراحاته الليبرالية للإصلاح والتحديث، ومواقفه من مشروعات القوانين بشأن التأمين الاجتماعي والحرّيات العامة وغيرها من قضايا تتّصل مباشرة بالهيئات التنظيمية ودستور الدولة في توضيح الكثير من زوايا الصورة[208].

لم تمنع هذه الأفكار التحذيرية (التصحيحية) تقدم فكرة "حقوق الإنسان" استنادًا إلى الوثائق الثلاث البريطانية والأميركية والفرنسية. فالعالم فعلاً تغيّر وبدأ الفكر المعاصر يشق طريقه تاركًا تأثيره في مختلف الحقول والعهود. في أميركا قام وليام لويد غارسون (1805-1879) بكتابة إعلان ضد العبودية (إلغاء الرقيق)، وقاد فريدريك دوغلاس (1817-1895) حركة فكرية ضد العبودية تطالب بإلغاء نظام الرق. وساهم كل هذا الجهد الفكري في التشجيع على عقد مؤتمر ضد العبودية في أميركا صدر في نهايته "إعلان 1833" وهو الإعلان الذي أعتمده الرئيس الأميركي أبراهام لينكولن وأصدر بموجبه لاحقًا وثيقة تحرير الرقيق بعد اندلاع الحرب الأهلية في العام 1861.

أعادت هذه الحرب صوغ شخصية الدولة الجديدة وساهمت في تأسيس قواعد دستورية لعلاقاتها الأهلية وشكلت مناسبة مؤلمة كان لا بد منها لإظهار الولايات المتحدة قوة عظمى تلعب دورا كبيرا في تاريخ العالم الحديث.

الحرب الأهلية التي بدأت في 12 أبريل/نيسان 1861 وانتهت في 9 أبريل 1865أدت إلى مقتل 620 ألفًا وجرح وتشريد نحو مليون إنسان، لكنّها أسفرت في نهايتها عن تعديل فقرات في الدستور الأميركي وإجراء إصلاحات عليه قضت بإنهاء تجارة الرق في كل الولايات[209].

إلغاء الرق من الدستور كان بداية تحوّل في شخصية دولة تأسست سابقًا وفق معايير أوروبية ومسيحية أصولية رأت في أميركا "هبة" للعرق الأبيض الأنغلوساكسوني وبالتالي لا بد أن تخضع مختلف الأعراق والأجناس والألوان لمصالح هذه "النخبة المختارة".

لم يكن الجانب الاجتماعي/الدستوري المتغير الوحيد في دولة شهدت أعنف الحروب الأهلية في التاريخ الحديث، وإنما شكل المتغير السياسي/الدستوري الجانب الآخر من التبدل الذي طرأ على شخصية الدولة. فالحرب التي انتهت بهزيمة الانفصاليين وانتصار الاتحاديين في مشروعهم الوحدوي أنتجت دولة قوية اكتسبت خبرات ميدانية في المعارك ونجحت في تسجيل قواعد انطلاق لإعادة تشكيل نظام ولايات يجمع بين المركز والأطراف وفق ترابط دستوري اتصف بالمرونة في إطار الولاية وصلتها بالعاصمة في إطار الدولة الاتحادية.

هذا الجمع بين المركز والولاية وثم الجمع بين الحرية (الديمقراطية) والمساواة (إلغاء الرق) شكّل خطوة تاريخية في نقل الولايات المتحدة من دولة تابعة (تقليد أوروبا والتماهي مع نموذجها) إلى دولة رائدة تؤسس لنفسها نظام علاقات خاص يختلف عن ذاك الذي جلبه المهاجرون الأوائل من القارة الأوروبية إلى القارة الجديدة.

تصادف هذا التحول التاريخي - الذي يعتبره البعض بداية منعطف في الفكر الديمقراطي حين ربط بين الحرية السياسية والمساواة الاجتماعية - في عهد الرئيس لنكولن الذي ولد في كوخ خشبـي في ولاية كنتاكي في 12 فبراير/شباط 1809 واغتيل في 14 أبريل/نيسان 1865 حين كان يشاهد عرضًا مسرحيًّا في العاصمة واشنطن.

المصادفة صنعت لنكولن ولنكولن لم يصنعها. فهو لم يعلن الحرب على الانفصاليين، وإنما اضطر إلى إعلانها وخوضها دفاعًا عن وحدة الدولة. وتردّد أيضًا في اتخاذ قرار بإلغاء تجارة الرق، لكنه اضطر إليه حين اكتشف أن مسار الحرب يتأرجح بين الكفتين الشمالية (الاتحاديون) والجنوبية (الانفصاليون) وبالتالي اتجه نحو اتخاذ تلك الخطوة حتى يكتسب شعبية وسط الأفارقة تسمح بالبناء عليها لزعزعة استقرار الولايات المنفصلة التي كانت تعتمد على الزراعة وتجارة الرقيق.

لنكولن كان الرجل المناسب لقيادة تلك المرحلة، والمصادفة التاريخية اختارته ليكون على رأس الدولة حين تعرضت لأخطر امتحان كاد أن يودي بها ويمزقها إلى دولتين أو ثلاث دويلات. حتى يتجنب هذا الاحتمال كان لا بد من الربط بين الوحدة السياسية (دولة واحدة) والمساواة الاجتماعية ومنع التمييز بين المكونات العرقية والدينية واللونية التي تتألف منها الولايات المتحدة.

أقرّت هذه القرارات الخطيرة، التي اضطر لنكولن إلى اتخاذها استجابة لحاجات الحرب الأهلية والتحولات الميدانية التي فرضتها المواجهات العسكرية على جبهات القتال، في الدستور الأميركي. وإقراراها النظري في المواد والنصوص الملحقة لا يعني مطلقًا أن النفوس تقبلتها بسرعة وتحوّلت إلى قانون اجتماعي ينظم السلوك اليومي في علاقات الناس وحياتهم ومعيشتهم. فالعنصرية والتفرقة والتمييز وعدم الاعتراف بالآخر والنظرة الشوفينية إلى المختلف (الآخر) ثقافيًّا ولونيًّا كلها سلبيات تواصلت مفاعيلها في الولايات المتحدة على رغم كل التعديلات والإصلاحات التي أجريت على الدستور مرارا خلال فترة امتدت نحو 150 عامًا.

وحين قام المفكر الفرنسي توكفيل بزيارته إلى أميركا في 1831 عاد إلى باريس بعد أربع سنوات ليكتب ملاحظات مبكرة بشأن اختلاف خصوصية الديمقراطية في الولايات المتحدة عن تلك الموجودة في أوروبا. وبناء على هذه الملاحظات انتهى توكفيل إلى مقاربات محددة بشأن فكرة الحرية الشخصية في أميركا واحتمالاتها المفتوحة على مستقبل لا حدود له في تطوره الذاتي، متوقعًا في الآن نفسه حصول تضاربات بين فكرة الحرية ومسألة المساواة قد تؤدي إلى تصادمات أهلية[210].

ملاحظات توكفيل ومخاوفه حافظت على حيويتها لأن الواقع الأميركي لا يزال يعتمد التمييز بين مكوناته على مستوى علاقاته اليومية بين البشر وتعاملاتهم في السياق الحياتي المشترك. الدستور يمنع التفرقة والقانون لا يسمح بالتمييز بينما الواقع المعاش ميدانيًّا يقدم دائمًا أدلة على ذاك التفاوت بين

الأعراق والأجناس والألوان والديانات والثقافات والاختلاف في الخصوصيات والسلوكيات الاجتماعية والتعبدية.

بذور الاشتراكية - القومية

لم يتولد ظهور هذه المدارس الاشتراكية المثالية والقومية والإلحادية والوجودية والاجتماعية والطبيعية في النصف الأول من القرن التاسع عشر من الفراغ. فهذا الفكر المتخالف ترافق مع أطياف فلسفية أخذت تعيد ترتيب الأفكار وتنظيمها وفق منهجيات تعتمد آليات في التفكير تساعد على الخروج من فوضى النمو المتسارع الذي شهدته أوروبا في فترة زمنية قياسية.

تأسس هذا النمط من التفكير على قاعدة تحولات انقلابية في نهاية القرن الثامن عشر ساهمت في زعزعت استقرار القارة ودفعتها من ضفة إلى أخرى ما أدى إلى نمو حالات من التشاؤم عند النخبة ردًا على موجة التفاؤل التي زرع بذورها فلاسفة التنوير في فرنسا. فالثورة الفرنسية أخفقت في بناء "دولة الثورة" ما أدى إلى فشل "العقد الاجتماعي" وانهيار ما يسمى بدولة "العقل" بسبب ذلك العنف الذي أطاح قادتها ورموزها. والانقلاب البونابرتي جرف فرنسا إلى حروب الغزو داخل القارة وخارجها (مصر). وساهمت هزيمة نابليون في تراجع الفكر الجمهوري ومسألة الديموقراطية والحقوق والمساواة، وأدت تباعًا إلى إلغاء الكثير من الامتيازات النقابية والمكتسبات العمالية في فترة كانت المفاهيم التقليدية (رعاية الكنيسة لليتامى والفقراء مثلاً) أخذت تغيب عن المؤسسات الرسمية ومسرح التاريخ.

أنتجت هذه الفترة الارتدادية من الجمهورية والديموقراطية إلى الملكية الدستورية المقيدة بالشروط، لحظة انتقالية ضبابية أفسحت المجال لنمو الفقر وازدياد الجريمة وانتشار الفساد والرشوة واتساع قاعدة الدعارة والسطو على المال العام.

آنذاك أخذت الصناعة تتطور سريعًا في بريطانيا (الدولة الأولى عالميًا) وبدأت بالانتشار الهادئ في فرنسا وألمانيا. وأدى هذا الانتقال إلى ردود فعل مثالية (عفوية) عند النخبة على النمو الجديد للحياة وعلاقات الاجتماع وذلك الانقلاب الذي بدأ يحفر قنواته في أسلوب الإنتاج.

ترافق ضياع هوية المجتمع وتبعثر تقاليده واشتداد الضغط على الطبقة الوسطى، مع نمو مراكز قوى متباينة في تصوراتها وبدائلها أخذت تفكر في إعادة صوغ بنية المجتمع وهياكله

الإدارية. فالنزاعات الأيديولوجية التي تولّدت من العنف تأسست على قواعد اقتصادية جديدة غير واضحة الهويّة، وبدأت تتشكل في إطار نظام اجتماعي أخذت معالمه ترتسم قبيل العام 1800 في ضوء ظهور قوى منتجة كانت تبحث عن أدوات للحل وقنوات لتفريغ الطاقة[211].

أدت المرحلة الانتقالية المتمثلة في نمو رأسمالية غير ناضجة وطبقات غير واضحة المعالم إلى ظهور اجتهادات نظرية متعاكسة في تصوراتها، لكنها متوافقة على ضرورة اجتراح الحلول للخروج من أزمة كان من الصعب في تلك الفترة المبكرة تحديد أسبابها وعواملها ودوافعها. وجاء ابتداع النخبة لأنظمة اجتماعية جاهزة وبديلة، للحلول مكان وضع متخثر تسيطر عليه حالات من القلق والخوف من جانب ومشاعر بالسعادة والفرح من الازدهار من جانب، ردًا منطقيًا على انكسارات ثقافية أطلقت شرارات متضاربة الاتجاهات والتوجهات.

كشف تحطم "المجتمع القديم" وتراجع موقع الكنيسة الكاثوليكية وانقسام دور الحركة البروتستانتية بين اللوثرية والكالفينية ونمو نشاطات الشبكة اليسوعية الإصلاحية (التجديدية) عن حاجة تاريخية إلى نخبة قادرة على قراءة المستقبل والتحكم بآليات تطوره السريع.

فرضت الحاجة شروطها على النخبة الأوروبية التي تجاوبت مع متطلبات الزمن برؤى لم تكن موحدة في التفكير والتخطيط ما أثار تصورات مبهمة عن مستقبل غامض. ولكن الإحساس بوجود جديد ونوع من الرفاهية المعقولة شجع النخبة على التفكير بحلول وردية زاهية وزاهرة ترسم صورة متخيلة (طوباوية) عن "مدينة فاضلة"[212].

لم تكن أعمال النخبة "الاشتراكية المثالية" وأفكارها الوحيدة في ساحات مفتوحة على كل الاحتمالات. التصدع التاريخي كان قويًا إلى درجة كسر كل الاستقطابات المتوارثة ودفع القوى إلى التنافس على تقديم قراءات مبنية على تصورات اقتصادية مستقبلية أو إرهاصات فلسفية إشراقية وعرفانية وصوفية تفكر في الماضي وتسقط المجهول على عمليات التقدم، ما كان له تأثيره السلبي في عقول النخبة في العقود المقبلة.

آنذاك ظهرت تأثيرات فلسفة يوهان هردر (1744-1803) الذي كان قد بدأ نشاطه الذهني في ألمانيا في عصر التنوير الفرنسي حين استمع بداية لأفكار كانط وتفاعل معها ثم عاد ورد عليها بشأن نقده للعقل. وحاول الفيلسوف الألماني هردر شرح رأيه في فلسفة تاريخ الإنسانية (صدرت كتبه بين

1774 و1791) في تأكيد تطور فكرة التقدم في التاريخ وتقدم المجتمع نحو الإنسانية. وهو بهذا الإطار المبرمج سبق هيغل وشلنغ في قراءة الأفعال الإنسانية الفردية ونتائجها التاريخية الموضوعية لكنه فشل في توضيح مخططه في دائرة عالم المستقبل[213].

آرثور شوبنهور (1788-1860) كان أسوأ في تصوراته المستقبلية من هردر. فهذا الفيلسوف المثالي الألماني الذي درس في برلين وفرانكفورت ألف "العالم كإرادة وامتثال" في 1819 وكان ضد التفكير المادي العقلاني والجدل الهيغلي. بداية تقبل آراء كانط ثم عاد وعارضها بفكرة اللاعقلانية والإرادة وقوتها الذاتية، رافضًا فكرة التقدم التاريخي ما دفعه إلى التوجه نحو الماضي والتصوف والنيرفانا (السكينة المطلقة). لاقت أفكار شوبنهور الاعتراض في مطلع القرن التاسع عشر لكنها عادت وازدهرت بعد 1848 وتأثر بها نيتشه (1844-1900) حين صاغ مفهومه عن فلسفة التفوق والقوة (السوبرمان) التي أخذ بها النازيون لاحقًا[214].

لم يكن التفكير الاشتراكي (المثالي) إذن وحده في الساحة، إذ نهضت إلى جواره اجتهادات متخالفة في قراءة المستقبل ورؤية الماضي. كان التفسير الديني للتاريخ يتراجع لمصلحة تفسيرات متعارضة وغير موحدة في منطقها التأويلي أو العقلاني أو الاقتصادي. وكان هذا التخبط الفكري نتاج تحولات متسارعة نقلت إلى المجتمع تحديات خطيرة دفعته إلى نوع من الفوضى في الاختيارات تراوحت بين الطوباوية والواقعية أو الجمع بينهما.

في بريطانيا مثلاً نجح آدم سميث (1723-1790) في إنتاج كتابه عن "ثروة الأمم" مؤسسًا فيه قانون المنفعة الذي يتكفل آليًا بتنظيم الشؤون الاجتماعية للقوى المنتجة. بدأ تأثير هذا القانون بعد أن أخذ به بنثام وجيمس مل ولاحقًا ابنه جون ستيوارت (1806-1873). فالولد الذي أشرف والده على تربيته وشجعه على العمل في شركة الهند الشرقية وانتخب عضوًا في مجلس النواب في العام 1865 لم ينجح في التحوّل إلى رجل دولة بسبب ترويجه لأفكار والده، لكنه استطاع إصدار مجموعة كتب في المنطق والاقتصاد السياسي ومبادئ الحرية والنفعية بين 1843 و1861 سيكون لها تأثيرها اللاحق في تعديل مفاهيم الحق والمساواة (الليبرالية) وخصوصًا حين رد في العام 1865 على أوغست كونت وفلسفته الاجتماعية الواقعية (الوضعية)[215].

كذلك اشتهر كتاب ديفيد ريكاردو (1772-1823) عن مبادئ الاقتصاد السياسي وفرض الضرائب الذي صدر في لندن في عشرينات القرن التاسع عشر وكان له تأثيره في نظرية كارل

ماركس بشأن فضل القيمة (القيمة الزائدة). فالنظرية الماركسية تأسست على مفهوم القيمة لريكاردو الذي أخذه ماركس وطوره إلى قيمة قوة العمل (الأجر غير المدفوع للعامل) وأسس عليه فكرة الربح وصراع الطبقات[216].

المفكر الدنماركي سورين كيركغارد (1813-1855) سيلجأ إلى الصوفية هربًا من الواقع المتحطم. انتقد في البداية فلسفة هيغل (الجدلية التاريخية المثالية) من زاوية ذاتية فكتب عن "مفهوم الخوف" و"المرض حتى الموت". فالحقيقة عنده ليست تاريخية وإنما وجودية ذاتية. ولهذا بشّر الناس باليأس، ورأى أن الوجود الإنساني يتمظهر في ثلاثة أنواع: الجمالي، الأخلاقي، والديني. وبما أن الديني هو الأعلى فإن الوجود لن يتقدم أو يتراجع لأنه يتألف من مزيج مركب بين المتناهي (المؤقت) واللامتناهي (الأبدي). لم تعرف فلسفة الوجود (الوجودية) الشهرة في زمن كيركغارد لكنها ستنتشر لاحقًا وتسهم في تأسيس تيار عالمي ستأخذ به المدارس الوجودية في أوروبا في حقبات متلاحقة[217].

السياسي الاقتصادي جوزيف برودون (1809-1865) بدأ منهجه الفكري على أساس هيغلي وما كتبه عن تاريخ الأفكار وصراعها الضدي (وحدة الأضداد) لكنه تحوّل إلى اقتصادي فوضوي ضد الديالكتيك وأخذ يتحدث عن "التبادل العادل"، معتبرًا من موقف أخلاقي أن الملكية الخاصة "سرقة". وحين نشر كتابه "فلسفة البؤس" رد عليه ماركس في كتاب مضاد في العام 1847 أطلق عليه "بؤس الفلسفة" مشيرًا فيه إلى تاريخ "صراع الطبقات" وضرورة القضاء على "كل الطبقات" مستقبلاً[218].

الفيلسوف الألماني الملحد لودفيغ فيورباخ (1804-1872) بدأ حياته مثاليًّا متأثرًا بهيغل ثم دخل في صراع مع الكنيسة بعد نشر كتابه الأول عن "الموت والخلود" في العام 1830 ما أدى إلى فصله من الجامعة وانقلابه على فلسفة هيغل. اتجه فيورباخ إلى الاشتراكية وبدأ يشتغل على تطوير المذهب الطبيعي (المادي) في دراسة التاريخ والدين والإنسان وأخذ بتطبيق علم الإنسان في اكتشاف الحياة الاجتماعية والجذور التاريخية للدين، وانتهى إلى اعتبار الدين قوة اغتراب (استلاب) لوعي الإنسان. دفعه هذا الحس التجريبـي المادي، المعارض لنظرة اللاأدرية، لاحقًا إلى نقد الطبيعة المثالية للهيغلية في العام 1839 ثم انتقل لنقد المسيحية (كتاب جوهر المسيحية) في العام 1841 ما ترك تأثيره الإلحادي (المادي) على ماركس وإنغلز. يعتبر فيورباخ فلسفيًّا والد الماركسية، من دون إرادة منه، لأن منهجه المادي التاريخي سيشكل لاحقًا أحد المصادر الرئيسية لفلسفة الثنائي ماركس/إنغلز[219].

العالم الاجتماعي الطبيعي تشارلز داروين (1809-1882)، الذي سنتحدث عنه لاحقًا، عاد من رحلته الاستكشافية البحرية - البرية بنظرية تجريبية - مختبرية تؤكد اتصال عالم النبات بالحيوان بالإنسان معتبرًا أن تطور الطبيعة على مدار الزمن أنتج الحياة بما هي عليه اليوم. وأدى كتابه المهم عن "أصل الأنواع" ثم كتابه الآخر عن "أصل الإنسان" إلى تشكيل مدرسة مادية تعيد كل الأشياء والأحياء إلى عالم الطبيعة. قام داروين بانقلاب كبير حين عكس صورة المعرفة. فبعد أن كان كل شيء ينطلق من الأعلى وينحدر إلى الأدنى، أصبح كل شيء يبدأ من الأدنى ويتطوّر نحو الأعلى، الأمر الذي أسهم في تأسيس فلسفة التفوق (الانتخاب الطبيعي) ونظرية البقاء للأقوى والأصلح، التي أخذت بها لاحقًا الاجتهادات العرقية والعنصرية ووظفتها في فضاء مخالف لمفاهيم مؤسسها[220].

العالم الاجتماعي الأميركي في الأجناس والآثار لويس مورغان (1819-1881) سار على منوال داروين ودرس طريقة عيش الهنود الحمر (الشعوب الأميركية الأصلية) وخصوصية ثقافتهم، وقدَّم معلومات غنية عن المجتمع المشاعي البدائي في كتابه "المجتمع القديم" الذي صدر في 1877. تأثر الثنائي ماركس - إنغلز بأفكار مورغان لأنه أعاد اكتشاف المفهوم التاريخي للعائلة وكيف تتغير تاريخيًّا مع تطور المجتمع، ما شجع إنغلز على الأخذ بمراجعاته وخلاصاته حين أصدر كتابه المهم عن "أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة"[221].

بدأت كل هذه المسارات المتعارضة بذورها في مطلع القرن التاسع عشر، وهي تشكلت نتيجة تحطم "المجتمع القديم" وانكسار التفكير التنويري بعد هزيمة بونابرت وانهيار الجمهورية الفرنسية ونمو موجة من "المحافظين الجدد" في أوروبا نجحت في التحكم بمقاليد بعض السلطات السياسية ومواقع الدول بين 1815 و1848[222].

ساعدت هذه الفترة في إعادة هيكلة الكثير من الأفكار والنظريات عند النخبة، وشجعت على تشكيل بذور اجتهادات فلسفية سيكون لها تأثيرها في صوغ سياسات دولية بسبب نجاح أوروبا في التحوّل إلى قاطرة العالم تجرّ شعوبه كالعربات على سكة الحديد المعاصرة. ولكن هذا التحوّل السريع سيجلب إلى القارة إضافة إلى المواد الأولية والطبيعية والثروات المعدنية (الذهب والفضة) تلك الأفكار والمخطوطات والمعتقدات القديمة والتحف التي أخذت الحفريات بإخراجها من باطن الأرض وذاكرة التاريخ (آسيا وأفريقيا).

أوروبا التي انفتحت على العالم منذ القرن الخامس عشر سينفتح العالم عليها للأخذ بأسباب تقدمها وتفوقها، وفي الآن نفسه سيضخ إليها الكثير من المعتقدات والكتب القديمة التي بدأ علماء الآثار والرحالة وبعثات الاستكشاف نقلها من وراء البحار والعالم الآخر البعيد[223].

سيلعب هذا التبادل بين الجديد والقديم (تصدير فائض القوة واستيراد الكتب القديمة) دوره في معادلة القوة والضعف، وسيبدأ بتشكيل بذور مفاهيم أخذت تنمو رويدًا في تربة خصبة وقابلة للحياة. ولكن النمو المطرد والمضطرب سيتمظهر في أنماط تفكير متعارضة ومسارات منهجية متخالفة، ما أعطى لاحقًا حيوية ثقافية ممانعة أخذت تتصالح بصعوبة بين الأنا والآخر. فالنخبة لم تتوقف عن إنتاج رموز أخذت تحفر في التاريخ أو تقرأ المستقبل. فالتطور المعرفي - العمراني تواصل دون انقطاع، لكنه تفرق إلى اجتهادات أخذت تتسابق مع الزمن لصوغ مفاهيم ترد على لحظة ضياع الهوية التي دخلتها أوروبا واجتهد الثلاثي الاشتراكي الطوباوي (سيمون، فورييه وأوين) في تخيل بدائلها المثالية قبل أن يصعد نجم أوغست كونت[224].

كونت والانتقال من التفسير إلى الإصلاح

عاصر أوغست كونت (1798-1857) الفرنسي (من أسرة كاثوليكية) تجارب الثلاثي الاشتراكي المثالي وتعايش في الفترة الأولى من حياته مع سان سيمون واشتغل معه في ترتيب شؤونه وجمع المعلومات التي يريدها لتوظيفها في برامجه وخططه.

اكتشف كونت ثغرات كثيرة في نهج أستاذه وبدأ يختلف معه في موضوع استقراء المعرفة واستنباط الحلول الواقعية للمشكلات التي أخذت تطرأ على المجتمع. كان كونت أكثر واقعية في رؤيته للأمور، فهو خالف الثلاثي الطوباوي في التعامل مع الحالات الوضعية وبدأ يفكر بإيجاد وسائل موضوعية للسيطرة عليها تختلف عن تلك البدائل الرومانسية.

اختلاف كونت مع معلمه في العام 1824 شكّل بداية لإعادة التفكر من خلال قراءة عقلانية للمشكلات والبحث عن حلول وضعية للأزمات غير طريقة الهروب من المجتمع والارتحال عنه والبدء في تأسيس «مدينة فاضلة» من الصفر. أدرك كونت مبكرًا أنه لا مناصّ من ابتكار الحلول واستنباطها شرط أن تكون آتية من المجتمع وتلك المنظومة المعرفية/العمرانية التي توصل إليها تطور البشر. فالحل برأيه يأتي من داخل الجماعات لا من خارجها في اعتبار مسألة استمرار التقدم موضوعة لا نقاش فيها،

لكنها تحتاج إلى إدارة عقلانية (هندسة المعارف) للسيطرة عليها تبدأ بتوحيد العلوم وترتيب أصنافها وصولاً إلى إعادة أدراجها في نظام تربوي يربط العلم بالحياة السياسية للبشر.

برأي كونت الإنسان "حيوان" عنده تاريخ. والتاريخ يتطور معرفيًّا على مراحل ثلاث: اللاهوت (الماورائيات)، والميتافيزيقا (ما بعد الطبيعة)، والعلوم (الصناعة والفيزياء الاجتماعية). لذلك لاحظ أن التطور التاريخي أنتج مناهج تكيفت زمنيًّا مع كل حقبة. فالمرحلة اللاهوتية ابتكرت المنهج اللاهوتي (التفسير الديني)، والمرحلة الميتافيزيقية التأملية ابتكرت منهج ما بعد الطبيعة (التفسير التخيلي للعالم والكون)، والمرحلة العلمية (الفيزياء الاجتماعية) لا بد لها من ابتكار منهج وضعي (عضوي) يقرأ واقع البشر من خلال رؤية علاقات الاجتماع.

جاء انتقال فلسفة كونت الاجتماعية من الميتافيزيقا (ما بعد الطبيعة) إلى الفيزياء (الطبيعة) على قاعدة التطور الذي شهدته القارة الأوروبية خلال القرون الأربعة الماضية. وأسهم تطور حركة المعارف العلمية (العلوم الفلكية، الرياضيات، الفيزياء، الكيمياء، الطب، الميكانيك، البيولوجيا) في توليد منظومات معرفية تقرأ التاريخ في إطار الجغرافيا (الطبيعة)، ما أدى إلى إعادة توظيفها في إطار العقلانية (الذاتية) ثم استثمارها في إطار الاجتماع البشري (الجماعات الأهلية)[225].

كان كونت أكثر التصاقًا بالواقع وتعقيداته وتفاعلاته (ديناميانه) وتداعياته الاجتماعية من رعيل المثالية الاشتراكية، لذلك يعتبر أول من استخدم مصطلح "علم الاجتماع" الحديث، وهو في طليعة من صاغ قواعده المنهجية اعتمادًا على البرهان والملاحظات التجريبية. ولم يحصل هذا الاكتشاف البحثي من دون مقدمات نظرية أسسها علماء الفلسفة الطبيعية وعلماء فلسفة العلوم وما تفرع منهم من منظومات استخدمت الفيزياء والهندسة والطب والرياضيات لتطوير المعرفة والتوصل إلى قراءات عقلانية تتجاوز اللاهوتي والماورائي وما وراء الطبيعة.

عاش كونت بداية حالات من القلق المعطوف على التفاؤل وطموحه الذاتي لإحداث ثورة فكرية على منوال كانط وهيغل، فاستند في مطلع مشروعه الفلسفي إلى ديكارت محاولاً ابتكار فلسفة هي أشبه بالعقلانية الديكارتية ما دفعه لاحقًا إلى تصنيف العلوم وترتيب حقباتها الزمنية مستفيدًا من إنجازات رعيل فلاسفة القرن الثامن عشر. وحين توصل إلى صوغ قواعد انطلاق الفلسفة الوضعية (علم الاجتماع) أخذ بنشر الجزء الأول من أبحاثه في العام 1830، ثم الجزء الثاني في 1839، والثالث في 1842، والرابع في 1850.

كان هدف كونت من وراء نشر المنظومة العامة للمفاهيم التوصل إلى وضع نظام للأفكار يساعد في هندسة الوقائع بقصد دراسة الظواهر الاجتماعية باعتبار أن الحل لا يكون إلا من داخل تلك العلاقات. ويقوم العلم، الذي حاول تقديمه، على فكرة ابتكار نظام يرتب علاقات التبادل بين الإنسان والمجتمع ونقلها من محطات الديني والطبيعي والعقلاني إلى الاجتماعي. كل هذه المحطات هي برأيه علوم عصرها ولا بد لها من أن تتطور وتتهيكل للرد على تحديات العصر.

حتى يتوصل إلى هذه المحطة استخدم بداية منهج ديكارت العقلاني وربطه بأرسطو ثم دمجه بنظريات نيوتن الفيزيائية فاكتشف أدوات تحليل تستطيع ربط المنظومة العامة للمفاهيم، الأمر الذي ساعده في تناول نظرياتها في نظام للأفكار يتمتع بوظيفة خاصة وهي: ترتيب النظام المعرفي في إطار مراعاة العلاقات الواقعية بين الظاهرات الاجتماعية.

هذه الوظيفة الاجتماعية للفلسفة، نقلت منهجية التفكير العقلاني من درجة التفسير إلى مرتبة التنظيم (فلسفة عملية) إذ أصبح للعقلانية مهمة جديدة وهي ضبط التربية وتنظيم المجتمع. فالفلسفة وفق منهجية كونت ليست رؤية ماورائية أو تهربًا من الواقع إلى "مدينة فاضلة" ومتخيلة خوفًا من مشكلاته، وإنما هي مهمة إصلاحية تشرف على اعتماد نظام تربوي يرتب علاقات البشر وفق رؤية عقلانية عملانية[226].

جاءت فلسفة كونت الاجتماعية (الواقعية الوضعية) ردًا على فوضى الأفكار وفوضى الإنتاج في عصره الانتقالي الذي بدأت تعصف الموجة الثانية من الثورة الصناعية بجذوره التاريخية وأعمدته التقليدية (شبكات الرعاية الكنسية). فالفوضى في الأفكار كانت بحاجة إلى هيكلة وإعادة هندسة للمعارف تعتمد على نظام تربوي تراتبـي يضبط إيقاع التطور ضمن محطات مبرمجة زمنيًا. والفوضى في الإنتاج تحتاج بدورها إلى مؤسسات تنظم المجتمع وترعاه وفق خريطة إصلاحية متدرجة عقلانيًا تتعامل مع الواقع كما هو، ولا تتخيل ذهنيًّا تصورات طوباوية مثالية (على غرار الثلاثي الاشتراكي) في عالم يشهد متغيرات ومتحولات دائمة[227].

شكلت فلسفة كونت الوضعية (الاجتماعية) نقطة تحوّل في التفكير العقلاني لأنها نقلت منظومة الأفكار من طور التفسير والتأمل إلى طور التنظيم (الإصلاح) ومهّد هذا المنهج الطريق إلى بدء نمو وعي متقدم يطمح إلى مرتبة أعلى تتجاوز درجة الإصلاح. وهذه المرتبة الثورية

(تغيير المجتمع لا إصلاحه وتنظيمه) سيلعب الثنائي (ماركس/إنغلز) الدور الأساس في وضع تصوراتها وقوانينها بهدف التعديل الشامل للعلاقات الاجتماعية.

أحدثت منهجية كونت الاجتماعية الوضعية نقلة نوعية في مجال التفكير المعرفي حين دفعته من إطار الكلام العام (التفسير) إلى إطار الفعل الميداني (التنظيم العقلاني للمجتمع) أي من طور التأويل النظري إلى مهمة التعديل والتهذيب (الإصلاح).

لاقت إضافات كونت ردود فعل واعتراضات على جوانبها المثالية أيضًا. كونت أكثر واقعية من أستاذه وصديقه المثالي سان سيمون، لكن واقعيته احتضنت جوانب مثالية كانت تحتاج إلى تصويب حتى تتحقق. نيتشه "المجنون" مثلاً انتقد طابعها التنظيمي العقلاني (الوضعي) بينما قام صديق داروين والمدافع عن أفكاره ونظريته هربرت سبنسر بانتقاد تصنيف كونت المفتعل والمختصر للعلوم وتراتبها التاريخي ونموها التطوري الطبيعي[228].

جاءت الانتقادات والملاحظات في سياق متحولات جديدة تأسست على تطور العلوم والتقنيات من جانب وتلك التفاعلات التي أنتجتها الموجة الثالثة للثورة الصناعية من جانب آخر. أحدثت هذه المتغيرات بدورها نقلة تطورية في وعي النخبة الأوروبية ودورها العملاني وأنماط تعاملها مع «مجتمع جديد» حطم مرجعية الكنيسة، وأخذ بإنتاج مرجعيات غير متوافقة على البديل التاريخي. وأدى تعدد المرجعيات إلى فتح باب التنافس العقلاني - المختبري على آفاق لا متناهية بدأت بالعودة إلى تحديد أصل الإنسان ومبدأ "العلة الأولى".

داروين وفلسفة الارتقاء

حين نشر تشارلز داروين كتابه عن "أصل الأنواع" في العام 1859 قامت ضجة كبرى في أوروبا بشأن نظرية النشوء والارتقاء التي قالت بفلسفة التطور الطبيعي في خمس محطات: الوراثة، التحوّل (التكيف)، التوالد (التكاثر)، التناحر على البقاء، بقاء الأصلح (انتخاب المتفوقين في معركة التنافس).

أثارت هذه النظرية الفلسفية المادية عن "الانتخاب الطبيعي" أو "النخبة المختارة" وأصول الإنسان وتطور الأحياء الجدل لكنها كانت خطوة عادية في قارة حققت اختراقات نوعية في مجالات التقدم العلمي والاكتشافات الجغرافية والفلكية والاختراعات التقنية. فأوروبا آنذاك نجحت في السيطرة

التجارية على نصف العالم وباتت شعوبها تحتل مواقع مركزية في عالم وراء البحار وأخذت تمد نفوذها الثقافي (نموذج يحتذى) إلى مختلف أنحاء المعمورة. كذلك توصلت داخليًّا إلى تشكيل نواة نخبة صلبة لم تعد تتردد في إعلان إلحادها وتشكيكها بأصل "العلة الأولى". لم يعد الكفر تهمة تخجل أو تتخوف النخبة من إشهارها بل تحوّلت إلى وجهة نظر يمكن البوح بها والبرهان عليها اعتمادًا على تلك الابتكارات والقراءات والمخططات التي أنتجتها العقول والآلات خلال القرون الأربعة الماضية[229].

جاء كلام داروين في العام 1859 عن نظرية التطور (النشوء والارتقاء) في سياق تحوّلات كبرى أنتجتها المصانع والمعامل والمختبرات وعقول علماء الفيزياء والكيمياء والهندسة والطب والأحياء، معطوفة على تطور الآلة (الميكانيك) وما وفرته للإنسان من متطلّبات معيشية واستهلاكية. علم الجراحة والتشريح مثلاً تقدم سريعًا بعد اكتشاف الألماني فريدرك سرتورنر المورفين في العام 1803. العالم الطبيعي الفرنسي جان باتيست لارماك (1744-1829) وضع كتابًا في العام 1809 عن "فلسفة الحيوان" أوضح فيه أول نظرية تطورية في علم البيولوجيا. هربرت سبنسر (1820-1903) أصدر في العام 1855 كتابًا عن "مبادئ علم النفس" شرح فيه مذهبه الحسي والتطور الأجني بالوراثة، ألحقه بمقال عن "قانون التطور وعلّته" في العام 1857 استفاد منه داروين الذي اعترف في مقدمة كتابه بأن سبنسر سبقه في اكتشاف مبادئ النظرية التي أعاد ترتيبها وتنسيقها في قانون "أصل الأنواع"[230].

كانت أفكار داروين التي صاغها شبه متداولة، قبل اكتشافه لها، في مقالات متفرقة ومنشورات جامعية ومحاضرات ودراسات متناثرة. وحين نظم داروين نظريته في نسق واضح ومتماسك اعتمد في كتابه على الكثير من المصادر والمراجع المتداولة في حدود الاختصاصات والمنشورات العلمية التي كانت تتناقلها المعاهد والأكاديميات.

صديق داروين الباحث الإنكليزي توماس هكسلي (1825-1895) قال بالمذهب الطبيعي وكتب في علم الأحياء والتشريح المقارن، وحاول الجمع فلسفيًّا بين هيوم وداروين من خلال دفاعه عن نظرية صديقه الذي سبقه في الكتابة عنها باستطراد ومنهجية متجانسة. هكسلي أيضًا قال بنظرية التطور قبل داروين وأصدر بشأنها سلسلة دراسات نشرها لاحقًا في كتابه عن "مكان الإنسان في الطبيعة" في العام 1863[231].

داروين لم يكن وحيدًا. فهو أساسًا تربى في كنف أسرة في شروزباري تؤمن بنظرية التطور. والده (روبرت وارنغ داروين) طبيب. والدته ابنة صاحب مصنع خزف. جده (اراسموس داروين)

طبيب أيضًا وصديق واط (مخترع آلة البخار) وبريستلي (مكتشف غاز الأوكسجين) كان مؤيدًا لنظرية التطور.

تشبّع داروين بالروح العلمية منذ طفولته وعاش في إطار أسرة مستقرة ومرتاحة اجتماعيًّا ما وفر له فرص الدراسة والتعلم والتفرغ لرحلات الاستكشاف وكتابة بحوثه عنها. فهو بداية التحق في العام 1825 لدراسة الطب في جامعة أدنبره (أسكتلندا) لكنه تحوّل إلى دراسة علوم الأحياء (الأحياء المائية) بسبب حبه للتشريح وهواية جمع الحشرات وميوله للكيمياء (التجارب والمختبرات). وحين ذهب إلى جامعة كامبردج في 1827 التحق بكلية اللاهوت وقضى فيها ثلاث سنوات اضطر بعدها إلى مغادرتها لمتابعة اهتماماته وشغفه بالكيمياء الأحيائية.

استمر داروين يتقلب بين الاختصاصات إلى أن توافرت فرصة الذهاب في رحلة ملاحية حول العالم. واستطاع، بسبب حبه للاستكشاف وظروف أسرته المريحة اجتماعيًّا، تأمين غطاء مالي للالتحاق بالرحلة (الاستكشاف الطبيعي العيني) التي بدأت في العام 1831 وانتهت في 1836.

قضى داروين 5 سنوات في رحلته حول العالم يجمع الحشرات والنباتات ويدوّن ملاحظاته عنها. وحين عاد قرر الإقامة في لندن ملتحقًا هناك بالجمعية الجيولوجية لمدة خمس سنوات أيضًا، لكنه اضطر إلى مغادرة العاصمة في 1842 لأسباب صحية فتوجه إلى الريف (مقاطعة كنت) ليتفرغ إلى كتابة ما أنجزه وجمعه من معلومات.

خلال وجوده في لندن اطلع على مقال مالتوس عن التكاثر السكاني (التعداد والنمو الديموغرافي) الذي نشر في 1836 وتأثر به كثيرًا واعتمد عليه حين نسج نظريته عن الاختيار أو الانتقاء (الانتخاب الطبيعي). وتابع خلال سكنه في مقاطعة كنت (الريف الإنكليزي) كتابات سبنسر عن قانون التطور وعلته، ودراسات هكسلي عن موقع الإنسان في تطور الطبيعة ما شجعه على إصدار كتابه عن "أصل الأنواع" وألحقه بكتاب آخر عن "أصل الإنسان" في 1871 ما أدى إلى فتح سجال طويل دفع أصحابه وتلامذته وأتباع نظريته إلى الدفاع عنه.

أثارت أفكار داروين ضجة كبيرة في أيامه وشكلت فاتحة في منهج التعامل مع علم لا يكتفي بقراءة تاريخ الإنسان وماضيه، وإنما يتوسع في مجاله الحيوي للوصول إلى أصله وأساس علته الأولى وكيف تطور طبيعيًّا من خلال التوالد الذاتي والارتقاء الزمني.

واجهت هذه النظرية العلمية (المختبرية)، التي فتحت الباب أمام احتمالات علمية (الحادية) غير منظورة، النقد ولاقت أيضًا الكثير من الأنصار. سبنسر (مهندس سكك حديد) دافع عنها وأضاف عليها. هكسلي روج لها وعمد إلى توسيع أطرها الفلسفية باتجاه ما أسماه "المادية التلقائية" مستخدمًا مصطلح "اللاأدرية" وهي نظرية لاهوتية قديمة تجددت قاعدتها في ضوء المكتشفات العلمية المعاصرة. واللاأدرية مشتقة من "لا أدري" وهي نظرية تنكر إمكان معرفة العالم وترى أن هناك ما يشبه الاستحالة لمعرفة كل الأشياء. ومن لفظة (لا أدري) اخترع هكسلي قاعدة فلسفية تقول "إننا نفترض أننا نعلم حقيقة الأشياء ولكننا فعلاً نحن لا نعلمها"[232].

لا تعني نظرية "اللاأدرية" التهرب من مواجهة الحقائق والبوح بالقناعات الضمنية فقط، وإنما هي إشكالية مستقبلية لكونها تشكل ذلك الباب الكبير المفتوح على المعرفة المتواصلة (علم الإنسان) التي لا تتوقف ولا تنتهي آنيًّا بالاكتشافات والاختراعات. فاليوم "لا ندري" وربما غدًا "ندري". وبهذا المنطق الفلسفي نجح هكسلي في ترك باب العلوم مفتوحًا على كل الاحتمالات، وفي الآن نفسه استطاع الدفاع عن نظرية صديقه بشأن التطور ومنظومة النشوء والارتقاء والانتخاب الطبيعي.

لم تتحول نظرية داروين عن الانتخاب الطبيعي وفلسفة الارتقاء والتوالد (التكاثر) والتناحر التلقائي على البقاء وأخيرًا البقاء للأصلح (الاختيار وبقاء النخبة المختارة) بداية إلى مشكلة سياسية لأنها أساسًا قراءة منهجية علمية في ماضي الإنسان وتطوره الطبيعي من محطة إلى أخرى. بدأت المشكلة حين استخدمت النظرية في دراسات علم الاجتماع، إذ أخذ أنصار داروين (الدارونية الجديدة) في أوروبا بتطويرها وإدخال عناصر غير علمية فيها، ما أدى إلى تحويلها إلى قناة لفرز البشر بين شعوب منحطة وأخرى راقية وأعراق متفوقة وأخرى غير صالحة للبقاء[233].

أطلق لاحقًا على هذه الفلسفة التفوقية "الداروينية الاجتماعية" وهي نظرية قال بها أحد أتباع داروين، وهو عالم الأحياء الألماني إرنست هيكيل (1834-1919) حين كان أستاذًا في جامعة فيينا. دافع هذا العالم الأحيائي عن اكتشاف داروين وأعاد تطبيقه على الاجتماع البشري ما دفعه إلى تطوير المفهوم عن الانتخاب الطبيعي (الاختيار، الانتقاء) على طبقات البشر ودرجات الشعوب، مؤكدًا مسألة تكيف الأجهزة العضوية مع البيئة وتأثرها التطوري باختلاف الطبيعة والمناخ. فالانتخاب (المادية التطورية التلقائية) تحوّل لاحقًا من فرضية علمية طبيعية عن تاريخ الإنسان البيولوجي إلى نظرية سياسية تُعتمد مختبريًّا للتمييز بين أجناس الأعراق وألوانها ودرجاتها واختلاف أشكال الجماجم، ما

ساهم في انحرافها وتحوّلها إلى عامل للفرز ومحطة من محطات التطور العضوي الاجتماعي (البشري) لتقسيم الناس إلى صالح وغير صالح. وأدى هذا الانحراف النظري في التعامل المختبري مع البشر إلى تبرير نهوض فلسفات عرقية تصنّف الإنسان وتضعه على مراتب متفاوتة في نموها وتقدمها ما ساهم في تأسيس مدارس عنصرية تشجع على القتل والإبادة والمحارق للتخلص من "الأدنى" لمصلحة الأرقى و"الأعلى" ما دفع الكثير من علماء الاجتماع إلى الرد عليها[234].

أبرز من نقد مدرسة العرق والتاريخ لاحقًا كان كلود ليفي شتراوس الذي أطاح بمسألة "تفاوت الأعراق البشرية" التي برزت في كتابات غوبينو وغيره، وأعاد شتراوس صوغ النظرية العرقية بطريقة عكسية مبينًا خطأ الخلط بين "بيولوجية العرق" و"النتاج الاجتماعي والنفساني للثقافات الإنسانية"، إذ إن "تنوع الثقافات الإنسانية يجب ألا يتم إدراكه على نحو ساكن"، لأن المجتمعات البشرية "ليست وحيدة. وعندما تبدو في أقصى درجات الانفصال فإن ذلك يأخذ أيضًا شكل الكتل أو المجموعات". وينتقد شتراوس في كتابه عن "العرق والتاريخ" استخدام "الحضارة الغربية" لفظ متوحش أو بربري ويرى "أن البربري (أو المتوحش) هو قبل كل شيء، الإنسان الذي يعتقد بوجود البربرية (أو التوحش)". ويعترف بأن "فكرة الإنسانية التي تشمل، من دون تمييز في العرق والحضارة، كل أشكال النوع البشري لم تظهر سوى متأخرة جدًا ولم تعرف إلا انتشارًا محدودًا"، على رغم أن الإنسان "لا يحقق طبيعته في إنسانية مجردة"، بل إن إنسانيته تعبّر عن نفسها "عبر وضعية محددة بدقة في الزمان والمكان". فنحن "لا نعرف من الحضارات الغابرة سوى بعض الجوانب" وكل "هذه الغوامض تبرهن على وجود تشابه ما بين المجتمعات القديمة"، ووراء "كل المجتمعات الإنسانية ماضٍ هو بالدرجة نفسها من العظمة تقريبًا". ويميز شتراوس بين تاريخين للبشر فهناك تاريخ اكتسابي (يكدس) وهناك تاريخ تنقصه موهبة التركيب. ويفرق أيضًا بين ما يسميه "التاريخ الساكن" و"التاريخ التجميعي". وحتى لا يسقط بدوره في نظرية عرقية عن التاريخ يستدرك شتراوس ويقول "إن هذا التاريخ التجميعي ليس امتيازًا لحضارة ما أو لحقبة من التاريخ". والتمييز بين "ثقافات تتحرك" و"ثقافات لا تتحرك" لا يفسر على أساس أنه يعود إلى "خصائص ذاتية"، وإنما نتيجة "الوضع الذي نوجد فيه بالنسبة إليها" واختلاف نظرة المراقب (الباحث) لها أو فيها، الأمر الذي يؤدي إلى "تصنيفات مختلفة"[235].

اختلطت في ذلك الزمن الكثير من الآراء المتعارضة في ذهن "النخبة" الأوروبية بسبب تداخل فوضى درجات النمو مع تحوّلات في مختلف حقول العلوم الإنسانية والسياسية والاقتصادية

والمختبرية (البيولوجية). وجاء التضارب ليعكس طبيعة التطور الذي كانت تعيشه القارة من دون انتباه يذكر لتلك المتغيرات التي كانت تشهدها أميركا في الضفة الغربية من المحيط الأطلسي.

الوحيد من المفكّرين الذي لاحظ ذاك الاختلاف كان دوتوكفيل الذي زار الولايات المتحدة في ثلاثينات القرن التاسع عشر، بينما كونت لم يلحظ ذاك الافتراق إلا بحدود معيّنة كذلك ماركس. لذلك تركّزت أبحاث الفلاسفة على الداخل الأوروبي ودعت إلى الإصلاح إلى أن جاء ماركس ودعا إلى التغيير.

الماركسية، تغيير العالم لا تفسيره

قبل أن تصل أوروبا إلى هذا الطور من الوعي (الذي كشف شتراوس ثغراته لاحقًا) في إدراك التفوق وما أنتجه من تعارض بين القوة وانفجارها الذاتي، مرت القارة بمحطات كان لا بد من أن تجتازها حتى تصل إلى مستوى غير قادر على ضبط التوازن الداخلي تحت سقف السلم الأهلي. آنذاك في مطلع القرن التاسع عشر بدأ استخدام أدوات الصناعة في الزراعة، ما أحدث فائضًا في الإنتاج الغذائي، الأمر الذي ساعد في نمو دور طبقة ملاك الأرض الكبار (النبلاء) وتعزيز تأثيرهم السياسي في الحكومات.

واجهت ألمانيا في تلك الحقبة أزمة مزدوجة، بسبب نمو التعارض بين قوة رأسمالية صاعدة تضغط في اتجاه نهوض دولة مركزية توحد السوق القومية وتمنع الكنيسة (المتحالفة مع النبلاء) من التدخل في شؤون السياسة والإدارة وبين طبقة نبلاء تريد توظيف فائض الإنتاج الغذائي في إطار قنوات تجارية تقليدية تحافظ على ضوابط موروثة عن شبكات يشرف الإكليروس على إعادة توزيعها.

ساعد هذا التعارض بين القوتين (الحديثة والقديمة) في تعطيل نهوض دولة ألمانية مركزية وتأخير الوحدة القومية (السوق) ما أعطى ذلك المجال الحيوي لنهوض اتجاهات فلسفية متضاربة في توجهاتها الأيديولوجية في حقبة زمنية قصيرة. يفسّر التعارض المذكور لماذا شهدت ألمانيا (المحطمة آنذاك) طفرة فلسفية انعكست توجهاتها الأيديولوجية على النخبة السياسية وأفكارها.

في تلك المرحلة ظهر، كما قلنا، شوبنهور الذي زاوج بين العنف والقناعات الدينية، وأيضًا هيغل الذي ربط بين العقلانية ونزعة محافظة. كان هيغل يتابع الأخبار يوميًّا ويقرأ المشكلات (مدير تحرير صحيفة في 1807-1808) التي تعطل الوحدة وتعترض الدولة القومية. فهو أيّد توحيد ألمانيا منذ

العام 1802 ومدح أفكار ميكافيلي بشأن الدولة المركزية وبصفتها "مجموعة بشرية اتحدت من أجل الدفاع المشترك عن مجموع مصالحها". ولاقى هيغل، الذي أيّد الوحدة وحرص على الدفاع عن الجيش في صيانة الدولة القومية، الإعجاب من التيار القومي الألماني الطامح نحو توحيد السوق من طريق القوة. وفكرة القوة التي فلسفها هيغل في اعتبار أنه "لا يحقق الحق سوى القوة" تجاوبت نسبيًّا مع رغبات فيخته وعواطفه القومية وخطاباته الحماسية للأمة الألمانية.

تشكلت كل هذه الاتجاهات الأيديولوجية الدينية والقومية والاجتماعية في تيارات سياسية لاحقًا وبدأت تضغط على الدولة البروسية من مواقع متخالفة فلسفيًا. فالفلسفة في معنى من معانيها الهيغلية ليست مثالية وخارج الزمن ومشكلات العصر وإنما هي "فهم ما هو قائم". وهذا الفهم لما هو قائم أنتج مسارات أيديولوجية متشعبة في القراءة والمنهج والرؤية. فيخته وشوبنهور تركا تأثيرهما في صوغ أفكار داروين ونيتشه. هيغل وفيورباخ ساهما مباشرة في تقديم الخامات الفكرية لإنتاج الماركسية لاحقًا.

في هذا السياق الألماني المتأخر زمنيًّا في تحقيق الوحدة القومية - والمضطرب في النمو الاجتماعي بسبب تعارض مصالح اقتصادية حديثة (الصناعة) مع قوة تقليدية استخدمت الآلات لتطوير الإنتاج الزراعي وبين قوة غير مرئية تمثلت في النمو السكاني- بدأت بروسيا تشهد تجاذبات عنيفة تقارب ما حصل في إنكلترا بين القرنين السادس عشر والسابع عشر وفي فرنسا بين القرنين السابع عشر والثامن عشر. فاللحظة الألمانية بدأت تقترب وتنضج زمنيًّا وصولاً إلى القرن التاسع عشر، ما أدى إلى مواجهات عمالية «طبقية» لاحقًا تأسست في ضوء تداعياتها طفرة فكرية قادتها «نخبة مختارة» ساهمت في إنتاج ما يسمى بالأيديولوجيا الألمانية[236].

في هذا الفضاء المضطرب والمتغير ولد كارل ماركس في تريير ف في 1818 في أسرة تهتم بالعلم تحوّلت حديثًا إلى المذهب البروتستانتي. أنهى ماركس دراسته الثانوية في 1835 وتوجه إلى بون ثم إلى جامعة برلين. وهناك تأثر بأفكار التيار الهيغلي اليساري وبدأ يتشبع بفلسفة هيغل الجدلية التاريخية. واستمر على نمطه المذكور إلى أن تخرج حاملاً شهادة دكتوراه في الفلسفة. ويعطي عنوان الأطروحة، الفرق في فلسفة الطبيعة بين ديموقريطس وأبيقور، فكرة عن توجهات ماركس السجالية في فترة شبابه. فالأطروحة التي صاغها في العام 1841 (23 سنة) تتحدث عن الاختلاف الفلسفي بين ديموقريطس وأبيقور، ما يشير إلى بداية اكتشاف لخطوط تماس فكرية متخالفة كانت تعاني منها "النخبة

الألمانية"، وانشطرت بسببها إلى مسارات توزعت بين أفلاطون وأرسطو من جانب والرواقية والأبيقورية من جانب آخر.

اختار ماركس بعد تخرجه في الجامعة مهنة الصحافة لتأمين عيشه ولم يتوجه إلى توظيف شهادته للحصول على موقع أكاديمي في كلية الفلسفة. واختياره لهذه المهنة الشاقة كان موفقًا لأنها تلبي حاجته لمتابعة الأخبار وملاحقة التطورات يوميًّا من دون أن يضطر إلى مغادرة اهتماماته الأخرى. قرر ماركس آنذاك الانخراط في المجال السياسي، فعمد إلى تحويل الصحيفة التي يرأس تحريرها إلى منبر للدفاع عن أفكار ما أطلق عليه التيار "الديموقراطي الثوري". وبدأ من موقعه المهني يرفد الفضاءات السياسية بالخبر اليومي والمتابعة الدؤوبة للحوادث التي تعصف بألمانيا والقارة الأوروبية[237].

الربط بين المجال السياسي والعمل الصحافي لم يمنع ماركس من متابعة مجاله الفلسفي والدخول في سجالات عنيفة مع أتباع هيغل. آنذاك بدأ ماركس يطالع كتب "الاقتصاد السياسي" وقرأ كتابات فيورباخ وفلسفته الطبيعية التي بدأت هيغلية مثالية وانقلبت إلى مادية ملحدة. وهكذا قرر في العام 1844 الانتقال إلى المذهب المادي فلسفيًّا وتأييد الشيوعيين متأثرًا بالانتفاضات العمالية التي اندلعت في ألمانيا وغيرها.

تحمس ماركس الشاب إلى أفكار المنظمات اليسارية وأخذ بتوظيف مهنته لخدمة تلك الاتجاهات العنيفة والمتطرفة ما دفع السلطة إلى إغلاق صحيفته الثورية فاضطر إلى الانتقال إلى باريس في العام 1844 ليبدأ من هناك بمساجلة الاشتراكية المثالية وفلسفة هيغل[238](93).

سيحصل في باريس تحوّل كبير في حياة ماركس الشخصية تمثل في لقاء صديقه الوفي فريدرك إنغلز وبناء صداقة مثمرة ستستمر نحو أربعة عقود. إنغلز الذي ولد في 1820 في بارمن (ألمانيا) لا يختلف كثيرًا في آرائه عن آراء ماركس وتوجهاته الفلسفية والسياسية. فهو اضطر في شبابه إلى الخدمة العسكرية (تجنيد إجباري) في برلين ودخل الجامعة واستمع إلى محاضرات فلسفية، لكنه لم يتابع دراساته الأكاديمية بسبب انشغاله بالسياسة وحماسته للانتفاضات العمالية[239].

انضم إنغلز في بداية نشاطه إلى الجناح اليساري لتيار الهيغليين الشبان لكنه انقلب عليه وبدأ يناقش مثالية هيغل، وانتقد شلنغ واتهمه بالصوفية في كتاب صدر في 1842. غادر إنغلز ألمانيا

اضطرارًا إلى إنكلترا رافضًا دراسة التجارة كما أراد والده. وهناك أقام في مانشستر (أهم مدينة صناعية أوروبية في تلك الأيام) واشتغل في شركة تجارية ما وفر له فرصة الاطلاع على ظروف الطبقة العاملة في إنكلترا (أصدر كتابًا عنها في 1845) إضافة إلى متابعة قراءة كتب "الاقتصاد السياسي" الأمر الذي شجعه على كتابة رد عليها في العام 1844 ينتقد فيه أفكار ذاك الحقل الجديد في التفكير السياسي الاقتصادي. قرأ ماركس الكتاب وأُعجب به ما كان فاتحة تعارف بين الشابين حين انتقل إنغلز إلى باريس وبدأ حياته المشتركة مع صديق عمره، ولم تتوقف الصداقة حتى رحيل ماركس في 1883.

خلال هذه الفترة (39 سنة) سيبدأ الثنائي في تطوير الفلسفة الماركسية انطلاقًا من السجال النظري (كتب الردود) والمتابعة اليومية للأخبار اعتمادًا على المهنة (مراسل صحافي) والانخراط الميداني الدائم في النشاط السياسي. أعطى الربط العملي بين الفكر (التنظير الفلسفي) والمهنة (ملاحقة التطورات والطوارئ) والنشاط السياسي (المنظمات والهيئات والنقابات) حيوية خاصة لسجالات الثنائي الماركسي[240].

هذه الميزة لم تتوافر مثلاً لكانط الذي اتصفت حياته بالأكاديمية والركود والانزواء في البيت والانطواء على الذات للتأمل والتفكير في الكون والزمن والعقل والوجود. هيغل مارس العمل الصحافي فترة محدودة (مدير تحرير) تابع خلالها الحوادث والتطورات والأنباء يوميًا. وحين غادر عمله اضطر إلى العودة إلى القطاع التعليمي وإلقاء محاضراته الجامعية لكنه استمر في ملاحقة الأخبار والانجراف نحو يوميات خاصة اتسمت باللهو وحفلات السمر الليلية المعطوفة على اهتماماته الأكاديمية ومتابعته للمستجدات السياسية والاكتشافات والاختراعات.

نجح الثنائي ماركس - إنغلز باكرًا في الجمع بين الفكر العام (الفلسفة) والممارسة التي تمثلت في المتابعة اليومية (الصحافة والسياسة) ما أدى إلى إنتاج مجموعة كتب نظرية ترد على فلاسفة العصر وتساجل مناهجهم إلى جانب تأليف سلسلة بحوث تعالج حوادث القارة وتحولاتها العنيفة ومتغيراتها العلمية والمعرفية والاقتصادية.

بسبب هذا النشاط المفتوح على قضايا اللحظة الألمانية - الأوروبية أعلن الثنائي باكرًا أن وظيفة الفلسفة تبدّلت، فهي سابقًا كانت تفسر العالم وإنما الآن فهي تطمح إلى تغييره. شكّل انتقال وظيفة الفلسفة

من التفسير إلى التغيير خطوة انعطافية في مسارات وعي الثنائي ودوره اللاحق في صناعة الحدث والتأثير فيه[241](96).

جاءت فلسفة التغيير التي قال بها الثنائي في سياق الرد على فوضى الإنتاج وعدم القدرة على تلبية حاجات النمو السكاني، وهي تطورت زمنيًّا من محطة التفسير إلى محطة الإصلاح أو إعادة التنظيم العقلاني (مدرسة كونت) وصولاً إلى ظهور حالات عنف أخذت تنتقل من مدينة إلى أخرى.

في هذا الإطار يمكن رصد ثلاث مراحل طرأت على تطور الفكر الماركسي: الأولى حقبة الشباب وانتهت في العام 1848 حين أشرف الثنائي على كتابة "البيان الشيوعي" وتبلورت فيه الخطوط العريضة للفلسفة. الثانية حقبة الكهولة انتهت في 1871 مع "كومونة باريس" حين استكمل الثنائي صوغ فكرة التغيير في سياقات واضحة في منهجيتها وأهدافها الكبرى وتراتبها الزمني - الاجتماعي. الثالثة بدأت في حقبة الشيخوخة وترافقت مع تداعيات الموجة الثالثة من الثورة الصناعية التي انفجرت في العام 1870 وتواصلت إلى أن اندلعت الحرب العالمية الأولى في 1914.

عاصر الثنائي الموجة الثانية وعايش كل تفاعلاتها وديناميكياتها بين 1820 و1870، وشاهد مقدمات الموجة الثالثة وتعرّف إلى قوانينها حين اشتغل على استقراء وتفكيك شبكاتها وبناها الفوقية والتحتية في الكتابات المتأخرة التي اتسمت بالنضج والروية. آنذاك كانت الماركسية اشتهرت وازدهرت وانتشرت وترجمت إلى لغات أوروبية مختلفة بسبب الجهود الاستثنائية التي بذلت خلال فترة النشاط السياسي - الحزبـي التي امتدت أربعة عقود من الزمن.

تعتبر المراحل التطورية التي مرت بها الماركسية عادية بمقاييس حقبة متقلبة وتحولات متنقلة. إلا أن الأساس في جوهر الفكرة الفلسفية لم يتغير كثيرًا بعد العام 1848 باعتبار أن مصادر الماركسية تشكلت تاريخيًّا من ثلاثة روافد: الفلسفة الألمانية، الاقتصاد السياسي الإنكليزي، والمثالية الاشتراكية الفرنسية. وتحوّلت الروافد الثلاثة التي تفاعلت ميدانيًّا في فلسفة الثنائي إلى حركة تغيير سياسية تمظهرت في النشاط العملي من جهة والمؤلفات النقدية التي تابعت بدقة حوادث العصر وأرخت لكل تلك الانتفاضات العمالية التي شهدتها ساحات أوروبا وتحديدًا فرنسا وألمانيا[242].

حين التقى ماركس صديقه إنغلز لم يكن قد اكتشف بعد موقع الطبقة العاملة (البروليتاريا قاطرة التحوّل التاريخي) ودورها القيادي من خلال رؤية كونية دعت إلى وحدة العمال العالمية (يا عمال العالم

اتحدوا) في مواجهة الرأسمالية العالمية. هذه الفكرة الثورية (التغييرية) تأخرت إلى حين صدور "البيان الشيوعي".

قبل هذه الحقبة اشتغل الثنائي على تصفية الحساب مع الفلسفة الألمانية التي عرفت في تلك الفترة العاصفة شهرة أعطتها قوة مهيمنة على التفكير الأوروبي. ووجد الثنائي أن هناك مهمة تاريخية تبدأ بتطويق تلك الأيديولوجية والحد من مخاطرها التي بدأت تتمظهر في تيارات سياسية مسيحية - ديموقراطية، مسيحية - اشتراكية، ومسيحية - قومية، وأحيانًا ديموقراطية - اشتراكية، ديموقراطية - قومية، وقومية - اشتراكية. وشكّل هذا التمظهر الأيديولوجي تحدّيًا للأحزاب الاشتراكية العمالية والمنظمات الشيوعية ما اقتضى من الثنائي بذل الجهود النظرية لمواجهة الفلسفة الألمانية والرد عليها[243].

بسبب تركيز المهمة على هذه النقطة الرئيسية بدأ الثنائي يعمل على إنهاء الاتصال النظري مع ذاك الكم الهائل من المنتوجات الفلسفية من خلال إصدار مجموعة ردود أخذت بالظهور منذ العام 1844. قام ماركس أولاً بنقد "فلسفة الحقوق عند هيغل"، وبدأ العمل ثانيًا مع رفيقه إنغلز على كتاب "العائلة المقدسة" الذي عُرف بنقد النقد النقدي، وتضمن سجالات عنيفة ضد الأخوين باور واتباعهما وعرضا فيه تاريخ الفلسفة (النزعة المادية في بريطانيا وفرنسا) وبلورا المفهوم المادي للتاريخ (العلاقات الاجتماعية للإنتاج) وأكدا دور البروليتاريا (حفارة قبر الرأسمالية). بعدها انتقل الثنائي إلى فيورباخ وانتقد أطروحته عن المادية الميكانيكية (التلقائية) مركزًا على قوانين المادية الديالكتيكية، وناقش آراء الماديين الإنكليز والفرنسيين في القرنين السابع عشر والثامن عشر وانتقد هيوم وكانط، ثم اشتغل على "الأيديولوجية الألمانية" ودخل في سجالات مع الهيغلية ومادية فيورباخ وقصورها عن الفهم المادي للتاريخ (صلة الوعي الاجتماعي بالوجود الاجتماعي). وأخيرًا رد ماركس على برودون في كتاب "بؤس الفلسفة" الذي صدر في 1847 لينتقل بعده إلى بروكسل وينضم في العام نفسه إلى "عصبة الشيوعيين" مع رفيقه إنغلز الذي كان أنجز وضع مسودة "المبادئ الشيوعية" في العام 1847.

على أساس مسودة إنغلز وضع الثنائي "البيان" في العام 1848، وفيه تبلورت تلك الإشارات عن صراع الطبقات، العنف قابلة التاريخ، ديكتاتورية البروليتاريا (مؤقته)، إلغاء الطبقات في الطور الأعلى من التقدم، إنهاء وظيفة الدولة (اضمحلالها التاريخي). وجاءت هذه الأفكار على قاعدة تبلور

فلسفة التغيير التي توضحت معالمها من خلال تلك السجالات (كتب الردود) ضد الأيديولوجية أو الفلسفة الكلاسيكية الألمانية[244].

بعد هذه المرحلة انتقل الثنائي إلى ممارسة النشاط الحزبي، وبدأ يخوض النضال السياسي في ألمانيا فطرد منها إلى باريس في العام 1849. جاء قرار الطرد بعد فشل الثورة الألمانية، الأمر الذي دفع إنغلز إلى تأليف كتابين سياسيين عن ألمانيا وتجارب الحركة العمالية (الحرب الفلاحية في ألمانيا، الثورة والثورة المضادة في ألمانيا). كذلك صديقه ماركس عمل في فترات لاحقة ومتقطعة على تأليف ثلاثة كتب سياسية عن فرنسا وهي "الصراعات الطبقية في فرنسا" و"لويس بونابرت والثامن عشر من بروميير" وأخيرًا كتابه عن كومونة باريس 1871 الذي حمل عنوان "الحرب الأهلية في فرنسا"[245].

شكلت هذه الكتب السياسية حقبة مهمة في تطور فكر الثنائي الماركسي لأنها جاءت نتاج تجربتين ثريتين الأولى تتصل بالنضال (النشاط الحزبي) والثانية تتعلق بالمهنة وملاحقة الأخبار وتغطية أنباء الحوادث والاضطرابات. أعطت مهنة الصحافة التي مارسها الثنائي حيوية معاصرة للكتابات النظرية والفلسفية والاقتصادية والسجالية لأنها قدّمت مادة يومية خصبة عما يحصل في العالم آنذاك. فالكتابات الصحافية لماركس لاحقت أيضًا أخبار وحوادث لبنان (الحرب الأهلية في 1860) والجزائر (الاستعمار الفرنسي) والهند (الاستعمار البريطاني) والولايات المتحدة والصين وروسيا. البلد الأخير سيتحوّل لاحقًا إلى أهم مستهلك لكتب الثنائي الماركسي على رغم ما صدر عنه مرارًا من مخاوف تحذر من خطر روسيا (بوصفها قلعة الفلاحين والتخلف) على أوروبا (مركز التقدم العالمي) واحتمال تعطيلها للتطور الرأسمالي الجارف لنمط الإنتاج القديم.

لم يتوقف الثنائي عن النشاط الحزبي بعد مغادرته ألمانيا إلى باريس ثم انتقاله إلى لندن في العصر الفكتوري (المدينة المستقرة والمنفتحة) للعمل على استكمال مشروع الثورة (التغيير) الذي لم يحصل خلال فترة حياته اللاحقة. لكن الثنائي تابع من هناك العمل على تطوير مخطوطات "نقد الاقتصاد السياسي" في العام 1859، ودعا إلى تأسيس "الأممية الأولى" في 1864 لتشكل ذاك الإطار الجامع لكل الأحزاب والمنظمات والحركات العمالية والشيوعية والاشتراكية العلمية في أوروبا والعالم. إلا أن الدعوة اقتصرت على الرغبة والأمنية، إذ استمرت الانشطارات السياسية وصولاً إلى كومونة باريس والفوضى[246].

كانت لندن في عهد الملكة فكتوريا المحطة الأخيرة في حياة الثنائي، إذ تابع وكتب عن المؤتمرات الحزبية و"الانتفاضات الطبقية" في فرنسا وألمانيا وغيرهما بين 1850 و1875 وأصغى باهتمام إلى تلك الأخبار المفرحة التي كانت تأتي من روسيا وتبشر بتحولات ثورية. خلال هذه الفترة الثالثة (من 1871 فصاعدًا) تفرغ ماركس المحبط من فشل الانتفاضات العمالية الأوروبية لمتابعة تأليف كتابه المهم عن "رأس المال" الذي صدر مجلّده الأول في 1867، والثاني والثالث نشرهما إنغلز في العامين 1885 و1894 بعد رحيل صديقه. أما المجلد الرابع فصدر بعد فترة من وفاة إنغلز في 1895.

انتهت مهمة التغيير التي قادها الثنائي إلى الفشل في الدول الصناعية الرأسمالية، لكنها نجحت في البلدان المتخلفة اقتصاديًّا بعد أن عدّل لينين (فلاديمير إيليتش) زواياها الحادة وقام بتكييفها مع ظروف روسيا الفلاحية. ويعود فشل الثنائي، الذي توقع نجاح الثورات في أوروبا، إلى قصور في النظرية التي تأسست كتاباتها الأولى على قاعدة الردود وانتهت إلى حسم مجموعة قوانين عن المادية التاريخية (محطات التطور الاجتماعي) والمادية الجدلية (تعارض قوى الإنتاج مع علاقات الإنتاج) والصراع الطبقي وقيادة الطبقة العاملة للتحوّل واضمحلال الدولة (إلغاء الطبقات) والدخول في عصر الشيوعية.

كان هذا التحقيب النظري نتاج تداعيات الموجة الثانية من الثورة الصناعية التي ولّدت اضطرابات عنيفة في ألمانيا وفرنسا وانتهت في العام 1871 لتبدأ معها الموجة الثالثة التي عاصر الثنائي بداياتها الأولى في العهد الفكتوري وأنتج خلالها أفضل الكتب (رأس المال، ونقد برنامج غوتا لماركس) و(ضد دوهرينغ، وأصل العائلة والملكية الخاصة والدولة لإنغلز)[247].

كانت المرحلة الثالثة من الكتابات ناضجة، لكنها فشلت في توضيح ملابسات نظرية تلامس ثوابت المبدأ الديالكتيكي الاجتماعي للثنائي. ماركس وإنغلز قررا أن التناقض بين الرأسمالية والبروليتاريا من الثوابت التاريخية التي لا تتغير، بينما الجدل (وحدة التناقض) أدى تاريخيًّا إلى متغيرات في منظومة الرأسمالية نفسها، إذ تطورت وتبدلت وتحوّلت وظائفها بين القرن الثامن عشر والقرن العشرين. والطبقة العاملة دخلت أيضًا في حالات متخالفة وتقدمت اجتماعيًّا خلال القرون الثلاثة. كذلك شاب فكرة "الحزب القائد" بعض التعديل بسبب نمو موقع الطبقة الوسطى في أوروبا وظهور تأثيرها السياسي في تشكيل أحزاب إصلاحية (اشتراكية - ديموقراطية) تقول بالمصالحة

والتطور (لا الثورة) وترفض العنف وتؤمن بمبدأ التحول المنظم (القانوني) المتدرج. والأمر نفسه ينطبق على الدولة ومهماتها التاريخية. فالدولة أيضًا ليست ثابته (أداة طبقية للقمع والقهر كما قال الثنائي) إلى النهاية وخارج الزمن، فهي نجحت لاحقًا في تعديل وظائفها وتوسيع نشاطاتها وتحسين المستوى المعيشي والصحي والتربوي للناس (دولة الرفاه) والدخول في العملية الاقتصادية كهيئة تراقب أو تشارك في وضع البرامج التنموية والتحديثية والدفاعية[248].

تأسس هذا التناقض الذاتي في قراءة الماركسية لفلسفة التغيير على تلك النزعة الأيديولوجية التي تحكمت بالثنائي بين 1848 و1871 ودفعته إلى المراهنة والمغامرة واستباق الزمن والتسرّع في إسقاط أحلام وردية بشأن اقتراب لحظة الثورة وبدء البروليتاريا ممارسة "ديكتاتوريتها" لتنهي في عهدها القصير عصر استلاب الآلة للإنسان (الاغتراب على النسق الماركسي) واستغلال الإنسان للإنسان. الحلم الوردي المذكور لم يتحقق في عصر ماركس/إنغلز ويرجح ألا يتحقق في كل العصور[249].

5
العنصرية، جنون العظمة والانتحار الذاتي

طفرة التقدم تعزز التفاؤل والخوف

جاءت الأحلام الوردية (تحقيق المجتمع الفاضل) التي دفعت الثنائي الماركسي إلى توقع التغيير السريع، وبالتالي الانزلاق نحو نوع من "المثالية المادية" والمراهنة على اضمحلال التناقضات (إلغاء الطبقات والصراع الطبقي) وغياب تدرجي للدولة عن مسرح التاريخ، بناءً على ذلك التفاؤل العقلاني الذي اجتاح القارة بسبب الآمال التي تأسست على الاكتشافات والاختراعات والتقنيات وما أثارته من وعود أخذت بهيكلة العلاقات البشرية على قاعدة متطورة (واعية) في التنظيم.

آنذاك تحوّلت جامعات أوروبا ومعاهدها وأكاديمياتها في إيطاليا وفرنسا وبريطانيا وألمانيا إلى منارات تجذب النخب من دول العالم. ومنذ مطلع عشرينات القرن التاسع عشر أخذت تركيا ومصر بإرسال بعثات التعليم والتدريب للدراسة والاطلاع والترجمة والتعرف على المنجزات والاختراعات والتقنيات الآلية والعسكرية والمهنية والحرفية والصناعية والزراعية الحديثة التي أنتجتها القارة أو توصلت إليها (بعثة رفاعة الطهطاوي في عهد محمد علي باشا مثلاً)250.

بنى الثنائي الماركسي أحلامه الوردية على مشاهدات عينية وتحولات ملموسة يرى نتائجها في مختلف قطاعات الاتصالات والمواصلات وحقول الإنتاج والمعرفة والاختراعات النوعية في مجالات الطاقة وتفرعاتها الآلية والاجتماعية. وشكلت هذه المنجزات الاستثنائية في زمن قياسي من التطور النوعي حوافز شجعت النخبة الأوروبية على المبالغة في التوقعات والمراهنة على المستقبل والخروج السريع من تداعيات الفوضى التي أطلقتها الثورة الصناعية في موجاتها المتتالية الثلاث.

أوروبا لم تكن بعيدة عن الحلم. فالوقائع اليومية والأخبار المتناقلة والأنباء التي كانت تنشرها الصحف عن اختراعات واكتشافات وإنجازات علمية وتقنية رفعت من نسبة التفاؤل وحثت النخبة على المسارعة بالتبشير بوجود خشبة خلاص للعالم، تنقله من عصور الظلمة إلى مستقبل تنويري باهر، تعمه السعادة التي أخذت تشع لا من الكتب والأفكار فقط وإنما أيضًا من التطور العمراني الذي بدأ نطاقه بالاتساع. آنذاك كان الأميركي إدوين دراك قد اكتشف النفط في العام 1859 وبدأ الكلام عن وجود طاقة بديلة للفحم الحجري وكافة مشتقات الخامات البدائية التي تستخدم في الوقود وتحريك الآلات والمصانع.

شكل اكتشاف دور مادة النفط في النصف الثاني من القرن التاسع عشر قفزة نوعية في تطور الطاقة من الخشب والفحم والبخار إلى قوة بديلة تولد ديناميات حرارية لتأمين المواد للإنتاج أو السلع للاستهلاك. وشجّع تطور مصادر الطاقة على تحديث آلات البخار وتطويرها حتى تكون جاهزة تقنيًّا لاستقبال المادة الحرارية الجديدة. ولم يمضِ الوقت الطويل حتى أقدم النمسوي سيغفرد ماركوس على إعادة هيكلة السيارة وتحديث محركها (احتراق داخلي) يعمل بالبنزين في العام 1875. وشجّع هذا التقدم الذي تحقق الألماني كارل بنز في العام 1885 على إعادة هيكلة محرك السيارة لتعمل بالبنزين وتكون قابلة للتسويق والاستخدام التجاري (المواصلات والنقل).

لم يقتصر التطور في الربع الأخير من القرن التاسع عشر على تنويع مصادر الطاقة وتحديث آلات الإنتاج، وإنما أخذ ينتشر ليشمل مختلف فروع النقل والمواصلات والاتصالات. آنذاك كان الأسكتلندي غراهام بيل قد اخترع الهاتف في العام 1876 ليسهل على الدوائر الرسمية والصحف والمؤسسات الصناعية عمليات الاتصال التي كانت تعتمد على أجهزة التلغراف. إلا أن الاكتشاف المهم الذي سيقلب حياة البشرية حتى أيامنا كان نجاح الأميركي توماس أديسون في تطوير استخدام الكهرباء في العام 1879. فهذه الطاقة المبتكرة نقلت الناس إلى نوع من الرفاهية والتمتع بساعات الليل، وهي أيضًا دفعت الطاقة قفزة نوعية من عالم النار إلى عالم الكهرباء (البطارية، والمصباح) والإضاءة في المنازل والشركات وشوارع المدن. وتشجّع أديسون، الذي حقق هذه الثورة الكبرى في حياة الإنسان، على توسيع وظائف إنجازه (المصباح) واستخدامه لتنوير الطرقات وتركيبه في السيارات للمساعدة على النقل الليلي. وبسبب هذا الطموح نجح أديسون في العام 1883 في وضع أول نظام إضاءة كهربائي في الخدمة المدنية ما ساهم في توفير خطوة للرفاهية الاستهلاكية من جانب والتقدم الصناعي من جانب آخر.

كل هذه الخطوات النوعية في مجالات التقدم ما كان بإمكانها أن تمرّ من دون مراقبة من "النخبة" التي اجتهدت في تدوين ملاحظاتها على مجرى التحولات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والعلمية. فأوروبا خلال أربعة قرون حققت قفزات نوعية لا على مستوى الملاحة البحرية والاكتشافات الفلكية والإصلاح الديني فقط وإنما أيضًا على مستويات الاختراعات في الآلات والتقنيات والطاقة والاتصالات والمواصلات وعلم الأحياء والكيمياء والفيزياء والطبابة.

على صعيد النقل تطورت شبكات سكك الحديد (القطار) وأخذت تسرّع من حركة المواصلات. على صعيد الاتصالات تحسنت شروط نقل المعلومات والأنباء من التلغراف إلى الهاتف. على صعيد الطبابة تطور علم التشريح (والأجنة) بعد اكتشاف المورفين ما ساعد على استخدام العلم وتقنياته في تطوير النظام الصحي ومكافحة الأوبئة، فأقدم العالم الكيميائي الفرنسي لوي باستور (1822-1895) على توظيف علم الأحياء في الطب وتطوير تقنية التلقيح الوقائي. وبدورها أقدمت عالمة الفيزياء البولندية/الفرنسية (1867-1934) على معالجة الأورام بالراديوم (الإشعاعي) حين اكتشفت البولونيوم والراديوم. كذلك انتقلت الطاقة بسرعة من عصر الفحم الحجري والبخار إلى النفط (البنزين). وأنجز هذا التطور في مجموعه آليات عمرانية أثّرت في الحياة الاجتماعية وشجّعت النخبة الأوروبية على التفكر والتفاؤل فأخذت تتحرك ميدانيًّا وفلسفيًّا للتجاوب مع التقدم العلمي وحاجات السوق واتساع المتطلبات الاستهلاكية للناس.

تحقق كل هذا التقدم على قاعدة اكتشاف أو اختراع 15 إنجازًا اتسم بالنوعية القصوى. في القرن الخامس عشر كانت الطباعة، وفي الثامن عشر كانت الآلة البخارية والتلغراف والقطار والسيارة (تعمل بالمحرك البخاري)، وفي القرن التاسع عشر كان المورفين والنفط والهاتف والكهرباء (المصباح) وتحديث محرك السيارة (البنزين) والكاميرا. الكاميرا التي التقطت أول صورة في العام 1826 تطورت آليًّا إلى أن نجح الفرنسي لويس لوميير في اختراع الصور المتحركة (السينما) في العام 1895 ما سيكون له أثره في تغذية مخيلة الإنسان وتطوير حسه الفني في التقاط الجزئيات والمفارقات[251].

كانت الصورة العامة عن مستقبل الإنسان جميلة وباهرة وهي في أبعادها الرمزية أخذت تؤشر إلى وجود شيء ما سيحصل (احتمالات مفتوحة) إذا لم تسارع الدول إلى ضبط الانفلات والفوضى وإعادة تنظيم المجتمع وتأهيله عقلانيًّا (كما كان يريد كونت) أو تغييره (كما كان يريد الثنائي الماركسي). أنتج التطور المتسارع تصوّرات تبالغ في التفاؤل من مردود الابتكارات والإنجازات إلى

جانب ملاحظات كانت تتخوف من الانعكاسات السلبية للتقدم التقني وتداعياته على مختلف المستويات والحقول. فالصورة العامة كانت جميلة وتبهر الأنظار، لكن وراء الستار كانت هناك تحولات مغايرة تدفع الأمور إلى نزاعات ومغامرات تعكس سلبًا تلك الأحلام الوردية وتحولها إلى كوابيس مرعبة. فالتقدم الأوروبـي الذي تحقق في سرعة زمنية قياسية شجع على توليد طموحات هائلة تركزت في إظهار عظمة الإنسان وقوته الذاتية وعزيمة الإرادة التي يتمتع بها[252].

أعطى نمو الذات (التركيز على الفرد) تلك المساحة لظهور نزعات متطرفة في الإلحاد أخذت تلغي "العلة الأولى" وتحصر الأسباب والمسببات في الطبيعة والبشر، وتركّز على العقل والعلم والتجربة والزمن وبالتالي المستقبل لإنقاذ الناس من التخلف والحروب والجوع والمرض وغيرها من مشكلات اجتماعية وكوارث البيئة والزلازل والفيضانات (السيطرة على تقلبات الطبيعة)، وربّما التغلّب على الموت.

دفعت المراهنة على عظمة الإنسان (مركز الكون) التنافس البشري إلى حده الأقصى في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وشجع الدول المتقدمة تقنيًّا على تطوير آلات القتل بغية السيطرة على العالم. آنذاك برزت في ألمانيا ظاهرة الصناعي الفريد كروب (1812-1887) الذي اشتهر في زمنه بأنه صاحب أكبر مصانع التعدين (الفولاذ) التي زودت غالبية دول أوروبا بالسلاح دون اكتراث للاستخدامات المؤلمة أو انتباه لمن تذهب آلات القتل والإبادة[253].

الصورة لم تكن كلها جميلة من مختلف الزوايا. فهناك الهاتف والكهرباء والسينما وتطور النقل والمواصلات (القطار والسيارة) وهناك أيضًا نمو اتجاهات استبدادية ترفض المزاحمة والديمقراطية والليبرالية والحرية وحق الشعوب بالمساواة والرخاء وتطمح إلى السيطرة والتحكم بمصادر الطاقة وثروات البشر بذريعة أن الأقوام "المتخلفة" و"المنحطة" لا تستحقها.

هذه الفضاءات الجميلة والمخيفة في آن، عاصر ماركس بعض جوانبها وعايش إنغلز المزيد من تطوراتها وتفاعلاتها. فالتقدم كان سريعًا ولم يتوقف إلى درجة أثار لدى بعض شرائح النخبة حالات من الجنون ترافقت مع نمو ظاهرة الانتحار خوفًا من مجهولات المستقبل.

كان من الطبيعي والمنطقي أن تترك هذه الطفرة النوعية في عالم التقنيات والاكتشافات والاختراعات تأثيرها على الحياة الاجتماعية للناس وألا تمرّ من دون أن تراكم مجموعة ملاحظات

وتثير عقل النخبة الأوروبية وتحرضه على طلب المزيد، وتشدّه نحو وضع تصورات أو مخططات تعيد توظيف المنجزات واستثمار الاختراقات في إطارات فلسفية جاءت متخالفة وغير متجانسة. فالمشكلة التي أخذت تنمو وتتطور كان لها صلة بأسلوب القراءة ومنهج التفكير وكيفية التعامل مع التقدم والتطور والرقي. وسرّعت هذه المفارقات المتمثلة في عدم توافق الأمزجة النخبوية في ترسيم برامج (أطر تنظيمية) متقابلة تسير في مسارات متوازية أحيانًا ومتضاربة أحيانًا أخرى.

توافق اندفاع النخبة الأوروبية في تصوراتها المتوازية والمتعارضة من محطة اعتبار الأرض مركز الكون إلى الشمس وصولاً إلى الإنسان بوصفه مركز الكون مع التطور التقني - العلمي الذي عزز التفاؤل بشأن التقدم وأعطى دفعة خصبة للمخيلة حين انتقلت من التفكير بمعالم «المدينة الفاضلة» إلى التنظير لعلاقات "المجتمع الفاضل". وأدى هذا الوعي المفارق إلى تطور وظيفة الفلسفة من حقبة التفسير إلى حقبة التنظيم (الإصلاح العقلاني) انتهاءً بظهور ملامح تبشر بالتغيير الشامل.

تأسّست كل هذه المنعطفات المتخيلة على وقائع ميدانية وحقائق ملموسة ولم تتمظهر فكريًّا قبل أن تتشكل تلك الإشارات والعينات على أرض الواقع، وتحديدًا منذ أن نجحت السفينة في نقل أوروبا إلى العالم وعودة العالم إلى أوروبا.

بدأ العصر الحديث يتكون منذ القرن الخامس عشر. وهذه الواقعة يتوافق على توقيتها كل الفلاسفة الذين اهتموا بتدوين التاريخ الأوروبـي وقراءة الزمن في سياقاته التراكمية والتطورية[254].

"محاضرات في تاريخ الفلسفة" هي نصوص محاضرات (رؤوس أقلام) ألقاها هيغل في فترات متقطعة في جامعة هيدلبرغ في العام 1816، وجامعة برلين في 1820، إضافة إلى مداخلات مختلفة ألقيت على الطلبة بين 1823 و1830 يشرح فيها تطور الفلسفة وتعدد أنساقها ومنظوماتها. فالفلسفة برأيه نتاج عصرها وهي تتعدل زمنيًّا بسبب المتغيرات بين حقبة وأخرى. وبما أن الفلسفة برأيه علم الأفكار فهي تتشكل من سلسلة حلقات تاريخية تربط الماضي بالحاضر ما يعني أنها متنوعة ومختلفة. والتنوع لا يلغي وحدة الحقيقة (وحدة الفكر) وإنما يعطيها ذلك الغنى وتلك الحيوية (الحركة والتطور). فالحقيقة واحدة وهي تتشكل تاريخيًّا وفق نسق تطوري يعكس تعاقب تقدم الفكرة في إطار المطلق (الروح الكونية)[255].

يؤكد هيغل ضمن هذا السياق التاريخي - التطوري في محاضراته الفلسفية أن التقدم ظهر في أوقات متخالفة ومتباعدة و"ظهر العلم والفلسفة الحديثان في الحياة الأوروبية، في القرنين الخامس عشر والسادس عشر حينما تقوضت الحياة الوسيطة التي كانت قد تعايشت فيها الديانة المسيحية، الحياة السياسية، الحياة البورجوازية، والحياة الخاصة، تعايشًا متماهيًا"[256].

لذلك برأي هيغل أن لكل فلسفة عصرها، والفلسفة المعاصرة "في جوهرها حصيلة أعمال سابقة". وأن "عصر نهضة العلوم، العصر الحديث في القرنين الخامس عشر والسادس عشر لم يبدأ فقط بدراسة الفلسفات القديمة، بل بدأ أيضًا من الرغبة في تجديدها وإنهاضها". ويستنتج هيغل أن تاريخ الفلسفة هو تاريخ الفكر لأن الفلسفة، لكونها تشتمل على الدين والفن وتشكيل الدولة، ليست سوى الفكر في حركة متصاعدة. وبرأيه أنّ اختلاف المنظومات الفلسفية ناتج عن التطور (الحركة). فالتطور المطلق هو في مسار واحد وحركة واحدة، بينما التطور العيني فهو يتحرك في سلسلة من التشكيلات المتعاقبة (جدلية التنوع) ما يؤدي إلى اختلاف الأنساق والمدارس. وبما أن التطور درجات فإن كل درجة من التطور تكون أغنى، لأن الفكر يشتمل في النتيجة على مختلف اللحظات (الزمنية) في اعتبار أنه "ليس هناك أي فكر لا يتقدم في تطوره"[257].

هكذا يصل هيغل إلى التأكيد على أن الفلسفة "كما هي، فلسفة اليوم، الأخيرة، تشتمل على كل ما أنتجه عمل ألوف السنين؛ إنها نتيجة كل ما سبقها". لذلك "جرى في القرن الخامس عشر، كما في القرن السادس عشر، الرجوع إلى الفلسفات القديمة؛ الأمر الذي كان ضروريًّا في مجرى الحضارة المسيحية". برأيه أن هناك مسيرة تدرجية للعقل، فالفكر يبدأ بالفقر ويأتيه الغنى لاحقًا. وهذا يعني حق التجاوز كما يقتضي المنهج التاريخي (مخطط التحقيب) لأن عصرنا غير عصر أفلاطون وأرسطو، لذلك "كان من الضروري في أثناء نهضة العلوم، التعرف إلى أفلاطون والأفلاطونيين الجدد؛ لكننا لا نستطيع التوقف عند تلك الفلسفات". في اليونان بدأ "عالم الحرية" و"لهذا السبب بدأت الفلسفة هناك" وانتقلت إلى الجرمان. هناك مرحلتان كبيرتان: يونانية وجرمانية. أما الرومان فهم نقطة وصل بين اليونان والجرمان لأن الرومان "لم تكن عندهم فلسفة أصيلة ولا شعر أصيل". أما الفلسفة الحقيقية "الفلسفة الجديدة، الفلسفة الحديثة، بدأت مع ديكارت. هذا هو عمر الفلسفة في أوروبا. وهذا تقسيم تاريخها في مجمله"[258].

الخلاصات النظرية - التاريخية التي توصل إليها هيغل في ملاحقة تطور الفكر (علم الفلسفة) أخذ بها لاحقًا الثنائي ماركس - إنغلز في إطار التحقيب الزمني (المنهج الديالكتيكي للتاريخ) واختلف عنه في قواعد (آليات) التطور وميدانه. ركّز هيغل فلسفته على تاريخ الأفكار (الروح) واتّجه الثنائي الماركسي نحو تأكيد تاريخ الاجتماع/الاقتصاد (علاقات الانتاج). ويعود اختلاف الرؤية إلى اختلاف الزمن. هيغل عاصر بدايات انتشار الثورة الصناعية (الآلة البخارية) بينما الثنائي عاش تفاعلات الموجة الثانية من الثورة الصناعية وامتدادها القاري وتأثيرها على تعديل العلاقات الاجتماعية وصولاً إلى مشاهدة بدايات الموجة الثالثة، وما أفرزته من نمط إنتاجي متقدم في منظوماته السياسية والثقافية وتسارع وتيرته العلمية.

الاختلاف في قراءة التطور وآلياته اقتصر بداية على الوقائع الملموسة، ولم يشمل المنهج أو تعيين الفترة الزمنية التي بدأت فيها النهضة في أوروبا الحديثة. فالثنائي يشير في "البيان الشيوعي" إلى صراع الطبقات (لا صراع الأفكار) ويؤكد أهمية الاكتشافات الجغرافية في إطلاق سراح البورجوازية من الأسر في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، إذ "كان اكتشاف أميركا والطريق البحري حول رأس الرجاء الصالح الذي فتح للبورجوازية الوليدة ميدان عمل جديد. فإن أسواق الهند الشرقية والصين والاستعمار الاستيطاني لأميركا والتجارة مع المستعمرات وتزايد وسائل التبادل والسلع عمومًا، كل هذه دفعت التجارة والملاحة إلى الأمام بقوة لم تكن معروفة إلى ذلك الحين"[259].

لعب هذا التوسع العالمي لاقتصاد أوروبا دوره في تسارع وتيرة انحلال المجتمعات القديمة التي لم تكن مستعدة أو قادرة على تلبية حاجات السوق. وبرأي الثنائي (ماركس/إنغلز) أن "تطور أوروبا وانتقالها من عصر المانيفكتورة إلى عصر الآلة البخارية قاد إلى انقلاب في الإنتاج"، وهذا التحول لم يكن بإمكانه أن يحصل لو لم يتم اكتشاف أميركا والسوق العالمية، إذ "أوجدت الصناعة الكبرى السوق العالمية التي هيأ لها اكتشاف أميركا. وأدت هذه السوق إلى توسع هائل للتجارة والملاحة والمواصلات البرية، ثم أثر هذا التوسع بدوره في اتساع الصناعة"[260].

هذا على المستوى الاقتصادي. أما على المستوى الفكري فقد ربط الثنائي تطور الفلسفة المادية بتطور العلوم. فالعلوم الطبية والفلكية والاختراعات التقنية والاكتشافات أسهمت في تطوير الأفكار وتعديلها ونقلها من المتيافيزيقية (الماورائيات) إلى الميكانيكية (الآلية). وبهذا السياق يرى ماركس/إنغلز أن الفلسفة الحديثة ارتبطت بالعلوم الحديثة إذ "ارتبطت المادية الميكانيكية الفرنسية بفيزياء ديكارت،

بالتعارض مع ميتافيزيقيته. وكان تلامذته معادين للميتافيزيقا أي فيزيائيين. ابتدأت هذه المدرسة مع الطبيب لورواLeroy، ووصلت إلى ذروتها مع الطبيب كاباني Cabanis، وكان الطبيب لامتري Lamettrie محورها (...) لا تزال المادية الديكارتية موجودة حتى الآن في فرنسا. وهي تسجل نجاحاتها الكبرى في علم الطبيعة الآلي"[261].

جاء اختلاف الثنائي الماركسي عن هيغل استتباعًا لتغير ظروف الزمان. والتعارض في تحديد نتائج آليات التطور (الفكر أو الاقتصاد) لا يعني اختلافهما على موضوع التقدم والتوقيت الذي حصل فيه. الطرفان يتفقان على أن القرن الخامس عشر كان بداية أوروبا المعاصرة وبعده أخذت آليات التطور تتشكل في أنساق حديثة تتناسب مع درجة التقدم الاقتصادي وما تقتضيه حاجات السوق ومتطلبات النمو من تسويات.

برأيهما التناقض (انشطار الوحدة) يؤدي إلى التطور. والتطور يؤدي إلى التناقض (الانشطار) في سياق وحدة أرقى (أعلى من السابق) وهكذا يتقدم العالم في خطواته إلى الأمام والأعلى. الدفعة الأولى كانت في القرن الخامس عشر وبدأت مع السفينة (الاكتشافات الجغرافية) وأدت إلى جرف الكثير من هيبة الكنيسة وأيديولوجية المقدسات والمحرمات (انشقاق الكنيسة والحروب الدينية). وجاءت الدفعة الثانية (الآلة البخارية) في القرن الثامن عشر وأخذت تجرف معها تلك البقايا من الموروثات من دون أن تلغي حلقات التواصل في السلسلة التاريخية وما تعنيه من تراكم في العمران والمعرفة. إنغلز مثلاً يؤكد في لغته الاقتصادية أن البورجوازية "التي كانت بادئ ذي بدء فئة إقطاعية قد وصلت بالصناعة الحرفية في الغالب وتبادل المنتجات داخل المجتمع الإقطاعي إلى درجة تطورية رفيعة نسبيًّا، عندما هيأت لها الاكتشافات الكبرى للطرق البحرية في أواخر القرن الخامس عشر أفقًا جديدًا أوسع". بدأ المجتمع الحديث يتشكل بداية في إطار التوسع الجغرافي وما أنتجه من مردود بضاعي (سلعي) وما أعطاه من بعد إنساني (كوني) للمعرفة الأوروبية.

جاءت الدفعة الثانية لاحقًا من الآلة البخارية (تطور علم الميكانيك) وهي برأي إنغلز أقل أهمية في تأثيرها الإنساني/العقلي عن تلك التأثيرات التي أنتجها اكتشاف الإنسان للنار "فإن توليد النار بالاحتكاك هيأ للإنسان لأول مرة السيطرة على قوة معينة من قوى الطبيعة، وبذلك فُصل الإنسان نهائيًّا عن مملكة الحيوان. أما الآلة البخارية فلن تستطيع أبدًا أن تولّد مثل هذه الطفرة الهائلة في تطور

البشرية". ولكن، على الرغم من ذلك، بدأ الإنتاج الرأسمالي الحديث يتقدم ويتوسع بسبب تلك الآلة "الذي غدا سائدًا فقط منذ ظهور الصناعة الكبيرة، أي منذ مئة عام لا غير"[262].

تكشف قراءات هيغل وماركس وإنغلز لجدلية التطور وتاريخيته والاتفاق على توقيت لحظته الزمنية تسارع وتيرة التقدم في حقبة لا تتجاوز القرون الأربعة. فالنهضة التي اجتاحت أوروبا تشكلت في محطات، وانتقلت من البرتغال (لشبونة) وإيطاليا (توسكانا) إلى إسبانيا (عبور الأطلسي) إلى بريطانيا وفرنسا وألمانيا والعالم الجديد (الولايات المتحدة)، وهي نجحت في إعادة تعريف هوية القارة وأخذت في تركيز مواقع قوى بدأت تتنافس آليًّا على زعامة أوروبا وقيادة العالم. وأخذ التزاحم السياسي، الذي بدأ يشتدّ في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ينتج شريحة متمردة من النخبة الأوروبية تبحث عن دور أو مكان في خضم طفرة من الفلاسفة. وترافق ظهور مثل هذه الشريحة الناقمة على رموز التنوير أو الكارهة لتداعيات الحداثة مع نمو قوة صاعدة تأخرت بالالتحاق بركب التقدم لكنها تفوقت حين نجحت في عبور محطاته الزمنية بسرعة قياسية.

التاسع عشر، قرن صعود القوة الألمانية

كانت أوروبا في الربع الأخير من القرن التاسع عشر على موعد مع صعود قوة ألمانيا السياسية. فهذه القوة المضافة جاءت متأخرة زمنيًّا عن بريطانيا وفرنسا، وهي اضطرت إلى تسريع عملية التحديث والتطوير وتوحيد السوق القومية للالتحاق بالقارة التي كانت سبقتها ونجحت في تعزيز ثروتها من خلال توسيع مجالها الجغرافي في المستعمرات والمناطق التي اكتشفتها آخذة بتركيز نفوذها في أميركا الجنوبية وآسيا وأفريقيا.

جاء تأخر ألمانيا لمجموعة أسباب، وجاء أيضًا تقدمها السريع نتاج تآلف مجموعة عوامل. وساهم في الإطارين التأخر الزمني في توليد نزعة "عسكريتاريا" متسارعة النمو دفعت أوروبا لاحقًا إلى الدخول في محطة تاريخية حساسة (سباق التسلح) ما أدى إلى انفجارها الذاتي في مطلع القرن العشرين[263].

شهدت ألمانيا قبل دخولها حلبة التنافس الجغرافي - التاريخي مع القوى الكبرى في القارة (بريطانيا وفرنسا) الكثير من التحولات الصعبة والصراعات المؤلمة. فهي خلال نهوض الحركة الدينية الإصلاحية في غرب أوروبا ووسطها في القرن السادس عشر عَرفت ما يسمى بالحرب الفلاحية

(1524-1525) ونمو انتفاضات شعبية ضد الأمراء واللوردات والإقطاعيين، استمرت لمدة عامين بسبب تحكم الإقطاع (الممالك الصغيرة) ورفض تلك الشريحة من الملاكين التجاوب مع الحركة الإصلاحية التي تأثرت بأفكار مارتن لوثر ونقده الحاد للكنيسة الكاثوليكية. جاءت الثورة الفلاحية في سياق حركة إصلاحية لعب الدين دوره الرئيس في تحريك الناس ضد تحالف الكنيسة مع الأرستقراطية. وخلال حرب الثلاثين عامًا (1618-1648) في القرن السابع عشر عانت الولايات الألمانية (الممالك الإقطاعية) الكثير من ويلات الخراب والدمار لأن تلك الحرب الأوروبية، التي نشبت بسبب التنافس الكاثوليكي - البروتستنتاتي، انتشرت على أرضها وتعرضت خيراتها للنهب ولم تتوقف تداعياتها إلا بعد توقيع صلح ويستفاليا الذي قضى باستمرار تجزئة ألمانيا سياسيًا.

آنذاك كانت بريطانيا قطعت شوطًا في التقدم وقادت أوروبا إلى تحولات تاريخية تمثلت في منعطفات نوعية سياسية وفكرية واكتشافيه تتوجت بتلك الثورة الدستورية التي أعقبت الحرب الأهلية في القرن السابع عشر. كذلك كانت فرنسا دخلت بدورها على خط التنافس ونجحت في تكوين نخبة مستقلة أخذت تنّظر للتغيير وتشجّع على التقدم التقني والتحول الدستوري ما أفضى لاحقًا إلى تفجير ثورة رفعت شعارات الأخوة والمساواة في نهاية القرن الثامن عشر[264].

أخذت كل هذه المتغيرات الأوروبية تنعكس على الساحة الألمانية المنقسمة على مراكز قوى (ممالك) ما أدى إلى نمو نخبة من خارج القنوات التقليدية للشريحة السياسية التي تقود البلاد. فالنخبة المذكورة استلهمت الكثير من أفكارها التجديدية من التجربة البريطانية الدستورية والثورة الفرنسية وبدأت تنّظر فلسفيًّا للحرية والعدالة والمساواة وتطالب بتوحيد ألمانيا وتصنيعها ودفعها في مجال التقدم التقني إلى الأمام[265].

أصيبت دعوات النخبة الألمانية (كانط، فيخته وهيغل وغيرهم) بضربة سياسية حين اجتاح نابليون أوروبا وخاض معركة أوسترليتس في العام 1805 في مواجهة تحالف القوات الروسية - النمسوية وانتصر فيها، ثم عاد ليخوض معركة يينا ضد الجيش البروسي في 1806 التي انتهت باستسلام بروسيا لفرنسا بعد دحر جيشها وإلحاق خسائر كبيرة بممالكها.

أحدثت الضربة البونابرتية ردة فعل سلبية في جوانب من الشرائح النخبوية (فيخته مثالاً) وشجعت على نمو تيار قومي يبالغ في التركيز على أهمية الوحدة السياسية الذاتية وتغليبها على العوامل الموضوعية الأخرى. فالنداءات التي وجهها فيخته في خطاباته القومية تشددت في تضخيم "الإرادة"

ودورها في صنع التاريخ. وشكّلت هذه النزعة الإرادوية أحد أوجه الانقسام في تطور النخبة الألمانية ما أدى لاحقًا إلى توليد رؤية شوفينية متطرفة في التعالي على الأعراق والجماعات الأهلية الأوروبية الأخرى[266].

كان هذا النمو الشوفيني بحاجة إلى ذرائع، كذلك إلى ظروف ومعطيات تسمح له بالتقدم لأخذ القيادة في ميدان التنافس على السلطة السياسية. وجاء الرد التاريخي بعد هزيمة نابليون ونجاح التحالف الأوروبـي في وضع نهاية لطموحاته العسكرية وتطويق الآثار المعنوية التي ولدتها الثورة الفرنسية.

شكلت هزيمة نابليون في 1815 نقطة تحوّل في مزاج القارة إذ أدت إلى إطلاق موجة رجعية مضادة لحركة التنوير الفرنسية التي جذبت النخب الأوروبية في نهاية القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر. لم تقتصر الهزيمة على الجانب الفكري وإنما امتدت لتترك تأثيراتها على الجانب السياسي وتوازن القوى.

أوروبا بعد واترلو ستدخل في طور هدنة معاهدة فينيا في العام 1815. فهذه المعاهدة ستعيد ترسيم الحدود السياسية لجغرافية القارة وستمهد الطريق لنمو الأفكار القومية وعودة الملكية إلى فرنسا (أسرة بوربون من 1814 إلى 1830)، وستفتح الباب لصعود القوة الألمانية بعد اندلاع ثورة 1830[267].

لم تكن ألمانيا رسميًّا موجودة على الخريطة الأوروبية قبل مؤتمر فيينا، فهي كانت مجرد ولايات تقودها بروسيا التي نجحت في ضم مقاطعات براندينبورغ وبوزنان وبوميرانيا وسيليزيا قبل العام 1815. بعد ذلك العام ستدخل مقاطعة الراين المتقدمة سياسيًّا واقتصاديًّا وثقافيًّا إلى الحلف البروسي ما سيؤدي إلى نهوض فكرة الوحدة القومية وتحوّلها إلى مشروع سياسي إرادوي.

ترافق نمو الظاهرة القومية مع تأسيس ما يسمى بالحلف المقدس، وهو تحالف تشكل ظرفيًّا في العام 1815 وضم روسيا القيصرية والنمسا وبروسيا وكانت مهمته مطاردة حركة التنوير الأوروبية وملاحقة أنصارها بتهمة التعامل مع نابليون والثورة الفرنسية.

لم تقتصر تأثيرات "الحلف المقدس" على الجانب الأيديولوجي بل كانت له مضاعفات جانبية حساسة حين أعطى فرصة تاريخية لنهوض الظاهرة البروسية وتقدمها الاقتصادي وتطورها العسكري. وسمحت هذه الوظيفة الاستثنائية بنمو نزعة التوحيد القسري للسوق القومية الألمانية بقيادة بروسيا ما

ولّد بدوره انعكاسات بنيوية أدت إلى تصادم القوة الجديدة بمحيط متفاوت في تطوره الاقتصادي بين شرق القارة ووسطها وغربها وجنوبها.

ستشهد أوروبا بين 1815 و1871 ما يمكن وصفه بصعود النزعة القومية الشوفينية ونمو ذاك الفائض من القوة العسكرية المعززة بالإرادة المعطوفة على نداءات تشجع على تسريع الخطوات للالتحاق بالثورة الصناعية واستخدام النمط المتقدم تقنيًّا في بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة وإعادة توظيفه لبناء الدولة المركزية.

شجّع الإحساس بالتأخر على نمو قوة مركزة ذاتيًّا تدفع العلاقات بسرعة نحو التوحد والتطور والتنافس من خلال اتخاذ قرارات فوقية سلطوية تتغطى بالقانون والدستور من جهة وتعمد إلى محاصرة الحريات العامة من جهة أخرى. وأدت هذه القرارات المتعارضة إلى تركيز السلطة في الهيئة التنفيذية وإضعاف الهيئات التشريعية والمراجع القضائية. في العام 1848 مثلاً أقدم الملك البروسي على إلغاء الجمعية التأسيسية (البرلمان) مقابل صوغ دستور متأخر في قوانينه عن بريطانيا وفرنسا بدأ العمل به بعد أن صادق عليه فريدريك الرابع في 1850[268].

أعطى هذا التهميش الدستوري للمجالس التشريعية والهيئات القضائية السلطة التنفيذية قوة مضافة وأطلق المجال لنمو الظاهرة التوسعية (التوحيدية) البروسية بقيادة بسمارك. وأدى هذا الفائض في نمو العسكريتاريا البروسية (نظام اللاندوير/الميليشيا الشعبية الذي بدأ العمل به في العام 1814) إلى تحقيق وحدة ألمانيا بالقوة، وأيضًا إلى انهيار جبهة "الحلف المقدس" حين خاضت بروسيا حربها مع النمسا في العام 1866. وبعدها أخذت تتوجه غربًا وجنوبًا نحو فرنسا ما أدى إلى وقوع حرب امتدت من 1870 إلى 1871 وانتهت بانتصار بروسيا وهزيمة فرنسا. وأدت الغلبة البروسية (الألمانية) على فرنسا إلى إجبار حكومة باريس على دفع خمسة مليارات فرنك على ثلاث سنوات (1871-1873) بمثابة تعويضات حرب لألمانيا بعد توقيع معاهدة الصلح بين الدولتين[269].

ترافق وصول ألمانيا البسماركية إلى هذا الطور من فائض القوة العسكرية مع تأخرها السياسي المدني قياسًا بالتقدم الذي استقرت عليه بريطانيا بعد الثورة الصناعية وامتدادها الجغرافي إلى فرنسا وأجزاء من القارة الأوروبية. فالتطور في ألمانيا انتهج سياسة القفزات ولعبت الدولة دور الرافعة لقيادة التحول التاريخي، وذلك على عكس السياق في بريطانيا. فالآلة البخارية هناك أحدثت تعديلات بنيوية في علاقات الاجتماع وشجعت النخبة الإنكليزية على تطوير خطاباتها التنويرية ودفعت السلطات إلى

تعديل نصوصها الدستورية لتتناسب قانونيًّا مع نمو حاجات فرضتها ظروف اتساع الرقعة السكانية (ثورة ديموغرافية) وضغوطها المتزايدة على تلبية متطلباتها الاستهلاكية.

هذا النمو المدني في دلالاته السياسية، تأخرت ألمانيا زمنيًّا ونسبيًّا في التعرف عليه. آنذاك شهدت القارة تحولات ديموغرافية - عمالية حطمت الكثير من القوالب الكلاسيكية والمراجع التقليدية. وأعطى التنوع في المراجع المجال الحيوي لتطور الفلسفة والعلوم وتعزيز دور النخبة الأوروبية التي أخذت تحتل مواقعها في الجامعات والمعاهد الأكاديمية ومؤسسات الدولة وبدأت تنتقل من قوة ضاغطة على السلطة إلى قوة فاعلة تساهم في وضع برامج التحديث وخطط الانتقال من عصر المانيفاكتورة إلى عصر الآلة (الثورة الصناعية).

أدى هذا التحول الاجتماعي - الذهني إلى إطلاق موجة من الاضطرابات العمالية وظهور الهيئات النقابية والأحزاب اليسارية والمدارس الاشتراكية والوضعية منذ العام 1831 إلى العام 1848، وهي السنة التي وضع فيها الثنائي ماركس - إنغلز "البيان الشيوعي" بتكليف من منظمة عصبة الشيوعيين (1847-1852).

في خضم تلك الفضاءات هبت كومونة باريس في العام 1871 بعد هزيمة فرنسا في حربها على ألمانيا. شكّلت الكومونة حكومة ثورية مؤقتة وطرحت فكرة النظام الاشتراكي، لكنها لم تستمر أكثر من 72 يومًا وسقطت بسبب الفوضى والتدخل الألماني وعدم قدرتها على صوغ برنامج يضبط الاستقرار ويرد على أسئلة الناس وحاجاتهم ومتطلباتهم. وساهمت الانتفاضة الفاشلة (كومونة باريس) في انقسام اليسار والقوى الاشتراكية والمنظمات العمالية وتشكيل توجهات ديمقراطية وأخرى متطرفة تدعو إلى العنف وفرض ديكتاتورية عمالية[270].

آنذاك كانت ألمانيا بعيدة وقريبة من كل تلك المتغيرات. فهي من جانب تعاني من آثار القوة السلبية التي جلبها لها نظام اللاندوير البروسي، ومن جانب آخر كانت تتخبط في أولوياتها وخياراتها المتأخرة زمنيًّا سواء على مستوى تخلف الصناعة المدنية قياسًا ببريطانيا، أو على مستوى ارتدادات توحيد سوقها القومية بالقوة العسكرية التي جلبت لها انتصارات ميدانية على النمسا وفرنسا إلى جانب مشكلات بنيوية عطّلت إمكانات الخروج من دائرة العسكرة.

أطلق نظام اللاندوير (جيش المتطوعين الشعبي المساند للقوات النظامية) منذ تأسيسه في العام 1814 موجات سلبية على مستوى تغذية مشاعر الشارع (الاحتياط الجماهيري) فظهرت حركات سياسية غوغائية وشعارات حماسية أنتجت سلسلة حروب في إطار الداخل وفي المجال الجغرافي. كذلك ساهم نظام الاحتياط الشعبي في تشجيع مدارس ديماغوجية (لفظية) للنمو في إطار شرائح من النخبة ما ترك تأثيراته على الشعر (قصائد الشاعر الألماني هاينه وتبجيله لنظام المارش الجرماني) وعلى الموسيقى (ألحان فاغنر الحماسية) وعلى الفلسفة (ظهور مدارس تدعي التوصل إلى الحقيقة المطلقة والأجوبة النهائية).

ساهم هذا الطور الانتقالي المتسارع والمتأخر في آن واحد في نمو ظاهرة الشوفينية في إطار قوة عسكرية صاعدة تبحث عن موقع في القارة يضمن لها ذاك المكان في الزمن الحديث ويؤكد دورها في قيادة قاطرة أوروبا المعاصرة.

في هذا الجو الفضفاض استمر نظام "اللاندوير" في إطلاق موجات من الطموح الذاتي (الارادوي) تمثلت في تشجيع ظهور طفرة من الفلاسفة الألمان والمدارس الديماغوجية والتيارات الفكرية التي بالغت في ادعاءات التفوق الذهني - العرقي على كل ما أنتجته القارة من إنجازات في مختلف حقول العمران والمعرفة.

الفلسفة، كما يقول هيغل في محاضراته عن تاريخها، لا تظهر حين "يكون الشعب مكبلاً بقيود الحاجة (...) أن الفلسفة تتجلى عندما يتخلى شعب ما عن حياته الملموسة (...) وهي تتجلى عندما تنحل أخلاقية شعب ما وتهرب الروح إلى ميدان الفكر باحثة فيه عن مملكة داخلية"[271].

يمثل يوغين دوهرنغ في هذا الصدد ذاك النموذج الصارخ لتلك الطفرة الديماغوجية من الفلاسفة التي ادعت الكشف النهائي عن الحقيقة المطلقة باسم "المدرسة الواقعية الاشتراكية". فمن هو دوهرنغ الذي وصفه إنغلز بصاحب "القصور الذهني الناجم عن جنون العظَمة"؟

طفرة من الفلاسفة تجتاح القارة

ولد يوغين كارل دوهرنغ في 1833 وعاش في كنف والده (الموظف الحكومي) ودرس الاقتصاد ومارس الحقوق وتعلم الميكانيك ودخل السلك الأكاديمي وبدأ التعليم في جامعة برلين (1862-1874) وأخذ ينشر أفكاره التلفيقية في الفلسفة ما أثار موجة من الغضب حين استفز القوى

العقلانية والتنويرية بادعاءاته ومبالغاته، وفي الآن نفسه جذب إليه الكثير من الأنصار والمؤيدين والمريدين في أوساط القوى الشعبوية والضحلة في أفكارها
ووعيها.

ظاهرة دوهرنغ نموذجية في خصوصيتها وتوقيتها لأنها تعطي فكرة عن ذلك الاضطراب الذهني الذي عصف بالنخبة الألمانية في تلك الفترة التي كانت فيها "الأمة" تدخل في منعطف تاريخي سيكون له تأثيره الموضعي على القارة والعالم في طور لاحق. ويمثّل دوهرنغ في هذا السياق الزمني ذلك النموذج لطفرة من الفلاسفة شهدتها الساحة الألمانية في لحظة الصعود وتجاوز الحدود القومية إلى مجالها الحيوي الجغرافي.

بدأت علاقات دوهرنغ الخفية بالسلطة حين طلب بسمارك في 1866 من مستشاره فاغينير أن يضع للحكومة البروسية تقريرًا عن المسألة العمالية. واتصل فاغينير بالأستاذ الجامعي وطلب مساعدته بحكم خبرته واطلاعه في هذا الشأن المستحدث. وافق دوهرنغ على الطلب، وكتب التقرير عن المسألة العمالية، وأقدم فاغينير على نشره مغفلاً ومن دون علم صاحبه، ثم عاد وطبعه ثانية واضعًا اسمه من دون إشارة إلى كاتبه الأصلي. أثار التصرف غضب دوهرنغ وأقام دعوى قضائية على فاغينير بسرقة نصه وخرق حقوق المؤلفين وكسب القضية في العام 1868 ما أعطاه سمعة جيدة في الوسط الأكاديمي وأكسبه شعبية في دوائر المعارضة العمالية والاشتراكية واليسارية[272].

أعطى فوز دوهرنغ في المعركة القضائية دفعة معنوية للأستاذ الجامعي سمحت له لاحقًا باستثمارها لتعويض طموحه الشخصي وغروره. فبدأ اعتبارًا من العام 1872 في إطلاق سلسلة من التهجمات على أساتذة الجامعات في سياق انتقاده للأنظمة الجامعية في ألمانيا. وأدت هذه الكتابات العنيفة إلى تعرض دوهرنغ إلى ملاحقات سلبية من قبل الأساتذة الرجعيين والمتعصبين فتطور تصادمه مع هذا التيار المنغلق الذي نجح، بعد سلسلة من المعارك الأكاديمية، في تحريمه إلقاء المحاضرات في العام 1876 ومنع من تدريس الفلسفة في الجامعة بدءًا من العام 1877.

أثار حرمان دوهرنغ من التعليم الجامعي موجة استنكار وشجب من الأوساط الديمقراطية والليبرالية ترافقت مع حملة احتجاج عنيفة من مريديه وأنصاره. وجاءت موجات الاستنكار وحملات الاحتجاج لتصب في مصلحة دوهرنغ وترفع شعبيته في وسط الدوائر العمالية والاشتراكية

والديمقراطية، ما أدى إلى رواج أفكاره وادعاءاته الفلسفية الأمر الذي ترك تأثيره السياسي على برامج الديمقراطيين الاشتراكيين في أوساط سبعينات القرن التاسع عشر.

آنذاك شهدت أوروبا أزمة اقتصادية - مالية عالمية في العام 1873 شجعت على نمو مدرسة مضادة للاشتراكية والتنافس الحر في الآن، وبدأت تشجع على فكرة الاحتكار وضرورة سيطرة المؤسسات الكبرى على الشركات الصغيرة. جاءت هذه النزعة الاحتكارية في حقل الاقتصاد متناسبة لتعزيز هيمنة السلطة المركزية في ألمانيا وطموحها إلى احتكار الفكر في حقل السياسة[273].

لاقت فلسفة دوهرنغ في هذا الفضاء المضطرب حفاوة من أوساط السلطة لكونها تدعو إلى هدنة (مصالحة) بين الرأسمالية والحركة العمالية. دوهرنغ حتى تلك الفترة كان صاحب رأي خاص لعب دوره في خلط الأوراق والتأثير على الأحزاب الديمقراطية والاشتراكية بسبب كتاباته العنيفة والمثيرة للجدل. فالأستاذ الجامعي ادعى أنه يطرح فلسفة جديدة تعيد النظر في كل الاتجاهات والاجتهادات التي سبقته في بريطانيا وفرنسا وألمانيا منذ القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر. وبسبب هذه النزعة الطموحة طوّر دوهرنغ مقولاته التي وضعها عن تاريخ الميكانيكا (الآلة الصناعية) في العام 1872 بطرح مجموعة كتب ادعت إلغاء من سبقه وتأسيس مرحلة جديدة في تاريخ الفكر البشري.

ساهمت أطروحات الفيلسوف الطامح (بسماركية فكرية) التي وردت في كتبه الثلاثة وهي: "مقرر الفلسفة" و"مقرر في الاقتصاد السياسي والاجتماعي" و"التاريخ الانتقادي للاقتصاد السياسي والاشتراكية" في إثارة موجة غضب في الأوساط الأكاديمية، لكنها أربكت الأحزاب الديمقراطية - الاشتراكية بسبب ما شهدته أفكاره منذ العام 1874-1875 من تعاطف كبير في الجيل الجديد المندهش بالمعجزة الألمانية ونجاح بروسيا في توحيد السوق القومية والانتصار على النمسا وهزيمة فرنسا في معارك عسكرية متتالية انتهت بفوز ألمانيا ودخولها مجال القارة من موقع القوة.

عملت تلك الانتصارات على تعزيز أيديولوجية التفوق الشوفينية، وأعطت قوة غير منظورة للفيلسوف الشاب (بلغ دوهرنغ 42 من عمره) ودفعته إلى أن يقود حملة انقلابية ضد كل مقولات التنوير متهمًا إياها بالعجز والقصور والتفاهة والبلاهة مشيرًا إلى فشلها وضمورها بسبب سخافتها وضعفها العقلي وابتعادها عن الواقع. برأيه مثلاً أن ليبنتز ليست لديه عقائد شريفة، لكنه "أفضل متفلسفي البلاط"، وكانط لم يقدم الشيء الجديد وترك مجموعة سخافات خرقاء وباطلة أعطت للمقلدين من أمثال فيخته وشلنغ "الصور الكاريكاتيرية البشعة للغو الخاص لفلسفة الطبيعة"، وتتوجت تلك "البشاعات بعد

الكانطية" بنمو "أوهام هذيانية" قادها "المدعو هيغل"، أما داروين فقد تميز بشاعرية مبتورة ترافقت مع "تلاعبه بالتحولات مع الضيق المحسوس" و"القدرة الضعيفة على التمييز"، والداروينية هي "مجرد جرعة كبيرة من الوحشية موجهة ضد النزعة الإنسانية".

لم يقتصر تهجم دوهرنغ على الفلاسفة ونعته فيخته وشلنغ وهيغل بالدجالين، بل وجه سهامه لكل المدارس الطبيعية والتاريخية والاقتصادية والسياسية والاشتراكية والوضعية والمثالية والمادية. برأيه أن سان سيمون طوباوي مسكين يعاني من "هلوسة دينية"، وشارل فورييه "يتميز بكل عناصر الجنون" فهو أحمق ومعتوه "بشكل يفوق الوصف"، وروبرت أوين له "آراء باهتة وضحلة" وتفكيره "يتميز بقدر من الفظاظة في مسألة الأخلاق" وهو قدم بعض الأفكار التافهة "التي تحوّلت إلى سخافات"، لاسال "خرافة هيغلية" وخليط بشع من "النظرية العامة والتوافه الفارغة"، ماركس "ضيق في الأفكار" وعاجز "في القدرة على التركيز والتصنيف" ويعاني من مشكلة "تشويش في الفكر والأسلوب" و"إفراط غير لائق في اللغة" و"غرور شخصي" و"أساليب رذيلة" و"تخلف فلسفي وعلمي"[274].

أثارت هذه الملاحظات من الفيلسوف الشاب غضب الحلقات الفكرية والجامعات والمعاهد الأكاديمية وكل الأنصار والمؤيدين لفكر النهضة والنظريات التنويرية التي تأسست خلال القرون الثلاثة من التطور الأوروبي. وتفاقمت المشكلة وتحوّلت الى أزمة سياسية حين واجهت الأحزاب الديمقراطية والاشتراكية تلك الظاهرة، بعد أن لاقت أفكار دوهرنغ التجاوب من الجيل الشاب المذهول بالمعجزة الألمانية والمصدوم بالإنجازات التي حققتها بروسيا بسمارك في فترة زمنية لا تزيد عن نصف قرن.

أدى التطاول المذكور إلى إثارة غضب الأحزاب اليسارية، وأخذت تتصل بماركس وإنغلز طالبة تدخلهما والرد على أفكار دوهرنغ واختلاقاته الفلسفية والاقتصادية والسياسية. آنذاك كان ماركس منكبًا على تأليف المجلد الثاني من كتاب "رأس المال" بينما إنغلز كان منشغلاً في مواصلة بحثه الطويل عن "ديالكتيك الطبيعة" بعد أن غادر مانشستر واستقال من وظيفته في شركة تجارية وانتقل في العام 1870 إلى لندن لاستكمال دراساته في علوم الطبيعة والرياضيات[275].

انشغال ماركس - إنغلز أخر الرد، إلا أن ضغوط حزب العمال الاشتراكي الألماني وحاجته إلى أجوبة دفعت الثنائي إلى التفكير في التصدي لهذا الهجوم الأخرق. آنذاك كان حزب العمال الألماني قد

توحد مجددًا بعد عقد "مؤتمر غوتا" في العام 1875، لكنه أخذ يعاني من اجتياح فلسفة دوهرنغ قواعده الحزبية وانشداد الكثير من المعجبين إلى أفكاره الانقلابية والجريئة.

اتفق إنغلز مع ماركس في رسالتين متبادلتين في العام 1876 على ضرورة الرد. وبسبب انشغال ماركس بكتابه الموسوعي عن "رأس المال" تكفل إنغلز بالهجوم المعاكس بشرط أن يساعده في توضيح الجوانب التاريخية لمسألة تطور "الاقتصاد السياسي". وبدأ إنغلز تأليف عمله الذي استقطع من وقته نحو عامين (1876-1878) وأخذ بنشره في سلسلة مقالات في صحيفة Vorwarts جاءت في ثلاثة أقسام جُمعت لاحقًا تحت عنوان "ضد دوهرنغ" في مجلد مستقل صدر في 1878.

جاء الرد ساحقًا ما دفع تيار دوهرنغ إلى تأخير نشر كتاب إنغلز في ألمانيا مستفيدًا من "قانون الطوارئ ضد الاشتراكيين" الذي صدر بتشجيع من بسمارك في العام 1878 ونال تأييد غالبية الرايخستاغ (البرلمان) بذريعة خطر الحركة الاشتراكية والعمالية وضرورة مكافحتها. وأعطى قانون الطوارئ البسماركي شرعية لملاحقة كل الأحزاب الديمقراطية - الاشتراكية والمنظمات العمالية واليسارية، وتعرضت المعارضة للتنكيل وصودرت المطبوعات واضطرت الهيئات النقابية وغيرها إلى اللجوء إلى السرية طوال فترة تطبيق القانون إلى أن ألغي في أول أكتوبر/تشرين الأول 1890.

لاقى كتاب "ضد دوهرنغ" رواجًا كبيرًا وترجم إلى لغات أوروبية مختلفة وطبع مرات ومرات وأدى وظيفته الموضعية حين سدد "ضربة موجعة" للفيلسوف الشاب. بعد كتاب إنغلز سينزوي دوهرنغ ويخرج من المعادلة بينما ستلاقي أفكار الثنائي الماركسي الرواج وتكسب آلاف الأنصار في القارة الأوروبية.

أشرف إنغلز على تجهيز ثلاث طبعات من كتابه، الأولى صدرت في 1878، والثانية في 1885 والثالثة في 1894. الفارق الزمني بين الأولى والثالثة 16 سنة وهي فترة كافية للاطلاع على متغيرات متسارعة أخذت تعصف بالقارة الأوروبية بسبب تواصل نموها على مختلف الأصعدة العمرانية والمعرفية.

أهمية "ضد دوهرنغ" أنه جاء في التوقيت المناسب، فهو رد على تلك المجموعة من فلاسفة النخبة التي ادعت أنها تمتلك أجوبة نهائية ومطلقة لنشوء الكون والبداية والنهاية والوجود والعدم والعلة الأولى والأسباب والمسببات وعلوم الطبيعة والإنسان. وردَّ إنغلز ساخرًا في مقدمة الطبعة الأولى حين

أشار إلى أن دوهرنغ "خالق المذهب لا يعتبر ظاهرة فريدة في الواقع الألماني المعاصر. فمنذ حين والمذاهب التي تبحث في نشأة الكون وفي فلسفة الطبيعة عمومًا وفي السياسة والاقتصاد السياسي، إلخ... تنبت في ألمانيا كما ينبت الفطر بعد سقوط المطر. فأي دكتور فلسفة قليل الشأن أو حتى طالب فلسفة لن يقبل بأقل من خلق "مذهب" متكامل (...) وهكذا تفهم حرية العلم على أنها حق الإنسان في أن يكتب عن أي شيء لم يدرسه، وأن يقدم كتاباته هذه على أنها المنهج العلمي الدقيق الوحيد"[276].

هذا الفطر الفلسفي الذي اجتاح النخبة الأوروبية لم يفسر إنغلز أسبابه ودوافعه، لكن كتابه المدمر ساهم في تسديد ضربة موجعة إلى هذا النوع من الفطريات إلى درجة أن مقدمة الطبعة الثالثة التي صدرت قبل سنة من وفاته (توفي إنغلز في 1895) لم يدخل عليها تعديلات جوهرية لأن الكتاب لعب وظيفته وأدى دوره حين صدر.

نجح إنغلز في تحطيم منظومة الفيلسوف الطفيلي، (توفي في 1921)، وقضى على فكر دوهرنغ في فترة شبابه إلا أن "الدوهرينغية" استمرت تتناسل بسبب تلك الطفرة من الازدهار والتقدم التي اجتاحت أوروبا وهي كانت تشجع آليًّا على ظهور اتجاهات متخالفة في التعامل مع القضايا المعرفية. كانت القارة فخورة بما حققته من إنجازات مذهلة على مستوى الاكتشافات والاختراعات والتقنيات والأبحاث العلمية والطبية والمختبرية والكيماوية والفيزيائية ما ترك انعكاسه على رؤية النخبة للكون والإنسان والطبيعة. والقارة أيضًا تحررت من سلطة الكنيسة وإشرافها المركزي على الأفكار ودخلت في موجات من التعددية وتنوع المرجعيات. حافظت الكنيسة على مرجعيتها، لكنها تكسرت إلى اجتهادات كاثوليكية وبروتستانتية (لوثرية وكالفينية) تعايشت دون حروب وتكيفت مع الأمر الواقع. وتعرّضت الدولة القومية، التي أخذت دور الكنيسة، إلى تعديلات دستورية أعطت فرصة لنمو بيروقراطية (مكتبية) تخطط للمستقبل. واحتلت الجامعات مكانها التاريخي في تصدير العقول وإنتاج الكتب. بينما واصلت المختبرات الحث على الاختراع والاكتشاف والتقدم. واحتل الأكاديمي في تلك المرحلة موقعه الخاص إلى جانب الإكليروس (رجل الدين). وأخذ الإكليروس يتقبل الاعتراض والنقاش ويطالب بالحوار والتعايش مع الملحد والكافر والمرتد دون اختلاف مع زميله البيروقراطي (رجل الدولة).

دخلت أوروبا في تلك الفترة الحساسة مسارات مختلفة. وأحدث التطور العام للقارة نقلة تاريخية نوعية، لكنه لم يتجاوز في مجموعه التفاوت العيني الخاص في التطور. فالنموذج

الأوروبـي تشكل زمنيًّا على مسارات تاريخية وأسس نماذج متقدمة، لكنها غير متوافقة في طبيعتها التكوينية وليست متطابقة في مصالحها. وهذا ما أدى بالدول القومية إلى الدخول في سباق التسلح وتوظيف العلوم والاختراعات والاكتشافات لتطوير القوة العسكرية التي أخذت باستنزاف الاحتياطات النقدية من دون انتباه لنمو ظاهرة "العسكريتاريا" ومخاطرها على البشرية، معطوفة على تزايد وتيرة الهجرة والنزوح[277].

تحوّلت ظاهرة بروسيا، التي بدأت متواضعة، بسرعة وفي أقل من قرن إلى قوة ألمانية صاعدة أخذت تقلب الموازين وتضغط على القارة بحثًا عن موقع ودور. وأنتجت تلك الظاهرة نخبة أخذت تتخرج من الأكاديميات والمعاهد العسكرية وتشكلت منها شريحة من الطفيليات التي تحلم بالسلطة وتغيير العالم بالقوة، وليس بالفكرة كما ادعى دوهرنغ.

بدأت ظاهرة الإنفاق المالي على سباق التسلح في بروسيا في مطلع القرن التاسع عشر، وتأوربت في نهايته. ونظام اللاندوير الذي ابتكرته بروسيا لتعزيز قواتها النظامية بالجيش الشعبـي (ميليشيات المتطوعين) أخذت الدول الأوروبية في تقليده بعد انتصار ألمانيا على فرنسا في حرب 1870-1871 وتحوّل إلى قانون يلزم الشباب بالتجنيد الإجباري والخدمة العسكرية، ما أدى إلى رفد الجيوش المحترفة (القوات المتفرغة) بالآلاف من المتطوعين الأمر الذي سيترك لاحقًا تأثيراته التدميرية على القارة.

تشبه ظاهرة بروسيا العسكرية كثيرًا ظاهرة دوهرنغ. فإنغلز سدّد ضربة موجعة للفيلسوف الشاب وأخرجه باكرًا من الساحة إلا أن "الدوهرينغية" استمرت تنمو كالفطر. فالنمو العمراني يولّد الشعور بالسعادة والطموح والاعتزاز بالنفس والتفاؤل بالمستقبل، لكنه أيضًا يشجع المعرفة على الطمع والاحتكار والمغامرة وحب السيطرة والتسلط والاستئثار بالثروة. وظاهرة دوهرنغ الفلسفية تبدو طبيعية وغير مستغربة في بيئة ثقافية ومحيط يتباهى بالتفوق وتحقيق معجزات علمية واختراقات ميدانية مذهلة تدهش العين وتقوّض العقل[278].

كيف حصل هذا التطور العقلي/العملي؟

يقسم غاستون باشلار مراحل تطوّر تكوين العقل العلمي في أوروبا إلى ثلاث محطّات، الأولى تمثّل حال ما قبل العلميّة (الأزمنة الكلاسيكيّة القديمة وعصر النهضة وصولاً إلى القرن الثامن عشر)،

الثانية تمثّل الحالة العلمية (بدأت في نهاية القرن الثامن عشر وشملت التاسع عشر ومطلع القرن العشرين)، والثالثة تمثّل عصر العقل العلمي الجديد ابتداءً من العام 1905 (نظريّة أينشتين في النسبية). ويعتقد باشلار أن القرن الثامن عشر يشكّل الفاصل الزمني بين تاريخين حين شهدت عقوده تحوّلات في مختلف الحقول العلمية التي أعادت تأسيس مدارس فلسفية تأخذ بالاكتشافات والاختراعات منطلقات نظريّة لإعادة تعريف مفاهيم نشوء الكون وتطوّر الإنسان وفق منهجيات تنتمي فكريًّا إلى رزمة من معادلات تم استخراجها من المختبرات. وبرأيه "أن كل شيء ليس ممكنًا في الثقافة العلميّة، وأنّه لا يمكن الاحتفاظ من الممكن، في الثقافة العلمية، إلا بما جرى البرهان على إمكانه". وينتقد فلسفات القرن الثامن عشر وما قبله بسبب تسرّعها وإيجازها واختصارها "وأحيانًا تكفي صورة، كلمة، فيجري تفسير العالم ببضعة أسطر، باستناد بسيط إلى تجربة مألوفة؛ ويجري الانتقال من الصغير إلى الكبير من دون انزعاج"[279].

بعد هذه الفوضى الفكرية في القرن الثامن عشر أخذت المعرفة تتموضع في مناهج مدرسية، وأدى التطور المتوازي لاحقًا إلى تشكيل مصادر متنوعة للمعرفة وأعطى دفعة حيوية لنمو «النخبة» وتحولها إلى قوة مهيمنة من خلال تركيز نشاطها في إطار الدولة. فالدولة في تكوينها التاريخي الجديد صادرت صلاحيات الكنيسة وتحوّلت إلى مصدر وحيد للقوة البديلة اعتمادًا على الضريبة (الدخل) والمؤسسات (فصل السلطات) والقضاء والدفاع (الجيش) والدستور وما يتفرع عنه من تشكيلات تضبط إيقاع المجتمع وتمنع خروجه على القانون الوضعي من جانب وتعطيه فرصة دورية للانتخاب والاختيار والتفاضل والتعديل من جانب آخر.

اندمجت النخبة المعاصرة في الدولة وأصبحت تحتكر السلطة أحيانًا، وهي في مجموعها تشكلت من روافد وفروع كسرت صلاحيات الكنيسة وصادرت موقع الأسر الأرستقراطية (ملاك الأرض) التي كانت سابقًا تشكل المصدر الأساس في تخليق الشرائح المنتجة أو المتعلمة التي كانت تعتمد عليها السلطات المركزية أو الفرعية في إدارة المؤسسات بالتعاون مع شبكة العلاقات التابعة للإكليروس.

تنوع اختصاصات النخبة الأوروبية المعاصرة المتوالدة من طبقات اجتماعية متخالفة، جاء تلبيةً لتطور الدولة وحاجاتها وتعدد مصادرها ووظائفها. فالدولة التي أخذت موقع الكنيسة اعتمدت على نمو تلك النخبة الجديدة التي تخرجت من المدارس والجامعات والمعاهد والأكاديميات المهنية والعسكرية ما أعطى فرصة لنمو دورها السياسي من خلال قنوات دستورية شرعية ملكية أو جمهورية أو حزبية.

فالحزب الحديث المعطوف على الاتحادات الحرفية والنقابات المهنية والجمعيات العمالية واللوبيات وهيئات الاحتكار الصناعية والمالية والتجارية والزراعية أصبح يلعب الدور المحرك لمختلف قطاعات المجتمع وقواه المنتجة بوصفه يشكل الوعاء الأيديولوجي للنخبة وتصوراتها الآنية والمستقبلية. وأصبحت النخبة الطامحة لقيادة الإدارة المركزية للدولة من خلال مرجعيتها البيروقراطية والتكنوقراطية، تمثل ذلك الثقل الجاذب للأحزاب لكونها قادرة على ترسيم خريطة طريق للوصول إلى السلطة التشريعية (البرلمان) وكيفية استخدامها لتلعب دورها في التأثير على السلطة التنفيذية (الحكومة) وفرض برامجها وتصوراتها على الوزارات حتى تأخذ بها وتنقلها من الإطار النظري إلى الحياة العملية وبالتراضي بين هيئات الدولة ومراكز القوى في المجتمع.

نظام التداول (نعم ولا في آن) الذي نجحت النخبة الأوروبية في التوافق العقلاني عليه أنتج سلطات مرنة قادرة على التكيف وتحمّل التجاذب لكونه شكل تلك البؤر المستقلة والمندمجة في معطى تاريخي تصالحي بين الدولة والمجتمع، ما ساعد لاحقًا على احتواء العنف واحتكار المؤسسة للسلاح وضبط التوازن بين شرائح القطاعات المنتجة وتطوير فكرة "المواطن" بوصفه الهوية الجديدة والبديلة عن الموروثات والتقسيمات القديمة (القبيلة أو الطائفة أو المذهب أو العرق).

إعادة تعريف الهوية لعب دوره في تطوير علاقات المجتمع ونقلها من دائرة المنظومات الأهلية الضيقة إلى طور مدني متقدم دفع الإنسان - الفرد إلى العبور إلى منظومة "الحداثة" وما تعنيه من مؤهلات ذاتية يمكن الاعتماد عليها لتحديد الاختيارات ونمط الحياة والتعامل مع الآخر المختلف.

ساعد تحديث الهوية على التوافق باتجاه تحديد الجامع المشترك لمرجعية المواطن الدستورية، لكنه فشل في إبطال دور "الخصوصية" والتنافس على الأفضلية. فالحلقات المتوارثة عن النمط التقليدي القديم في تحديد الولاء وتسمية الانتماء استمرت تمانع في تقبل المفاهيم الجديدة التي بدأت تدفع القارة للعبور نحو عصر حديث في معرفته وعمرانه. كان لا بد من فترة انتقالية فاصلة تطلبت من "النخبة" الكثير من التضحيات لاجتيازها حتى تتكامل صورة الهوية المستحدثة مع واقع يتعرض دائمًا للتغيير.

الاستجابة لم تكن دفعة واحدة عند كل شرائح النخب، لأن التقدم الذهني كان نتاج تحولات أخذت ترسم خريطة طريق في الواقع متضمنة مجموعة متحولات عينية بدأت تطرأ على المجتمعات الأوروبية بسبب تدخل مجموعة عوامل موضوعية تؤثر على آليات القطاعات المنتجة وأسواق العمل

والفروع الاقتصادية التي ترفد خزينة الدولة بالمال (الضريبة) أو تحرك آليات السلطة وخياراتها السياسية وقراراتها الحاسمة.

إلى جانب السلطة لعبت النخبة دورها الوسيط في إعادة إنتاج معرفة اختلطت فيها الحقائق المعاصرة بأيديولوجيا مجبولة بصراعات الماضي وما نقله من ترسبات إلى حاضر يبحث عن هوية.

رينان... وكراهية الشرق

شارف القرن التاسع عشر على الانتهاء ولا تزال النخبة تتنافس بحثًا عن الحقيقة وأصل الوجود و"العلّة الأولى". فالإنسان الأوروبـي (و الأميركي) واصل مهمة التقصي عن الأسباب والمسببات ما دفعه إلى مسارات متعارضة وخلاصات متناقضة لكنها في المطاف الأخير تستقر على توازن قلق يجمع الروافد في إطار يحتاج دائمًا إلى أدلة دامغة (نقلية وعقلية) تؤكد توصلها إلى الاكتشاف النهائي. وبما أن النهائي لا نهاية له كان لا بد من مواصلة الطريق باتجاهات متخالفة في جانب ومتوحدة في شخصية مركبة في جانب آخر.

جلَب التطور للإنسان الكثير من السعادة ولم ينجح في رفع الشقاء وطموح النخبة على السير في طريق التقدم. وأدى هذا النوع من الوعي الشقي إلى توليد حالات من الازدواجية في المعايير تجمع الحق والباطل، الخير والشر، الجمال والبشاعة، في وحدة مصطنعة تفلسف القوة وتؤمن بالسلام في آن معًا.

انسجام التعارضات واختلاط التأويلات وتضارب التفسيرات تحوّلت إلى مدرسة تحدث عنها كونت سابقًا حين تناول المحطات الزمنية للتطور العقلي. تكلم كونت عن الشخص الواحد الذي قد يتقبل تفسيرات لاهوتية أو ميتافيزيقية في بعض الموضوعات من دون أن يشعر بالتناقض مع قبوله العلم الواقعي في موضوعات أخرى. فالإنسان يتمظهر في ثلاث حالات دفعة واحدة، فهو يأخذ الجانب اللاهوتي (البحث عن الكائنات وأصلها ومصيرها)، والجانب الميتافيزيقي (البحث في الأشياء مستبدلاً العلل المفارقة بالعلل الذاتية متوهمًا أنها جوهر الوجود) والجانب الواقعي (إدراك العقل والامتناع عن المعارف المطلقة والبحث عن القوانين وترتيبها من الخاص إلى العام) ويعمل على دمج الحالات في الحد الذاتي المعقول لتحقيق التوازن.

أنتج هذا التوازن القلق في نهايات القرن التاسع عشر مدارس تناولت الحقائق من زوايا مختلفة، فظهرت مفاهيم الحرية والتسامح إلى جانب العنصرية والعرقية واللاسامية وكراهية الآخر ورفض قبول اندماج المختلف في "روح" الجماعة والأمة القومية.

المستشرق إرنست رينان (1823-1892) مثلاً تأثر بهيغل وأعجب بفلسفته ولم يأخذ بمنهجه التاريخي متجهًا إلى قراءة الحضارات من زاوية اللغة والعرق. اعتبر رينان الدين خرافة ولم يتردد في الدعوة إلى حرب حضارات وصراع الشرق مع الغرب واقتتال أوروبا مع الإسلام. فالتعارض بين الديانات الذي تأسس على قاعدة الاختلاف اللغوي والتفاوت الثقافي بين الأجناس دفع رينان إلى إعادة قراءة فلسفة ابن رشد في العام 1869 في سياق نظرية الشك الديكارتية ومدى وجود عقلانية عند فيلسوف قرطبة. جاءت المحاورات الفلسفية التي أنتجها رينان في العام 1876 في إطار متغيرات حصلت في تلك الفترة التاريخية حين شهدت أوروبا تراجع فلسفة هيغل التطورية (التسووية) لمصلحة عودة فلسفة ليبنتز الداعية إلى المصالحة بين الكاثوليكية والبروتستانتية وتصدير فائض القوة الأوروبية إلى بلاد المسلمين ومحاربة السلطنة العثمانية[280].

اختلاق فكرة العدو تحوّلت إلى عنوان أخذت به الدول الأوروبية بعد غزو بونابرت مصر واحتلالها في نهاية القرن الثامن عشر، وأصبح تصدير فائض القوة نقطة تواصل بين شرائح النخبة الأوروبية. وجاءت بحوث المستشرق رينان - التي أثارت الجدل العنيف لاحقًا بين شرائح النخبة المسلمة في القاهرة - تاريخيًّا في سياق متغيرات دولية تقوننت سياسيًّا في مؤتمر برلين الذي عقد في 1878. جاء المؤتمر بعد هزيمة تركيا العثمانية في حرب 1877-1878 التي أدت إلى استقلال صربيا ورومانيا وبلغاريا عن السلطنة ومنح صلاحية للإمبراطورية النمسوية - الهنغارية في ممارسة سيادتها على البوسنة، مقابل السماح لروسيا بإحكام قبضتها على مناطق القوقاز[281].

أعطت هذه المتغيرات الدولية في موازين القوى فرصة لنمو اتجاهات عرقية (عنصرية) أخذت تروّج فلسفيًّا للتمييز القومي واللاسامية ورفض واقع الاختلاف الموضوعي من خلال تأكيد الدعوة الذاتية إلى التجانس المطلق وعزل الأقليات وطرد الغريب.

المستشرق رينان ليس الوحيد، فهو يشكل ذاك المثال الحيوي على تعارض الاتجاهات عند النخبة، ونمو ازدواجية في المعايير تتحدث في جانب عن مستقبل العلم (كتاب نشره في 1890) وتدفع نحو التفرقة والحروب في جانب آخر. ويمكن ملاحظة هذه الازدواجية الشقية أيضًا في الثنائية التي

تمثلت بقوة في شخصية ألفرد نوبل (1833-1896). فهذا المهندس الكيميائي السويدي اخترع الديناميت (الدمار) في 1867 ثم أوصى بكل ثروته التي جناها من الاختراع إلى جوائز للسلام والعلوم والآداب سميت باسمه (أقيم أول احتفال في 1901) وهي لا تزال سارية المفعول مع "الديناميت" إلى أيامنا.

يمثل نوبل ذاك النموذج المتقوض الذي دخلت فيه شرائح النخبة الأوروبية بين اتجاه يخترع أدوات القوة (الدمار الذاتي) وبين اتجاه يطالب بالعدالة والحرية والمساواة والتسامح ومعاقبة المجرمين ومحاكمة قادة الحروب. وتمثّل الازدواجية، التي عبّر نوبل عن قلقها الذاتي، ذلك النموذج المضطرب الذي أخذت النخبة بمعايشته. فالوعي الشقي الذي بدأ ينمو في مركز القارة وضفافها انعكس على نخبة لم تعد قادرة على التكيّف مع متحولات سريعة باتجاه «التفوق» وفي الآن نفسه لم تكن تمتلك أدوات التحكم للسيطرة على واقع يتبدل يوميًا، حين هبطت "العلة الأولى" من السماء إلى الأرض وفتحت الباب أمام قوى تريد تأكيد الأقوى والأصلح. وحين تصبح شريحة من النخبة على مفترق طرق خطير، وتنعدم أمامها حرية الاختيار، تتجه طوعًا أو عنوة نحو "الجنون" أو "الانتحار".

نيتشه... وفلسفة جنون العظَمة

يمثّل فريدرك نيتشه (1844-1900) حال "الجنون" والاضطراب الفلسفي بين عالم يتطور ولا مكان فيه سوى للأصلح على البقاء وعالم ينزوي ويتراجع تاركًا حضاراته وثقافاته مفتوحة على الاحتمالات والتفسيرات والتأويلات. ويمثّل أميل دوركايم (1858-1917) حال الخوف من انتشار ظاهرة "الانتحار" في قارة بدأت تتوالد فيها المتعارضات الحادة وتدفع بالإنسان العادي إلى حائط مسدود لا يستطيع تجاوزه من جهة وغير قادر على التراجع عنه أو الالتفاف عليه من جهة أخرى[282].

عدم القدرة على التكيّف يولّد "جنون العظَمة" كما قال إنغلز في سياق رده العنيف على ادعاءات دوهرنغ. وجنون العظمة هي حال مرضية تجتاح الأفراد في لحظة الفراغ والخواء وتشكل ذلك التعويض الذاتي عن عدم الرغبة في التفاعل الموضوعي، فيتجه العقل نحو التوهم أو تخيّل قدرات خاصة تستطيع إنقاذ البشرية سواء بالهروب إلى الأمام أو بالاندفاع إلى الأعلى. وفي الحالين تتحول المخيلة "العقلية" أو "العلمية" إلى واسطة للارتقاء للتغطية على الضعف الذي يتوالد وينتشر في مساحة ضيقة لا تتجاوز حدود المستشفى. وتتمظهر فلسفة القوة عند نيتشه في الكثير من محطات تفكيره كالقول "إذا ما رأيتم متداعيًا إلى السقوط فادفعوه بأيديكم وأجهزوا عليه. إن كل شيء يتفسّخ ويتداعى في هذا الزمان فمن ترى يحاول دعم ما هوى؟ أما أنا فأنني أريد سقوطه"[283].

نيتشه الفيلسوف ودوركايم عالم الاجتماع يعكسان ذلك القلق الدائم من تحولات ليست بالضرورة تعبّر عن سعادة الإنسان بالحضارة الجديدة وإنما بالتأكيد تؤشر إلى خوف الإنسان من مستقبل تلك السعادة الشقية. فكل شيء، كما قال نيتشه، يتفسخ ويتداعى في هذا الزمان.

ولد نيتشه في 1844 في بيت كاهن في منطقة تورينغ (ضمت لاحقًا إلى بروسيا الألمانية) وعاش في أجواء عائلة من القساوسة اللوثريين. والده مثقف ورجل دين (قسيس) ما ترك تأثيره في طفولة الابن في صباه. عاش نيتشه في نومبورغ، ودرس في بون ثم لايبزنغ فقه اللغة والفلسفة وتعلم الموسيقى. قرأ فلسفة شوبنهور وأعجب بكتاباته عن الحضارات والثقافة الشرقية وعنه أخذ نزعته نحو الإلحاد. تعرف على الموسيقي ريتشارد فاغنر (1813-1883) صاحب مقطوعات الأوبرا وذلك المزاج السياسي المضطرب بين فوضوية "يسارية" وحليف للقوميين المتطرفين[284].

تأثر نيتشه بفاغنر وتعاطف مع بسمارك في فترة حرب توحيد ألمانيا في 1870 ثم تحوّلت صداقته مع الموسيقي المتعصب إلى مشكلة زادت من توتره وقلقه من نمو قوة بروسيا وتصاعد مخاطرها العسكرية فاختلف معه وقرر مقاطعته. انقلاب نيتشه على فاغنر الذي انتقده واتهمه بمسايرة "القوميين الاشتراكيين" لكسب الشهرة ونيل الإعجاب والترويج لمقطوعاته الموسيقية أدخله في منعطف حاد في تطور حياته الشخصية. فهو من جانب تحوّل إلى أستاذ في فقه اللغة في جامعة يال ومن جانب انقلب على المعتقدات القديمة (روافد الإيمان) واتجه بقوة إلى الإلحاد.

تزاوج الإلحاد مع سوء صحته (مرضه بداء السفلس) وازدياد اهتمامه بالعلوم الوضعية (الطب، البيولوجيا، والفيزياء) جعله ينصرف عن مهنة التعليم والقيام بجولة سياحية في أوروبا لتشتيت الأوجاع التي أخذت تنخر جسده. اشتد المرض على نيتشه في 1880 وبدأ يعاني من جنون الألم فدخل المستشفى، وهناك كَتَب "هكذا تكلم زرادشت" بسرعة قياسية في 1883-1885 متحديًا الأوجاع التي كانت تحط به إلى قعر الضعف وهو يقاومها لبلوغ قمة القوة.

استعارة نيتشه شخصية "زرادشت" للقيام بدور البطولة في ملحمته الفلسفية، جمعت ثنائية حادة بين تأثره بكتاب شوبنهور عن الحضارات (الماضي) وتحديه للمرض (الحاضر) وما يمثله من قلق دائم على المستقبل. وحدة الأضداد التي جمعت بين فلسفة شرقية (معتقدات فارسية قديمة تقوم على ازدواجية الخير والشر) وروح غربية أخذت تؤسس قوتها الذاتية في عصر جديد، انكشفت في فلسفة نيتشه على ثنائيات القوة والضعف، السعادة والمرض، الألم والتحدي، الإيمان والإلحاد، العقل والجنون. رفض

نيتشه المساواة ودعا إلى التفرقة، فهو لا يجد "فائدة من العمل على إيجاد المساواة بين الناس، بل أدعو بعكس ذلك إلى تقوية الفروق وتعميق المهاوي لإلغاء المساواة وخلق الرجال الأشداء، وبهذا يولد الإنسان المتفوّق"[285].

دام جنون الأوجاع عشر سنوات. وخلال هذه الفترة المضطربة اخترع نيتشه شخصية «السوبرمان» وهو يجسد رمز القوة المتفوقة على المكان والزمان في لحظة كان يعاني من الضعف والمرض والألم الذي أخذ يأكل جسده.

تشكّلت فلسفة القوة التي ألهمت النازية (القومية الاشتراكية) لاحقًا وأعطتها مادة خصبة لتطوير عقدة التفوق (البقاء للأقوى والأصلح) عناصرها الذاتية في المستشفى وتحت وقع ضغط الألم وإرادة التحدي في آن واحد. وفاة فاغنر (القومي المتعصب) أعطت فسحة لنيتشه للثورة عليه وانتقاده في كتاب صدر في 1888 ما يشير إلى وجود مساحة فاصلة تعزل فلسفته التي ترفض الانغلاق والتعصب والغرور والانتهازية والوصولية وبين رؤية إلحادية اجتهدت في افتراض قوة ذاتية حيّة قادرة على تحدي الألم والموت (القدر المحتوم).

تأسّست ثنائيات نيتشه بين دخول المستشفى والخروج منها، على ازدواجية عصره الذي دخل بدوره في تاريخ تتجاذبه الرغبة بالسعادة والقلق من المستقبل. وأنتجت ثنائية الضعف والقوة "جنون العظمة" ودفعت نيتشه إلى هاوية إعلان وفاة "العلة الأولى" في كتابه الأخير قبل رحيله في فايمار العام 1900. شكّل كتاب "المسيح المصلوب" في العام 1888 ذاك المثال الأخير على التناقض أو ثنائية الجدل بين رسالة المحبة والتسامح والاستعداد للتضحية وبين خشبة الصليب التي ترمز للألم والوجع والقيامة[286].

لا تنفصل سيرة نيتشه عن فلسفته. وفلسفته لا يمكن عزلها عن زمن بدأت النخبة تدخل في ثنائياته اللامتناهية. وفلسفة سير النخبة تختصر تلك الفترة العاصفة التي اجتاحت أوروبا ورفعتها إلى أعلى حالات التعارض بين إبداع العقل وجنونه.

دوركايم وفلسفة الانتحار

"جنون" نيتشه لم يدفعه إلى الانتحار (الدمار الذاتي) وإنما استعاض عنه بالتركيز على ذاته، فولّد قوة ممانعة قادرة على تحدي أوجاع الألم لكنها لا تمتلك إمكانات السيطرة على الموت. وأعطى هذا

الفاصل الزمني بين السعادة والشقاء أو بين الحياة والفناء مساحة لنمو مشاعر الخوف من "الانتحار" الذي أخذ يتزايد عند نخبة القارة.

التقط العالم الاجتماعي اميل دوركايم (1858-1917) هذه المفارقة بين الجنون والانتحار، واشتغل على وقائعها وآلياتها مستفيدًا من أعمال كونت وكتاباته التي استفاضت في قراءة قوانين الاجتماع انطلاقًا من رؤية واقعية (وضعية). ولد دوركايم في ايبينال (اللورين) وتوفي في باريس. والده وأجداده من ناحية أبيه حاخامات يهود لذلك درس في طفولته اللغة العبرية وتتلمذ على العقيدة التلمودية لكنه تأثر في صباه (12 سنة) باندلاع كومونة باريس وهزيمة فرنسا أمام ألمانيا ما دفعه لاحقًا إلى البحث عن قراءات تلبي حاجته إلى معرفة تتخطى الحدود اللاهوتية[287].

آنذاك بدأت الحركة العمالية - الاشتراكية تنمو سياسيًا في فترة شبابه مترافقة مع تنوع الاجتهادات العلمية التي أخذت تعيد النظر بعوامل التطور ومسبباته، فانحاز نحو العلمانية بعد أن تأثر بأفكار جول فيري (العلمانية) وفلسفة كونت (الاجتماعية).

اتجه دوركايم أكاديميًّا إلى الفلسفة، فحصل على درجة دكتوراه في العام 1882 وتحوّل إلى أستاذ لعلم التربية والعلوم الاجتماعية في جامعة بوردو (1887) ثم أنجز أطروحة دكتوراه عن "قسمة العمل الاجتماعي" في العام 1893. بعدها انكب على دراسة مونتسكيو وطور منهجه في خصائص العلم الاجتماعي ما شجعه على إصدار مجلة متخصصة في الميدان المذكور في 1896.

آنذاك وقعت قضية محاكمة الفرد دريفوس (ضابط يهودي اتهم بالخيانة) وكان دوركايم في الأربعين من عمره فأثرت عليه وعلى جيله كثيرًا بسبب ما طرحته من إشكاليات تتصل بالأقليات ومسألة الاندماج وموقعها الجديد في مجتمع يتحوّل بسرعة من نمط تقليدي في العلاقات (تهيمن عليه الكنيسة) إلى هيكل حديث لا يزال يعاني من ترسبات غير قادرة على التخلص من موروثات عنصرية ولاسامية تعترض على دعوات الحرية والمساواة والتسامح[288].

شكلت محاكمة دريفوس في تلك الفترة الانتقالية نقطة تحوّل في تفكير النخبة الأوروبية وخصوصًا الشرائح التي جاءت من روافد اجتماعية بعيدة عن فضاءات الكنيسة. فالنخبة آنذاك لم تعد قصرًا على مجموعات تتخرج من الأديرة أو تتمرد على أصولها الأرستقراطية وإنما أخذت تتشكل وتتلون في أطيافها ومكوناتها ومصادرها ومواقعها من منابت اجتماعية مختلفة. وبسبب هذا

التحول في بنية النخبة الاجتماعية اتجهت عناصرها الرئيسية إلى الاحتجاج والممانعة وبدأت تضغط نحو كسر تلك العقلية المتأخرة التي تنبذ الآخر لمجرد الاختلاف في دينه وثقافته أو عرقه. وأدى الاعتراض إلى تشكيل تيار نقدي في وسط النخبة الأوروبية يبحث، كل على طريقته، عن الأسباب التي تقف وراء هذا النوع من التفكير السطحي.

أصبح دوركايم أستاذ التربية في السوربون في العام 1902، وبدأ يطور منهجه باتجاه نوع من العلمانية - الاجتماعية التي تضمن وحدة المجتمع وترفض التمييز في لحظة إعادة تهذيب الأخلاق المعاصرة. وتحوّلت التربية الاجتماعية، بصفتها وسيلة أخلاقية لإعادة تنظيم المجتمع، عند دوركايم إلى منهجية في التحليل تقرأ الظواهر انطلاقًا من البحث في العوامل والظروف والتنويعات التي تنتج المشكلات. ومن تلك المشكلات التي تفاقمت في عصره ودرسها اجتماعيًّا كانت نمو ظاهرة "الانتحار".

صدر كتاب دوركايم عن «الانتحار» في العام 1897، وشكّل في أيامه محاولة جريئة اعتمادًا على الإحصاءات (الرسمية) للخروج بنظرية اجتماعية تتجاوز أو تدحض كل التأويلات والتفسيرات المتصلة بشأن هذه الظاهرة. ذهب دوركايم إلى عمق المشكلة، ودرس أنواع الانتحار وظروفه وعوامله وتوصل إلى نقض كل ما يقال عن ربطه بالجنون أو الإدمان على الكحول أو السلالة أو الوراثة معتبرًا المسألة اجتماعية. وقراءة دوركايم للانتحار، بوصفه ظاهرة اجتماعية، دفعه إلى تأسيس منهج علمي - فلسفي يؤكد أنه لا يمكن إثبات رابطة علة بمعلول بين ظاهرتين استنادًا إلى وقائع معزولة ومثيرة للفضول وحكايات صغيرة. وبناء على هذا النفي توجه دوركايم إلى تجاوز "المصادفات" وأخذ يبحث عن توافقات وتوازيات، والتغيرات المتزامنة بالعلاقات المتبادلة[289].

اعتمد دوركايم في فلسفته الاجتماعية على قاعدتين نظريتين لتشكيل منظومته المعرفية: الدمج (سيرورة تتيح لمجتمع أن يوجد كوحدة متماسكة على رغم العائق المتمثل بالاختلافات بين الأفراد)، والتقعيد (الضبط) الذي يمثل أحد شروط اشتغال المجتمع (المجتمع يوجد إذا توصل إلى ترتيب رغبات الفرد في اتجاه الأهداف الاجتماعية التي يفرضها عليه دوره).

شكلت هذه السوسيولوجيا، فلسفة في علم الاجتماع المعاصر وتحوّلت إلى مدرسة تحتذى انطلاقًا من قراءة الإحصاءات وإخضاعها للدراسة والتحليل والتفكيك وإعادة الربط العضوي لاكتشاف عناصرها ومسبباتها. ولم يُقدم دوركايم، الذي أخذ "الانتحار" مادة للفحص الاجتماعي،

على هذا الحقل لو لم تكن الظاهرة بدأت في الانتشار وطرحت معضلة علاقة الفرد بالمجتمع وعدم قدرة الإنسان في أيامه على التكيف (الدمج) والتقعيد (الضبط).

جنون العقل (العضوي) في فلسفة نيتشه وظاهرة الانتحار (الاجتماعي) في سوسيولوجيا دوركايم يؤكدان نمو "توافقات" و"توازيات" أخذت تُدخل الفرد في إشكالية غياب الانتماء وضياع الهوية في قارة لم تعرف الاستقرار "الذهني" منذ انطلاق الدفعة الأولى للتحول في القرن الخامس عشر وظهور حركة الإصلاح والتنوير، والتسابق على التسلّح وتخزين القوة.

توفي نيتشه في السنة الأولى من القرن العشرين بينما سيعيش دوركايم ويموت في باريس في 1917 ليشهد السنوات الثلاث من الحرب العالمية الأولى التي اندلعت في 1914. تولّد هذا الانفجار الأوروبـي الذاتي (الانتحار الجماعي) من نتاج ذاك الكم الهائل من المسارات الاقتصادية والعلمية والاكتشافات والاختراعات وتطور الآلة والتقنيات والمختبرات وتوليد الطاقة وغيرها من علوم لعبت دورها في تطوير أدوات المنهج وتنوير الرؤى في حقول الفلسفة والاجتماع، لكنها فشلت في «ضبط» الانزلاق نحو العنف الجمعي.

رحل نيتشه قبل أن يشهد جنون "المخيلة" وما أنتجته مخيلة العلوم من إنجازات لم يكن يتوقع عقل الإنسان حصولها. عاش دوركايم ليرى الطائرة وبداية انتقال البشر من عصر الأرض (السفينة، القطار، السيارة) إلى عصر الفضاء (المنطاد، الصاروخ، والمقاتلة الجوية). وشكّل هذا الانتقال النوعي منعطفًا تاريخيًّا في العلوم العقلية التقنية حين أخذت مخيلة الإنسان تتجاوز "الجنون" لتحلق عاليًا في السماء أو تغوص في عمق البحار (الغواصة).

آنذاك توصل الأخوان أورفيل وويلبر رايت إلى اختراع الطائرة في العام 1903. وأدى هذا "الحلم" إلى نقل الصراع من الأرض إلى الفضاء حين بدأت المجموعات الصناعية تحويل الاكتشاف إلى سلاح جوي. شكّل الاختراع، الذي افتتح القرن العشرين، قوة ضغط لرفع منسوب التنافس ونقله إلى حده الأعلى حين اندلعت الحرب العالمية الأولى. ومنذ لحظة الاختراع بدأت مؤسسات التصنيع العسكري في تجهيز طائرات مصنوعة من هيكل خشبـي خفيف ومجهز برشاش. وجاءت المقاتلة لتعاضد المنطاد الذي أدخله الألمان منذ العام 1915 في الخدمة العسكرية واستخدم لاحقًا لقصف العمق المدني وقتل أكبر كمية من البشر (المدن والبلدات والمراكز الصناعية) بقصد التأثير المعنوي على الخصوم وتعديل موازين القوى في ميدان المعركة الأرضي.

توافق التقدم الجوي مع تطور علوم الملاحة وتقدم صناعة السفن الحربية، أو بناء غواصات أخذت تتطور تقنيًّا من العام 1897 إلى أن دخلت المعركة خلال الحرب العالمية الأولى وأصبحت "الغواصة" تشكل تهديدًا للنقل البحري المدني والبواخر التجارية والموانئ.

وصل الجنون العقلي في نهاية القرن التاسع عشر إلى طور متقدم وأصبح العلم يغذي مخيلة الإنسان التي لا أفق لها. وأدى هذا التحالف المفتوح على كل الاحتمالات إلى تحقيق الأحلام وطموح البشر بالتحليق منذ بدء وعيه من جهة وتأسيس سياق معاصر للتنافس بهدف عبور الإنسان مدار الأرض وسباحته في الفضاء من جهة أخرى[290]40).

جاءت الأحلام الوردية التي نقلت الإنسان من الطاعون الجارف (القرن الرابع عشر) إلى اختراق الفلك الجوي (القرن العشرين) وفق محطات زمنية تراكمية متدرجة وضمن عملية توليفية بين العمران والمعرفة. وهذه المزاوجة بين العقل والعلم رفعت من قيمة النخبة وسعادتها لكنها أيضًا وضعتها في موقع التحدي الدائم ما أدى مرارًا إلى تحويل أحلامها إلى كوابيس[291].

لم يشهد نيتشه هذا التحوّل النوعي (أسلحة الدمار الشامل) حين كان يُنَظِّر للإنسان المتفوق (سوبرمان) من نافذة غرفته في المستشفى. دوركايم عايش "الانتحار" لا بوصفه مشكلة "دمج" و"تقعيد" بين الفرد والمجتمع وإنما بصفته معركة حياة أو موت بين الدول. والصراع من أجل البقاء، الذي تحدث عنه داروين في معركة تطور الطبيعة (الانتخاب الطبيعي)، أو تصدير فائض القوة إلى خارج القارة الذي نصح به ليبنتز زعماء الدول في عصره، انتقل في القرن العشرين إلى البشر وأوروبا، لتأكيد مقولة أنّ البقاء هو للإنسان الأقوى بوصفه مركز الكون ومصدر "العلّة الأولى".

أنتج مبدأ الصراع على البقاء في نهايات القرن التاسع عشر ومطالع القرن العشرين تيارات سياسية أيديولوجية أخذت تتنافس في تنويع مصادر القوة ومنابت "علتها الأولى". والعينات الفردية "الرسمية" التي اعتمد عليها دوركايم لقراءة ظاهرة "الانتحار" من خلال رصد تأزم علاقة الفرد بالمجتمع تحوّلت لاحقًا إلى عينات "جماعية" تقرأ القوة في سياق معايير خطيرة (الدمار الذاتي) دفعت الدول إلى الدخول في سباقات التسلح والفضاء والمختبرات وحقول التجارب لتطوير أدوات القتل من جانب وضمان حق التفوق من جانب آخر[292].

مبدأ البقاء للأصلح الذي بدأ مع داروين في الطبيعة، وانتقل مع نيتشه إلى الإنسان، أخذ في إعادة تشكيل عوالمه وظروفه وأدواته لينتهي إلى تأسيس مدارس بالغت في تركيز عناصر التفوق في الأجنة والأجناس والأعراق والألوان مقابل توجهات اجتماعية وتاريخية تصالحية (إنسانية) مضادة رفضت الأخذ بهذه التوصيفات قياسًا أخيرًا للتراتب الكوني والتمييز بين البشر. وأدى الاختلاف في القراءات إلى إدخال النخبة الأوروبية في مسارات فلسفية - اجتماعية متنوعة التوجهات حاولت تأويل نهضة أوروبا "ولماذا حصل ما حصل" انطلاقًا من مناهج تاريخية بذلت جهدها العقلي والتوثيقي لمقاربة اللحظة الزمنية التي دفعت القارة نحو التطور الانقلابـي السريع في خطواته ومحطاته.

من "أين بدأ التطور وكيف" كان السؤال الأول. إلى "أين ينتهي التطور وما هو الشكل النهائي الذي ستستقر عليه البشرية" كان السؤال الثاني.

سؤال "النهايات" لم ينفصل عن سؤال "البدايات". فالنهاية سواء كانت سعيدة أم شقية، أو بين الدرجتين، اختلفت عليها النخبة، كذلك كان حال البداية ودفعتها التكوينية الأولى.

أكد هيغل في فلسفته (المخطط التاريخي) أن الأنوار بدأت من الشرق (الصين مهد الطفولة) وأخذت بالتطور (صراع الأفكار) والانتقال إلى الهند وبلاد فارس واليونان والرومان وصولاً إلى الجرمان (بروسيا). فالشمس تاريخيًّا أشرقت برأيه من الشرق وستغرب في الغرب. والأنوار التي بدأت في الشرق كانت طبيعية (الشمس) وطفولية وخارج وعي الإنسان بينما هي في الغرب ستكون إنسانية واعية لأن النور (التنوير) سيخرج من داخل الإنسان (ذاته) لا خارجه (الطبيعة)[293].

أخذ ماركس مخطط هيغل التاريخي وأعاد تشكيل محطاته قالبًا آلياته من المثالية (الفكرة) إلى المادة (الاقتصاد) معتبرًا أن النهاية شيوعية حين تنجح الطبقة العاملة (البروليتاريا) في إلغاء التناقض بين نمط "الإنتاج الاجتماعي" وسيادة "الملكية الخاصة". وإنجاز هذه المهمة التاريخية الصعبة (أزمات عالمية دورية مرة كل عشر سنوات تقريبًا) سيؤدي في النهاية إلى تفكك الطبقات (تناقض الأضداد) وغياب الدولة - الطبقة عن مسرح التاريخ بعد أن يتحقق "المجتمع الفاضل" ويبلغ تقدمه الأقصى ما يؤدي إلى استغناء الإنسان عن أدوات الهيمنة والسيطرة والقمع وبالتالي تخطي (اضمحلال) وظائف الدولة[294].

اختلاف فكرة النهايات بين هيغل وماركس لم يمنع اتفاقهما على تعيين فترة النهوض الأوروبـي (البداية). فالبداية المعاصرة عند هيغل وماركس انطلقت من القرن الخامس عشر. قرأ هيغل البداية فكريًّا (فلسفة ديكارت من نتاجاتها الأولية) واعتبر ماركس أن الاكتشافات الجغرافية شكّلت المنعطف في السياق الطبيعي الكوني لنمو "الرأسمالية" حين تحوّل الإنتاج من بضاعة للاستهلاك الفردي إلى فائض يتجاوز حاجة السوق ويحتاج إلى تصدير وتوسيع الدائرة لاحتوائه.

الرأيان انطلقا من لحظة زمنية متقاربة. الأول فلسفي - تنويري، والثاني جغرافي - اقتصادي. وهذا ما جعل ماركس يختلف عن هيغل في تصوره "المادي" حين قرأ الماضي انطلاقًا من آليات الحاضر وانكسارات المستقبل. أسس الاختلاف بين المنهجين منهجية ثالثة قرأت اللحظة المفارقة لتطور أوروبا انطلاقًا من الدين (حركة الإصلاح البروتستانتية) بوصفه ذاك الإطار الاجتماعي - التاريخي لحركة الاقتصاد وتنوعه الإنتاجي.

فيبر ودور الدين في الإصلاح والنهضة

الاتجاه الجديد في قراءة البدايات، أسسه ماكس فيبر في آلية تاريخية - فلسفية بدأت مخططها من القرن السادس عشر. أثار التعديل الذي أدخله فيبر على العوامل الدافعة (العلة الأولى) نقاشات بشأن التوقيت ودقته الزمنية ومدى صحة دور الدين في إنتاج التطور الحديث وبالتالي إمكانات تكيف المسيحية المعاصرة مع مدارس إلحادية ومادية أخذت تنتشر وتهيمن على عقل "النخبة" وجنونها المعرفي[295].

ولد فيبر في آرفورت في 1864 (السنة التي بدأت فيها الولايات المتحدة بالخروج من آثار الحرب الأهلية والظهور كدولة كبرى). درس في هيدلبرغ وستراسبورغ وغوتنفن (1882-1886) القانون واستخدمه منهجًا رياضيًّا في كتابة أطروحته عن "الملكية والمجتمع التجاري". درجة الدكتوراه التي حصل عليها فيبر في 1889 أهلته ليصبح رجل قانون في العلوم القضائية في 1892، ما وفر له فرصة للاطلاع على وثائق الملكية في أرشيف جامعة برلين وجامعات أخرى حين عمل أستاذًا في فلسفة القانون (القضاء) واللاهوت والتاريخ والاقتصاد السياسي بين 1893 و1897. بعدها غادر مهنة التعليم في 1903 ومارس القضاء فترة قصيرة، ثم تفرغ للإشراف على إصدار مجلة اجتماعية في 1904 قام خلالها برحلة استكشافية إلى أميركا ليتعرف على خصوصيتها "الرأسمالية" المختلفة في

تكوينها التاريخي - الاجتماعي عن رأسمالية أوروبا، كما سبق ولاحظ توكفيل الأمر حين زار أميركا في العام 1831-1832[296].

كتب فيبر في العامين 1904-1905 مجموعة نصوص انتقد فيها الماركسية معتمدًا على نظرية ترابط العلوم ودور الدين في تشكيل الاقتصاد وهو ما عرف لاحقًا بعلم الاجتماع الديني. وشكلت ملاحظاته البسيطة محاولة لضبط الفلسفة في إطارات عقلانية تتخطى موجة "تغيير العالم". فالعقلنة برأيه تعيد تركيز الفكرة على سكة حديد قانونية لا شعبوية. خلال هذه الحقبة تأثر فيبر بفلسفة كانط (العقلانية) ومدرسة هيغل التاريخانية ومنهجية ماركس الاقتصادية (التحليل والتفكيك) ولغة نيتشه المجنونة (الانفعالية) ليؤسس رؤية مستقلة في قراءة علم الواقع (العلم بالواقع) تطورت إلى نظرية خاصة في فهم الأشكال التاريخية والأنماط الاجتماعية وكيفية تكوينها.

اجتهاد فيبر في تطوير علوم الاقتصاد السياسي التاريخي ساعده على تجاوز الماورائية (الوقائع الماورائية) وتكوين رؤية تاريخانية أخذت تدرس التشكيلات الاجتماعية كالدولة والمنظمات الحرفية والمجتمعات العاملة والهيئات المهنية والمؤسسات انطلاقًا من الربط العقلاني (الكانطي) بالمنهج التاريخي (الهيغلي/الماركسي) بالمعرفة القانونية واتصالها بالمعرفة العينية (الوثائق وأنظمة الملكيات) والتشكيلات الاجتماعية. فهذه التشكيلات تمثل برأيه تطورات تاريخية نمطية وجملة نشاطات نوعية لأشخاص مفردين ضمن شبكة من العلاقات الاجتماعية[297].

بدأت المعرفة القانونية بالتاريخ الاجتماعي للتشكيلات عند فيبر حين درس قانون التجارة في المدن الإيطالية والتاريخ الزراعي لروما، ما فتح له باب تأسيس نظرية تكشف العلاقة بين القانون العام والملكيات الخاصة (صكوك التملك) وأنظمة التجارة (الوقائع العينية). وأدت هذه المعرفة بالقانون بوصفه الإطار التاريخي الذي ينظم العلاقات الاجتماعية ويرتبها في سياقات اقتصادية (مواثيق التجارة والزراعة والعقار) إلى استنتاج فيبر بأن البروتستانتية في القرن السادس عشر شكلت ذلك الدافع الأول (الحافز أو المحرك) لنمو الرأسمالية المعاصرة في أوروبا وانتقالها العيني من الجنوب إلى الشمال والغرب.

كان الإصلاح الديني بداية التطور المعاصر في رؤية فيبر الفلسفية، وهو شكل خطوة تاريخية في كسر الأنماط الإنتاجية للتشكيلات الاجتماعية التي تتضمن خريطة طريق قانونية للملكيات والأنظمة

وشبكة المنظمات الحرفية والهيئات المهنية. وشكّلت هذه الشبكة الموروثة النواة الأولى للتراكم الأولي للرأسمالية المعاصرة في ظل إطارات إصلاحية دينية[298].

واجهت نظرية فيبر عن الدفعة الأولى (أصول التطور الأوروبـي) ردود فعل سلبية من جانب القوى الماركسية التي اعتبرتها قوة اعتراض مثالية على المدرسة المادية، وردود فعل إيجابية من جانب القوى التي ترى في الإصلاح الديني نقطة عبور للحداثة. إلا أن النقاش تجاوز الإطار الزمني حين ردّ على فيبر خبراء في التاريخ الأوروبـي أكدوا أن بدايات الرأسمالية تشكلت اجتماعيًّا في شمال إيطاليا قبل ظهور "البروتستانتية" بفترة قصيرة.

الاختلاف على "العلّة الأولى" وأسبابها وعواملها وظروفها لم يحسم بين المدارس الأوروبية حتى الآن، لكن مختلف الفروع الفلسفية (النخبوية) تؤشر مجتمعة إلى القرن الخامس عشر لما شكله من منعطف تاريخي في مسار الحضارات. وأهمية فيبر في هذا المعنى أنه نجح في توليد حوار اضطره لاحقًا إلى تغيير رأيه في فترة التوقيت دون أن يتراجع عن منهجه الفلسفي القانوني في قراءة تاريخ التشكيلات الاجتماعية وترابطها العياني مع الدين ودوره المبكر في قيادة التحول الجنيني[299].

شهد فيبر الذي توفي في ميونيخ في 1920 في حياته الكثير من المتغيرات البنيوية وعاصر حروب الانتحار (الدمار الذاتي) وعايش نهاياتها الحزينة التي أدت إلى استخدام أسلحة الدمار الشامل (القنابل الكيماوية والبيولوجية والغازات السامة والخردل) وقوّضت المدن وقضت على 15 مليون نسمة في أوروبا وغيّرت خريطة العالم السياسية (تفكك السلطنة العثمانية وانهيار الإمبراطورية النمسوية - الهنغارية وهزيمة ألمانيا وانتصار الثورة البلشفية في روسيا) وأنتجت موازين قوى دولية صاغت ما يسمى بالنظام العالمي الجديد.

النظام العالمي الجديد الذي بدأ تأسيسه في مؤتمر فيينا في العام 1815 تطورت نواته الأولى ليعاد توليفه وتحديثه في مؤتمر برلين في 1878 ثم أعاد إنتاج قوانينه وترتيبها في ضوء نتائج الحرب العالمية الأولى في فرساي[300] .

شملت معاهدة فرساي التي وُقعت في العام 1919 بين ألمانيا (دول المحور) ودول الحلفاء في باريس 434 مادة أهمها المادة 231 التي حمّلت ألمانيا مسؤولية الحرب وطالبتها بدفع تعويضات مالية والتخلي عن مستعمراتها وراء البحار (آسيا وإفريقيا) والتنازل عن الألزاس واللورين لفرنسا.

شكلت المعاهدة ذلك "البرزخ" الجغرافي - التاريخي بين لحظة تراجع أوروبا عن موقع الريادة والقيادة (النموذج العالمي) وبين بدء ظهور الولايات المتحدة، كقوة قاهرة عظمى، على المسرح الدولي[301].

6
خلاصات

حين وضع هيغل مخططه التاريخي لعالم تطور الأفكار من الشرق (الصين) إلى الغرب (بروسيا) في عشرينات القرن التاسع عشر أخرج أميركا من مشروعه بذريعة أن شخصيتها التاريخية لم تتبلور بعد وهي لا تزال في طور التشكل[302].

أخرج هيغل أميركا من مخططه التاريخي، لكنه لم يخرجها من التاريخ. إذ توقع في محاضراته الفلسفية أن يلعب الدين دوره الخاص في تكوين شخصية أميركا في اعتبار أنها تأسست على قواعد جديدة (مهاجرون) لا تتوافق في نمطيتها التقليدية مع القارة الأم (أوروبا). كذلك، تحدث عن آليّتين لتطوّر منظومة الأفكار فهي من جهة تتقدم ذاتيًّا، وهي أيضًا تنتقل من مكان (ضفة) إلى آخر. وهذا ما حصل تقريبًا في خمسة قرون.

خلال القرن الخامس عشر أخذت أوروبا تكتشف طريقها بعد أن ضربها مرض الطاعون في القرن الرابع عشر وأودى بحياة ربع سكانها. شكّل الوباء نقطة تحوّل في وظيفة الكنيسة. فالخوف من الموت فرض على الإكليروس القبول بالعلم (المختبرات) ودوره في إنقاذ الناس من احتمال الانقراض. وساهم المرض في فتح نافذة في جدران الكنائس وسمح للعلم (المختبرات) باختراق إرشاداتها ومواعظها والدخول إلى هياكلها استجابة للحاجة وليس رغبة ذاتية للتقدّم. وبعد أن تغلبت أوروبا على المرض الأصفر لم يعد بإمكان الكنيسة التراجع عن خطوتها. فالعلم المعطوف على دافع البحث عن الحقيقة (العلة الأولى) والانفتاح على معرفة الآخر تحوّل إلى حاجة أخذت تخترق الأسرار المقفلة. وبعد تجاوز خطر الموت أخذت النخبة السياسية الأرستقراطية تشجّع على تطوير المعرفة، وبدأت تتّجه نحو

البحث عن منافذ بحرية وخطوط تجارة بديلة تساعدها في تكوين قواعد اقتصادية مستقلة عن جارها المسلم.

الاكتشافات الجغرافية كانت خطوة أولى نحو ارتقاء درجات التقدم لاحقًا. فهذه الاكتشافات فتحت أمام القارة مسارات النمو الذاتي وتراكم الثروة ما ساهم في توفير قاعدة عمرانية للتفكير في صوغ إطارات تضمن الاستقرار والرفاهية. وأعطى التفكر في المستقبل شرارة للعقل للبحث في وسائل معرفية تدفع بالإنسان نحو رؤية تتجاوز حدود القرية أو الدائرة الصغيرة التي يتحرك فيها.

جاءت الخطوة الأولى من الجغرافيا البحرية (البوصلة، حركة النجوم، كروية الأرض ودورانها، مركزية الشمس) التي انفتحت على آفاق دولية في القرن الخامس عشر وعززت قوة السفينة ودورها في نقل البضاعة، كما أنها ساهمت في تطوير الاحتكاك الثقافي وانفتاح العقل على آفاق لا محدودة، وصقل المعرفة بأدوات قومية وأبعاد إنسانية (الجغرافيا السياسية).

بعد هذه الخطوة بدأ الإنسان الأوروبي يتحرك لكسر الإطارات الكنسية التقليدية التي كانت تكبل وعيه وتثقله بالمخاوف والمجهول. فجاءت الحركة البروتستانتية التي وضع حجر أساسها الداعية مارتن لوثر في القرن السادس عشر. وبدأت حركة الإصلاح تشق طريقها من الدين (المسيحية) إلى الكنسية (المؤسسة) حين طالب لوثر بالعودة إلى الأصول والجذور ومنع البابوية (الفاتيكان) من التدخل اليومي في حياة الناس.

جاءت الخطوة الثانية من الدين لما يمتلكه من شرعية تاريخية وديناميات ذاتية تعطيه قوة دفع للتوحيد والتجاوز، وهذا ما أعطى اللوثرية زخمًا شعبويًّا هدد سلطة الفاتيكان وأدى لاحقًا إلى كسر هيبة الكنيسة الكاثوليكية وتشطيرها إلى نصفين ما ساهم في توليد انقسامات وتجاذبات أهلية دفعت القارة إلى الدخول في حروب دينية مزقت المعادلة الأهلية في فرنسا وألمانيا وإسبانيا وإيطاليا وهولندا. امتدت الحروب الدينية نحو 36 عامًا قتل وجرح وشرد خلالها الملايين من البشر. إلا أن أوروبا التي عاشت الأهوال المدمرة من العام 1562 إلى العام 1598 خرجت بشخصية جديدة بعد أن أنهكت قواها وفشلت كل الأطراف المتقاتلة في تسجيل انتصار كلي ونهائي. شجّع هذا التوازن السلبي في المعادلة الكاثوليكية - البروتستانتية على نمو رغبة في الهدوء والاستقرار والتعايش ترافقت مع دعوات إلى توقيع اتفاقات سلمية بين الأطراف. فالسكينة لم تعد رغبة مؤجّلة للآخرة وإنما سياسة تطمح النخبة إلى انتزاعها في حاضرها وحياتها[303].

انتهاء الحروب الأهلية - الدينية بالسلام الاجتماعي، أدخل أوروبا عنوة في عصر الدولة المدنية والدعوة القومية. فمنذ القرن السابع عشر سيظهر دور الجامعات والمؤسسات التعليمية كقوة موازية لثقافة الكنيسة، وسيبرز إلى سطح الفلسفة السياسية مفهوم "المواطن". فالفرد لم يعد رعية تتبع الكنيسة البابوية وإنما قوة منتجة تتشخصن في إنسان مستقل يرتبط بالدولة الوطنية ما أدى إلى تراجع علاقة الفرد بالهوية الدينية مقابل تطور المواطنة على أساس قومي. فالدين لم يعد يشكل أساس العلاقة بين الفرد والسلطة السياسية بعد أن أقتصر دوره على الروحانية والسلوك الاجتماعي. وهكذا أخذت ساحات أوروبا تشهد بدايات فك ارتباط بين الراعي (الكنيسة) والرعية (التابع)، ما أتاح فرصة تاريخية لظهور جمهوريات وممالك دستورية تأسست على قاعدة "التوحيد القومي".

المرحلة القومية اشتد ساعدها بعد تجاوز أوروبا تداعيات انتفاضات وثورات القرنين السادس عشر والسابع عشر. إلا أن تلك المرحلة القومية لم تكن سلمية دائمًا على رغم أنها ترافقت مع نهوض الطباعة وانتشار الكتاب وحدوث ثورة علمية متأثرة بتداعيات تلك الاكتشافات الفلكية والفيزيائية التي توصل إليها كوبرنيكس وغاليليو وكبلر وصولا إلى إسحق نيوتن. فالعلم بدأ يشق طريقه رويدًا تاركًا تأثيراته المعرفية على الفلسفة السياسية ما أعطى المفاهيم الفكرية قوة دفع إضافية ساهمت في تطوير مفردات لغوية، وإعادة تأسيسها في سياقات نسقية تتضمن روحية قيمية جديدة[304].

دخلت المرحلة القومية لاحقًا في منعطفات داخلية شجعت الدول على الانزلاق في حروب دفاعًا عن المصالح والحقوق. فالحروب الداخلية (توحيد السوق القومية) والخارجية (الدفاع عن الحدود والمصالح) لم تعد دينية بقدر ما أصبحت اقتصادية ونفعية. ودفع هذا النوع من التطور، الذي بلغته أوروبا في القرن السابع عشر، المعرفة نحو البحث عن صيغ تتناسب وحاجات العصر ومتطلباته سواء على مستوى تصحيح العلاقة بين المواطن والدولة أو بين الدولة والكنيسة أو بين الدولة ودول الجوار المنافسة. في هذه المرحلة، مرحلة البحث عن هوية متجانسة مع التطور العمراني، اشتهرت مقولة ديكارت (1591-1650) عن العقل (أنا أفكر إذن أنا موجود)، وظهرت كتابات توماس هوبز (1588-1679) عن الدولة وخضوع البشر للحاكم، وصاغ ريتشارد أوفرتون (1600-1660) نظريته عن الطبيعة الإنسانية والحق الطبيعي ولكل إنسان ملكية ذاتية، وأيضًا وضع سبينوزا (1632-1677) قواعد عقلانية للتفكير الديني وعلاقة الإنسان بالخالق[305].

كانت أفكار ديكارت وهوبز وأوفرتون وسبينوزا بدايات النهضة الفكرية وظهور فلسفة سياسية معاصرة تتعامل مع الواقع برؤية عقلانية تعتمد على الطبيعة منطلقًا للقراءة التاريخية. وشكّلت هذه البدايات التأسيسية مادة للبناء عليها وإعادة هيكلة هرمية معرفية أشعلت العقول وترافقت أو توافقت مع الانتفاضات والحروب الأهلية والتوحيدية والاستقلالية التي شهدتها تباعًا كل من إنكلترا (بريطانيا) والولايات المتحدة وفرنسا. فالنخبة في هذا الطور الزمني ستنتج معرفتها الموسوعية المعطوفة على مراكز قوى أخذت ترفد الدولة بتصوّرات متخيّلة عن المستقبل[306].

الفكر الحديث الذي انتقل لاحقًا من حدوده الجغرافية القومية إلى إطاره العالمي تأسس على الثورات الثلاث (بريطانيا، أميركا، وفرنسا) التي أطلقت ديناميات دولية كان لها أثرها الأيديولوجي في تصدير تلك المفردات والمصطلحات إلى مختلف أطراف الكون.

في البدء كانت بريطانيا السبّاقة، فمنها بدأت حرب التوحيد (انضمام أسكتلندا إلى إنكلترا) وثم انتفاضة جمهورية قادها أوليفر كرومويل انتهت بحرب أهلية وعودة بريطانيا إلى الملكية الدستورية في العام 1688. ظهرت في هذه الفترة وبعدها كتابات جون لوك (1632-1704) الذي أكد على الفردية والملكية الخاصة وحرية الصحافة والسوق الحرة والمساواة. لوك كان من الأوائل الذين وضعوا قواعد نظرية للفلسفة السياسية المعاصرة (العقد الاجتماعي) حين أكد أن حرية الضمير حق طبيعي لكل إنسان وبأن الناس جميعًا بحكم الطبيعة ولدوا أحرارًا ومتساوين ومستقلين.

بدأت مسألة "الحقوق"، في طبعتها المعاصرة في بريطانيا، حين صدرت في وثيقة في العام 1688. وأهمية لوك في هذا المضمار أن أفكاره ساهمت في وضع الأصول الأولى لوثيقة "الحقوق" ما أدى إلى تحويل بريطانيا إلى نموذج يحتذى في أوروبا والعالم الجديد (أميركا)[307].

إلى كتابات لوك عن التسامح والتعايش والدولة الدستورية عرفت أوروبا الكثير من الفلاسفة السياسيين. ففي أسكتلندا ظهر ديفيد هيوم (1711-1777) ونظرياته عن الاجتماع البشري. وخرج كتاب الاقتصادي آدم سميث (1723-1790) عن السوق و"ثروة الأمم" ومقولات العدل أساس المجتمع المدني والمصلحة المشتركة وتقسيم العمل وتعاون البشر. وانتشرت كتابات توماس باين (1737-1809) عن حقوق الإنسان والحق الطبيعي بالعدالة (البشر متساوون في نظام الخلق).

أخذت كل هذه الروافد الفكرية البريطانية ـ الأوروبية تتجمع في أميركا (العالم الجديد) وبدأت تشق طريقها لتوليد انتفاضة استقلال ضد الحكم الاستعماري البريطاني. وشاءت المصادفة أن تلعب أفكار لوك دورها في التأثير في عقول قادة الثورة الأميركية فأقدم توماس جيفرسون (1743-1826) على كتابة وثيقة إعلان الاستقلال في يوليو/تموز 1776 التي تضمنت فقرات تشير إلى الحقوق الطبيعية للإنسان (الناس خلقوا متساوين) وواجب الدولة حماية الحقوق[308].

"وثيقة الاستقلال" الأميركية تعادل "وثيقة الحقوق" البريطانية في أهمّيتها من جانب تضمينها مصطلحات شكلت قواعد تفكير لرجال الدولة وفقهاء القانون. فالثائر جيفرسون أصبح لاحقًا رئيسًا للجمهورية (الولايات المتحدة) وساهم في وضع دستورها الذي نهضت عليه الدولة ما أعطى موادها قوة القانون. وبسبب هذه القوة تولّدت في الولايات المتحدة حركات فكرية مناهضة للعبودية (تجارة الرقيق) أخذت تطالب بإلغاء نظام الرق الذي ازدهر في أميركا منذ العام 1502. أنتج القانون، الذي ساهم الرئيس الأميركي في صوغ قواعده الاستقلالية ـ الدستورية، سلسلة حلقات من رجال الدولة (أعضاء كونغرس أو رؤساء) والصحافة (كتّاب أحرار) أخذوا على عاتقهم مهمة الحض على تحرير الأفارقة.

ثورة الاستقلال الأميركية، المعطوفة على وثيقة الحقوق البريطانية، أسهمت في توليد قناعات فكرية عند النخبة الفرنسية أخذت تتطور تباعًا لتتشكل منها مجموعة بحوث فلسفية ودستورية وأدبية صاغتها أقلام فولتير ومونتسكيو وروسو. جان جاك روسو توفي في العام 1778 فجأة وقبل 11 سنة من اندلاع الثورة الفرنسية. إلا أن تأثيراته الفلسفية على فكر الثورة الفرنسية كانت قوية إذ استمدت بعض مقولاتها من كتابه الشهير "العقد الاجتماعي". فالعقد بين الدولة والمجتمع صاغه روسو على أساس القانون (كل دولة تدار بقوانين مهما كان شكل إدارتها) والمصلحة العامة/المشتركة وحق الشعب في اختيار دستوره (يجب أن يكون الشعب الخاضع للقوانين واضعًا لها)[309].

تشكل الثورة الفرنسية الرافد الثالث لمنظومة "حقوق الإنسان". فالثورة صاغت دستورها المدني وأطلقت وثيقة مدنية (الإعلان الفرنسي) في نوفمبر/تشرين الثاني 1789 وهي اشتهرت لاحقًا بوثيقة حقوق الإنسان. ولعبت الوثيقة دورها في التأثير على وعي النخبة الألمانية (أكاديميون، صحافيون، رجال دولة، طبقة وسطى) إذ أخذت الشريحة المتقدمة من الفلاسفة تنتبه إلى مكونات نظرية

الحقوق التي صاغتها الوثائق الثلاث البريطانية والأميركية والفرنسية. ولم يتأخر الوقت حتى ظهرت فلسفة ألمانية رائدة في زمانها قادها أمانويل كانط (1724-1804).

يعتبر كانط المؤسس الحديث لنظرية الحقوق إذ نجح في تكوين عناصرها الفلسفية بناء على مقولات الحرية والمساواة واستقلال كل شخص. فالحقوق برأيه تتكون من تقييد حرية الآخرين ما دفعه إلى تنظيم العلاقة بين الحاكم والمواطن ضمن شروط صنفها في أطر ثلاثة: حرية كل فرد في المجتمع بوصفه إنسانًا، ومساواة كل فرد مع الآخرين بوصفهم رعايا، واستقلال كل فرد في الدولة بوصفه مواطنًا. وبناء على هذه الشروط المتبادلة نجح كانط في وضع قواعد معاصرة للدولة المدنية[310].

بعد كل هذه التحولات انفتح الفكر الأوروبـي وتطور عالميًّا وانتقلت المفاهيم من كونها تنظم دستوريًّا علاقة المواطن بالدولة في النطاق القومي إلى رؤى تنظم علاقة الإنسان بالإنسان في النطاق الكوني.

انتقال مركز القوة من مكان إلى آخر مسألة تاريخية وهي حصلت في مختلف العصور. حتى على المستوى الفكري أشار هيغل مرارًا إلى أن حركة الأفكار تتطور ذاتيًا وتتقدم وترتقي من الأدنى إلى الأعلى، وهي أيضا تتنقل من محطة إلى أخرى وتتدحرج من مكان إلى آخر مترافقة مع تحولات أو انكسارات أو متغيرات تعطي قوة دفع للنخبة حتى تقوم بوظيفتها التاريخية. وهذا ما حصل بين أوروبا وأميركا.

حققت أميركا في فترة قياسية زمنية قفزات غير متوقعة. فهي منذ اكتشافها في 1492 إلى استقلالها التام والنهائي في 1783 نجحت خلال 291 سنة في تكوين نواة نخبة صلبة لتأسيس دولة واعدة. وهي منذ اعتراف بريطانيا رسميًا باستقلالها وصولاً إلى نهاية الحرب الأهلية نجحت في اجتياز اخطر امتحان لها بعد 72 سنة من تحولها إلى دولة مستقلة. وهي استطاعت في أقل من 54 سنة دخول المعترك السياسي والانتقال إلى شريك دولي منافس في عصبة الأمم.

لم تتأسّس هذه القفزات السياسية والاقتصادية والعسكرية على أوهام وإنما على وقائع ومعادلات وأرقام وخرائط جغرافية ومواقع نفوذ. وكل هذا أعطى دفعة معنوية باتجاه بدء الدولة الجديدة (الصاعدة) في إنتاج نخبها الخاصة والذهاب فكريًا نحو الاستقلال الفلسفي عن القارة الأم والدخول في سياق التنافس وتصدير «أيديولوجيتها» و«نموذجها» المغاير إلى أوروبا والعالم. آنذاك كان تشارلز

ساندرز بيرس (1839-1914) أنجز صوغ فلسفته التي عرفت بـ «البراغماتية» وأيضًا كان زميله الأميركي ويليام جيمس (1842-1910) قد أصدر كتابه عن «البراغماتية» في العام 1907. وجاء تأسيس بيرس/جيمس لتلك الفلسفة الجديدة ليتوافق مع شخصية الدولة الصاعدة وهويتها إذ تطابقت مع نمو النزعة السياسية البراغماتية التي أخذت تتشكل في إطارات الديمقراطية الجديدة وتميزت في خصوصيتها وحيويتها ومرونتها وفي قابليتها للتكيف مع مبادئ المعنى والحقيقة عن الفلسفة الأوروبية[311].

أخذت مبادئ «البراغماتية» تتوالد مع الدولة الجديدة التي أسست آليات خاصة للتقدم السريع تجاوزت أوروبا في فترة زمنية قياسية لا تتعدى 136 سنة، وهي في هذا المضمار تعتبر الفلسفة الجديدة روح السياسة الأميركية وتشكلها التاريخي المختلف عن نمط أوروبا ومنظومتها المعرفية. وحين انتقلت الولايات المتحدة من مجالها الجغرافي إلى مداها الأوروبي/الدولي كانت «البراغماتية» في إطارها الفلسفي سبقت الدولة في الانتقال وعبور الأطلسي بالاتجاه المعاكس الذي سار عليه وسلكه كولومبوس في رحلة البحث عن طريق جديد للهند قبل 422 سنة.

لم يتوقف مسار "النخبة الأوروبية" التطوري عند العام 1920. بعد هذه الفترة ستحصل تطورات دراماتيكية في العلاقات الدولية ستؤدي إلى تراجع موقع أوروبا وصعود الولايات المتحدة. لذلك كان لا بد من توقّف الكتاب عند هذه اللحظة الفاصلة للأسباب الآتية: أولاً نهاية الحرب العالمية الأولى في 1918 وتوقيع معاهدة فرساي في 1919، وثانيًا بدء انتقال الثقل الدولي من القارة القديمة إلى الجديدة.

يشكل العام 1920 ذلك الفاصل بين تاريخين حديثين الأول بدأ في القارة الأم والثاني انتقل إلى القارة الوليدة (المكتشفة) التي أخذت زمام المبادرة وباشرت بلعب دور الرعاية (المظلة الأمنية) لدول أصبحت بحاجة إلى عناية حتى لا تتعرض إلى مضاعفات ناجمة عن ازدواجية في التعامل مع معايير معرفية تنافست "النخبة" على تخليقها خلال الفترة التي امتدت من مطلع الخامس عشر إلى مطلع القرن العشرين.

بعد هذه الفترة دخل الشريك الراعي على خط التنافس على المستويين العمراني والمعرفي. فأميركا بعد معاهدة فرساي ستدخل المنظومة الدولية من النافذة الأوروبية وستصبح قوة لا غنى عنها

لتحقيق التوازن في مواجهة المعسكر الشرقي (الاتحاد السوفياتي ومنظومته الاشتراكية)، لذلك كان لا بد من التوقف عند 1920 وهو العام الذي تصادف فيه رحيل ماكس فيبر.

بعد هذا التاريخ لم يعد بالإمكان مواصلة البحث التدريجي لتطور أفكار النخبة الأوروبية في السياق السابق، نتيجة انعطاف مركز القوة من شرق الأطلسي إلى غربه ما أدى إلى اختلاف منهج المسار العمراني الذي تأسست عليه المعرفة. فالنخبة الأوروبية التي انتقلت تاريخيًّا من لحظة عمرانية إلى أخرى كانت قادرة على التكيّف والتقاط حاجات المرحلة ولعبت دوراً في دفع التقدم إلى الأمام والأعلى، وهي بهذا التدرج الزمني كانت متجانسة مع أصولها ومنابتها الاجتماعية ووظائفها المعرفية في كل محطة وموجة.

جاءت الموجة الأولى عمومًا من الكنيسة والأديرة والرهبانيات وتركز وعيها على حل إشكاليات تتصل بالفلك والكون والكواكب ورصد حركة النجوم ومواقعها ومراكزها ومراكمة المعلومات لتسهيل عبور السفينة إلى عمق البحار، الأمر الذي ساعد على انتقال المعرفة من طور القول بمركزية الأرض إلى طور القول بمركزية الشمس.

الموجة الثانية جاءت في معظمها من عائلات أرستقراطية أخذت تواجه التحولات بعقليات متفاوتة في تعاملها مع آليات العمران، لذلك تركز وعيها على حل إشكاليات تتصل بالعقل والطبيعة وموقع الإنسان ومركزه في إطار العلاقة مع الصانع (العلة الأولى).

الموجة الثالثة أخذت تتوالد من المعاهد والجامعات، وهي جاءت متنافرة في أصولها الاجتماعية ومنابتها الثقافية ما أعطى المجال لنمو حال من الفوضى المعرفية التي أسفرت عن تداعيات أنتجت تيارات بدأت تتنافس على تفسير الكون ومصدر "العلة الأولى" بمنهجيات خالفت الموروثات الدينية والفلسفات الكلاسيكية التي تراكمت في المكتبات منذ العهد اليوناني.

بعد الموجة الثالثة انفلشت المعرفة وبلغت درجة الإشباع والفائض، وانشطرت "النخبة" إلى اختصاصات - كما ذكر برتراند راسل في مخططه التاريخي - ما فتح الآفاق على عالم آخر من الاجتهادات البراغماتية المعطوفة على ما ورائيات معاصرة تعيد إنتاج المعرفة في إطارات عمرانية تتسابق على كسب المعركة النهائية، الأمر الذي جرجر العالم إلى حرب كونية أولى أعطت فرصة للولايات المتحدة بمصادرة موقع القارة الأوروبية وأخذ المبادرة منها[312].

معرفيًّا يمكن القول أن عقل "النخبة الأوروبية" عبر ثلاث محطات في الموجات الثلاث، بحسب التقسيم التدرجي الذي صاغه ابن خلدون لتطوّر العقل في مقدمته. فالعقل برأيه يتمظهر في درجات يرتقى إليها في مراتب ثلاث في تطوره الزمني (حقبات معرفية). في الحقبة الأولى تعرفت أوروبا على "العقل التمييزي" الذي يحاول استكشاف الحقائق البسيطة. وفي الثانية تعرفت على "العقل التجريبـي" الذي يعتبر درجة أعلى من حيث تعامله الميداني مع الحقائق المركبة من عناصر متخالفة. وتعرفت أوروبا في الحقبة الثالثة على "العقل النظري" حين ارتقت النخبة إلى سوية اكتشاف المفاهيم والبدء في تحديد المصطلحات والنماذج التي تساعد على قراءة التطور وتفكيكه وإعادة تركيبه في إطار شمولي وسياق زمني[313]. وهذا ما انتهت إليه قبل انتقال القيادة إلى الضفة الأخرى من المحيط الأطلسي.

مراجع الكتاب ومصادره

المراجع العربية

- ألتوسير، لوي. مونتسكيو - السياسة والتاريخ. ترجمة نادر ذكرى، الطبعة الأولى، بيروت: دار التنوير، 1981.

- إنغلز، فريدرك. ضد دوهرنغ. موسكو: دار التقدم، 1984.

- بارجوني - هورو، مارسيل. ديكارت. ترجمة جوزيف سماحة. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1974.

- باشلار، غاستون. تكوين العقل العلمي - مساهمة في التحليل النفساني للمعرفة الموضوعيّة. ترجمة خليل أحمد خليل. الطبعة الأولى. بيروت: المؤسسة الجامعيّة للدراسات والنشر والتوزيع، 1981.

- برنيري، ماريا لويزا. المدينة الفاضلة عبر التاريخ. ترجمة عطيات أبو السعود. الكويت: عالم المعرفة، 1997.

- بشارة، عزمي. الدين والعلمانيّة في سياق تاريخي - الجزء الأول. المركز العربـي للأبحاث ودراسة السّياسات، بيروت، الطبعة الأولى 2013.

- البطريق، عبد الحميد؛ نوار، عبد العزيز. التاريخ الأوروبـي الحديث (من عصر النهضة إلى مؤتمر فيينا). بيروت: درا النهضة العربية، 1971.

- بوتشر، مارغريت جوسيت. السود في أميركا. ترجمة ممدوح حَقي. الطبعة الأولى. بيروت، الدار البيضاء: دار الكتاب، 1964.

- بودلو، كريستيان؛ استابليه، روجيه. دوركايم والانتحار. تعريب أسامة الحاج. الطبعة الأولى. بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1999.

- تيرنر، بريان. ماركس ونهاية الاستشراق. ترجمة يزيد صايغ. الطبعة الأولى. بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، 1981.

- جعيط، هشام. أوروبا والإسلام (صدام الثقافة والحداثة). الطبعة الأولى. بيروت: دار الطليعة، 1995.

- جوليان، كلود. الإمبراطورية الأميركية. ترجمة ناجي أبو خليل وفؤاد شاهين. بيروت: دار الحقيقة، 1970.

- خاتمي، محمد. مدينة السياسة (فصول من تطور الفكر السياسي في الغرب). ترجمة رشا الأمير ولقمان سليم. الطبعة الأولى. بيروت: دار الجديد، 2000.

- داروين، تشارلز. أصل الأنواع. ترجمة وتقديم إسماعيل مظهر. بيروت، بغداد: مكتبة النهضة، 1971.

- دو توكفيل، الكسيس. الديمقراطية في أميركا. ترجمة أمين مرسي قنديل. القاهرة. لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1962.

- دولوز، جيل. نيتشه. تعريب أسامة الحاج. الطبعة الأولى. بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1998.

- دوُهيم، بيار. مصادر الفلسفة العربية. ترجمة أبو يعرب المرزوقي. قدّمه روجى ارنالداز قرطاج: بيت الحكمة، 1989.

- ديكارت، رينيه. حديث الطريقة. ترجمة عمر الشارني. الطبعة الأولى. بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2008.

- روزنتال، م؛ يودين، ب. الموسوعة الفلسفية. ترجمة سمير كرم. الطبعة الأولى. بيروت: دار الطليعة، 1974.

- روسو، جان جاك. العقد الاجتماعي (مبادئ الحقوق السياسية). ترجمة عادل زعيتر. الطبعة الثانية. بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، 1995.

- خطاب في أصل التفاوت وفي أسسه بين البشر. ترجمة بولس غانم. الطبعة الأولى. بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2009.

- زكريا، فؤاد. إسبينوزا. الطبعة الثانية. بيروت: دار التنوير، 1983.

- زيناتي، جورج. رحلات داخل الفلسفة الغربية. الطبعة الأولى. بيروت: دار المنتخب العربـي، 1993.

- سبيلا، محمد؛ بنعبد العالي، عبد السلام. التفكير الفلسفي (نصوص مختارة). الطبعة الثانية. الدار البيضاء: دار توبقال، 2004.

- سبينوزا، باروخ. علم الأخلاق. ترجمة جلال الدين سعيد. مراجعة جورج كتورة. الطبعة الأولى. بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2009.

- سرّو، رينيه؛ دونت، جاك. هيغل. ترجمة جوزيف سماحة. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1974.

- سكيربك، غُنار؛ غيلجي، نِلز. تاريخ الفكر الغربـي من اليونان القديمة إلى القرن العشرين. ترجمة حيدر حاج إسماعيل. الطبعة الأولى.، بيروت: المنظّمة العربيّة للترجمة، 2012.

- سينيلار، ميشال. الماكيافيلية وداعي المصلحة العليا. ترجمة أسامة الحاج. الطبعة الأولى. بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1993.

- شاخت، جوزيف؛ بوزورث، كليفورد. تراث الإسلام - مجلّدان، ترجمة محمد زهير السمهوري؛ حسين مؤنس. إحسان صدقي العمد. مراجعة فؤاد زكريا، الطبعة الثالثة. الكويت: عالم المعرفة، 1998.

- شتراوس، كلود ليفي. العرق والتاريخ. ترجمة سليم حداد. الطبعة الأولى. بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1982.

- شولتز، أوفي. كانط. ترجمة أسعد رزوق. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1975.

- شونو، بيار. الحضارة الأوروبية في عصر الأنوار. ترجمة سلمان حرفوش. الطبعة الأولى. دمشق: دار كنعان، 2000-2003.

- صالح، هاشم. مدخل إلى التنوير الأوروبـي. الطبعة الأولى. بيروت: دار الطليعة، 2005.

- صليبا، جميل. تاريخ الفلسفة العربية، الطبعة الثالثة، بيروت، الشركة العالمية للكتاب، 1995.

- غيث، جيروم. أفلاطون. بيروت: منشورات الجامعة اللبنانية، 1970.

- فولفين، ف. فلسفة الأنوار. ترجمة هنرييت عبودي. الطبعة الأولى. بيروت: دار الطليعة، 2006.

- فيبر، ماكس. الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية. ترجمة محمد علي مقلّد. بيروت: مركز الإنماء القومي، (دون تاريخ).

- فيورباخ، لودفيغ. أصل الدين. ترجمة أحمد عبد الحليم عطية. الطبعة الثانية. بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 2005.

- كاهن، كلود. الإسلام منذ نشوئه حتى ظهور السلطنة العثمانية. ترجمة حسين جواد قبيسي. الطبعة الأولى. بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2010.

- كرم، يوسف. تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط. الطبعة الثالثة. القاهرة: دار المعارف، (دون تاريخ).

- كرم، يوسف. تاريخ الفلسفة الحديثة. الطبعة الرابعة. القاهرة: دار المعارف، 1966.

- كريزر، كلوس؛ ديم، فارنر؛ ماير، هانس جورج. معجم العالم الإسلامي. ترجمة ج. كتورة. الطبعة الأولى. بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1991.

- كلاستر، بيار. مجتمع اللادولة. ترجمة محمد حسين دكروب. بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، 1981.

- كوليو - تيلين، كاترين. ماكس فيبر والتاريخ. ترجمة جورج كتورة. الطبعة الأولى. بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1994.

- لاسكي، هارولد ج. الحرية في الدولة الحديثة. ترجمة أحمد رضوان عز الدين. الطبعة الأولى. بيروت: دار الطليعة، 1966.

- لافرين، يانكو. نيتشه. ترجمة جورج جحا. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1973.

- ليبنتز، غوتغريد فيلهلم. مقالة في الميتافيزيقا. ترجمة الطاهر بن قيزة. مراجعة جورج زيناتي، الطبعة الأولى. بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2006.

- لينين، فلاديمير. ماركس - إنغلز (الماركسية). موسكو: دار التقدم، 1967.

- ماركس، كارل. الثامن عشر من برومير - لويس بونابرت. موسكو: التقدم، (دون تاريخ).

- الحرب الأهلية في فرنسا. مقدّمة فريدرك إنغلز، موسكو: التقدم، 1970.

- المسألة اليهودية. ترجمة محمد عيتاني. دمشق: دار دمشق للطباعة والنشر والتوزيع، 2006.

- بؤس الفلسفة. ترجمة أندريه يازجي. دمشق: دار اليقظة العربية، (دون تاريخ).

- إنغلز، فريدرك. العائلة المقدسة. ترجمة حنا عبود. دمشق: دار دمشق، (دون تاريخ).

- إنغلز، فريدرك. الأيديولوجية الألمانية. ترجمة جورج طرابيشي. الطبعة الثانية. دمشق: دار دمشق للطباعة والنشر1966.

- إنغلز، فريدرك. البيان الشيوعي. الطبعة الرابعة. دمشق: دار دمشق، 1972.

- نتائج عملية الإنتاج المباشرة (الجزء المجهول من كتاب رأس المال). ترجمة فالح عبد الجبار. دمشق: مركز الأبحاث الاشتراكية في العالم العربـي، 1989.

- ماركس، كارل؛ إنغلز، فريدرك. المختارات. 3 مجلدات. موسكو: دار التقدم، (دون تاريخ).

- ماشيري، بيار. كونت: الفلسفة والعلوم. ترجمة سامي أدهم. الطبعة الأولى. بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1994.

- ماكيافيلي، نيكولا. الأمير، الطبعة الأولى. بيروت: دار الحكايات، 2006.

- مجموعة من الباحثين. مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية. مكتب التربية العربـي لدول الخليج، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، (دون تاريخ).

- مل، جون ستورات. عن الحرية. ترجمة هيثم الزبيدي. الطبعة الأولى. الأردن: إصدار مصباح الحرية؛ الأهلية للنشر والتوزيع، 2007.

- موران، إدغار. المنهج - معرفة المعرفة: أنثروبولوجيا المعرفة. ترجمة جمال شحيّد. مراجعة موريس أبو ناضر. الطبعة الأولى. بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2012.

- مرحبا، محمد عبد الرحمن. من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية، الطبعة الثالثة، بيروت - باريس، منشورات عويدات، ومنشورات بحر المتوسط، 1983.

- موسوعة الهلال الاشتراكية، دار الهلال، مصر، طبعة يوليو 1968.

- نيتشه، فريدرك. هكذا تكلم زراد شت. ترجمة فليكس فارس. بيروت. المكتبة الأهلية، (دون تاريخ).

- هازار، بول. أزمة الوعي الأوروبـي 1680-1715. ترجمة يوسف عاصي. الطبعة الأولى. بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2009.

- هاف، توبـي أ. فجر العلم الحديث. ترجمة أحمد محمود صبحي. سلسلة عالم المعرفة، 1997.

- هالسل، غريس. الإنجيليون العسكريون في الطريق إلى الحرب النووية. ترجمة محمد السماك. طرابلس، ليبيا: جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، 1989.

- هايني، هاينريش. في تاريخ الدين والفلسفة. ترجمة صلاح حاتم. الطبعة الثانية. اللاذقية: دار الحوار للنشر والتوزيع، 1996.

- هيبر- سوفرين، بيار. زرادشت نيتشه. ترجمة أسامة الحاج. الطبعة الثانية. بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 2002.

- هيبُوليت، جان، ماركس وهيغل. ترجمة جورج صدقني. دمشق: منشورات وزارة الثقافة، 1971.

- هيغل، جورج فريدرك. في الفرق بين نسق فيخته ونسق شلّنغ في الفلسفة. ترجمة ناجي العونلّي. الطبعة الأولى. بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2007.

- محاضرات في تاريخ الفلسفة. ترجمة خليل أحمد خليل. الطبعة الثانية. بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 2002.

- موسوعة العلوم الفلسفية. ترجمة إمام عبد الفتاح إمام. الطبعة الأولى. بيروت: دار التنوير، 1983.

- هيوم، ديفيد. تحقيق في الذهن البشري. ترجمة محمد محجوب. الطبعة الأولى. بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2008.

- وين، فرانسيس. رأس المال لكارل ماركس (سيرة). ترجمة ثائر ديب. الطبعة الأولى. الرياض: دار العبيكان، 2007.

المراجع الأجنبية

- Barraclough, Geoffrey and Stone, Norman. The Times Atlas of world History. 3nd. Eds London: Guide Publishing.

- Braudel, Fernand. Civilisation and Capitalism 15th-18th Century, V 1 (The Structure of everyday life) Vol. 2 (The Wheels of commerce) V 3 (The Perspective of the World)

- The Mediterranean, BCA, London, 1992.

History of the United States of America. London:- Brogan, Hugh. Guild Publishing, 1988.

- Collinson, Diane Fifty Major Philosophers, London and Newyork: Routledge, 1998.

- Columbus and the age of Discovery - William G. Scheller and Harper Collins Publishers, 1992.Zvidor - Ner.

ed.). The Cambridge Encyclopedia. U.S.A 1991.- Crystal, David (

- Dictionary of the world 1995, oxford university press, BCA David munro.

Chambers Harrap publishers- Dictionary of world History 1993. LTD Bruce P Lenman and Katharine Boyd.

Oxford university press, John- Dictionary of world Religions 1997. Bowker.

- Fernandez-Armesto, Felipe. Guide to the Peoples of Europe. London: Times Books, 1994.

The Great Wave. The Softback Preview- Fischer, David Hackett. 1997.

,s Social Philosophy. Cambridge- Hardimon, Michael O. Hegel University press, 1994.

- Heer, Friedrich. The Medieval World (Europe 1100-1350). London: Weidenfeld, 1993.

The Philosophy of History, Dover- Hegel, Georg Friedrich. Publications, INC, Newyork.

The Age of empire (1875-1914).- Hobsbown, Eric.

Age of Extremes (1914-1991).

The Age of Capital (1848-1875).

The Age of Revolution (1789-1848).

Weidenfeld & Nicoison, London, 1995.

Islam in European Thought. Cambridge unv,- Hourany, Albert. 1991.

,s- Western Attituded towards Islam. SL Antony

A Hegel Dictionary. Oxford: Blackwell, 1993.- Inwood, Michael.

A History of the American people. London:- Johnson, Paul. Weidenfeld And Nicolson, 1997.

History of world Exploration. London: Guild-   Keay, John.
Publishing, 1991.

Fall of the Great Powers. Newyork --   Kennedy, Paul. The Rise and
Random House -1987.

The Muslim Discovery of Europe. Phcenix 1994.-   Lewis, Bernard.

- Mckee, Alexande, Aworld Too Vast (The Four Voyages of
Columbus). London: Souvenir Press, 1990.

- Modern Europe 1996, oxford university press, BCA T.C.W.
Blanning.

- Michael RAPPORT, Nieneteenth - Century Erope, Palgrave
Macmillan, 2005

The Arabs. Delhi: Adam-   Nicholson, R.A. Aliterary History of
Publishers and Distributers, 1929

The open society and its Enemies, V 1. Plato, V 2.-   Popper, K. R.
Hegel and Marx.

- Routledge, London and New York 1993

- Roberts, J.M. History of the world - BCA. London, Newyork 1994.

- Shorter Illustrated History of the World, BCA, London, 1994.

- The Triumph of the west. London: B.B.C 1985.

History of Western Philosophy. London:-   Russell, Bertrand.
Routledge, 1995.

ed.). Atlas of medieval Civilzations. 5 vol. London:-   Scarre, Chris (
The Times, 1990.

- Shonnon, Richard. The Crises of Imperialism (1865-1915).
London: Hart-Davis, Maggibbon, 1974.

The World's Religions. Cambridge University-   Smart, Ninian.
Press, 1992.

vidal - Naquet,   The Collins Atlas of world History - Editor: Pierre
Collins, London, 1987.

The Hutchinson Encyclopedia. 8th.Ed. Century Hutchinson, L.T.D

Western Philosophy and-   Urmson, J.O. and Ree, Jonathan.
Philosophers. London-Newyork: Routledge, 1992.

- WAR and SOCIETY - SUTTON PUBLISHING

In Europe of the old Regime (1618-1789) M. S. Anderson.

In Renaissance Europe (1450-1620) J. R. Hale.

In Revolutionary Europe (1770-1870) Geoffrey Best.

Colonial Empires and Armies (1815-1960) V. G. Kiernan.

In Europe (1870-1970) Brian Band.

ندوات

* ندوة تونس عن حداثة ابن رشد، 16-21 شباط/فبراير 1998.

- إحسان نراقي، السند الإسلامي للانبعاث الغربـي.

- أحمد شحلان، هل فهم تراجمة ابن رشد اليهود الوسطويون لغته.

- اوليفر ليمان، ماذا بقي من فلسفة ابن رشد وماذا ذهب منها؟

- عبد القادر بن شهيدة، في الإنابة عن سبب وجود مخطوطات عربية اللفظ وعبرية الحرف.

- عبد الواحد ذنون طه، موقف بعض الجامعات الأوروبية من فلسفة ابن رشد في العصور الوسطى.

- علي الشنوفي، صدى نظريات ابن رشد في أوروبا الغربية القروسطية.

- ماجد فخري، قدم العالم بين ابن رشد وتوما الإكويني.

مختارات

* مجموعة إصدارات مصباح الحرية (مختارات ونصوص)، طباعة ونشر رياض الريس للكتب والنشر:

1- الأسواق الحرة. آدم سميث ومجموعة من المؤلفين.

2- التشكيك في السلطة. توماس باين، الكس دو توكفيل، جون ستيوارت مل.

3- الحقوق الفردية. ديفيد هيوم، امانويل كانط، جون لوك، هربرت سبنسر.

4- السلام والتوافق الدولي. ريتشارد كوبدين ومجموعة من المؤلفين.

5- الفردية والمجتمع المدني. اليكس دو توكفيل، جون ستيوارت مل، آدم سميث.

6- النظام التلقائي. توماس باين، آدم سميث ومجموعة من المؤلفين.

Notes

[1←]
أشار هيغل إلى دور الإسلام في كتابه عن "فلسفة التاريخ" في باب تحت عنوان المحمدية (Mohametanism) معتبرًا أن النخبة الإسلامية مجرّد جسر، اقتصر دورها على النقل لا الإبداع، على رغم اعترافه أن العلوم والمعرفة (وخصوصًا الفلسفة) جاءت من العرب إلى الغرب. بينما راسل أعطى العرب حقّهم التاريخي، لا في الترجمة والنقل فقط، وإنما في الإبداع أيضًا، راجع فصل الثقافة المحمدية والفلسفة (Mohammedan Culture and Philosophy).

[2←]
فرانشيسكو غابرييلي، تراث الإسلام - الجزء الأول، "في القرنين الثاني عشر والثالث عشر أصبحت برشلونة وطليطلة وإشبيلية، بعد أن فقدها الإسلام جميعها، مراكز لنشاط مكثف للمترجمين من يهود وإسبانيين ومسيحيين من بلدان أوروبية أخرى"، ص 141. مكسيم رودنسون، تراث الإسلام - الجزء الأول، "خلال قرون عدّة نجد أن ابن سينا وابن رشد والغزالي في الفلسفة، وابن سينا وهالي (علي بن العباس) والرازي في الطب ومؤلفين آخرين في العالم الآخر، نجد هؤلاء يقلدون وتعاد طباعة أعمالهم ويعلق عليها وتدرس"، ص 51.

[3←]
راجع تاريخ الفكر الغربـي من اليونان القديمة إلى القرن العشرين، غُنار سكيربك، نِلز غيلجي، ص 272-273، وص 312-313، وص 317، وص 319-326. كذلك راجع فريدرك هير، عن عصر الإقطاعية (النبلاء) والكنيسة وثورات الفلاحين وتجارة الرقيق في البحر المتوسط. The medieval world (Europe 1100-1350), pp. 14-34.

وأيضًا عن علاقة الكنيسة بالناس وتطور المعتقدات الدينية بتأثير من الإسلام في العصور الوسطى، pp. 35-45.

[4←]
راجع هير، عن بداية نمو المدن الأوروبية في جنوب فرنسا وإيطاليا وعلاقاتها التجارية بمدن المتوسط (البيزنطية والعربية والإسلامية). كذلك عن ظهور ثلاث شخصيات كبرى في العصور الوسطى، وهي: دانتي، توما الإكويني، وفريدرك الثاني، مصدر سابق، pp. 46-73. ويتحدث هير، عن يقظة أوروبا في القرن الثاني عشر وانتقال الثقافة الإسلامية من إسبانيا وصقلية (نظام الجامعات، الأرقام، الحساب، الرياضيات) ومدى تأثيرها في يقظة أوروبا، مصدر سابق، pp. 74-95.

[5←]
يتحدث ماجد فخري في كتابه "دراسات في الفكر العربـي" عن تأثير الفلسفة الإسلامية في أوروبا بعد وفاة ابن رشد وأفول نجم العرب في بغداد وقرطبة إذ "استمر أثرها ردحًا من الزمن في إسبانيا وأوروبا الغربية، طوال أكثر من قرنين، أي بين سنة 1133م، وهو تاريخ أقدم ترجمة لاتينية لأثر علمي عربـي، وسنة 1321م، وهو تاريخ

وفاة الشاعر دانتي الذي روّج في كوميدياه الإلهية لآراء القديس توما الإكويني (توفي 1274م) الفلسفية واللاهوتية التي كان لابن رشد خاصة، وشراح أرسطو العرب عامة، أثر كبير فيها .ولعل أعظم شهادة بأثر العرب في قيام الفلسفة عند اللاتين هي شهادة روجر بيكون (توفي 1294م) الفيلسوف الإنكليزي الشهير، الذي بز جميع معاصريه في مدى إلمامه بتاريخ الفلسفة عند اليونان والعرب (...) لم يكن بيكون مستشرقًا أو مستعربًا، بالمعنى الدقيق، رغم الرواية التي تذهب إلى أنه كان يلم بالعربية، وهي رواية مطعون في صحتها. إلا أن المستشرقين في القرنين التاسع عشر والعشرين كانوا أول من أخذ ينفض الغبار عن تاريخ الفلسفة العربية، لما كان لها من شأن في تطور الفلسفة الغربية من جهة، والفلسفة اللاتينية في العصور الوسطى من جهة ثانية"، (ص 224). يعتبر روجر بيكون من مفكّري العصور الوسطى في إنكلترا. فهو اعتمد العلم التجريبـي في بحوثه، ودرس القطاعات الحرفية في المدن. طرد من جامعة أكسفورد في 1277 بتهمة الإلحاد. واحتجزته الكنيسة في أحد الأديرة بسبب دفاعه عن استقلال المعرفة. راجع الموسوعة الفلسفية، ص 92.

[6←]

راجع تاريخ الفكر الغربـي، مصدر سابق، عن توما الإكويني (ص 274-301)، وليام الأوكامي (ص 305-306)، وتأسيس الجامعات (الأديرة) ص 312، وبرامج التدريس، ص 317. كذلك راجع هير، بشأن نمو حركات دينية شعبية، وظهور توجهات كنسية تمثلت في مدرستين: الفرنسيسكان والدومنيكان، مصدر سابق، pp. 158-189. الفرنسيسكان (رهبنة الأخوة)، أعضاء طائفة تتبع القدّيس فرنسيس الأسيزي (توفي 1226م). تأسّست في 1208م وعاشت من خلال العمل والتسوّل (الفقر الطوعي) والتفرّغ للتبشير. من أتباعها روجر بيكون، دنيس سكوتس ووليام أوكهام. والدومنيكان (رهبانية الواعظين) طائفة تأسست في 1215 (سانت دومينيك) في جنوب فرنسا في عهد البابا هونوريوس الثالث. وكانت تتكوّن من فقراء يسافرون مشيًا للتبشير، وارتبطت بتطوّر الجامعات في القرن الثالث عشر، واشتهرت بدفاعها عن الكنيسة الكاثوليكية ومعاقبة الزنادقة (محاكم التفتيش). وكان توما الإكويني من أبرز ممثّليها.

[7←]

راجع هير، عن نمو دور الجامعات وتأثر النخبة الأوروبية في العصور الوسطى بالفكر الإسلامي - العربـي، الذي ترجم إلى اللاتينية. كذلك عن معركة الكنيسة ضد الفلسفة والعلوم العربية، وتحريم قراءة كتب العلماء والفلاسفة العرب من الكندي والفارابـي وابن سينا والغزالي وابن باجة والتباني وابن طفيل وابن جبرول وابن رشد وغيرهم. مصدر سابق، pp. 190-212. كذلك راجع تاريخ الفكر الغربـي، مصدر سابق، عن تأثير الغزالي وابن رشد وابن الهيثم وابن الشاطر على روجر بيكون ويوهانس كبلر وإسحق نيوتن وكوبرنيكوس، ص 322-324. يقول الكتاب "في جميع الميادين تقريبًا، كميادين الفلك والرياضيات والطب والبصريّات، كان العلماء العرب في عداد الأكثر تقدّمًا في القرون الوسطى. وظلّ العرب لأكثر من ستة قرون متقدّمين على الغرب، تقنيًّا وعلميًا". ص 324.

[8←]

راجع هير، عن الانقسام البيزنطي - اللاتيني، وظهور دور النورمان والفرانك والفرسان، ومدى تأثير الحروب الصليبية (الفرنجة) على أوروبا حتى فترة ظهور المغول وتدمير بغداد في فضاء الصراع بين الإسلام والغرب، وصولاً إلى سقوط القسطنطينية (اسطنبول) في 1453م واكتشاف أميركا في 1492م. مصدر سابق، pp. 96-122.

[9←]

راجع مداخلات عن حداثة ابن رشد ألقيت في "ندوة تونس" التي عقدت بين 16 و21 فبراير/شباط 1998 بمناسبة ذكرى مرور 800 سنة على رحيل فيلسوف قرطبة.

[10←]

يورد بيار دُوهيم: "من الأفكار التي حررها شارحو أرسطو المتأخرون من اليونان يستوحي الفارابـي وابن سينا والغزالي الأفكار التي سيحررونها. وبفضل هذه الأفكار سينتهي حكماء الإسلام إلى توحيد ثلاث مسائل في مذهبهم الفلسفي. وهي مسائل قد تبدو منفصلة لا يربطها رابط: ترتيب صدور الموجودات عن الخالق، حركات الأفلاك، وأخيرًا العلائق المتبادلة بين العقل والنفس والجسم". مصادر الفلسفة العربية (ص 164). وفي السياق نفسه يؤكد دُوهيم، أن "الأفلاطونية المحدثة العربية، كما نجدها في مصنفات ابن سينا وفي مقاصد الفلاسفة للغزالي الجديرة بالإعجاب، لا تبدو تجميعًا لنظريات متناثرة، بل هي تبدو تأليفًا له وحدة قصوى حيث يتم التناسق، في ميتافيزيقا جيدة التحديد والعمق، علوم أربعة هي علم الربوبية وعلم النفس وعلم الفلك وعلم الطبيعة (...) وهذا التأليف لا ينقصه شيء من حيث الوحدة الصارمة والبهاء المتناسق عن فلسفة أرسطو أي ذلك الإبداع العجيب للعبقرية اليونانية". مصادر الفلسفة العربية (ص 234).

[11←]

راجع هير، عن تأثير العرب في النخبة الأوروبية في مجالات الطب والفلك والرياضيات والكيمياء وفلسفة العلوم الطبيعية التي أخذ بها ليناردو، غاليلوّ، ويليام جيلبرت، فرانسيس بيكون، وريمون لول ما كان له أثره اللاحق في تطور الفلسفة باتّصالها الدائم مع انتشار المعرفة العلمية والاختراعات والاكتشافات. مصدر سابق، pp. 239-253. كذلك تاريخ الفكر الغربـي، مصدر سابق، عن تدريس اللغة العربية، ص 313، وتعليم الفلسفة العربية في برامج المعاهد العليا، ص 317-321.

[12←]

راجع هير، عن نزوح اليهود إلى أوروبا وظهور أحياء (الغيتو) ونمو ظاهرة اللاسامية (قتلة المسيح) وبدء سياسة طردهم من بريطانيا (1290م)، من فرنسا (1306م)، من ليثوانا (1395م)، من إسبانيا (1492م)، ومن البرتغال (1497م). وبقي اليهود خارج بريطانيا إلى فترة ثورة كرومويل حين سمح لهم بالعودة في 1655م. مصدر سابق، pp. 254-257.

[13←]

راجع هير، عن صراع الكنيسة البابوية والممالك الأوروبية وتطوره وصولاً إلى صعود الأسر الملكية وبروز فكرة البرلمان بعد الانشقاق الكنسي وأخيرًا عقد المصالحة بين دولة جديدة وكنيسة جديدة. مصدر سابق، pp. 267-294. كذلك يمكن مراجعة هير بشأن حرب المئة عام بين فرنسا وإنكلترا (1337-1453م) وبدء تراجع دور اللغة اللاتينية لمصلحة اللغات الوطنية (المحلية) التي أخذت تؤسس ثقافة (شعر، أدب، فن) مستقلة عن الكنيسة، ما أدى لاحقًا إلى صعود الظاهرة الوطنية (الدولة القومية). مصدر سابق، pp. 295-312. كذلك عن تطور فن العمارة والرسوم والتلوين وبناء الكنائس الضخمة. هير، مصدر سابق، pp. 313-339. وأيضًا يمكن مراجعة تاريخ الفكر الغربـي، مصدر سابق، عن مدى تأثير سقوط القسطنطينية على وعي النخبة الأوروبية، ص 329. وعن تلك الاضطرابات الفكرية التي طرأت على توجّهات النخبة بعد انتشار خبر السقوط، ص 332.

[14←]

كرم، تاريخ الفلسفة الأوروبية، "الفلسفة في القرن الثالث عشر عبارة عن مختلف المواقف من أرسطو وابن سينا وابن رشد. يأخذ الأوغسطينيون من الأفكار الجديدة طائفة يكملون بها مذهبهم مع شيء من التأويل، وينبذون طائفة أخرى. يأخذون عن ابن سينا إشراق العقل الفعّال، إلا أنهم يضيفون لله المعاني التي يضيفها ابن سينا لعقل فلك القمر (...)"، ص 116.

[15←]
إن كتاب أثولوجيا أرسطو وكتاب الأسباب اللذين شرحهما بالتعاقب كل من الفارابي وابن سينا والغزالي يمثلان بالإضافة إلى مؤلفات أفلاطون وأرسطو وشروح الإسكندر الأفروديسي وثمسطيوس ويوحنا النحوي وسمبليسيوس، مصادر فلسفة العرب الأفلاطونية المحدثة". دُوهيم، مصادر الفلسفة العربية، ص 140.

[16←]
يعتبر هير في كتابه عن أوروبا في القرون الوسطى (1100-1350م) ويليام أوكهام الأب الشرعي للتفكير الديمقراطي السياسي بسبب تركيزه الدائم على حقوق الإنسان. مصدر سابق، p. 225.

[17←]
شرح ابن خلدون في مقدمته (الفصل 23) هذه المسألة في إطار وحدة التضاد بين الغالب والمغلوب وتحت عنوان "في أن المغلوب مولع أبدًا بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده". والسبب برأيه "أن النفس أبدًا تعتقد الكمال فيمن غلبها وانقادت إليه، إما لنظره بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه، أو لما تُغالط به من أن انقيادها ليس لغلب طبيعي إنما هو لكمال الغالب (...) لذلك ترى المغلوب يتشبه أبدًا بالغالب في ملبسه ومركبه وسلاحه في اتخاذها وأشكالها، بل وفي سائر أحواله". راجع المقدمة، ص 77، طبعة بيت الأفكار الدولية، بإشراف أبو صهيب الكرمي.

[18←]
هير، مصدر سابق، ص 213-226.

[19←]
هاف، فجر العلم الحديث، الجزء الثاني، ص 212-213.

[20←]
ماركس - إنغلز، البيان الشيوعي، ص 42-43.

[21←]
ألتوسير، مونتسكيو، ص 13.

[22←]
يرى شونو في كتابه "الحضارة الأوروبية في عصر الأنوار" أن الأنوار انفجرت بكل زخمها في السنوات 1730-1750 "ولكن بداية الحركة كانت بالتأكيد حوالي 1680" (ص 37). وبرأيه أيضًا أن "الأفكار تطوّرت على حذر واستحياء" (ص 61). وهي تحصّنت بالتقدم التقني وتطوّر علوم الفلك والفيزياء الرياضية بعد 1680. فهذه الثورة العلمية كان لها "التأثير في منعطف الأنوار الفلسفي" (ص 221). وكانت بريطانيا السبّاقة بسبب

نزعتها التجريبية العلمية التي "تتفوق على الفكر المسبق العقلاني. فالتجريبية العلمية عملية من الطراز الرفيع. وهي تدفع أمامها "حدود" التغيير التكنولوجي" (ص 341). والسبب في تفوّق بريطانيا وتقدّمها زمنيًا على غيرها يعود إلى اختلاط النخبة بالطبقة الحاكمة. واختلاط أوراق النخبة بأوراق الطبقة الحاكمة ولد منظومة "على درجة من المرونة تسمح لها أن تحلّ، عبر توفيقات متعاقبة، التناقضات الناشئة. وهنا مكمن الحظ السعيد الذي عرفته إنكلترا" (ص 355).

[23←]
راجع بروديل، عن تطوّر حركة التجارة وتراجع خطوطها في البحر المتوسط بعد الصراع عليها وظهور تجارة الأطلسي، The Mediterranean, pp. 133-163, pp. 214-225, pp. 430-438. كذلك راجع تاريخ الفكر الغربـي، مصدر سابق، عن أوروبا في القرون الوسطى (نظام إقطاعي)، ص 247، وعن المسيحية ودورها، ص 251.

[24←]
راجع بروديل، عن حروب الإسلام والغرب، في كتاب "الحضارة والرأسمالية"، المجلد الأول، pp. 396-397.

[25←]
راجع فيشر، عن أزمة القرن الرابع عشر في أوروبا، The Grate Wave, pp. 35-45.

[26←]
راجع روبرتس، عن الكنيسة في العصر الوسيط وعن دور فلورنسا وسقوط القسطنطينية، History of the world, pp. 275-277, pp. 280-281.

[27←]
يذكر عزمي بشارة في كتابه عن "الدين والعلمانية في سياق تاريخي" - الجزء الأول: "تاريخيًّا تقاطعت الفلسفة مع الدين في حالات استثنائية تحوّلت فيها الفلسفة إلى ما يشبه النحلة الدينية"، ص 43. كذلك يشير بروديل في كتابه "الحضارة والرأسمالية" إلى أنه حتى عهد الملك لويس الرابع عشر كان الناس في أوروبا يأكلون باليد ولا يجلسون إلى الطاولة. المجلد الأول، p. 29. كذلك يقارن بين أوروبا والعالم الإسلامي من جانب تقدم سكان المدن، فيشير إلى أن أكبر مدينة في ألمانيا في القرن الخامس عشر لا يتجاوز عدد سكانها 20 ألفًا بينما تجاوز سكان مدينة إسطنبول في القرن السادس عشر 400 ألف نسمة، المجلد الأول، pp. 51-52.

[28←]
راجع روبرتس، عن محطات تطور أوروبا، History of the world, pp. 417-427, pp. 436-535, pp. 556-647.

[29←]
راجع هيغل، عن دور العرب في نقل العلوم والمعرفة والفلسفة إلى الغرب.

The Philosophy of History, p. 360، كذلك راسل عن الإسلام والفلسفة، History of Western Philosophy, pp. 413-421.

[30←]
راجع فيشر، عن دور فلورنسا في نهضة أوروبا، مصدر سابق، pp. 65-69، كذلك راسل عن نهضة فلورنسا ودور عائلة مديتشي في ترجمة ونقل المعارف، مصدر سابق، pp. 483-490.

[31←]
راجع روبرتس، عن كوارث وباء الطاعون، مصدر سابق، pp. 273-274. كذلك بروديل وشروحه عن الكارثة التي أوقعها وباء الطاعون في أوروبا وكيف انتشر المرض في القرن الرابع عشر، مصدر سابق، المجلد الأول، pp. 36-38, pp. 74-75.

[32←]
إن المآثر الإسبانية لها في التاريخ العام أهمية خاصة؛ فعلى أراضي إسبانيا الإسلامية أو التي استعادها المسيحيون، حدث في القرون الأخيرة من العصور الوسطى التواصل الأكثر إنتاجًا وعطاءً بين الحضارة الإسلامية والحضارة الأوروبية التي نهضت أو استعادت نهضتها، لا فرق، وأخذت عنها الكثير من معارفها وعلومها قبل أن تتجاوزها". كلود كاهن، الإسلام (ص 335). "لم تكن ثمة مدينة واحدة لم يكن لديها مكتباتها ومعاهدها وطلابها ومساجدها التعليمية ومؤسساتها التعليمية الخاصة، وكذلك كان لكل أمير مثل هذه المكتبات والمعاهد. فنشر العلم كان دليل تقوى وإيمان". كلود كاهن، مصدر سابق، (ص 385). "إن الغرب لن ينسى أنه تتلمذ على يد ابن سينا وعلى يد ابن رشد وغيرهما، وأن كاتدرائية دو بوي في قلب فرنسا بالذات ما كان لها أن تصل إلى ما وصلت إليه لولا مسجد قرطبة"، الإسلام، كلود كاهن (ص 479).

[33←]
راجع عن الاكتشافات الجغرافية، كتاب ألكسندر مكي Mckee (the four voyages of Columbus) A world Too Vast، وأيضًا كتاب جون كاي (Keay) History of World Exporation, pp. 129-199، وورروبرتس، مرجع سابق pp. 281-284، وفيشر، مرجع سابق (الموجة العظمى) pp. 75-82، وهيغل في فلسفة التاريخ، مرجع سابق. p. 410. وبروديل عن الملاحة البحرية وأهميتها في بسط السيطرة الأوروبية على خطوط التجارة العالمية، مرجع سابق، المجلد الأول، pp. 402-410. كذلك يمكن مراجعة كتاب Columbus And The Age of Discovery, pp. 149-198, pp. 243-283, pp. 285-342.

[34←]
راجع كمال اليازجي، أنطوان غطاس كرم، في كتاب أعلام الفلسفة العربية، عن الفكر العربـي في الغرب اللاتيني، الفصل الخامس (ص 880-897). محمد عبد الرحمن مرحبا، من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية، انتقال الإرث، الفصل الحادي عشر (ص 851-858). يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط، الفصل الثالث (مترجمون)، القرن الثاني عشر (ص 90-96). الفصل الرابع (ألكسندر أوف هاليس) (ص 128-129). الفصل السابع (روجر بيكون) (ص 138-144). الفصل الثامن (القديس ألبرت الكبير) (ص 145-151). الفصل التاسع (القديس توما الإكويني) (ص 152-185). الفصل العاشر (سيجر دي برابان) (ص 186-189). الفصل الحادي عشر (ريمون لول) (ص 190-193). الباب الرابع، الفصل الثاني (جون دنس سكوت) (ص 198-207). الباب الرابع، الفصل الثالث (وليم أوف أوكام)، (ص 208-216).

[35←]

راجع روبرتس عن تقدم الآلة وتطور الطباعة والاختراعات التقنية والاكتشافات الفلكية، مرجع سابق، pp. 344-348.

[36←]

يؤكد بروديل أهمية النمو السكاني ومدى تأثيره على التطور الاقتصادي وتوسع التجارة ورقعة الاستهلاك، مرجع سابق، المجلد الأول، pp. 32-33, pp. 46-47.

[37←]

راجع روبرتس عن نمو قوة أوروبا pp. 297-303، وعن النمو السكاني في أوروبا والنزوح إلى الأراضي المكتشفة، مرجع سابق، pp. 312-317.

[38←]

راجع راسل، عن ماكيافلي وتطور العلوم (كوبرنيكس) في تاريخ الفلسفة الغربية، مصدر سابق، pp. 489-491, pp. 512-525. كذلك تاريخ الفكر الغربـي، مصدر سابق، عن ماكيافلي، ص 379-388.

[39←]

بين كتاب "الأمير" وكتاب "العقد الاجتماعي" لروسو قرابة 250 سنة من التطور العمراني شهدته أوروبا بين مطلع القرن السادس عشر ونهايات القرن الثامن عشر. ففي تلك الفترة الغنية بالتجارب والاكتشافات كان العالم الإسلامي يغيب عن ساحة التنافس الدولي وتتعرض حواضره لنكسات اقتصادية. الفلسفة الأوروبية في جوهرها العام سياسية. والتجريد النظري لا يعني ابتعاد الفكرة عن الاجتماع بل كان يهدف إلى إعادة توظيف الفكرة (النظرية) في الحياة العملية. وهذا ما فعله الفلاسفة من ماكيافلي إلى روسو. يعتبر ماكيافلي المنظر الحديث للدور السياسي المعاصر لدولة بدأت تنمو في إطار علاقات قديمة. ومن كتابه "الأمير" شق الفكر السياسي (الفلسفة) المعاصر طريقه الخاص لإعادة إنتاج تصورات نظرية لدور الدولة (والدين) العملي في حياة الناس الاجتماعية. راجع ميشال سينيلار، الماكيافيلية وداعي المصلحة العليا.

[40←]

راجع عن ماكيافلي: الموسوعة الفلسفية، ص 407-408.

[41←]

راجع كتاب "الأمير"، دار الحكايات، الطبعة الأولى، بيروت 2006، ص 23، 29، 31، 46، 63، 106، 115، 132، 135، 145، 179 و186.

[42←]

إن الموضوع الأساسي لكتاب "الأمير" هو الأمير الجديد تمامًا في دولة جديدة تمامًا، أعني المؤسس". راجع تاريخ الفلسفة السياسية، ليوشتراوس وجوزيف كروبسي، ترجمة محمود سيد أحمد، مراجعة وتقديم إمام عبد الفتاح إمام، الجزء الأول، إصدار المركز القومي للترجمة، القاهرة، الطبعة الثانية 2016، ص 443.

[43←]

راجع روبرتس، عن انقسام الكنيسة البابوية وظهور اللوثرية واندلاع الحروب الدينية، مصدر سابق، pp. 322-329. كذلك راسل عن توماس مور ولوثر وكالفن، مصدر سابق، pp. 499-511. وأيضًا تاريخ الفكر الغربـي، مصدر سابق، عن كوبرنيكوس (مركزية الشمس)، ص 343-345، وكبلر (مدارات الكواكب)، ص 345-347، وغاليليو (التلسكوب)، ص 347-356، وعن تطوّر علم الفلك، ص 369، وعلم الميكانيك، ص 371، وعلم البصريّات، ص 373.

[44←]

لوثر وكالفن على طرفَي نقيض فيما يتعلّق بالحالة النفسية والتعبير (...) لم ينسلخ المُصلحان عن تراث العصور الوسطى في صياغتهما الأكثر تطرفًا لمشكلة الخطيئة (...) ثمّة تمييز بين لوثر وكالفن في نظريّتهما عن الكتاب المقدّس، بيد أنّه تمييز ليس مصاغًا في أي مكان بوضوح، ولا يمكن أن يُجمع إلا بألفاظ عامة من منظورَيهما المختلفَين للتفسير (...) وإذا لم يكن لسبب آخر سوى أنّ الكتاب المقدّس يحتوي على كثرة من الآيات التي تهتم بالسياسة (...) إننا نرى من ثم أنّ كلاً من لوثر وكالفن يصرّان على استقلال الكنيسة والدولة، غير أنهما يميّزان بين هاتَين "السلطتين" في وجوه مختلفة جدًّا (...) ولم يتّفق لوثر وكالفن في هذه المسألة (...) إن موقف كالفن أكثر ثباتًا ورسوخًا من موقف لوثر (...) السياسة كما يرى لوثر هي في العادة مسألة رأب صدع وترقيع".

راجع تاريخ الفلسفة السياسية، الجزء الأول، ليوشتراوس وجوزيف كروبسي، ص 467-514. ترجمة مجمود سيد أحمد، مراجعة وتقديم إمام عبد الفتاح إمام، إصدار المركز القومي للترجمة، القاهرة، الطبعة الثانية 2016.

[45←]

مجمّع ترانت (1545-1563). اجتماعات عقدتها الكنيسة الكاثوليكية في إيطاليا (بدأت في عهد البابا بولس الثالث وانتهت في عهد البابا بيوس الرابع) بهدف المحافظة على وحدة الكنيسة بعد الانشقاقات التي حصلت بسبب حركة الإصلاحات. انتهت الجلسات بالتفاهم على عقد تسوية مع البروتستانت وإجراء بعض الإصلاحات (الجزويت) وتخلي البابوية عن اللغة الدوغمائية. أطلق على قرارات ترانت الحركة المضادة للإصلاح، ما أدى إلى اندلاع الحروب الدينية. راجع هيغل في فلسفة التاريخ عن تأثير حركة الإصلاح الديني (لوثر) وقرارات مجلس ترانت، مصدر سابق، pp. 415-427.

[46←]

راجع جي. آر هال، عن تطور منظومة الحروب في أوروبا وتأثيراتها على تعديل خريطة القارة وهياكلها السياسية، War and Society (1450-1620), pp. 13-20, pp. 46-74.

[47←]

الحروب الدينية (1562-1598)، بدأت في فرنسا تحت تأثير أفكار الإصلاحي البروتستانتي كالفن. وشجع عليها ملك إسبانيا (فيليب الثاني) وملكة إنكلترا (إليزابيث الأولى). ومعاهدة نانت (1598). هي اتفاق قانوني وقع في عهد هنري الرابع قضى بوقف الحرب الدينية بين الكاثوليك والبروتستانت واستمرت المعاهدة تعطي مفعولها إلى أن قرر ملك فرنسا لويس الرابع عشر تعطيلها في العام 1685 بذريعة أنها تهدد وحدة الدولة وهويتها الدينية. راجع نينيان سمارت، عن حركة الإصلاح الديني وحروبها في أوروبا في كتاب The World's Religins، pp. 315-328.

[48←]
راجع هيغل، عن تطور العلوم وتأثيرها على الفلسفة قبل انتقالها من فرنسا إلى ألمانيا، مصدر سابق، pp. 438-457.

[49←]
راجع World History، مصدر سابق، pp. 154-155.

[50←]
راجع ام. اس أندرسون، عن مدى انعكاس الحروب على المجتمع الأوروبـي وتأثيرها على آليات تنظيم الدولة،
War and Society (1618-1789), pp. 13-32, pp. 63-76.

[51←]
راجع راسل، عن فرنسيس بيكون، توماس هوبز، ورينيه ديكارات، مصدر سابق، pp. 526-551. كذلك تاريخ الفكر الغربـي، مصدر سابق، عن فرنسيس بيكون وانتقاده منهج الاستنباط، ص 334-335، وتوماس هوبز وفلسفته التجريبية الطبيعية التي تأثرت بالعلوم الجديدة، ص 391-407، وعن ديكارت ومنهج الشك، ص 409-422.

[52←]
راجع روبرتس، عن تأثيرات غاليليّو والإصلاح البروتستانتي على الفلسفة، مصدر سابق، pp. 348-351.

[53←]
راجع روبرتس، عن توحيد فرنسا وهولندا والحرب الأهلية في بريطانيا، مصدر سابق، pp. 331-339.

[54←]
راجع بروديل، عن سلبيات حرب الثلاثين عامًا على أوروبا وتأثيرها تحديدًا على ألمانيا، وكيف نجحت القارة في تجاوز الكارثة وتأمين الحدّ الأدنى من الغذاء، مصدر سابق، المجلد الأول، p. 71, p. 196.

[55←]
إن فلسفة بيكون فلسفة مادية، وتشبه المذهب المادي القديم، لا سيما المذهب المادي عند ديمقريطس الذي اعترف بأنه تراثه العقلي".

راجع تاريخ الفلسفة السياسية، الجزء الأول، ليوشتراوس وجوزيف كروبسي، ص 538، مرجع سابق.

[56←]
راجع الفلسفة الغربية والفلاسفة، عن بيكون pp. 38-40. كذلك تاريخ الفكر الغربـي، مصدر سابق، عن دور بيكون في تطوير منهج الاستقراء، ص 337-340.

[57←]

راجع فيشر، عن أزمة القرن السابع عشر وتداعيات حرب الثلاثين عامًا ونتائجها السياسية، مصدر سابق، pp. 91-102.

[58←]

يؤكد هيغل أهمية دور الرغبة في النهوض بالمجتمع، فالعصر الحديث "في القرنين الخامس عشر والسادس عشر لم يبدأ فقط بدراسة الفلسفات القديمة، بل بدأ أيضًا في الرغبة في تجديدها وإنهاضها"، تاريخ الفلسفة، ص 69. هذه الرغبة يربطها بيار شونو في كتابه "الحضارة الأوروبية في عصر الأنوار" بتقدم الآلة والعلوم، إذ كان "من شأن تقدم الفلك والفيزياء الرياضية، مع فجر اليوم الثاني من الثورة العلمية التأثير في منعطف الأنوار الفلسفي"، ص 221.

[59←]

جان جاك روسو، العقد الاجتماعي، ص 203-204. راجع أيضًا: تاريخ الفكر الغربـي، مصدر سابق، عن منهج هوبز الميتافيزيقي العقلاني، ص 391-407.

[60←]

فإن هوبز أصبح سيّئ السمعة من حيث إنه ملحد إبان حياته". راجع تاريخ الفلسفة السياسية، الجزء الأول، ليو شتراوس وجوزيف كروبسي، ص 613، مصدر سابق.

[61←]

راجع الفلسفة الغربية والفلاسفة، عن هوبز 133-137 .pp.

[62←]

يحدد شونو فترة انفجار الأنوار بين السنوات 1730 و1750، لكنّه يشير إلى "بداية الحركة كانت بالتأكيد حوالي 1680"، مصدر سابق، ص 37.

[63←]

راجع الفلسفة الغربية والفلاسفة، عن ديكارت 72-77 .pp.

[64←]

راجع فيشر، عن بدايات عصر الأنوار، مصدر سابق 102-116 .pp. كذلك راجع تاريخ الفكر الغربـي، مصدر سابق، عن منهج ديكارت، ص 409-422. وأيضًا عن ويليام هارفي ودوره البحثي في تطوير حقل التشريح (نظام القلب والأوعية الدموية)، ص 367.

[65←]

راجع ديكارت، كتاب حديث الطريقة، ص 322 وص 340.

[66←]

برأي هيغل تنحصر مهمة الفلسفة في "أن تفهم ما هو موجود، لأن ما هو موجود هو العقل"، راجع أصول فلسفة الحق، ص 88. وبرأيه أيضًا أن الفلسفة "كما هي، فلسفة اليوم، الأخيرة، تشتمل على كل ما أنتجه عمل ألوف

السنين، إنها نتيجة كل ما سبقها"، راجع تاريخ الفلسفة، مصدر سابق، ص 105. ويرى إدغار موران في كتاب المنهج "أن العلوم الفيزيائية بلغت وتخطّت حدود العقل المحض" (ص 320)، إلى درجة الانفصال ما بين العلم والفلسفة، لكن العلاقة الخفية استمرّت، فهو يقول "حتى بعد انفصال العلم عن الفلسفة لم ينقطع التواصل بينهما وإنما تقلّص فقط" (ص 36).

[67←]
راجع ديكارت، مصدر سابق، ص 92 وص 314 وص 353.

[68←]
راجع الفلسفة الغربية والفلاسفة، عن باسكال، 228-227 .pp. كذلك تاريخ الفكر الغربـي، مصدر سابق، عن باسكال، ص 422-423.

[69←]
راجع راسل عن سبينوزا، مصدر سابق، 562-552 .pp. كذلك موسوعة الفلسفة الغربية، 305-302 .pp. وأيضًا تاريخ الفكر الغربـي، مصدر سابق، عن منهج سبينوزا ومناقشته المسألة الأخلاقية، ص 435-447.

[70←]
سبينوزا، راجع كتاب: "علم الأخلاق" ص 40 و51، ص 62، ص 110، ص 127، ص 131، ص 138، ص 295-296 وص 303.

[71←]
يصف فؤاد زكريا فضاءات هولندا في كتابه عن سبينوزا كالآتي: "كانت هولندا، في الفترة التي ولد فيها سبينوزا تمرّ بتحوّلات اجتماعية هامة. ففي أثناء حياته، استقلت المقاطعات السبع في الأراضي الواطئة عن الحكم الإسباني الغاشم، وتحوّلت بسرعة إلى دولة تجارية من الطراز الأول، وهو الطابع الذي كان قد بدأ يظهر فيها بوضوح حتى قبل ذلك الاستقلال. ففي سنة 1602 أسست شركة الهند الشرقية التي كانت أشبه بدولة داخل الدولة، كما تكوّنت في 1621 شركة الهند الغربية على أسس مماثلة. وحققت هذه الشركات للبلاد إمبراطورية واسعة الأطراف، ما زالت آثارها باقية حتى اليوم"، ص 21.

[72←]
في عصر سبينوزا "أدت نهضة العلوم الرياضية، ونجاحها الهائل في ميداني الفلك والفيزياء، إلى دعوة الكثير من المفكرين، مثل ديكارت وهوبز، ثم ليبنتز فيما بعد، إلى الاقتداء بالدقة الرياضية في صياغة الأفكار الفلسفية، وإلى جعل الرياضة نموذجًا ومثلاً أعلى للمعرفة البشرية في كافة ميادينها"، زكريا، مصدر سابق، ص 37.

[73←]
راجع فيشر، عن أزمة القرن الثامن عشر، مصدر سابق، 126-120 .pp.

[74←]
راجع ماريا لويزا برنيري في كتابها عن المدينة الفاضلة عبر التاريخ، "كان من المستحيل على كتّاب عصر النهضة أن يتصوروا مجتمعاتهم المثالية بشكل كامل، على غرار تلك المجتمعات التي تصورها مفكرو

الإغريق، لأن بنية المجتمع الماثل أمام أعينهم كانت مختلفة اختلافًا أساسيًّا عن مثيلتها في اليونان القديمة (...) لم يكن من الممكن أن تنتقل إلى مجتمع القرن السادس عشر، من دون أن تخضع لبعض التغيرات الجذرية" (ص 93). مشيرة إلى "يوتوبيا" توماس مور (ص 99-136). وتوماسو كامبانيلا (مدينة الشمس)، (ص 137-155) وفالتين اندريا (مدينة المسيحيين) (ص 156-185) وفرانسيس بيكون (أطلنطا الجديدة)، (ص 186-199) وفرانسوا رابليه (دير تيليم) (ص 200-207). يوتوبيات الثورة الإنكليزية (الفصل الثالث). يوتوبيات عصر التنوير (الفصل الرابع). يوتوبيات القرن التاسع عشر (الفصل الخامس). ترجمة عطيات أبو السعود، إصدار عالم المعرفة.

[75←]

Diane Collinson, Fifty Major Philosophers, John Locke. كذلك راجع تاريخ الفكر الغربـي، مصدر سابق، عن منهج لوك وموقفه التجريبـي - الحسّي المعتدل، ص 453-478.

[76←]

Bertrand Russell, History of Western Philosophy, pp. 584-595.

لوك فكّر "أن السيادة في عهدة المواطنين في المجتمع. غير أنّه لمّا كان المواطنون قد وافقوا على العقد الاجتماعي، فواجبهم يقضي بأن يقبلوا إرادة الأكثرية". راجع تاريخ الفكر الغربـي، مصدر سابق، ص 469.

[77←]

راجع راسل، عن تأثير فلسفة لوك السياسية، مصدر سابق، pp. 617-622.

[78←]

م. روزنتال، ب. يودين، الموسوعة الفلسفية. راجع سيرة لوك وأعماله.

كذلك Diane Collinson, Fifty Major Philosophers, and Bertrand Russell, History of Western Philosophy.

[79←]

راجع عن تجارة الأفارقة وإقامة المستوطنات في أميركا، وعن الاستيطان ودوره في صنع تاريخ الشعب الأميركي History of The World (1580-1750), pp. 3-91.

[80←]

راجع راسل، عن ليبنتز، مصدر سابق، pp. 563-576. كذلك الفلسفة الغربية، مصدر سابق، pp. 166-170.

وأيضًا تاريخ الفكر الغربـي، مصدر سابق، عن نيوتن والفيزياء، ص 362-364، وعن انخراط ليبنتز في عهد لويس الرابع عشر في ميادين مختلفة من استخراج المعادن وعلم البصريات ومشكلات النقل وإصلاح الوزارات إلى الاشتغال بالفلسفة واللاهوت والقانون والفيزياء والرياضيات والطب والتاريخ وفقه اللغة، ص 447-451.

[81←]

رفض ليبنتز في كتابه "مقالة في الميتافيزيقا" نظرية ديكارت الميكانيكية وقال بالديناميكا (الطاقة المتولدة) وهو بدأ كما فعل سبينوزا من المطلق (الخالق) إذ "إن الله يفعل كل شيء وفقًا لإرادته الأعمّ وهي إرادة المطابقة للنظام الأمثل الذي اختاره" (ص 109). فالمسبّب معبّر دائمًا عن السبب، "والله سبب الجواهر الحقيقي" (ص 150). لذلك دعا إلى التوفيق بين نهجين: نهج الأسباب الفائقة ونهج الأسباب الفاعلة (ص 166). ورد أيضًا على فلسفة هوبز عن ارتباط الحقائق بالأسماء ليؤكد أن "الحقائق ليست تابعة للأسماء، وهي ليست اعتباطية كما اعتقد ذلك بعض الفلاسفة الجدد" (ص 276). وأن "إحساساتنا الغامضة هي نتيجة تنوع إدراكات لامتناهية تمامًا" (ص 197). لذلك "إن العقول هي أقدر الجواهر على الاكتمال" (ص 202).

[82←]

J.O. Urmson, Jonathan Ree, Western Philosophy and Philosophers , pp. 166-170.

[83←]

Bertrand Russell, History of Western Philosophy, pp. 563-576.

[84←]

راجع ف. فولفين، فلسفة الأنوار. وأيضًا راجع راسل عن هوبز وديكارت، مصدر سابق، pp. 531-551. ويوضّح عزمي بشارة في كتابه عن "الدين والعلمانية في سياق تاريخي" الجزء الأول، الكثير من الملابسات التي تخلط بين الدين وأنماط التديّن، الدين والأخلاق، الدين والخرافات، الدين والفلسفة، الدين والعلم، وغيرها من ثنائيات تضع كل مسألة في موقع مضاد للآخر، أو في موضع التماثل. فالكاتب يرسم خريطة طريق للفصل بين الثنائيات في جانب والربط بينها في جانب. برأيه الدين "ليس مجرّد مجموعة من الأباطيل أو النظريّات الخاطئة في فهم العالم، وأن العلمانية ليست عبارة عن نظرية علمية" (ص 15). كذلك الدين "غير فلسفة الدين التي تبحث بنيته وبنية الإيمان والعقيدة بأدوات العقل، وليس ضروريًّا أن يكون الباحث مؤمنًا، ولا أن تكون عملية البحث عملية إيمانية" (ص 30). برأيه المنهج العلمي يُفترض "أن يحدد الظاهرة الدينية وأصولها، ومدى تأثيرها في المجتمع من دون شططٍ أيديولوجي" (ص 246). فالمشكلة ليست في الدين بل في تحويله إلى مقولات تستخدم تأثيره لتأويل قضايا لا صلة لها بأهداف الدين.

[85←]

أزمة الوعي الأوروبـي (1680-1715)، بول هازار، ص 289، ص 45-72 وص 149-191، ص 223-244، ص 267-290، وص 293-307.

[86←]

"هكذا راحت الفروع المختلفة للعلوم (ما عدا الفلسفة الميكانيكية) تتقارب وتتدافع، ويجر بعضها بعضًا لتحقيق انفجار التكاثر والنمو، من 1680 إلى 1730، فشكّلت القاعدة المعرفية التي أسند عليها مونتسكيو وفولتير عناصر أطروحتهما"، بيار شونو، مصدر سابق، ص 281.

[87←]

راجع War and Society (1770-1870) عن تطور الأنظمة العسكرية في أوروبا الحديثة. pp. 108-149, pp. 231-243.

[88←]
يقول محمد خاتمي "إن انسجام كثير من المذاهب والآراء مع طموحات ومنافع الطبقة الاقتصادية والاجتماعية الجديدة كان من جملة العوامل التي يسّرت شيوعها وشهرتها وتقدمها على المذاهب والآراء الأخرى، ولكن علينا ألاّ نغفل أن الطبقة الجديدة كانت عمليًا تستثمر هذه الأفكار النظريات لتعزيز مكانتها واعتبارها وقدراتها، بما يعود عليها بالمزيد، فضلاً بالطبع عما كان للاختراعات والاكتشافات - ثمرة التقدم العلمي - من فوائد لا تعد ولا تحصى. ولكن بمقدار ما شجع هذا الانسجام بعض الأفكار والنظريات، عَزَل أخرى وأجهضها". مدينة السياسة (فصول من تطور الفكر السياسي في الغرب)، ص 260.

[89←]
راجع راسل عن بيركلي، مصدر سابق، pp. 623-633. الفلسفة الغربية والفلاسفة، مصدر سابق، pp. 55-56. كولنسون (خمسون فيلسوفًا)، مصدر سابق، pp. 73-78. وأيضًا تاريخ الفكر الغربـي، مصدر سابق، ص 479-488.

[90←]
راجع الفلسفة الغربية والفلاسفة، مصدر سابق، pp. 55-56. وأيضًا كولنسون (خمسون فيلسوفًا)، مصدر سابق، pp. 78-81.

[91←]
يقول بول هازار "إن نقض معاهدة نانت لم يقم إلا بإعطاء قوة أكبر وروعة للكلمة الفصل المرعبة، لقد ترك أثرًا في تجديد وحدة فكرية وأخلاقية سوف لن يتوقف نشاطها حتى عندما ستوقع الجيوش على السلام في أوروبا" (ص 115-116). "إن جميع المواقف العقلية، تقريبًا، التي سينتهي مجموعها إلى الثورة الفرنسية، كانت قد اتخذت قبل آخر عهد الملك لويس الرابع عشر"، مصدر سابق، ص 553.

[92←]
راجع الموسوعة الفلسفية، روزنتال ويودين، ص 335. وأيضًا تاريخ الفكر الغربـي، مصدر سابق، ص 424-433.

[93←]
J.O. Urmson, Jonathan Ree, Western Philosophy and Philosophers, p. 216. راجع أيضًا: ألتوسير في كتابه عن مونتسكيو، مصدر سابق. وكتاب فولفين عن "فلسفة الأنوار". والموسوعة الفلسفيّة، مصدر سابق، ص 470.

[94←]
هيوم، راجع كتاب: "تحقيق في الذهن البشري"، ص 41، ص 54، ص 146، وص 73. وأيضًا تاريخ الفكر الغربـي، مصدر سابق، ص 488-499.

[95←]
J.O. Urmson, Jonathan Ree، مصدر سابق، pp. 139-144. كذلك راسل، مصدر سابق، pp. 634-647. وأيضًا كولنسون (خمسون فيلسوفًا)، مصدر سابق، pp. 81-86.

[96←]
اختلفت فلسفة روسو أيضًا عن روح الشرائع عند مونتسكيو، ويشير ألتوسير إلى اختلاف روسو عن مونتسكيو على وظيفة الديموقراطية. روسو يرى "إن أية ديمقراطية تعطي لنفسها ممثّلين هي ديمقراطية شارفت على نهايتها. أما مونتسكيو فيصرّح على العكس منه بأن كل ديمقراطية بلا ممثلين هي استبداد شعبـي مرتقب". مصدر سابق، ص 62.

[97←]
راجع راسل، عن روسو، مصدر سابق، pp. 660-674، كذلك الفلسفة الغربية والفلاسفة، مصدر سابق، pp. 279-280. وأيضًا كولنسون، مصدر سابق، pp. 86-89.

[98←]
روسو، راجع كتاب خطاب في أصل التفاوت، ص 64 وص 84.

[99←]
يرى راسل أن الفلسفة انقسمت وتشعّبت منذ روسو، مصدر سابق، p. 755.

[100←]
Fifty Major Philosopher, Diane Collinson، مصدر سابق، pp. 86-89.

[101←]
روسو، العقد الاجتماعي، ص 68، ص 69، ص 71، وص 156.

[102←]
راجع The World's Religions, Ninian Smart. pp. 330-332 عن عصر الأنوار. كذلك راسل عن بيركلي، مصدر سابق، pp. 623-633.

[103←]
راجع Ninian Smart، عن صراع الدين والإلحاد في أوروبا، مصدر سابق، pp. 341-352.

[104←]
يحصي كتاب "شعوب أوروبا" نحو 102 من القوميات والأقليات الدينية والعرقية واللغوية التي كانت تعيش في القارة الأوروبية من غربها إلى شرقها ومن شمالها إلى جنوبها في فترة الأنوار. راجع Guide to the Peoples of Europe, Felipe Fernandez-Armesto.

[105←]
راجع راسل، مصدر سابق، pp. 651-659.

[106←]

مصدر سابق، pp. 90-92. J.O. Urmson, Jonathan Ree, Western Philosophy and Philosophers. وراجع فولفين عن رجال الموسوعة في كتاب "فلسفة الأنوار". وأيضًا تاريخ الفكر الغربـي، مصدر سابق، عن عصر التنوير، ص 513-521، وعن مونتسكيو، ص 521-523، وهلفتيوس، ص 523-528.

[107←]

Bertrand Russell, History of Western Philosophy, pp. 691-700.

[108←]

راجع فيشر، عن زلزال لشبونة وارتداداته الأيديولوجية على عقول النخبة الأوروبية، مصدر سابق، pp. 134-138.

[109←]

يعطي شونو أهمية لمجموعة عوامل ساهمت في تحطيم وعي النخبة التقليدي وإعادة إنتاج عقولها التنويرية، فيذكر حريق لندن، وزلزال لشبونة، وتضاعف التعداد السكّاني (الديمغرافيا)، وتصاعد نفوذ دور الدولة وغيرها من الأمثلة الحسية للإشارة إلى التحوّلات المتسارعة في القارة الأوروبية. ويقول في هذا الصدد "والعوامل المؤثرة هي حريق لندن هنا، والهزة الأرضية في لشبونة هناك، ثم على وجه الخصوص تضاعف عدد السكان أربعة أضعاف بالمقارنة مع نقطة الانطلاق. فهذه العوامل مجتمعة يسرت التوسّع العمراني المديني، والفضل أغلب الأحيان مردّه إلى الدولة، وذلك باعتماد العمران الجماعي". مصدر سابق، ص 451.

[110←]

راجع روبرتس، تاريخ العالم، pp. 555-573.

[111←]

راجع هوبسباون عن النمو السكاني (المدينة) وتطوّر خطوط المواصلات في أوروبا، The Age of Revolution (1789-1848), pp. 168-172.

[112←]

راجع Bertrand Russell, History of Western Philosophy، مصدر سابق، p. 754. أيضًا الموسوعة الفلسفية، مصدر سابق، ص 83، وص 92-93.

[113←]

يفرد راسل فصلاً عن تطور العلوم (The Rise of Science) والتأثيرات الفكرية الذي خلفه التقدّم العلمي - التقني على وعي "النخبة الأوروبية" ومنظوماتها الفلسفية، مصدر سابق، p. 220, pp. 512-525.

[114←]

راجع بول جوهانسون عن الاكتشافات الجغرافية وتاريخ التأسيس. A History of the American People, pp. 3-97.

[115←]
هيغل، مصدر سابق، pp. 438-457.

[116←]
توكفيل، الديموقراطية في أميركا، ص 13، ص 281، وص 376.

[117←]
راجع جوهانسون، عن الاستيطان، تاريخ الشعب الأميركي بين 1580 و1750، مصدر سابق، pp. 23-74.

[118←]
راجع جوهانسون، عن تكوين المجتمع والسياق التاريخي للدولة والثورة الأميركية بين 1750 و1815، مصدر سابق، ص 101-227.

[119←]
الثورة الأميركية (1775-1783). بدأت بتوتر العلاقات بين 13 ولاية مع بريطانيا في سنوات 1763 و1775. ويعود سبب التوتر إلى فرض الضرائب من دون أخذ رأي الولايات. انتخب جورج واشنطن لقيادة القوات الأميركية في العام 1775 وتبنى إعلان وثيقة الاستقلال. راجع أيضًا: عن الحركات الدينية في أميركا، كتاب ديانات العالم، ص 375-378.

[120←]
راجع عن الثورة الأميركية، History of the world, pp. 362-365. كذلك World History, pp. 196-203. كذلك هوغ بروغن (تاريخ الولايات المتحدة) عن الاستعمار البريطاني والثورة، pp. 72-192. وأيضًا هوبسباون عن الثورة الأميركية، مصدر سابق، p. 54.

[121←]
Brogan, Hugh. History of the United States of America، عن الثورة، pp. 172-191.

[122←]
Brogan، عن الاستقلال، مصدر سابق، pp. 192-222.

[123←]
راجع هوبسباون عن الثورة الفرنسية، مصدر سابق، p. 55.

[124←]
History of the United States of America. مصدر سابق، عن الكونغرس والديموقراطية، pp. 255-287.

[125←]
Brogan, Hugh. مصدر سابق، عن الدستور، pp. 192-222.

[126←]

راجع The Age of Revolution (1789-1848), Eric Hobsbawn، عن حروب فرنسا في أوروبا أو ضدّها، وصولا إلى العام 1793، p. 67.

[127←]

راجع هوبسباون عن الثورة المضادة، مصدر سابق، p. 61.

[128←]

راجع هوبسباون عن الجمهورية اليعقوبية، مصدر سابق، p. 71.

[129←]

راجع عن الثورة الفرنسية، History of the World, pp. 366-367، أيضًا راجع فيشر، عن الثورة الفرنسية وتداعياتها، مصدر سابق، pp. 142-156.

[130←]

الثورة الفرنسية (1789). وثيقة حقوق الإنسان (1789) (الحرية، المساواة، الإخاء). إعلان فرنسا جمهورية في 1792. إعدام الملك لويس السادس عشر وزوجته ماري أنطونيت في 1793. إعدام روبسبير في 1794. انقلاب بونابرت (نابليون الأول) 1799 وإعلان نفسه إمبراطورًا في 1804. هزيمته ونهايته السياسية في 1815.

[131←]

راجع هوبسباون، عن التحالف الأوروبـي ضد فرنسا وثورتها، مصدر سابق، p. 84.

[132←]

لويس السادس عشر (1754-1793). ملك فرنسا من العام 1774، وأُعدم بعد الثورة في 1793.

[133←]

راجع هوبسباون، عن جناح دانتون في المجلس التشريعي الفرنسي وإنهاء عهد الإرهاب في العام 1794، مصدر سابق، p. 71.

[134←]

نابليون بونابرت (الأول). ولد في 1769 وتوفي في 1821. أعلن نفسه إمبراطورًا في 1804. احتل مصر في 1798 وتدمر أسطوله في المتوسط في1799 (الجنرال نلسون) وعاد إلى فرنسا. قاد ثورة داخلية في نوفمبر 1799 واستولى على السلطة. انتخب رئيسًا مدى الحياة وبدأ حروبه ضد جيرانه في أوروبا (إيطاليا، ألمانيا، النمسا، إسبانيا والبرتغال). وسّع حروبه ضد إنكلترا وروسيا. وانهزم بحريًّا في الطرف الأغر (1805). انهزم في لايبزنغ ونفي إلى ألبا في 1814. عاد إلى فرنسا في 1815 وقاد معارك (حرب مئة يوم) وانهزم في واترلو في 1815. ونفي مجددًا إلى سانت هيلانا وتوفي هناك في 1821.

[135←]

راجع هوبسباون، عن نمو الأفكار العلمانية والاشتراكية وفلسفة الاقتصاد السياسي، مصدر سابق، pp. 234-252.

[136←]
راجع راسل، عن التنوير وتأثير لوك على الفلسفة السياسية، مصدر سابق، pp. 617-622.

[137←]
راجع راسل، عن فوضى أفكار الموسوعة الفرنسية والحركة الرومانسية pp. 651-659. وأيضًا الموسوعة الفلسفية، p. 467.

[138←]
راجع Western Philosophy and philosophers, pp. 90-92.

[139←]
راجع الموسوعة الفلسفية، عن فولتير، روسو، مونتسكيو، ديدرو، دولباخ، ص 188، ص 214، ص 329، ص 470، وص 516.

[140←]
راجع الموسوعة الفلسفية، عن عصر الأنوار وفلاسفة الموسوعة، هلفتيوس، p. 521.

[141←]
The Oxford History of Modern Europe, T.C.W. Blanning, pp. 11-39.

[142←]
راجع هيغل في "أصول فلسفة الحق" عن الأسرة والمجتمع المدني والدولة، المجلد الأول، ص 9-63.

[143←]
راجع هوبسباون، عن حروب نابليون، مصدر سابق، pp. 86-92.

[144←]
راجع عن الإسلام والغرب ومخاطر السلطنة على أوروبا: Hourany, Western Attituded towards Islam; Bernard Lewis, The Muslim Discovery of Europe.

[145←]
جاءت حملة بونابرت على مصر بعد انتهاء فترة حروب أوروبا ضد تركيا (السلطنة العثمانية) التي بدأت على دفعتين: الأولى من 1662 إلى 1664. الثانية من 1683 إلى 1689. وانتهت بفشل حصار فيينا في 1683، وطرد السلطنة العثمانية عن معظم مناطق أوروبا الشرقية (هنغاريا، النمسا، وصربيا).

[146←]

راجع راسل، عن كانط، مصدر سابق، pp. 675-690. وأيضًا الفلسفة الغربية والفلاسفة، مصدر سابق، pp. 156-163.

[147←]
راجع خمسون فيلسوفًا، مصدر سابق، pp. 89-93.

[148←]
كتابات كانط الأولى، وضعت بين 1747 و1770 وحاول فيها الجمع (التوفيق) بين ديكارت وليبنتز ونجح في تقديم ثلاث أطروحات بين العام 1755 (متأثرا بنتائج زلزال لشبونة) والعام 1756 (متأثرا بنظرية نيوتن الفيزيائية عن الحركة) ومستفيدًا من كتاب وضعه مارتن كنوتزن (توفي 1751) في العام 1740 عن الفلسفة والدين (المسيحية).

[149←]
راجع الموسوعة الفلسفية، مصدر سابق، pp. 357-359.

[150←]
هيوم، راجع كتاب: تحقيق في الذهن البشري، ص 77.

[151←]
التوقف عند هيوم لا بد منه لأنه ترك تأثيره المباشر في كانط وملاحظاته بشأن قصور العقل وعدم قدرته على تخيل كل الأشياء من دون تجربة. فهذه التأثيرات ستنتج رؤية فلسفية ستتجه نحوها أفكار كانط التي انتشرت بقوة بين 1785 و1794 وستنتهي باختلافه مع السلطة البروسية في 1794 بعد صدور كتابه عن «الدين والعقل» ودفاعه عن مبادئ الثورة الفرنسية. كانط الذي عاصر شيلر وغوته وهردر وكورنر وفيخته سيستقيل في العام 1797 من منصبه الأكاديمي (أستاذ جامعي من العام 1765) ليموت بعدها بسبع سنوات.

[152←]
راجع راسل، عن تاريخ الفلسفة، مصدر سابق، pp. 675-690.

[153←]
راجع خمسون فيلسوفًا، مصدر سابق، pp. 89-93.

[154←]
راجع أوفي شولتز، عن كانط، pp. 112-180.

[155←]
راجع يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، pp. 208-260.

[156←]
راجع هاينريش هايني، في تاريخ الدين والفلسفة، pp. 101-148.

[157←]
راجع رينيه سرّو، جاك دونت، هيغل، 34-32 .pp.

[158←]
م روزنتال، ب يودين، الموسوعة الفلسفية، مصدر سابق، 509-508 .pp.

[159←]
راجع محمد سبيلا، عبد السلام بنعبد العالي، التفكير الفلسفي (نصوص مختارة)، 41-37 .pp.

[160←]
عن الاكتشافات الجغرافية ودورها في إعادة هيكلة شخصية أوروبا، راجع

Fernand Braudel, The Structures of Everyday Life, volume 1, pp. 62-69, pp. 178-182.

[161←]
انطلقت الحركة الوهابية في القرن الثامن عشر حين اتفق محمد بن عبد الوهاب (1703-1792) مع محمد بن سعود في الدرعية على إقامة دولة ونشر الدعوة السلفية.

[162←]
عن تطور الملاحة وتبدل خطوطها البحرية، وانتقال مركز الثقل من المتوسط إلى الأطلسي، راجع

Braudel, The Perspective of The World, volume 3, pp. 138-276. راجع أيضًا: The Wheels of Commerce, volume 2, pp. 138-230.

[163←]
عن الاكتشافات الجغرافية وأثرها في رفع مستوى أوروبا الاستهلاكي، وإدخال عادات معطوفة على أنواع من الأطعمة والأشربة، راجع Fernand Braudel, The structures of Everyday Life, Volume 1, pp. 229-282.

[164←]
راجع ف. فولفين، فلسفة الأنوار، 74-13 .pp.

[165←]
عن تجديد الفكر وتحديثه (الصراع على الكنيسة) وغيرها من خطوات نهضوية، أسست لاحقًا حركة التنوير، يمكن مراجعة فولفين، فلسفة الأنوار، مصدر سابق، 106-75 .pp.

[166←]
راجع راسل، عن هيغل، مصدر سابق، 715-701 .pp.

[167←]

راجع موسوعة الفلسفة الغربية والفلاسفة، مصدر سابق، pp. 125-128. كذلك يعطي جان هيبُوليت فكرة عن الفضاءات والظروف التي كتب فيها، فيصف أوروبا آنذاك كالآتي "كتب هيغل في الوقت الذي كانت الرأسمالية فيه قد أخذت في الظهور في إنكلترا وفرنسا، في الوقت الذي كان النظام الإقطاعي فيه ينهار في كل مكان ولا يزال وطيدًا في ألمانيا"، راجع كتاب ماركس وهيغل، مصدر سابق، p. 91.

[168←]

يحدد هيغل مصادره عن تاريخ الفلسفة، فيذكر المراجع التي استند إليها في محاضراته للطلبة، وهي تقتصر على أبحاث ودراسات وبعض الكتب والموسوعات ألفها تنمان (12 جزءًا)، وندت، توم، ستانلي، أولياريوس، بروكري (4 أجزاء)، ديتريش، تييدمان، غوتليب بوهل (8 أجزاء)، أست، ريكسنر (3 أجزاء). وبرأي هيغل "أن أقدم واضع لتاريخ فلسفة هو ديوجين لايرك"، راجع تاريخ الفلسفة، مصدر سابق، pp. 216-225.

[169←]

راجع راسل، عن كانط وفيخته، مصدر سابق، pp. 675-690. وأيضًا الموسوعة الفلسفية، مصدر سابق، ص 332-333.

[170←]

راجع الفلسفة الغربية والفلاسفة، عن فريديرك شيلر، مصدر سابق، pp. 293-294.

[171←]

راجع موسوعة الفلسفة الغربية والفلاسفة، عن فرديرك شلنغ، مصدر سابق، pp. 292-293. وأيضًا تاريخ الفكر الغربـي، مصدر سابق، ص 614.

[172←]

تدخل هيغل في الخلاف بين شلنغ وفيخته الذي بلغ حد القطيعة بين 1800 و1801. هيغل عاصر نشوء ذلك الخلاف النظري بينهما. فيخته ركز على فقه العلم ورأى أن فلسفة الطبيعة باب من أبواب فقه العلم ورفض فكرة شلنغ في تطوير المثالية (الفيزياء التأملية) باتجاه فلسفة الطبيعة، بينما شدد شلنغ على فكرة استقلالية فلسفة الطبيعة عن المثالية ورأى أن فلسفة الطبيعة لا صلة لها بفقه العلم. هيغل في تدخله تخطى شلنغ وفيخته ليطرح السؤال الفلسفي بشأن المجرى التطوري (الديالكتيك) لتاريخ الفلسفة، إذ كل فلسفة تصدر عن عصرها وهي تأتي من حياة البشر حين تضعف القدرة على التوحيد وتبدأ المتقابلات بالتفكك بفقد رباطها وتفاعلها. فالانفصام فاعل حياة (ديالكتيك) والحياة تنتج من التضاد وهي تنفصم إلى ما لا نهاية. والفلسفة من وجه كونها من نتاجات العقل، هي أيضًا حاجة تاريخية (زمانية) وكذلك منطقية، وهي روح تعكس متضادات الزمان وتطوره الذاتي وغايتها بلوغ الحرية. راجع الفرق بين نسق فيخته ونسق شلّنغ في الفلسفة، المنظّمة العربية للترجمة، مقدمة المترجم ناجي العونلّي.

[173←]

راجع عن حروب نابليون واحتلال بروسيا، World History، مصدر سابق، pp. 200-201.

[174←]

حرب المئة اليوم (مارس - يونيو 1815). قادها بونابرت بعد هربه من سجن ألبا إلى هزيمته في واترلو في 1815 ونفيه إلى جزيرة سانت هيلانا. راجع أيضًا: عن معركة واترلو، وتطور منظومة الدفاع وتحطيم المجتمع القديم والصراع مع العثمانيين، War and Society (1815-1960), pp. 11-36, pp. 146-166.

[175←]
راجع هوبسباون، عن فشل حروب نابليون وخسارة 40 في المئة من قواته بين 1800 و1815، مصدر سابق، The Age of Revolution (1789-1848), p. 73، كذلك راجع History of The World, pp. 587-593.

[176←]
رينيه سرّو، جاك دونت، هيغل، مصدر سابق، pp. 91-108، وأيضًا كولنسون عن هيغل، مصدر سابق، pp. 96-99.

[177←]
جورج فريدريك هيغل، في الفرق بين نسق فيخته ونسق شلّنغ في الفلسفة، راجع المقدمة 7 - 10.

[178←]
يوسف كرم، مصدر سابق، pp. 264-269. راجع أيضًا: الموسوعة الفلسفيّة، مصدر سابق، ص 332-334.

[179←]
J.O. Urmson, Jonathan Ree, Western Philosophy and Philosophers، مصدر سابق، pp. 42-43. راسل، عن بنثام ومل وأوين، مصدر سابق، pp. 740-747. وأيضًا كولنسون عن بنثام، مصدر سابق، pp. 94-96. وراجع تاريخ الفكر الغربـي، عن بنثام، مصدر سابق، ص 518، 553، 558، 571.

[180←]
Michael O. Hardimon, Hegel’s Social Philosophy, pp. 84-122.

[181←]
راجع Hardimon، مصدر سابق، pp. 127-140. أيضًا راجع A Hegel Dictionary, In Michael Wood.

[182←]
راجع Hardimon، مصدر سابق، pp. 144-172، وأيضًا pp. 174-205. كذلك A Hegel Dictionary, In Wood، مصدر سابق.

[183←]
راجع هيغل، محاضرات في تاريخ الفلسفة، مصدر سابق، pp. 43, 48, 60, 84, 95, 127, 173، كذلك أصول فلسفة الحق، مصدر سابق، pp. 160, 161, 174, 176, 209, 237, 243, 255, 283, 286, 291.

[184←]

راجع هيغل، The Philosophy of History، مصدر سابق، pp. 412-457.

[185←]

راجع History of The World، مصدر سابق، pp. 368-372.

[186←]

راجع The Age of Revolution، عن السلام الأوروبي والتحالف المقدس بين 1815 و1848، مصدر سابق، pp. 103-108.

[187←]

هيغل، محاضرات في تاريخ الفلسفة، مصدر سابق، pp. 251-252.

[188←]

بسبب تلك الاتفاقات التي قررها "مؤتمر فيينا" شهدت المنطقة العربية مواجهات وحملات بحرية وبرية أهمها كان نجاح بريطانيا في تدمير أسطول قبيلة القواسم العربية في منطقة الخليج. فالحملة لم تكن عفوية بل جاءت في سياق منهجية دولية وفي إطار سياسة إخضاع خطوط التجارة القديمة والسيطرة على منافذها ومعابرها لمصلحة التجارة الدولية وخطوط الملاحة الحديثة. وأدت هذه الحملة البحرية في 1819 إلى تمهيد الطريق بعد سنة أمام بريطانيا لفرض سيادتها على إمارات الخليج العربية ضمن اتفاقات وقعتها معها.

[189←]

راجع هيغل، فلسفة التاريخ، مصدر سابق، pp. 438-457.

[190←]

م. روزنتال، ب. يودين، الموسوعة الفلسفية، ترجمة سمير كرم، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى 1974، مصدر سابق، ص 219-220. كذلك موسوعة الفلسفة الغربية والفلاسفة، مصدر سابق، p. 286.

[191←]

يتحدث إريك هوبزباوم (هوبسباون) في كتابه "كيفية تغيير العالم، حكايات عن ماركس والماركسية" عن تأثير أفكار سان سيمون "على عدد متنوع من المواهب المهمة الألمعية في أغلب الأحيان، لا في فرنسا وحدها ولكن في خارجها أيضًا (...) وباختصار، إنّ الماركسية بشكل واضح مدينة للسانت - سيمون، بالرغم من أنّ الطبيعة الدقيقة للمديونية المالية يصعب تحديدها، إذ لا يمكن تمييز الإسهام السانت - سيموني، دائمًا عن إسهامات معاصرة أخرى"، ص 60-61، ترجمة حيدر حاج إسماعيل، إصدار المنظمة العربية للترجمة، توزيع مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، بيروت 2015.

[192←]

بول هازار، أزمة الوعي الأوروبي 1680-1715، مصدر سابق، pp. 553-554.

[193←]

راجع History of the World، عن جرمي بنثام والفلسفة النفعية، مصدر سابق، pp. 380-383.

[194←]
راجع هوبسباون في The Age of Revolution، عن نمو النخبة والطبقة الوسطى والحركات السياسية في أوروبا، مصدر سابق، pp. 200-215. وأيضًا تاريخ الفكر الغربـي، مصدر سابق، ص 564، وص 686.

[195←]
راجع موسوعة الهلال الاشتراكية، عن شارل فورييه.

[196←]
راجع هوبسباون (1789-1848) The Age of Revolution، عن تطور العلوم وانعكاسها على الفلسفة والأفكار الاجتماعية، مصدر سابق، pp. 277-296.

[197←]
راجع هوبسباون The Age of Revolution، عن نمو الحركات الشبابية وظهور النزعة القومية في أوروبا والعالم الثالث، مصدر سابق، pp. 134-145.

[198←]
راجع موسوعة الهلال الاشتراكية، مصدر سابق. وتاريخ الفكر الغربـي، مصدر سابق، ص 564. وأيضًا الموسوعة الفلسفية، مصدر سابق، ص 328-329، وص 62-63.

[199←]
راجع History of The World، عن تطور الصناعة والطاقة، وظهور الحركات العمالية والأفكار الاشتراكية، مصدر سابق، pp. 389-403

[200←]
راجع موسوعة الهلال الاشتراكية، مصدر سابق.

[201←]
توكفيل، الديمقراطية في أميركا، مصدر سابق، p. 102.

[202←]
تاريخ الفكر الغربـي، مصدر سابق، ص 809-811.

[203←]
توكفيل، مصدر سابق، pp. 308-325.

[204←]
توكفيل، مصدر سابق، pp. 504-511.

[205←]
تاريخ الفكر الغربـي، مصدر سابق، عن جيمس مل وبنثام وجون ستيوارت مل، ص 553-558، ص 558، وص 559-566.

[206←]
مل، عن الحرية، p. 55.

[207←]
مل، عن الحرية، مصدر سابق، p. 83. وأيضًا كولنسون، مصدر سابق، pp. 104-107.

[208←]
راجع شانون، أزمة الإمبريالية، مصدر سابق، pp. 36-39، pp. 58-59، p. 70, 80, 97.

[209←]
راجع بول جونسون عن تاريخ الشعب الأميركي، مصدر سابق، pp. 351-414.

[210←]
توكفيل، مصدر سابق، pp. 463-503. راجع أيضًا: مرغريت جوست بُوتشر، السود في أميركا، p. 27.

[211←]
قاد المستشار النمسوي مترنيخ (1773-1859) عصر الردة على أفكار الثورة الفرنسية بعد هزيمة بونابرت في واترلو. ويعتبر مترنيخ من مؤسسي "التحالف المقدّس" الذي تشكّل من الدول الأوروبية المتضرّرة من نمو قوة فرنسا وطموحها الإمبراطوري.

[212←]
راجع ماريا لويزا برنيري، عن المدينة الفاضلة عبر التاريخ، مصدر سابق.

[213←]
راجع Bertrand Russell, History of Western Philosophy، مصدر سابق. وأيضًا الموسوعة الفلسفية، مصدر سابق، ص 510. وتاريخ الفكر الغربـي، مصدر سابق، ص 615.

[214←]
راجع راسل، عن آرثر شوبنهور، مصدر سابق، pp. 722-727. وأيضًا موسوعة الفلسفة الغربية والفلاسفة، مصدر سابق، pp. 294-295. وتاريخ الفكر الغربـي، مصدر سابق، ص 67، ص 77، وص 731.

[215←]
راجع موسوعة الفلسفة الغربية والفلاسفة، عن آدم سميث، مصدر سابق، p. 298. وأيضًا عن جون ستيوارت مل، pp. 209-214.

[216←]

راجع موسوعة الهلال الاشتراكية، مصدر سابق. وأيضًا تاريخ الفكر الغر بـي، مصدر سابق، ص 532-534، وص 685-686.

[217←]

راجع موسوعة الفلسفة الغربية والفلاسفة، عن كيركغارد، مصدر سابق، pp. 164-165. وأيضًا تاريخ الفكر الغربـي، مصدر سابق، ص 660-661، وص 699-732.

[218←]

راجع موسوعة الهلال الاشتراكية، مصدر سابق. وأيضًا الموسوعة الفلسفية، مصدر سابق ص 76.

[219←]

راجع لودفيغ فيورباخ، أصل الدين. وأيضًا الموسوعة الفلسفية، مصدر سابق، pp. 336-337. وتاريخ الفكر الغربـي، مصدر سابق، ص 672-674.

[220←]

راجع History of The World، عن داروين وظهور اللاسامية، مصدر سابق، pp. 465-468. كذلك كتاب تشارلز داروين "أصل الأنواع"، مقدمة المترجم. وأيضًا الموسوعة الفلسفية، عن "الدارونية الجديدة" و"الدارونية الاجتماعية" مصدر سابق، p. 176. وأيضًا راجع إدغار موران، المنهج، مصدر سابق، ص 106.

[221←]

راجع هاينريش هايني، في تاريخ الدين والفلسفة. وأيضًا موسوعة الهلال الاشتراكية. والموسوعة الفلسفية، مصدر سابق، ص 467.

[222←]

راجع History of The World، عن ثورات 1848، مصدر سابق، pp. 373-374.

[223←]

راجع History of The World، عن ظهور الأمم والقوميات، مصدر سابق، pp. 375-377.

[224←]

راجع توبـي أ. هاف، فجر العلم الحديث، pp. 171-216.

[225←]

بيار ماشيري، كونت: الفلسفة والعلوم، ترجمة سامي أدهم، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، بيروت 1994. وأيضًا تاريخ الفكر الغربـي، مصدر سابق، ص 806-809.

[226←]

راجع The Cambridge Encyclopedia. وأيضًا، الموسوعة الفلسفية، مصدر سابق، p. 366.

[227←]
هاينريش هايني، في تاريخ الدين والفلسفة، ترجمة وتقديم صلاح حاتم، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية الطبعة الثانية 1996. وأيضًا تاريخ الفكر الغربـي، مصدر سابق، ص 566.

[228←]
راجع موسوعة الفلسفة الغربية والفلاسفة، عن هربرت سبنسر، pp. 301-302. والموسوعة الفلسفية، مصدر سابق، ص 222.

[229←]
كلام داروين عن أصل الأنواع (والإنسان) ليس جديدًا، وقد سبقه مَنْ قال مقاله. ابن خلدون مثلاً، يعتبر في مقدّمته "أن الإنسان من جنس الحيوانات وأن الله تعالى ميّزه عنها بالفكر". ويرى أنّ العالم في حال اتصال وانقلاب (تطوّر)، فالوجود "كله في عوالمه البسيطة والمركّبة على تركيب طبيعي من أعلاها وأسفلها متصلة كلها اتصالاً لا ينخرم. وإن الذوات التي في آخر كل أفق من العوالم مستعدة لأن تنقلب إلى الذات التي تجاورها من الأسفل والأعلى استعدادًا طبيعيًّا، كما في العناصر الجسمانية البسيطة، وكما في النخل والكرم من آخر أفق النبات مع الحلزون والصدف من أفق الحيوان، وكما في القردة التي استجمع فيها الكيس والإدراك مع الإنسان صاحب الفكر والروية. وهذا الاستعداد الذي في جانبـي كل ألف من العوالم هو معنى الاتصال فيها". المقدّمة، ص 239، تحقيق أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية.

[230←]
تشارلز داروين، أصل الأنواع، مقدمة الكتاب، مصدر سابق. وأيضًا الموسوعة الفلسفية، مصدر سابق، ص 175-177. وتاريخ الفكر الغربـي، مصدر سابق، ص 717-729.

[231←]
راجع، The Hutchinson Encyclopedia, 8th , ed. وأيضًا الموسوعة الفلسفية، مصدر سابق، p. 512.

[232←]
راجع هاينريش هايني، في تاريخ الدين والفلسفة، مصدر سابق. أيضًأ الموسوعة الفلسفية، مصدر سابق، p. 512.

[233←]
راجع الموسوعة الفلسفية، م. روزنتال، ب. بودين، مصدر سابق، p. 522. أسّس عالم الأحياء الألماني فايسمان (1834-1914) الدارونية الجديدة معتمدًا على مبدأ الانتخاب الطبيعي، وأعاد توظيفه لدراسة الأجنات وعلم الإحياء والوراثة، المصدر نفسه، ص 175-176.

[234←]
راجع هوبسباون في كتابه The Age of Empire (1875-1914) عن تأثير تطوّر العلوم (الكيمياء والفيزياء والرياضيات) على الفلسفة، ونمو ظاهرة الدارونية الاجتماعية وعقيدة "السوبرمان" التي تقول بالتفوق لأسباب تعود للجينات، pp. 251-255.

[235←]

راجع كلود ليفي شتراوس، العرق والتاريخ. وأيضًا موسوعة الفلسفة الغربية والفلاسفة، عن شتراوس، pp. 171-172. راجع عن الدارونية الاجتماعيّة التي اعتمدت مبدأ الصراع على البقاء والانتخاب الطبيعي لتطبيقه بيولوجيًّا على الاجتماع الإنساني، ما أدّى إلى نهوض نظريّات (مقولات وضعها فريدرك لانغ وآدتو آمون وبنجامين كيد) تتحدّث عن التفوّق وترى الشرور الاجتماعيّة كامنة في التكاثر لأناس ناقصين، الموسوعة الفلسفية، مصدر سابق، ص 176-177.

[236←]

راجع كارل ماركس، فريدرك إنغلز، الأيديولوجية الألمانية، ترجمة جورج طرابيشي، دار دمشق للطباعة والنشر، الطبعة الثانية 1966.

[237←]

راجع راسل، عن ماركس، مصدر سابق، pp. 748-755. وأيضًا، تاريخ الفكر الغربـي، مصدر سابق، ص 669-694.

[238←]

راجع موسوعة الفلسفة الغربية والفلاسفة، عن ماركس، مصدر سابق، pp. 192-194.

[239←]

راجع موسوعة الفلسفة الغربية والفلاسفة، عن إنغلز، مصدر سابق، p. 92. وأيضًا، تاريخ الفكر الغربـي، مصدر سابق، ص 694-697.

[240←]

راجع كتاب أوغست كورنو، عن الثنائي ماركس/إنغلز. كذلك لينين، ماركس/إنغلز، الماركسية. وأيضًا الموسوعة الفلسفية، مصدر سابق، pp. 52-54.

[241←]

راجع كورنو، مصدر سابق. أيضًا الموسوعة الفلسفية، مصدر سابق، pp. 403-405.

[242←]

في هذه الفترة وبعدها كتب الثنائي الكثير من الردود، منها مثلاً، ضد دوهرنغ (إنغلز)، ضد برودون (ماركس). كذلك ساهم الثنائي في صوغ البيانات (البيان الشيوعي في ضوء انتفاضات 1848) وتغطية أخبار الوقائع اليومية وتسجيلها وتفسيرها.

[243←]

راجع، موسوعة الهلال الاشتراكية، عن ماركس/إنغلز، مصدر سابق.

[244←]

ماركس/إنغلز، البيان الشيوعي، دار دمشق، الطبعة الرابعة 1972.

[245←]
ماركس، الثامن عشر من برومير. وأيضًا ماركس، الحرب الأهلية في فرنسا (مقدمة إنغلز). يمرحل ماركس ثورة شباط/فبراير 1848 إلى ثلاث فترات رئيسية: الأولى اندلاع الثورة. الثانية امتدت من أيار/مايو 1848 إلى أيار/مايو 1849، وهي فترة تأسيس الجمهورية (الجمعية الوطنية). والثالثة من أيار/مايو 1849 إلى كانون الأول/ديسمبر 1851، وهي فترة الجمهورية الدستورية (الجمعية الوطنية التشريعية). راجع، الثامن عشر من برومير/لويس بونابرت، ص 19.

[246←]
اندلعت كومونة باريس في 1871 (من 18 آذار/مارس إلى 28 أيار/مايو) بعد هزيمة فرنسا في حرب 1870 ونجاح ألمانيا (بسمارك) في إذلالها. وأدت الثورة إلى نشر الفوضى بسبب ضعف التنظيم ومثالية الشعارات (إلغاء الجيش، تسليح الشعب، فصل الكنيسة عن الدولة، جعل التعليم علمانيًّا، المساواة بين أجور الموظفين) وغيرها من قرارات ومطالبات لم يكن المجتمع آنذاك جاهزًا لتقبلها. وأعطت المثالية في طرح البرامج الحزبية، فرصة لبسمارك للتدخل العسكري ودعم السلطة الفرنسية المنهارة والانقلاب على الكومونة وسحقها وقتل مئة ألف من الثوار. عن صعود القوة الألمانية، راجع كتاب The World of History, pp. 445-450.

[247←]
راجع كتاب The Great Wave، عن العصر الفكتوري في بريطانيا، وحروب أوروبا، والحرب الأهلية في أميركا في القرن التاسع عشر، مصدر سابق، pp. 156-177. الملكة فكتوريا حفيدة الملك جورج الثالث من مواليد 1819. توّجت بعد وفاة عمها وليام الرابع وتزوجت سنة 1840. يعتبر العصر الفكتوري أطول فترة حكم (64 سنة) امتد من 1837 إلى 1901، وشهد قمة الثورة الصناعية وقمة الثورة المعرفية (أدب، فكر، روايات، شعر، مسرح، وفلسفة).

[248←]
راجع هوبسباون في كتابه The Age of Empire (1875-1914)، عن نمو الوطنية والدولة القومية، pp. 142-151، كذلك نمو النخبة وصعود بعض شرائحها من الطبقة الوسطى في أوروبا، مصدر سابق، pp. 174-179.

[249←]
راجع تاريخ الفكر الغربـي، عن مسألة الاغتراب (الاستلاب) في الفلسفة الماركسية، مصدر سابق، ص 669-694.

[250←]
وجّه هاشم صالح في كتابه "مدخل إلى التنوير الأوروبـي" ملاحظات لطيفة إلى المثقف العربـي، الذي يصعب عليه "عندما يجيء إلى الغرب لأول مرّة، وعندما يحتك بالمجتمعات الحديثة وثقافتها، أن يتّخذ موقفًا نقديًّا منها. وذلك لأنّها تبهره ببريقها الساطع، بتكنولوجيّتها المتطوّرة، بالتفوق الهائل عليه وعلى مجتمعه على كافة الأصعدة والمستويات (...) يلزمه الوقت الكافي للتعرف على الثقافة الأوروبية من خلال تاريخها المتطوّر والمتدرّج طيلة القرون التي صنعت الحداثة لكي يستطيع أن يحكم عليها" (ص 239). وحاول صالح أن يشرح مسألة التدرّج معتبرًا أن "العقلانية ابتدأت تدخل إلى أوروبا منذ القرن الثاني عشر وبلغت أوجها في القرن الثالث عشر. ثم استمرّت في التصاعد أثناء القرنين الرابع عشر والخامس عشر وصولاً إلى مشارف عصر

النهضة في القرن السادس عشر" (ص 29). وبرأي صالح أنه حتى "نهاية العصور الوسطى كان العرب المسلمون والمسيحيون الأوروبيون متساوين حضاريًّا (...) ولكن بدءًا من القرن السادس عشر راحت الأمور تختلف تمامًا" (ص 67). ويربط صالح لحظة الافتراق بحصول ثلاثة أنواع من المتغيّرات: أوّلاً الاكتشافات البحرية والجغرافية الكبرى، ثانيًا اختراع آلة الطباعة، ثالثًا الإصلاح الديني (ص 69). فالنهضة الأوروبية لم تكن ضد المسيحية، والإلحاد لم يكن له وجود في القرن السادس عشر وذلك "السبب بسيط هو أن هذا النفي لم يكن يشكّل جزءًا من اهتماماتهم أو رغباتهم أو حتى حاجاتهم" (ص 83). وينبّه صالح المثقف العربـي إلى عدم الاعتقاد "بأن التنوير حصل فجأة في القارة الأوروبية (...) فالواقع أنه كان عملية بطيئة، صعبة، متعثّرة. كان عملية تدريجية ابتدأت أوّلاً في إنجلترا وهولندا، ثمّ انتقلت إلى فرنسا، فألمانيا، فغيرها من دول أوروبا" (ص 150). فالتطوّر كان السبب في نمو التنوير ولولاه "لما استطاع الاتّجاه العقلاني أن ينتصر على الاتّجاه السلفي المتشدّد" (ص 160). وينتهي صالح في مطالعته المشوّشة في تراتبها الزمني (التحقيب) بالتأكيد على أهمية الهوة التاريخية "التي تمنعنا من المعاصرة الفكرية معهم على الرغم من المعاصرة الزمنية"، ص 161.

[251←]
راجع هوبسباون، عن تطور الصحافة، وظهور الكاميرا وتقدّم السينما (الصور المتحركة)، مصدر سابق، pp. 237-242.

[252←]
راجع هوبسباون، عن انتشار ظاهرة الموسيقى، وتطوّر الأدب العالمي، والإعلان عن جائزة نوبل. مصدر سابق، pp. 222-225. آنذاك عرفت أوروبا تشارلز ديكنز (روايات اجتماعية)، اللورد تنيسون (الشعر)، جورج إليوت (روائي)، أوسكار وايلد (مسرحي)، وجورج برنارد شو (1856-1950) كان على المذهب الاشتراكي واشتهر بالمسرح الفكاهي.

[253←]
آنذاك اشتهرت المدرسة التاريخيّة التي روّجت للفكر اللاعقلاني المضاد للتنوير منذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر. يوهان هردر (1744-1803) مثلاً تأثر بفكر هامان (1730-1788) وتبنّى نزعة رومانسية مضادّة للعقل، كذلك شكّلت كتابات أدموند بيرك (1729-1797) عيّنة من ردة فعل محافظ على دعوات الحرّية، ومثله فعل كارل فون سافينييه (1779-1861) حين شن هجومه العنيف على المذهب العقلاني والنظرة التفاؤلية للتقدّم. راجع تاريخ الفكر الغربـي، مصدر سابق، ص 615-622، وص 543-551، وص 623-626. راجع هوبسباون، عن سباق التسلح والانتقال من فترة الاستقرار والسلم (1815-1848) إلى الفورة القومية والتنافس للسيطرة على التجارة ومصادر الخامات، وصولاً إلى اندلاع الحرب العالمية الأولى. The Age of The Empire (1875-1914)، مصدر سابق، pp. 302-327.

[254←]
هناك ما يشبه التوافق على توقيت اللحظة المفارقة التي شكلت الدفعة الكبرى في توليد تطور أوروبا المعاصر وارتقاء منظوماتها العمرانية والمعرفية. معظم الاتجاهات الفلسفية توافقت على تحديد القرن الخامس عشر بوصفه شكل المنعطف الزمني والخطوة الأولى للتقدم الحديث. والطفرة التي بدأت بهدوء منذ ذلك القرن الفاصل بين طورين من الحضارة تأسست على جهود آلاف السنين واختراعات الشعوب على أنواعها. فما حصل في أوروبا من اكتشافات وتطويرات نوعية في الفكر والفلسفة والفن والتقنيات نهض في لحظات زمنية

سريعة على مجموعة متراكمة من تاريخ الإنسان أدت إلى توليد قفزة هائلة في حياة البشر حين توافرت لها الظروف المناسبة للاندفاع.

[255←]
جورج فريدريك هيغل، محاضرات في تاريخ الفلسفة. كذلك راجع تاريخ الفكر الغربـي، عن فريدريك هيغل (1770-1831)، مصدر سابق، ص 639-666، وأيضًا رأيه في المجتمع المدني، ص 659، وكيف أن الرأسماليّة ستدمّر نفسها، ص 660.

[256←]
محاضرات في تاريخ الفلسفة، مصدر سابق، p. 43.

[257←]
محاضرات في تاريخ الفلسفة، مصدر سابق، pp. 67, 69,76,101.

[258←]
محاضرات في تاريخ الفلسفة، مصدر سابق، pp. 105, 109, 123, 127, 200, 201, 203, 204.

[259←]
ماركس - إنغلز، البيان الشيوعي، مصدر سابق.

[260←]
ماركس - إنغلز، البيان الشيوعي، مصدر سابق.

[261←]
فريدرك إنغلز، ضد دوهرنغ، p. 122.

[262←]
فريدرك إنغلز، ضد دوهرنغ، مصدر سابق، pp. 134-173.

[263←]
راجع هوبسباون (1875-1914) The Age of Empire، مصدر سابق.

[264←]
راجع Michael RAPPORT, Nieneteenth-Century Europe, pp. 179-192.

[265←]
إيمانويل كانط (1724-1804) مثلاً تأثر بفيزياء نيوتن وفلسفة هيوم التجريبية ثم انتقده في سياق تمييزه بين العقل العملي والعقل النظري. تاريخ الفكر الغربـي، مصدر سابق، ص 573-610.

[266←]
سورين كيركيغارد (1813-1855) الذي ولد في كوبنهاغن في زمن الركود السياسي الذي أعقب الحروب البونابرتية، عرف برأيه السّلبـي في الديمقراطية وكان يحتقر الجماهير ما أدّى إلى توتّر علاقته بهيغل متّخذًا في فلسفته منحنى الرومانسية الوجوديّة. تاريخ الفكر الغربـي، مصدر سابق، ص 699-716.

[267←]
فريدرك ويليام الثالث (1770-1840). مَلَكَ بروسيا قاد معارك فاشلة ضد نابليون الأول (بونابرت) في العام 1806. بعد هزيمة بونابرت شارك في مؤتمر فيينا 1815 واستعاد الكثير من الأراضي والمناطق التي خسرها. آنذاك أيضًا تأثر هيغل "مثل غيره بموجة الرجعية هذه، لكنّه تأثر بها على طريقته، فليس موقفه الجديد موقفًا محافظًا"، راجع هيبُوليت، مصدر سابق، p. 53.

[268←]
ثورة 1848 في ألمانيا (فشلت في 1849)، أعقبتها انتفاضات دائمة وعدم استقرار، إلى أن انتهت بتوحيد ألمانيا (بقيادة بسمارك) وهزيمة فرنسا في العام 1870. راجع هيبُوليت عن اختلاف فرنسا عن ألمانيا وتخلّفها عن تطوّر الشعوب الأوروبية الأخرى. في فرنسا توحّدت "البورجوازية" في عام 1789 مع فكرة تحرير الإنسان تحريرًا كاملاً. أما في ألمانيا فإن كل دائرة من الدوائر الاجتماعية كانت تمثّل حالة مستقلة (خاصة)، إلى جانب الأخرى. مصدر سابق، pp. 152-153.

[269←]
نابليون الثالث/لويس نابليون (1808-1873). إمبراطور فرنسا (1852-1870). بعد ثورة فبراير 1848 انتخب رئيسًا للمجلس. قاد انقلابًا في العام 1851 وأعلن نفسه إمبراطورًا في 1852. خاض عدة حروب توسعية في الخارج ضد النمسا وروسيا والصين والمكسيك بين 1854 و1865. أعلن الحرب على بروسيا في العام 1870 وانهزم في معركة سيدان. نفي إلى إنكلترا في 1871 ومات هناك في 1873. راجع ريتشارد شانون في كتابه "أزمة الإمبريالية (1865-1915)" عن حرب بسمارك ضد فرنسا، p. 50.

[270←]
راجع ماركس، عن كومونة باريس، مصدر سابق.

[271←]
محاضرات في تاريخ الفلسفة، مصدر سابق، pp. 134-135.

[272←]
راجع الموسوعة الفلسفية، عن دوهرنغ، مصدر سابق، p. 187.

[273←]
بشأن أسباب أزمة الكساد الكبرى في العام 1873، راجع شانون في كتابه "أزمة الإمبريالية"، مصدر سابق، pp. 109-111.

[274←]

فريدرك إنغلز، ضد دوهرنغ، مصدر سابق، 37-39 .pp.

[275←]
راجع فرانسيس وين، عن حياة ماركس خلال فترة كتابته رأس المال، رأس المال لكارل ماركس (سيرة)، -17 .pp
.54

[276←]
إنغلز، ضد دوهرنغ، مصدر سابق، 10-11 .pp.

[277←]
راجع شانون في كتابه عن "أزمة الإمبريالية" بشأن الهجرة السكانية في القرن التاسع عشر من بريطانيا. آنذاك بين العام 1861 و1901 هاجر أكثر من 4 ملايين نسمة من إنكلترا وويلز، و795 ألفًا من أسكتلندا، وأكثر من مليونين و600 ألف نسمة من أيرلندا. كذلك نزح في الداخل بين 1841 و1901 حوالي 3 ملايين نسمة إلى المدن، وأكثر من نصف مليون إلى الضواحي بحثًا عن عمل، ما ترك تأثيره السلبـي على قطاع الزراعة ومخزون الغذاء. مصدر سابق، 14-15 .pp.

[278←]
راجع شانون في "أزمة الإمبريالية" بشأن تطور الحياة الاجتماعية، وتحسن الاستهلاك، وشبكة المواصلات وغيرها من متطلبات وحاجات تتصل بالاقتصاد والإنتاج والرفاهية في بريطانيا بين 1886 و1895. مصدر سابق، 199-225 .pp.

[279←]
غاستون باشلار، تكوين العقل العلمي، ص 8، ص 177-178.

[280←]
راجع هوبسباون عن تخلع الظروف الاجتماعية، ومدى تأثيرها على وعي النخبة الأوروبية (إرنست رينان مثلاً)، مصدر سابق، 188-189.pp. كذلك يمكن مراجعة كتاب "مناهج المستشرقين" وكيف أبطل رينان (توفي 1892) القدرة الفلسفية عند الجنس السامي، الجزء الأول، 309, p. 313 .p. والجزء الثاني، 24 .p. كذلك كتاب هشام جعيط عن "أوروبا والاسلام - صدام الثقافة والحداثة"، فصل العالم الأوروبـي والإسلام، -33 .pp
.54

[281←]
History of The World، مصدر سابق، 606-612 .pp.

[282←]
راجع راسل، عن نيتشه، مصدر سابق، 728-739 .pp. وموسوعة الفلسفة الغربية والفلاسفة، مصدر سابق، 222-225 .pp. وأيضًا تاريخ الفكر الغربـي، مصدر سابق، ص 731-750.

[283←]

فريدرك نيتشه، هكذا تكلم زرادشت، ص 240.

[284←]
ترعرع نيتشه في بيئة بيوريتانية تطهّرية (ابن كاهن لوثري). تأثّر بداية بآراء آرثر شوبنهور (الفلسفة التشاؤمية) وموسيقى ريتشارد فاغنر وكان يحتقر الجماهير واتّهم باللاسامية. راجع بيار هيبر - سوفرين، زرادشت نيتشه، وجيل دولوز، نيتشه، ويانكو لافرين، ونيتشه.

[285←]
راجع نيتشه، زرادشت، مصدر سابق، ص 367.

[286←]
بشأن إعلان نيتشه في العام 1889 عن موت الخالق راجع كتاب شانون (أزمة الإمبريالية) عن الفضاءات الثقافية في أوروبا بين 1865 و1915، مصدر سابق، pp. 270-277.

[287←]
الموسوعة الفلسفية، مصدر سابق، p. 183. راجع أيضًا: تاريخ الفكر الغربـي، مصدر سابق، ص 820-825.

[288←]
راجع هوبسباون، عن قضية دريفوس (1859-1935)، مصدر سابق، pp. 152-158. كذلك تاريخ الفكر الغربـي عن دريفوس واللاسامية، مصدر سابق، ص 820-825.

[289←]
كريستيان بودلو، روجيه استابليه، دوركايم والانتحار، p. 36.

[290←]
History of The world، مصدر سابق، pp. 380-403.

[291←]
راجع فيشر في: The Great Wave عن الآثار الاقتصادية الناجمة عن الحرب العالمية الأولى، مصدر سابق، pp. 190-200. كذلك شانون في "أزمة الإمبريالية" عن العوامل والدوافع والخلفيات وخريطة التحالفات، التي تجمّعت وانتهت إلى دفع أوروبا نحو الانزلاق والتصادم في حرب عالمية كبرى، مصدر سابق، pp. 434-472.

[292←]
راجع كتاب War and Society (1870-1970)، عن تطور موازنات الدفاع، وتقدم آلة الحرب (القتل) والإنفاق العسكري وصولاً إلى انفجار الحرب الكونية الأولى، pp. 13-39, pp. 40-71, pp. 100-134.

[293←]
راجع مخطّط هيغل عن تطوّر التاريخ فلسفيًّا، The Philosophy of History، مصدر سابق، pp. 111-457.

[294←]
عن ماركس ونقده لنظرية الدولة عند هيغل، كذلك تصويبه لفكرة الاغتراب (الاستلاب). يمكن مراجعة جان هيبُوليت، دراسات في ماركس وهيغل، ترجمة جورج صدقني، دمشق، منشورات وزارة الثقافة 1971، pp. 131-155، pp. 157-185.

[295←]
يقرأ عزمي بشارة موقف كانط/هيغل من موضوع الدين من منظور مختلف، فيرى أن منهج كانط كان "مثالاً على فصل العقل والمحاكمات العقليّة عن الإيمان والفعل الإيماني. كما انتقد هيغل من بعده التفنيد التنويري للدين كأنّه مجرّد خرافات، إذ اعتبر الديني مرحلة من مراحل ظهور العقل في التاريخ بأسئلة شبيهة بأسئلة الفلسفة". وهيغل أكّد "خلافًا للتنويريين الذين سبقوه، أن لا بدّ من مصالحة الفلسفة مع التقاليد الدينيّة المتراكمة عبر التاريخ كي يكون التفكير نابعًا من العقل الكلّي، لا من الفهم وحده". الدين والعلمانيّة، مصدر سابق، ص 251-252. أيضًا راجع كاترين كوليو - تيلين، ماكس فيبر والتاريخ، ترجمة جورج كتورة، pp. 133-135.

[296←]
الموسوعة الفلسفية، مصدر سابق، p. 332.

[297←]
راجع كاترين كوليو - تيلين عن فكر فيبر ومنهجه البحثي ونقده للنظريات الاجتماعية التي تتجاهل الدين والثقافة أو تلك التي تقرأ التاريخ ضمن أحادية آلية تسقط الاحتمالات المختلفة، مصدر سابق، pp. 33-53. كذلك تاريخ الفكر الغربـي، مصدر سابق، ص 825-841.

[298←]
رؤية فيبر التاريخية بشأن دور الدين في نهضة أوروبا تأسست على مسألة الأخلاق (البروتستانتية) المعطوفة على مفهوم العقلنة الذي يلخّص الوقائع المشتركة لسيرورات مختلفة اقتصادية واجتماعية، أيديولوجية وفنية، إذ يشكّل "مجموعها أساس المدنية الغربية الحديثة"، ماكس فيبر والتاريخ، مصدر سابق، p. 76. راجع أيضًا: الموسوعة الفلسفية، مصدر سابق، ص 332.

[299←]
الردود على فيبر ومراجعته لمسألة توقيت اللحظة الزمنية لمشروع النهضة الأوروبية، جاءت نتيجة تأكيده على مسألة الأخلاق التي أعادت الاعتبار لموضوع الدين ودوره في توليد ديناميات تقرأ المستقبل والحاضر من دون قطع مع الماضي، راجع فيبر والتاريخ، مصدر سابق، pp. 113-132. الخلاف على "العلة الأولى" لا يزال عرضة للنقاش. شونو مثلاً، أشار في كتابه عن "الحضارة الأوروبية" إلى ثلاثة مسارات لحركة الأنوار: أولاً تمدّد الحيز المكاني (الحدود الجغرافية، التوسّع وراء البحار)، ثانيًا زيادة
عدد السكان بسبب تقدّم العلوم وتحسّن الغذاء (الطب، محاربة الفقر والأمية) ما أطال عمر الإنسان، ثالثًا اكتمال بنيان الدولة (قائدة التحوّل والتغيير)، مصدر سابق، pp. 163-215.

[300←]
اندلاع الحرب العالمية الأولى (1914-1918). مبادئ الرئيس الأميركي وودرو (توماس) ويلسون (1856-1924)، الذي انتخب في العام 1912 وخدم على فترتين انتهت في 1921. أعلن مبادئ الحرية والمساواة

وحق الشعوب في تقرير مصيرها (14 نقطة). اقترح فكرة عصبة الأمم والسلام العالمي. فاز في العام 1919 بجائزة نوبل للسلام.

[301←]

عن الحرب العالمية الأولى ونتائجها الدولية، راجع هوبسباون، The Age of Empire (1875-1914), pp. 302-327.

[302←]

هيغل، مصدر سابق، pp. 412-457، p. 410.

[303←]

يتناول عزمي بشارة الظاهرة الدينيّة ليس بوصفها نصوصًا خاطئة "كما تبدو في نظر المادّي؛ ولا هي مجرّد خلافات كما تبدو للملحد. إنّها ظاهرة اجتماعيّة سياسيّة روحيّة نفسيّة عظيمة الأثر". فالدين قوّة، وهو "لم يختفِ بمجرّد نشوء النظريّات المادّية في تفسير نشوء العالم". كذلك "لا تقود الأخلاق إلى الدّين بالضرورة النظريّة، تمامًا كما لا يقود الدّين إلى الأخلاق". لذلك يرى أنّه "من السخافة السخرية من الفلسفة باسم العلم، كذلك من السخافة السخرية من الدّين باسم الفلسفة العلميّة". والسّبب "أن الفلسفة اتّخذت مسارًا آخر في الإجابة عن الأسئلة نفسها التي يجيب عنها الدّين". الدين والعلمانيّة، مصدر سابق، ص 248، 249، 258، 271، و274.

[304←]

راجع Michael Inwood, A Hegel Dictionary. مصدر سابق.

[305←]

راجع Diane' Collinson, Fifty Major Philosophers، مصدر سابق.

[306←]

راجع كتاب فلسفة الأنوار. يرى فولفين أن الفكر الأوروبـي تطوّر على محطات زمنية، لعبت الطوائف المهنية بداية دورها في تكوين النواة الصلبة للوعي المضاد لتلك المفاهيم المتداولة والسائدة والمألوفة (ص 12-24)، ومنها أخذت روافد الفكر التنويري تتنوع متأثرة بالمتغيّرات الإنكليزية أوّلاً، وظهور فولتير، مونتسكيو، وروسو في فرنسا ثانيًا التي تأسست على خطوط متوازية مع مجموعة اقتصادية (الفيزيوقراطيون/رجال دولة) اشتهر منها فرانسوا كينه (1694-1774) من أسرة ريفية فلاحية، وتورغو (1727-1781)، ونيكر (1732-1804) من أسرة متوسّطة ومرتاحة في جنيف (ص 75-106)، وشكّلت قوة ضغط ساهمت في تمهيد الطريق لانطلاق الفكر الموسوعي (الموسوعيون) ما فتح الباب أمام ظهور التيارات السياسية التي تطالب بالديمقراطية والحرية والمساواة، (ص 107-208).

[307←]

يرى شونو في كتابه "الحضارة الأوروبية في عصر الأنوار" أن الأنوار انفجرت بكل زخمها في السنوات 1730-1750 "ولكن بداية الحركة كانت بالتأكيد حوالي 1680"، (ص 37). وبرأيه أيضًا أن "الأفكار تطوّرت على حذر واستحياء"، (ص 61)، وهي تحصّنت بالتقدم التقني وتطوّر علوم الفلك والفيزياء الرياضية بعد 1680.

فهذه الثورة العلمية كان لها "التأثير في منعطف الأنوار الفلسفي"، (ص 221). وكانت بريطانيا السبّاقة بسبب نزعتها التجريبية العلمية التي "تتفوق على الفكر المسبق العقلاني. فالتجريبية العلمية عملية من الطراز الرفيع. وهي تدفع أمامها "حدود" التغيير التكنولوجي"، (ص 341). والسبب في تفوّق بريطانيا وتقدّمها زمنيًا على غيرها يعود إلى اختلاط النخبة بالطبقة الحاكمة. واختلاط أوراق النخبة بأوراق الطبقة الحاكمة ولد منظومة على درجة من المرونة تسمح لها أن تحلّ، عبر توفيقات متعاقبة، التناقضات الناشئة. وهنا مكمن الحظ السعيد الذي عرفته إنكلترا"، (ص 355).

[308←]

راجع Paul Johnson, A History of the American People, pp. 119-122.

[309←]

كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة (جان جاك روسو)، pp. 200-207. راجع أيضًا: تاريخ الفكر الغربـي، مصدر سابق، ص 535-543.

[310←]

كرم، مصدر سابق، (إيمانويل كانط)، pp. 208-256.

[311←]

راجع عن الحرب العالمية الأولى، History of The World، مصدر سابق، pp. 487-491. وأيضًا عن ظهور الشيوعية والفاشية والنازية، pp. 493-499. كذلك راجع History of The USA، عن الصناعة الأميركية (1870-1912)، مصدر سابق، pp. 425-511. كذلك عن الحرب العالمية الأولى، pp. 523-598.

وأيضًا راجع Diane Collinson, Fifty Major Philosophers، مصدر سابق، pp. 113-115, pp. 116-118. راجع أيضًا: تاريخ الفكر الغربـي، عن تشارلز ساندرز بيرس ووليام جيمس، مصدر سابق، ص 750-752.

[312←]

راجع Bertrand Fussell, History of Western Philosophy.

[313←]

يقسّم ابن خلدون العقل إلى ثلاث درجات. الأول، العقل التمييزي ووظيفته أن "يوقع به أفعاله على انتظام". والعقل التجريبـي ووظيفته اقتناص "العلم بالآراء والمصالح والمفاسد من أبناء جنسه". والعقل النظري ووظيفته الحصول على "تصوّر الموجودات غائبًا وشاهدًا على ما هي عليه". المقدمة، ص 239، تحقيق أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية.